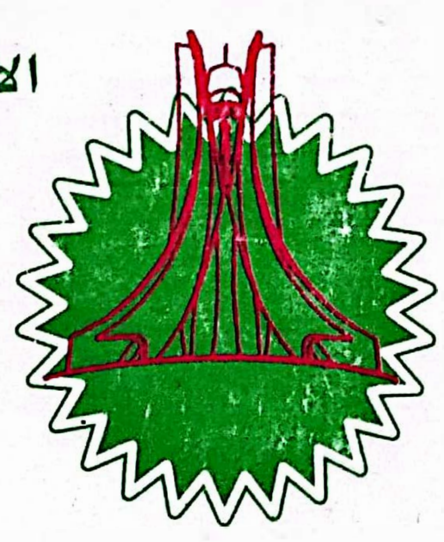
الأستاذ : عبد الكريم بو الصفصاف



جمعية العلماء المسلمين الجزائريين وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى

1931 - 1945

دراسة تاريخية وايديولوجية مقارنة

منشورات المتحف الوطني للمجاهد

الاستاذ عبد الكريم بوالصفصاف

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين

وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى

1931 - 1945

دراسة تاريخية وايديولوجيه مقارنه

جامعة قسنطينة
معهد العلوم الاجتماعية
دائرة الدراسات التاريخية

جمعية العلماء المسلمين الجزائريين
وعلاقاتها بالحركات الجزائرية الأخرى
1931 – 1945

«دراسة تاريخية وايديولوجية مقارنة»

رسالة تقدم بها الباحث لنيل شهادة الماجيستر في التاريخ المعاصر، وتحصل بها على تقدير مشرف جدا سنة 1403هـ / 1983م

تحت إشراف
الأستاذ / الدكتور : توفيق برو

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿من المؤمنين رجال صدقوا ماعاهدو الله عليـه . فمنهم من قضى نحبه،
ومنهم من ينتظر ، وما بدلوا تبديلا﴾

«صدق الله العظيم»

الإهـــــداء

الى روح والدي الأبي الذي عانى من ظلمات السجون ،
وعذاب المحتشدات الاستعمارية وهو في الستين من عمره .
دفاعا عن حرية هذا الوطن المفدى .
أهدي ثمرة هذا الجهد العلمي المتواضع .

شكـــر وتـــقـــديـــر

انه لمن الأهمية بمكان أن أتوجه بشكري وامتناني الخالصين لأستـاذي الفـاضل الـدكتور توفيـق برو المشرف على هـذه الرسـالـة والـذي لم يبخـل علي بتـوجيهـاتـه الرشيـدة ، ونصائحه المفيدة التى كانت لي نورا على الطريق في اعداد هـذا البحث وانجازه خلال سنتين كاملتين ، رغم ضخامة مهامه فى التدريس والاشراف على الرسائل الجامعية .

أما الشخص الثاني الذي لايسعني الا أن اعترف له اعترافا صادقا بالجهد الجبار الـذي بـذلـه من أجل اخراج هـذا البحث الى حيز الـوجـود هـو الأخ الصـديـق الحميم **عبد الحفيظ** داود الذي لازمني طيلة إعداد الرسالتين الأولى والثانيـة ، وهو يعمل بصمت وإخلاص ، فله جزيل شكري وعظيم امتناني .

كما لايفوتني في هـذا السيـاق أن أسجـل جميـل اعترافي بـالفضـل لاخـوتي الثـلاثـة **سليمان وعمار ومحمد** الذين قدموا لي كل مساعدة تتعلق بهذا البحث .

كما أوجه شكري وتقـديري إلى الاصـدقـاء والزملاء الـذين سـاهموا بقسـط وافر في مسـاعـدتي على انجاز هـذا البحث ، وأذكر بـالخصـوص، الأستـاذ **يـونس أذنـايب** والأستاذة **فاطمة الزهراء قشي** ، والأستاذ ابن عمي **عبد الحميد** ، كما أوجه شكري الى الاخوة المشرفين على قسمي الدوريات والكتب بالمكتبـة الوطنيـة التونسيـة . على التسهيلات والمساعدات التى قدموها لي أثناء بحثي عن الوثائق هنالك .

تقديم : بقلم الأستاذ العيد مسعود
عميد كلية الآداب
ومدير معهد العلوم الإجتماعية
بجامعة قسنطينة ، سابقا .

بسم الله الرحمان الرحيم

تكتب الأعمال العظيمة ، لقادة الأمم والشعوب ، ولرجال الاصلاح فيها - لا سيا في مجالي الفكر والعقيدة - حصانة ذاتية تقيها كل مامن شأنه أن ينالها من صروف الدهر وعاديات الزمن ، فلا تضعف ولا تندثر ، وانما تزداد مع الأيام - قوة ومناعة ، وتأثيرا في النفوس ، لأن تلك الأعمال لا تلبث أن تحدث تغييرا عميقا في الكيان الروحي والذهني للأمة ، وتغدو - بمضي الزمن - جزءا لايتجزأ من ذاتيتها وشخصيتها .

ان المبادىء الدينية والوطنية والقومية لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين (الأم) وكذا تعاليمها في التربية والتعليم ، لا يمكن حجبها أو طمس معالمها ، لأنها حية في وجدان الأمة ، حاضرة في ذاكرتها ، ماثلة في السلوك اليومي لأبنائها ، وما احتضنه الوجدان وتشربه ، خالد لا يموت .

وبالرغم من أن مجتمع جزائر مابعد الاستقلال ، متشبع بالأفكار الاصلاحية والوطنية والقومية ، التي رفعت لواءها جمعية العلماء ، فان الكثرة الكاثرة من أبناء هذا الوطن يجهلون مصدرها كا يجهلون رجالها العظام ، الذين وهبوا حياتهم لنشرها بشتى الوسائل ومختلف السبل ، وتحملوا من أجل ذلك مالا يعلمه الا الله من ضروب العسف ، وصنوف العنت ، والظلم ، والاضطهاد .

وقد قيض الله لدراسة هذه الجمعية المباركة شابا عالما ، ومؤرخا نابها ، ألا وهو الأستاذ عبد الكريم بو الصفصاف ، أستاذ التاريخ المعاصر بمعهد العلوم الاجتماعية بجامعة قسنطينة ، والمدير الحالي للمعهد ، وخير مايسجل في هذا المضار هو أن الأستاذ الباحث ارتبط بجمعية العلماء ارتباطا علميا ، اذ تفرغ لها ، وتخصص فيها وكرس وقته كله لدراسة مبادئها وأهدافها ، ومؤسساتها وفكر رجالها ، وكذا دورها المتميز في الحركة الوطنية .

تبدأ رحلة الأستاذ بو الصفصاف مع جمعية العلماء في وقت مبكر من حياته العلمية ، ففي منتصف السبعينات شرع في اعداد رسالة جامعية عن جمعية العلماء لنيل دبلوم الدراسات المعمقة ، وموضوعها «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في الحركة الوطنية (1931 - 1945)» ، وقد نوقشت عام 1978 ، ثم طبعت عام 1981 ، وحظيت بالقبول والاقبال على اقتنائها ، اذ سدت نقصا كبيرا كانت تعاني منه المكتبة العربية في مجال تعريف الأجيال بأمجاد الآباء والأجداد ، وبتاريخهم القريب الماثل عمليا في حاضرهم .

ان هذا الكتاب الذى يستعد الباحث لطبعه ، وطرحه في السوق ليكون في متناول أيدي القراء والدارسين ، هو الوليد الثاني لانتاجه الأكاديمي وهو عبارة عن الرسالة الجامعية التى نال بها درجة الماجستير عام 1983 .

اني لا أبالغ اذا قلت - وقد عرفت الأستاذ بو الصفصاف عن قرب - أنه عبارة عن شعلة متوهجة ، تتوقد - دوما - فهو لا يخلد الى الراحة ، ولا يكاد يعطي لنفسه حقها من التنزيه والترفيه ، دءوب ، مثابر على العمل ، لا يعرف كللا ولا مللا ، يتحلى بصبر لا ينفذ وبجلد لا يتزعزع ، اذ ما كادت رسالته الأولى لنيل دبلوم الدراسات المعمقة تطبع في كتاب ، حتى كان يضع اللمسات الأخيرة لرسالة الماجستير ، وهذه الرسالة بدورها سوف يقترن خروجها من المطبعة - ان شاء الله - بانجازه لرسالة دكتوراه الدولة .

ان حياة الأستاذ عبد الكريم بو الصفصاف ، عبارة عن قصة كفاح شاق ، تثير الدهشة والاعجاب ، فقد لاقى من المتاعب والصعوبات في مرحلة تكوينه الجامعي مالم يلقه غيره من أبناء جيله . عرفته عام 1971 ، حين التحق بكلية الآداب بجامعة قسنطينة ، وكنت يومئذ عميدا لها ، اذ تقدم الي راجيا أن أعين له أحد الموظفين ليقوم بكتابة أماليه في الامتحان ، ومنذ ذلك الحين لفت نظري بمواظبته على حضور الدروس ، وكانت الجامعة ناشئة ، قليلة العدد ، والدراسة بها ليلية في الغالب ، و محلات الدراسة بها مشتتة عبر محيط المدرسة الرسمية بشارع العربي بن لمهيدي التى كانت يومئذ المقر الرسمي للجامعة ، وحينما تم بناء بعض القاعات بجامعة عين الباي التى كانت عبارة عن منطقة خالية من كل مظهر للحياة ، انتقل اليها بعض الطلبة وكان من بينهم الأستاذ الباحث ، وياله من انتقال زاد في تعقيد مشكلة سعيه الى الجامعة ليلا ، والعودة منها ، وكان الطلبة يصعدون الى الجامعة على أقدامهم فلم يكن يوجد نقل ، ولم تكن الطرق معبدة ولا حتى اضاءة ، وأضحت الدراسة فيها أشغالا شاقة ولا سيما في فصل الشتاء حيث يتحول صحن الجامعة الى مستنقعات والطرق المؤدية اليها ، الى سيول وأوحال ، الا أن ذلك كله لم يفت في عضده ولم يبعث اليأس في نفسه ، ولم يقعده عن مواصلة الدراسة ، بل ظل صامدا متحديا العواصف والرعود والأمطار والأوحال ، حتى حصل على ليسانس في التاريخ ثم أخذت المعاناة تخف بتنظيم الجامعة ، وتوفير الوصول اليها ، واقترحه مجلس الأساتذة بعد مداولات السنة النهائية ليكون مساعدا في دائرة التاريخ نظرا للنتائج الباهرة التى حصل عليها في نهاية مرحلة التدرج ، حيث كان في المرتبة الأولى ضمن قائمة الناجحين . وبذلك سجل اسمه في الدراسات العليا ، وانتقل الى مرحلة جديدة هي مرحلة البحث العلمي ، وهكذا قهر الظلام ولم يقهره الظلام ، وكان طوال سنين دراسته متفوق على أقرانه ، فأخذ نجمه يلمع ويتألق في سماء الجامعة ، أستاذا وباحثا ، ورئيس دائرة فمديرا للمعهد ، ذلك لأن الله حباه بارادة صلبة لا تلين ولا تقهر ، وبنظرة صائبة لا تخيب ولا تخطىء ، فبلغ درجة من النضج ، ومرحلة من التمرس بالبحث والكتابة جعلاه جديرا بالتهنئة والتنويه .

اختار في رسالة الماجستير جمعية العلماء وعلاقاتها مع الجمعيات الجزائرية الأخرى كموضوع لبحثه ، وقد أحسن الاختيار فهذا موضوع مهم وحيوي أيضا ، ولكنه شائك ، لأنه قد يجرح حساس بعض الأتباع والأنصار ، وقد يغضب بعض من لا يزالون على قيد الحياة من رجال بعض تلك الجمعيات ، لأن وجهة نظرهم وان شئت فقل موقفهم يختلف عن وجهة نظر وموقف الباحث ، فكراهيتهم لجمعية العلماء ، وعداؤهم لها ، توغل في نفوسهم ، وجعلهم يصرون على ما درجوا عليه ورسب في تضاعيف مشاعرهم ، ورغم ذلك ، ورغم أن مرجل الأحداث لم يهد أبعد ، بان الباحث لم يأبه بذلك ايمانا منه بنبل رسالته ، وبأنه يؤدي عملا علميا ، ويبحث عن الحقيقة حيث كانت وذلك بنزاهة وموضوعية ، فان ظفر بها أعلنها ، رضي من رضى ، وسخط من سخط ، فأقدم بشجاعة على دراسة هذا الموضوع ، فوفاه حقه في شفافية وصفاء .

والحق أن جمعية العلماء تحتاج الى دراسات متعددة ، متناولة من زوايا مختلفة ، نظرا لتعدد أدوارها ، وتنوعها في الحركة الوطنية ، كما أنها جديرة لا باهتمام المؤرخين فحسب ، وانما برجال الفكر والدراسات الاسلامية ، وعلماء السياسة والاجتماع أيضا ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا - ان جمعية العلماء أصلحت ماأفسده الاستعمار في الجزائر وصححت ماأفرزته عصور التخلف والانحطاط في العالم الاسلامي .

ثانيا - حددت المفاهيم السمحة للاسلام وذلك بالارتكاز على نظرتين علميتين : نظرة الى الماضي دون جمود أو تنطع ، ونظرة الى المستقبل دون استخفاف أو تحلل حافظت على الثوابت من جهة ، وأفسحت المجال لتطوير المتغيرات ، من جهة ثانية ، فوفقت بذلك بين مقتضيات الدين والدنيا في اعتدال وتوازن .

ثالثا - أعادت الشعب الى محيطه الثقافي الأصيل ، بعد أن فصل عنه طيلة قرن من الزمان ، وربطته من جديد - نظريا وعمليا - بالعالمين العربي والاسلامي .

رابعا - أحيت الثقافة العربية في الجزائر بعد أن قوض الاستعمار هياكلها ، اذ نشطت في أحضانها الأقلام ، وتجدد الابتكار والابداع ، فظهر المقال الصحفي والمقال الأدبي ، والمقال السياسي ، والقصة والرواية ، كما نظمت في أحضانها أيضا روائع الشعر المعبرة عن آلام الشعب وآماله ، شجبت الظلم ، ونددت بتعسف الادارة ، ودعت الى الكفاح وحثت عليه ، وألهبت تلك القصائد المشاعر الوطنية ، وبشرت بقرب الخلاص ، وبالنصر المبين .

خامسا - أسست المدارس لنشر التعلم العصري ، وفقا لبرامج قومية ومناهج تربوية حديثة ، كما نشرت اللغة العربية الفصحى وأعادت اليها اعتبارها ومكانتها في المجتمع الجزائري .

سادسا - استكمالا لمقومات الأمة وتسفيها لبعض كتاب الاستعمار انبرى أحد رجالها البارزين ، وهو المرحوم الشيخ مبارك الميلي ، فألف تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، رخص فيه الكتاب الفرنسيين الذين أنكروا وجود تاريخ للجزائر كالدول التى قامت فيها بدعوى واهية ، هي عدم استراريتها ، وانهيارها السريع ، وتعاقب قيامها وسقوطها .

ـابعا – نجحت بقلم رجالها ولسانهم في العديد من الجبهات : ادارة الاحتلال لعمالئها ، ودعاة الادماج لدعوتهم المدمرة وبعض الزوايا لضلالها الاستعماري ، ولطلبها وتصفيقها ، ودعاة البربرية خطورة دعوتهم على الوحدة الوطنية وتصلبها ، وشددت الخناق عليها ، مما أدى الى ابطال خطرها .

ثامنا – حاصرت قوى الاستعمار ، وذلك بأن غرست مبادئها الوطنية وأفكارها في نفوس الصغار والكبار من أبناء الأمة ، واحباط مؤامراتها .

تاسعا – نجحت في تكوين اطارات ، على جانب كبير من الكفاءة ، كانوا عماد الأمة خلال الثورة ، وبعد الاستقلال ، ولا يزالون يمارسون نشاطهم في ظله الى اليوم منهم الضابط ، ومنهم السياسي والديبلوماسي ، ومنهم المعلم والأستاذ الجامعي ، ومنهم المهندس والكاتب والأديب . وباختصار لا يخلو منهم قطاع من القطاعات .

ان الثوابت الوطنية التي تشغل بال الشعب اليوم وتحظى باهتمامه الكبير هي وليدة جهود جمعية العلماء ، وثمرة جهد رجالها ، فهي التي أحيت جذورها بعد أن أشرفت على الموت ، وهي التي تعهدتها بالعناية والرعاية حتى أينعت وآتت أكلها ، وهي التي أرست صرحها على أساس متين .

لقد تناول الباحث جمعية العلماء ، فتعاطف معها علميا ولكن لم يحدث ذلك الا بعد أن تعرف على مناهجها ، وأصول دعوتها ، وما حققته للشعب الجزائري العربي المسلم من منجزات ، فعكف على دراسة علاقاتها بالجمعيات الأخرى التي كانت تمارس نشاطها سواءا على الصعيد السياسي أو على الصعيد الديني ، على أنه جعل من جمعية العلماء أساس انطلاقه ، والقطب الذي تدور حوله هذه الدراسة . فقد استهل بحثه بالترجمة لأبرز رجالها ، ثم أفاض الحديث عنها ، فعرض بالشرح للظروف والملابسات التي اكتنفت نشأتها ، وعرف بأهدافها ومبادئها ووسائلها والأدوار التي قامت بها ضمن الحركة الوطنية ، ثم أخذ يتعقب علاقة الجمعية للجمعيات الأخرى في مختلف أطوارها خلال الفترة المدروسة ، دون أن يغفل التعريف بها هي أيضا فأشار الى نشأتها وتوجهاتها الثقافية والعقائدية ، وبالمناخ الاستعماري الذي كانت تعيش فيه وتتنفس منه ، ثم خلص الباحث الى نتيجة بعد دراسة مستفيضة لعلاقات جمعية العلماء ، مع كل جمعية على حدة ، وهي أن مواقف الجمعيات الأخرى كانت تتأرجح في علاقتها مع جمعية العلماء بين الرفض والمعارضة ، والتقارب والمهادنة باستثناء الطرق الصوفية ناصبت الجمعية العداء طوال الفترة المدروسة ، أما جمعية العلماء فقد ظلت وفية لشعارها القرآني «ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة» فلم تعاد أحدا ، وانما كانت تدعو الى الحوار والتعاون ، بالرغم من أنها كانت متصلبة في تمسكها بمبادئها ، وبتعاليم رسالتها .

هذا بالاضافة الى أن الباحث رصد جملة من القضايا التي كانت تدور بسببها المعارك ، بين جمعية العلماء والجمعيات الأخرى ، وتتمثل في قضية الادماج وقضية الاستقلال ، وقضية مفهوم

الوطن الجزائري ، وقضية الاصلاح ، وقضية البدع والخرافات ، وقضية اللغة العربية ، وقضية اللغة الفرنسية وقضية اللغة البربرية وقضية التجنيس ، وقضية الأسرة والأحوال الشخصية ، وما اليها من القضايا ، وكانت كل جمعية بلا استثناء تتبنى ، وتدعو الى قضية أو أكثر من هذه القضايا ، أو تعارض قضية أو أكثر من هذه القضايا .

لاشك أن القارىء سوف تأخذه الدهشة عندما يستعرض هذه القضايا عبر طيات هذا الكتاب ، وسوف لا يملك نفسه من أن يهتف : ماأشبه اليوم بالبارحة : مأشبه قضايا اليوم في كنف الاستقلال والسيادة ، بقضايا الأمس ، تحت نير الاستعمار والعبودية ، ان كابوس الماضي الاستعماري الذى كان جاثما على صدورنا نراه يعود اليوم كالوحش الضاري محاولا افتراسنا ، ان مانشهده اليوم هو ماشاهدناه منذ نصف قرن ابان عتو الاستعمار وغطرسته ، وطغيانه ، ماأشبه اليوم بالبارحة تشكيك في شخصية الجزائر ، وفي هويتها العربية الاسلامية ، محاربة العربية والتعريب ، الحركة البربرية ، نظام الأسرة ، اللائكية ، البدع والخرافات بعد أن عاد البعض الضال من شيوخ الزوايا الى نشاطه .

ولذلك أقول اذا كان الله قد بعث جمعية العلماء في الوقت المناسب منذ ستة عقود ، لمحاربة أعداء الوطن والأمة ، والاجهاز عليهم وسحقهم ، فقد بعث الأستاذ الباحث في الوقت المناسب أيضا ليزيح الستار عن جوانب مضيئة عن كفاح هذه الجمعية العتيدة ، غيرة منها بالأمس وغيرة منها اليوم على مقومات هذه الأمة وحفاظا على ثوابتها ، واحباطا لمحاولات المسخ والتغريب ، التي سحقت بالأمس وعادت اليوم الى الظهور على مسرح الأحداث .

ان صدور مثل هذا الكتاب في مثل هذه الظروف المحفوفة بالمخاطر ، جاء في وقته المناسب ، ليكون ذكرى لمن يتذكر ، وعبرة للجاهلين والغافلين لعلهم يشفون من آفة النسيان ، فتعود اليهم ذاكرتهم ، وبالتالي اليهم شعورهم الوطني والقومي ، المتمثل في ثالوثنا المقدس : الجزائر وطننا ، الاسلام ديننا العربية لغتنا . هداهم الله .

ان هذه الدراسة العلمية القيمة ، التي أتحفنا بها الباحث ، هي في الحقيقة ثمرة طيبة لما بذله من جهد ، وأنفقه من وقت ومال لجمع أصول البحث ومواده فلم تقعده ظروفه الخاصة عن السعي الدائب لجمع مايمكن جمعه من الوثائق والأصول والمراجع ، فقد استقصى وتقب ، وسأل ذوي الخبرة والدراية ، مستشيرا ، ومستفسرا ومستطلعا لآرائهم ، كما قابل وراسل المطلعين على بواطن الأمور ، ممن يمكن وصفهم بشهود العيان ، من المعاصرين للحركة الوطنية ، أو ممن عاشوا الحركة الوطنية وشاركوا في نشاطها ، ولم يقف عند هذا الحد ، وانما ركب الصعب ، فشد الرحال غير هياب من مشاق السفر ومتاعبه ، فتنقل بين المكتبات الخاصة والعامة ، كما أشار الى ذلك في مقدمة الرسالة ، وكللت جهوده في النهاية – بنجاح باهر لم يكن يتوقعه ، اذ تمكن – بعد معاناة – أن يجمع من المصادر والمراجع ما يفي بحاجة البحث ، ولا أعدو الحقيقة اذا قلت : ان الباحث ارتاد دروبا ومسالك لم تكن مطروقة ، ووضع يده على وثائق لم تكن معروفة ، وألزم

نفسه منهجا صارما في كيفية تجميع المصادر والمراجع ، لا يقوى عليه الا المفتونون بالبحث العلمي والراسخون فيه .

اما بالنسبة للمادة التاريخية ، فتبين مما استثمره ، أنه جمع منها مادة غزيرة ، وأن ما استخلصه من مضان المصادر والمراجع ، التي وضع يده عليها ، قد وظفه في بحثه ببراعة نجد ذلك واضحا في رتابة الفصول ، وتسلسلها ، وترابطها ، كما نجده واضحا في تفسير الوقائع والأحداث ، وفي طرح القضايا ومحاكمتها ، وأخيرا في صياغتها وعرضها ويلاحظ أنه وطن نفسه منذ البداية على أن يكون البحث – في جملته وتفاصيله – متسقا مع المنهج الذى رسمه ، فلم يترك الرواية تطغى على الفكرة ، ولا الفكرة تطغى على الرواية وانما زاوج بينهما في جدلية فلسفية ، ونسق علمي أصيل .

ولعل احكامه لخطة البحث ، وتحديده للمنهج الملائم ، وهو المنهج التاريخي المقارن كانا خير عون له ، على السير في البحث بخطى علمية ثابتة ، هدته – بعد استقراء – الى حقائق تاريخية كانت في حكم المجهول ، وقد حققت له من بين ما حققته – الهدف الذى كان يرمي اليه من وراء بحثه – وهو مايفهم من السياق العام – أن جمعية العلماء لم تكن حركة اصلاحية فحسب ، كالحركات الاصلاحية التى عرفها العالم الاسلامي ، وانما هي حركة جمعت بين الاصلاح الديني ، والاجتماعي ، والكفاح الوطني والسياسي ، فضلا عن اضطلاعها بنشر العلم والثقافة في ربوع البلاد ، وهذا يعني أنها أدت أكثر من دور في أكثر من ميدان ، وأنها كافحت في أكثر من جبهة ، مما يجعلها جديرة بأن تتبوأ مكانة متميزة في الحركة الوطنية .

وقد صاغ ذلك كله بأسلوب علمي بسيط وشيق يمكنه وصفه بالأسلوب السهل الممتنع ، توخى فيه الوضوح والدقة بضبطه للألفاظ على المعاني ، ضبطا محكما لا يقوى عليه الا من تمرس طويلا بالكتابة .

وأرى لزاما علي أن أشير الى أن الباحث ضرب المثل الأعلى في النزاهة والموضوعية فقد تجنب الادانة ، والأحكام المطلقة ، وعزف عن استخدام الألفاظ العنيفة ، في وصف العلاقات بين جمعية العلماء ، والجمعيات الأخرى ، وأنصف من يستحق الانصاف من الأحزاب ، فلم يبخس أعمالها ، ولم يجحف رجلا من رجالها ، فيما ليس فيه بخس ولا اجحاف ، اتسم قلمه بالنظافة ، فلم يجرح أحدا ، ولم يهاجم أو يتحامل على أحد وبذلك كان ألصق بالموضوعية ، وأدنى الى الحقيقة التاريخية .

وبعد ، أحب الا يفهم القارىء أن هذا التقديم اطراء وثناء موجه للباحث ، كما أحب الا يفهم الباحث أن مايمكن أن يؤخذ على بحثه ، هو انتقاص لقيمة انتاجه ، وانما أحب أن يفهم القارىء والباحث معا أني اجتهدت في تقييم هذا الانتاج بما يرضي الحقيقة العلمية المجردة وذلك في ضوء أصول النقد التاريخي .

ومن المعلوم أن النقد العلمي في مجال البحث العلمي ، علامة صحة ودليل رقي وتقدم ،

والعمل العلمي الذي لا يقبل النقد ، لا يساوي قيمة الحبر الذي كتب به ذلك لأن البحث الذي لا قيمة له هو وحده الذى لا يستدعي التثمين ، لأنه لا يستدعي انتباه الناس ، ولا يثير اهتمامهم ، وبناء على هذا فان النقد النزيه ، لا يحط من قيمة العمل المنقود ، وانما يرفعه ويعليه ، ويلفت النظر اليه ، ويجعله موضع اهتمام ذوي الاختصاص ، وغيرهم من المثقفين .

اني على يقين من أن زميلي وصديقي الأستاذ عبد الكريم بو الصفصاف لا يرم – كما عهدته – من النقد ، ولا يضيق صدره بما يمكن أن يوجه لعمله العلمي من نقد لأنه يعلم أن النقد ليس مدحا ، ولا ذما ، وانما هو عملية فحص ومراقبة ، واستكشاف يقصد بها تعيين مواطن الصحة والزيف والقوة والضعف ، والجودة والرداءة في العمل العلمي والأدبي .

ومهما يكن ، فاني اذا كنت قد نقدت الجانب الايجابي من هذه الدراسة فان الجانب السلبي لا يزال ينتظر دوره ، مع أنه جد ضئيل ، من حيث الكم والكيف ، بل لا يكاد يتبينه الناقد ، او يعثر عليه بين طيات هذا الكتاب الجليل ، وبالتالي لا يكاد يذكر ، بالقياس الى المزايا الرفيعة للجانب الايجابي من هذه الدراسة القيمة .

أما ما يؤخذ على البحث فيمكن رصده في جملة من النقاط :

أولا – ترجم الباحث لجملة من أقطاب جمعية العلماء ، وأفراد كل واحد منهم بدراسة خاصة ، وأغفل الشيخ محمد خير الدين ، بالرغم من أنه عضو بارز ، وعلم من أعلام الجمعية ، ومن أبرز رجالها حنكة ، ودهاء ، وقدرة على التخطيط والتوجيه ودراية بالجمعيات ورجالها ، وبسياسة ادارة الاحتلال .

ثانيا – عرف الباحث بكل جمعية من الجمعيات التى هي موضوع بحثه ، وكان من الأفضل – انسجاما مع هذا المنهج – أن يترجم لقادتها البارزين ، فقد كان لبعضهم دور لا ينكر في الحياة السياسية للبلاد ، سواء الذين ثبتوا على مبادئهم او الذين تطوروا الى الأفضل ، او الذين انتكسوا وتراجعوا ولو فعل ذلك لأحدث قدرا من التوازن ولأكسب البحث طعما خاصا .

ثالثا – ركز اهتمامه على جمعية العلماء فيما يتصل بلقاء أعضائها وأنصارها الذين لا يزالون على قيد الحياة ، وكذلك مراسلتهم لا ستيقاء المعلومات منهم ولم يفعل مثل ذلك بالنسبة للجمعيات الأخرى .

رابعا – اتبع الباحث منهجا سليما – وهو باحث منهجي – فقد تخصص في دراسة جمعية العلماء وحدها ، فأفردها حتى الآن بدراستين أكاد ميتين ، غير أن الفترة الزمنية للدراستين واحدة (1931 – 1945) ، وهي فترة ضيقة بالنسبة لهذه الدراسة موضوع التقديم ، وكان يمكن تمديدها الى اندلاع ثورة نوفمبر 1954 حتى تكون الدراسة مكتملة الجوانب ، وافية بالغرض ، ومتسقة مع الأوضاع التاريخية للجمعيات في تطورها السريع ، عقب الحرب العالمية الثانية .

وعلى أي حال ، فهذا رأي خاص ، وليد اجتهاد فرد ، والرأي قد يخطىء مرة ويصيب مرة ، على أن هذه المآخذ ، ثانوية بل هامشية ، ووصفها بالمآخذ فيه قدر كبير من التجاوز .

تقديم لعمل عظيم بقلم : الأستاذ الشيخ / أحمد حماني
رئيس المجلس الاسلامي الأعلى
وعضو جمعية العلماء سابقا ورئيسها حاليا .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان الا على الظالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء وامام المرسلين .

أما بعد ، فان الابن الكريم ، الدكتور عبد الكريم بو الصفصاف عرض علي أن أقدم انتاجه الضخم بكلمة ، تشريفا منه لي وتكريما ، ولهذا الانتاج النافع المفيد الذى أرخ به لفترة قصيرة حياة (جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) ، التي مازلت أتشرف بالانتساب اليها منذ نشأتها ، فتركت له عرضه واستمهلته ريثما ألقي نظرة عجلى عليه ، فلما فعلت فوجئت مفاجأة سارة لا تخفي أثرها الطيب علي ، وذلك لأنني اكتشفت عملا علميا رائعا يؤهل صاحبه لنيل أرفع الألقاب الجامعية ، وهذا مافعلته لجنة المناقشة في الجامعة ، اذ شهدت أنه أهل لينال به لقب دكتور هذا اللقب الشريف الذى لا ينبغي أن يحمله الا العلماء المحققون الباحثون ، ليشجعهم على مواصلة انتاجهم النافع لأمتهم وللانسانية جمعاء وخاصة الأجيال الناشئة التى تأتي من بعدهم ، وبقدر التحقيق والتدقيق والجودة والاتقان تكون منزلة الباحث ويقوم عمله الخبراء بالفن . فاذا أجاد الباحث وجاء بما ينفع الناس مكث في الأرض (فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض) ، فكم من عمل مات قبل صاحبه لأنه ولد هشا ، غير قادر على الحياة أو كان يحمل في جسمه جرثومة الفناء ، وكم من أثر طيب مات صاحبه منذ أجيال وأجيال وبقي في الناس ينفعهم ويشهد لمن أتى به بما يرفع مكانته وان وضعها معاصروه أو حتى حاسدوه فالحجارة الكريمة أهل لأغلى قيمة على كل حال .

ويروى أن الامام ابن رشد الجد أبرز كتابه البيان - والتهيل فلقيه معاصر له من العلماء - والمعاصرة قد يكون فيها غمط أو منافرة - فقال له : (مابينت وما حصلت ، فأجابه بديهة (عند الممات تظهر التركات) .

ومات القائل والمقول له ومازال الكتاب ينال قبول وثناء العلماء وتقديرهم لأنه مما ينفع الناس .

وأثر الدكتور بو الصفصاف عن (جمعية العلماء) ، نرجو أن يكون من النوع الثاني مما ينفع الناس ويمكث في الأرض لأنه أتقن عمله فيه كمؤرخ مجيد ، ووقف مع الحق بقدر اجتهاده ، سواء أصاب أو أخطأ نال الأجر ، ولم أره ممن تطغى عليه عواطفه شأن المؤمنين المتكنين من دينهم ، الخائفين من ربهم . بل رأيته يميل مع الحق حيثما مال وكأنه التزم مذهب الرئيس الأول

للجمعية والمكون لها ، المعلن في صدر الجرائد أن (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء)
فلا خير فيمن يرى الحق ويطمسه لشهواته ، ولا خير فيمن يتنكر لوطنه ويزهد فيه ويجعل
مسخرا لشهواته بل الحق أحق أن يتبع في كل حال . ولهذا رأيناه مدركا تماما لمهمته ، اذا تناول
قولا أو عملا أو حكما للجمعية أو عليها بحث فيه ، واذا ارتاب حقق ولم يضع في الكتاب الا
مايرضي البحث العلمي وأصبح مقبولا عند العلماء ، فلا يسع المنصف الا أن يعجب به ويثني
عليه أو يعذره ان لم يوافقه في الحكم لأنه لم يعاصر الحدث فيقدر الظروف والملابسات ، أو لم يج
ما يفتح بصيرته على الحقيقة الناصعة .

فالعمل الذى قدمه الدكتور عبد الكريم لأمته ووطنه والأجيال الناشئة ينبيء عن ميلاد ع
سيكون - ان شاء الله - فخرا لمدينة قسنطينة ، يضاف الى أمجادها السالفة وانها لجديرة
تتقبل التهاني به . وانما نقول هذا لأنه بصر الأجيال التى لم تحضر الأحداث بالحقيقة التاريخ
لفترة قصيرة من تاريخها ، تعرضت للتحريف والتزييف والجهل والتلاعب ، فحقق أحداثها ونف
عنها الخبث اللاحق بها ، ودافع عن طائفة صالحة نقية ، ماانفك الأفاكون المتخرصون أن يلحقو
بها ، وصدقت الآية الكريمة (ان الله يدافع عن الذين آمنوا) فعلمنا أن الله هو الذى هداه ا
ماصنع ، ومكنه من سلاح العلم والفطنة . لينفي به الزيف والتحريف والظلم والبهتان .

فهذه الطائفة من العلماء نذروا الله بأن يخدموا دينهم وأمتهم ووطنهم متحملين كل أذى في
سبيل ذلك ، غير منتظرين الأجر الا من خالقهم ولا ملحقين الضرر بأحد لا يتعرض لهم ولا
لدينهم وأمتهم ووطنهم ، فمبدؤهم المعلن عنه معروف : (الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر
وطننا) وقد أنجزوا الأعمال الجليلة لأمتهم صابرين محتسبين الأجر من الله لا من غيره ، ثم لحق
معظمهم بربهم يرجون الرضوان منه . فجاء في حياتهم ومن بعد من مات منهم من افترى عليه
ونشر الزور والبهتان عنهم . من هؤلاء من زعم أنهم كانوا(اندماجيين) مع أنهم هم الذين قضوا على
سياسة الاندماج لا بالقول فقط ولكن بالعمل فوق سطح الجزائر نفسها متحدين كل الجبروت
والطغيان ومنهم من يزعم أنهم كانوا غير استقلاليين لا يؤمنون بالاستقلال ولا يعملون له وقد
يعارضون من يسعى من أجله . وهذه المقولة كاذبة مرفوضة لأن كلمة (الاستقلال) لم تكن مم
يسهل قوله والاعلان عنه وحتى اذا قالها القائل من الخارج الحدود وبلغة أجنبية فلا ينتفع بقوله
أحد ، فالأعمال خير من الأقوال ، فلما تطورت الأحوال أعلن العلماء أن هذا (الأستقلال) ممكن
وأنه حق لكل انسان ولا يمكن أن تشذ أمة الجزائر العربية المسلمة التي تملك كل مقومات الأمة
عن غيرها بل لابد أن تصل اليه .

وكانت هذه الصرخة في الأمة هي الأولى بعد أن سبقتها كلمة (الحقوق) وأقصى ما سم
للوطنين كلمة (برلمان) من جميع السكان .

فالوطنية في العلماء وطنية «الاستقلال» سبقت بذكره كل الوطنيات منذ شهر أبريل 1936م
وقبل وجود أي

استحق أن يجاب بما يجاب به الجاهلون (سلاما) ومن المتخرصين من انتسب الى العلم وتدثر برداء
الوطنية وغلافها وتوهم الضلال ، وتخيل فخال فقال بغير علم وجاء بالمحال وعمل عمل الجهال وان
حمل لقب أستاذ أو مؤرخ من (ماركة) دكتور . هذه الطائفة قد ضاق صدرها من (العلماء) (أن
لهم آثارا واضحة في حياة الأمة والوطن لا يمكن اخفاؤها وهم يريدون أن يكون الفضل كل
الفضل لطائفة ما ورجال ما وحزب ما فلما رأوا أن الفضل لا يأتي مع الخصوص وانما يكون مع
الجماعة ومنهم العلماء راحوا يهونون شأنهم وينكرون دورهم يتقولون عليهم أو يقيلون الأقاويل
دون تمحيص لأنهم لم يتأدبوا بأدب القرآن (يأيها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن
تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين) .

ومن هذه الطوائف الحاقدة من نشأ في حضن الحزبية الضيقة وورث عنها المواقف
(الانتخابية) التي تفرق ولا تجمع ، وقد اجتنب العلماء التحيز فيها لأي فريق يسعى لكرسي في
مجلس لا تأثير له وانما أكبر آثار هذا الانتخاب تفرقه صفوف الأمة التي لا يمكن أن تتوصل الى
اصلاح حالها الا في كنف الاتحاد والتعاون هذه الطائفة ورثت أن العلماء لم ينحازوا لحزبه ،
اذن فهم غير وطنيين وعند العلماء لا يعرف الوطني بحزب ولكن يعرف بالصدق في خدمة الأمة
والوطن على أن العلماء تركوا الحرية للأمة أن تختار من الرجال ، وتركوا الحرية لأعضاء الجمعية
أن ينتخبوا شخصيا وينحازوا لمن شاءوا دون السماح لذي أحد أن يستعمل اسم الجمعية . وفي
هذه الطائفة الحاقدة من عاتب العلماء عند ما أراد حزب ما أن يشارك في الانتخاب ليصل الى
هيأة عليا يمكن أن يبلغ صوتها الى أطراف العالم وخالفه حزب وطني بتحريم الانتخاب والدعوة
الى وجوب المقاطعة لأن المشاركة اعتراف بما لا نريد أن نعترف به . وكان رأي الجمعية أو رجالها
الكبار أن هذه المسألة من باب المصلحة المرسلة فتقاس بالمصلحة والمنفعة ، فمتى ترجح النفع المحقق
على المضرة فيها جاز السبيل اليها ففي الذهاب الى برلمان فرنسا مضرة هي اعتبار الجزائر كأرض
فرنسية . ولكن في هذا الذهاب تمكين الوطنين من أن يبلغو صوتهم بارادة شعبهم الى أقصى
أطراف الأرض واسماع كل الأمم واحراج حكومة فرنسا أمام أمم العالم . ففي الذهاب مضرة
وفيها مصلحة فرجح العلماء المصلحة على المضرة . فاتهموا بالانحياز وبالكبائر من أجل هذا
الموقف . وذهب نوابنا الناجحون في الانتخاب - وارتفع صوتهم وكان ماتوقعوه منهم وعلم العالم
أجمع أن في الجزائر أمة فتية تريد الحياة والخروج من الظلم والعبودية المفروضة عليها من أمة
تدعي أنها محررة الشعوب ، ووقع البرهان على صدق ما ذهبت اليه الجمعية من تفضيل المشاركة
على المقاطعة ، ورجع الى هذا الرأي الحزب الوطني نفسه فعدل عن رأيه الأول وقرر المشاركة ،
وشارك في الانتخاب ومنع العلماء خصوم الحزب أن يترشحوا ضده فعار علينا أن نشتبك في
اختلاف نهانا الله عنه .

اذن فالمشاركة في الانتخاب قد آل أمرها الى الاجماع عليها فلم تبق مما يعاير به العلماء
وبذلك في ذنوبهم ؟ وبسبب الحقد عليهم ؟. ومن أسخف مايرمى به العلماء أنهم طالبوا بفصل

الدين عن الدولة (اللائكية) فهذا الفصل قررته مجالس نواب فرنسا . وأمتنعت دولتها عن الانغماس في شؤون الدين في بلادها وتركت الحرية لأهل كل دين أن يديروا شؤونهم حسب طقوسهم ويتصرفوا في أملاكه الواسعة دون أن تنال منها شيئا وطبقت هذا في وطننا على دين النصارى وعلى اليهود اما المسلمون فقد استولت على كل أوقافهم واغتصبت أموالهم الواسعة ، واحتلت مساجدهم وعمرتها بمن شاءت وبمقاييسها في قبول الأئمة ورجال الدين : تقارير الشرطة وخدمة العسكر وتقديم التقارير حتى عن المصلين ، لقد طالبت الجمعية حقا بفصل الدين عن الدولة وترك المسألة الدينية لجماعة المسلمين مع تمكينهم بقدر كاف من مالية أوقاف المسلمين واصلاح القضاء والتعليم بما يناسب اقامة الاسلام ويحيي لغته . فهل تعاب الجمعية أن تطلب تطبيق قانون صدر في فرنسا وفيه ما يفيد المسلمين قبل أن يؤسسوا دولتهم ؟ وكانت الجمعية من مبادئها - البديهية عند كل المنتسبين لها وعند الأمة وعند الحكومة نفسها - الثورة على كل الأوضاع الفاسدة واستعمال كل الوسائل للتخلص منها ومن مبادئها أن تعمل لتهيئة الشعب لها ليكون النجاح به أضمن ، فالثورة التي لا يقوم بها الشعب نفسه مآلها الفشل والتخريب ، ألا تسمع قول ابن باديس يخاطب الجيل الجديد :

يانشء أنت رجاؤنا ... وبك الصباح قد اقترب

خذ للحياة سلاحها ... وخض الخطوب ولا تهب

واقلع جذور الخائنين فمنهم كل العطب

واذق نفوس الظالمين السم يمزج بالرهب

واهزز نفوس الجامدين فربما حيي الخشب

ويقول :

اشهدي يا سما ... واكتبن يا وجود

اننا للعلا ... سنكون الجنود

فنزيح البلا ... ونفك القيود

وننيل الرضا ... من وفى بالعهود

ونذيق الردى ... كل عات كنود

ويرى جيلنا ... خافقات البنود

فاشهدي يا سما ... واكتبن يا وجود

اننا للعلا ... اننا للخلود

هكذا ، هكذا ... هكذا سنعود

فهل يعقل أن يقعد رجالها عن الثورة وخوض غمارها عندما يشعل فتيلها ؟ وفيمن أشعلها صميم أبنائها ابن بو العيد ، رئيس من رؤساء مدارسها وابن مهيدى ، أحد تلاميذ هؤلاء الرجال وزعيم الكشافة التي هي من منشآتها ومن فرقها ، الرجاء والصباح الموجه اليها الخطاب الذى يوصي شرا بالظالمين والخائنين والجامدين ؟ ومن رجالها وقادتها ، عميروش رئيس شعبها بفرنسا كلها وكثير ممن لم نذكرهم من القادة ، وأما الجنود البسطاء فانهم كلهم من جنود دعوتها المؤمنين بمبادئها . غير معقول هذا وغير مقبول ، لكن الشيطان وسوس لا خوانه من بني الانسان أن يقولوا عن «العلماء» أنهم لم يشاركوا في الثورة ولم يتحمسوا لها ، بل التحقوا بها وساروا في ركبها بعد سنين ، وهذا كذب من نوع البهتان ، فان العلماء يملكون من الشجاعة ما يجعلهم في أول الصفوف ، وقد سجل التاريخ أن نداءهم للأمة صدر من الرئيس يوم الثالث من نوفمبر 1954 وأذيع من القاهرة أوائل الأسبوع الثالث من هذا التاريخ . ولما أمضى ميثاق الثورة في فبراير 1955 بعد شهرين من نشوبها ، كان اسم رئيسها فيمن أمضاه بالقاهرة . ومن ذلك اليوم كانت الجمعية في قيادة الثورة من المشاركين ، أما في الوطن فلا يمكن أن يكون الاعلان ، وانما يكون العمل ، فهو وحده الذى يفيد ، وما حكى التاريخ - ونحن نتحدى كل من يكذب هذا - أن عالما خان فقلعت جذوره كما أوصى الرئيس بل كان السجون والمعتقلات وميادين الجهاد وساحات الشرف شاهدة بوجود العلماء في ضحاياها ، هذا هو الواقع لكن السفه والحقد والجهل يزين لأصحابه أن يدعوا أن العلماء قصروا في الثورة وترددوا ولم يشاركوا . ويحاولون أن (يصنعوا) التاريخ (صنعا) والتاريخ لا يصنع وانما يروى ويسجل حسنات وسيئات أبنائه وفي العلماء المختصين من يبحث وينقب ويتوصل الى الحقائق ويكشفها للناس وينفي عنها كل زيف . سيكشف للناس أن عالما كان بمدرسة التربية والتعليم يقدم للصغار قواعد العلوم ويدبر مع الكبار شؤون الثورة وعملياتها ويؤسس مع الشهيدين مصطفى عواطي وعلي زعموش أول خلية للفداء تنازل الأعداء بشوارع المدن نفسها وهذا منذ الأيام الأولى لسنة 1955 وكانت هذه الأعمال سرية ، فلما انكشف الأمر ، انتقلت الى جبال الجهاد المنيعة واعتقل زعموش وعواطي ، ونفذ فيهما حكم الإعدام ، أما هو فانه استمر يقود حركة الفداء في الشمال القسنطيني كله حتى سقط شهيد معركة سنة 1960 بالميلية . انه القائد البطل صالح بن حميود المعروف بصالح بوذرع الذى كان من مدبرى ثورة 1945 وما هو الا من العلماء . والحقيقة أن العلماء طائفة في الأمة والعمل كله منها واليها وهذا ايمانهم ، واذا كان مؤرخنا الشاب عبد الكريم قد نفى عنهم كثيرا مما نسب اليهم في فترة 1931 - 1945 ، فاننا لنرجو أن يمد الله في عمره حتى يثبت لهم من ايجابيات مابعد هذه الفترة نعما ويهدى اليهم ما حرمهم منه حقد أعدائهم ومن جراء هذا ترانا متفائلين بنبوغه فرحين بمجيئه ومن عادة العرب - منذ الجاهلية أن يفرحوا ويحتفلوا ويقبلوا التهاني من غيرهم اذا نشأ فيهم الفارس أو نبغ فيهم الشاعر . لأن الفارس بشير بوجود من يدافع عنهم في ميادين الوغى ويحمي كيانهم من الأعداء والشاعر سينشر محامدهم ويخلد مآثر آبائهم وأجدادهم ، ويدافع عن أحسابهم ويقف بالمرصاد ليجيب عنهم مايقال فيهم أو يهاجمهم اذا لزم الأمر فان من وسائل الدفاع الهجوم . فالشعر - كان - من أسلحة الجاهلية واستعمله الاسلام في معاركه القولية مع الكفار .

فلما ساد الاسلام قلب الأوضاع فشرع القوانين لحماية الأمة : أموالها وأعراضها وكيانها كل
يحميهم من بعضهم بعضا ومن عدوهم . والمسؤول المنفذ لهذا كله دولة المسلمين الساهرة عليهم
بالرئيس منهم المقيد بكتاب الله وسنة رسول الله فلا يعدل عما فيهما من نص ومالم يقع فيه نص
فان أمرهم شورى بينهم .

وأما الشاعر وظيفته في الأمة والمجتمع فان أمره في الاسلام هان لأن المكانة في الاسلام لاينالها
الا المستقيم وليس في الشعراء من ينال هذه الدرجة الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم ،
أما الكثير فانهم غارقون في الغواية فلا يتبعهم الا الغاوون الذين هم في كل واد يهيمون ويقولون
مالا يفعلون . ثم ان كان في قول الشاعر ما يمتع ويلذ ويطرب وقد سلم من الفحش ونشره وسلم
من أعراض الناس وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات

ووصف الجمال وجاء فيه مالا ضرر فيه فانه من زينة الدنيا ومتاع الغرور التي قال الله فيها
، انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد ...» فأما اذ كذب
الشاعر وافترى أو نشر الدعارة والاباحية فانه يؤاخذ بما فعل لا بما قال وسيف القذف مسلول
فوق رأسه ان تجرأ عليه ناله وصفوة القول أنه لم يعد للشاعر من الفضل ماكان له في الجاهلية ولا
للفارس ماكان له من مكانة في حماية الأمة لأن الاسلام شرع نظاما وعين من يحمي الناس في
الداخل والخارج فالفارس مهمته في جيش وطنه وخدمة أمته وبلاده والشاعر في الدائرة المخصصة
له ولأمثاله وعليه أن يكون عزيزا فيها أو هينا ، ومثلها أو أعظم منها العالم وعليه أن يبرهن
بعلمه وعمله على نفع الناس بتحصيله وعمله فاذا كان منه ذلك فهو حرى بنيل الفضل والكرامة
نال ذلك - فعلا - أو حال دونه حائل سوء الطالع لكنه يكون مطمئنا ان كان عمله لله فان
الله لا يضيع أجر من أحسن عملا . وقد تطور الزمان منذ كان الفارس والشاعر وحدهما ينالان
تكريم معاصريهما وصار ممن يعد للدفاع عن الأمة في كيانها وأعراضها العلماء بعلمهم ، والخبراء
بخبرتهم ، وأهل الصناعة بصناعتهم وأهل الفلاحة بفلاحتهم وأهل الصحافة بصحافتهم وكل من
جاد وأفاد في مهمته حرى بالتكريم لا الفارس والشاعر فقط . وانما نوهت بهذا العمل من
الدكتور عبد الكريم لأنني رأيته عالج موضوعه التاريخي معالجة العالم الخبير المتمكن من موضوعه
بالصدق والأمانة والفطنة والبعد عن العاطفة التي قد تطغى على صاحبها فيعثر وتزل قدمه .

ولا ينبغي أن يعدل عن عواطفه ويتنكر لها ان وجد الحق في جانبها فربما زل بعض
المغرورين بالبحث العلمي وسلطانه عندما يفهمون أن من مقتضى ذلك أن يتنكروا لعواطفهم
ويرتدوا عن ماضي أمتهم حتى بلغ بهم الأمر الى انكار البديهيات لارضاء (البحث العلمي) . ولا
شك أن الدكتور يحب العلماء لكننا نتحقق أنه يحب العلم أيضا فاذا تصادقا في الحب والمحبوب لم
يكن أدنى حرج في الاعلان عن ذلك والتبوح به .

والفطنة ضرورية عند البحث فانها تعصم الباحث من تجويز مالا يجوز واقرار مالا يقر وقد
ذم العلماء من حازت عليه حيل المحتالين أو رواية المتساهلين ، وغفلة الغافلين وبلاهة البلهاء

وتدليس المدلسين . وللمحدثين مقاييس دقيقة في قبول الخبر ووزنه وهي أدق المقاييس
وأروعها . والخبر عندهم لايصح الصحة المفيدة للظن وغلبته الا اذا رواه عدل ضابط عن عدل
ضابط من بداية السلسلة الى نهايتها ويشترطون فيه بعد ذلك سلامته من العلة القادحة
والشذوذ . فحسن النية وحده لا يكفي ولا يشفع للعالم الذى يوخذ عنه العلم فقد حذر الامام
مالك من الغفلة فيمن يؤخذ عنه العلم فاشترطوا الفطنة في الراوى ويسميها العلماء عدم الضبط
وقال أنه أدرك في الحرم النبوى أكثر من سبعين ممن جلسوا فيه ليؤخذ عنهم العلم فلم يرو عنهم
مع عدم اتهامهم في أمانتهم ولوائتمن أحدهم على بيت مال لكان أهلا لذلك ولكن أمانة العلم أثقل
وأدق من أمانة المال .

ونحن لا نطلب من المؤرخ أن يلتزم في رواية التاريخ مايلتزمه الاخبارى في رواية الحديث
لأن الحديث شرع من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم أما التاريخ فهو نقل الأخبار عن الأبرار
والفجار يشارك في نقلها العدل وغير العدل ، المسلمون وغير المسلمين كما هو الشأن في موضوعنا
الحالي فان الباحث لابد أن يروى عن الأعداء الكفرة قولهم . غير أن الحيطة تبقى واجبة فليس
كل ما يأتي منهم أو من غيرهم مقبولا مسلما بل لابد من غربلته بغربال التمحيص .

فروايتهم تبقى صالحة للقبول والرفض . ومع ذلك لا ينبغي الاعراض عن كل مقاييس
علمائنا من المحدثين في وزن الخبر ، ومع ذلك لا ينبغي الاعراض عن كل مقاييس علمائنا من
المحدثين في وزن الخبر ، فان هذه المقاييس مصادقة عليها مما اشترطه علماء أصول الدين (التوحيد)
في صفات الرسل عليهم الصلاة والسلام وانه يجب لهم «الصدق ، والأمانة والتبليغ والفطانة» .
فهذه الواجبات

للرسل واجبات في العالم أيضا الا التبليغ فان الرسول ﷺ يجب أن يبلغ ماأنزل اليه من
ربه ولا يجوز له ألا يبلغ . أما الصدق فهو واجب على كل مسلم ومسلمة وهو في (صنعة) العالم
المؤرخ أوجب لما يلحق الناس من ضرر في كذبه أو في روايته لخبر كاذب . ومثل الصدق
والأمانة واجبة على العموم وعلى العلماء والمورخين أوجب ومثل الفطانة التي تعصم من رواية أو
اقرار ماحكم عليه بالفساد لسبب من الأسباب الظاهرة أو الخفية . ويمكن أن يزاد من الشروط
في المؤرخ علمه بالفن وبالموضوع المتحدث فيه ، وصدق النية وسلامة الطوية . فالعمل الذى
توفر فيه : «العلم والصدق والأمانة والفطانة والحذق» لابد أن يأتي بالخير المتوقع منه . وقد
اشتكى العلامة الحاذق الذى وضع علم الاجتماع عبد الرحمن بن خلدون عن الغفلة التي وقع فيها
بعض المؤرخين من رواية بعض وقائع التاريخ ونقدهم نقد العارف الخبير وضرب لذلك أمثلة
توضح فسادها كان هذا في مقدمته فلما كتب تاريخه وقع بنفسه فيما حذر منه ليبرهن بذلك على
أن الكمال لله وحده فسبحان من لا تأخذه سنة ولا نوم .

والدكتور عبد الكريم من علمائنا الشبان تعلم كل مراحل تعلمه تقريبا في منشآت دولة
الجزائر من اتمام المرحلة الابتدائية حتى الجامعة ولم يرحل من وطنه الا بعد تخرجه وللبحث

العلمي والتنقيب . فجيل الدكتور محظوظ قد وفرت له دولة الجزائر كل وسائل العلم والثقا
بلاده من المرحلة الابتدائية الى الجامعة خلاف مايدعيه الجاحدون أن دولة وطنهم لم تعـ
للجزائر منذ ترحيل فرنسا عنا أى شيء مع أن فرنسا كانت حين وجودها فينا تترك اللاتينية
أبنائنا في تشرد وارتحلت غصبا عنها وليس في بلادنا سوى بضع ثانويات كانت لابناء المعمر
وجامعة واحدة قلما رحل اليها أبناء الجزائر وكانوا من أولاد الباشغوات أما تعليم العربية والدين
فلم يكن مسموحا للجزائر أن تنال شيئا منها الا فى المدارس من منشآت الأمة وتضحياتها
المقاومة العنيفة من ادارة المستعمر أو في مدارس قليلة جدا لأغراض ادارية لا علمية .

جيل الجزائر الحديث كان من المفروض فيه أن ينشأ مبرأ من العيوب لأن الله كرم وجهه لـ
يرى عهد الذل والهوان والظلم والطغيان تحت وطأة المستعمر من يوم نزوله الى لحظة ارتحال
لكنهم بشر يعتريهم ما يعترى البشر من النقص ونشأ فيهم من استمر في التنكر لأمته ولماضيها
وعمل لافساد حاضرها ومستقبلها وشكك في مصيرها . والسبب في ذلك أننا قد انتابتنا غفلة
شديدة بعد الاستقلال فركنا الى من لا يركن له . بخلاف عهدنا أيام الكفاح فاننا كنا لا نقبل
في صفوف المجاهدين أحدا الى بعد الاختبار والبلاء يثبت قطع كل الروابط مع الاستعمار أما بعد
الاستقلال فقد فتحنا الأبواب لاستقبال كل من هب ودب فتسرب الى صميم دولتنا الخونة
والاعداء والمشبهون . خذ مثلا لذلك في ميدان التعليم استعجلنا فيه فاعتمدنا غرضا واحدا هو
التخلص من الأمية ولم نأخذ بالاحتياط فلا نسمح باعطاء أبنائنا الا لمن وثقنا فيه ولو طال بنا
الزمن . أذكر مثلا - في نقائص هذا الاستعجال ان دكتورا مختصا جيء به لجامعة الجزائر
ليسمعهم محاضرة له في الجغرافية الجزائرية فزعم أن سكان مدينة قسنطينة يبلغ عددهم 50 ألف
نسمة او آخر جاء ليعلمنا في ميدان الدين سألناه عن أحوال المسلمين في مصر فزعم أنها تحت سيف
الارهاب والطغيان ولو لم يكن هذا الا تنكر لمن أحسن الينا لكان الواجب ان نرتاب فيه ولو
جهل صاحبه بفنه أذكر هذا عن اخوان لنا نعرف فيهم الكفاءة والعلم والنصح فكيف عمن كنا
معهم في حرب ضارية مدتها قرن وثلث وآخر أطوارها كلفنا مليون ونصف من الشهداء كيف
نطمئن الى رجالهم وعلمائهم ومربيهم ولغتهم التي جعلنا منها لغة أساسية حتى في المراحل
الابتدائية ؟ ان المدرسة يجب أن تصان عن كل خلل أو فساد وكان علماؤنا يفضلون الجهل على
الانحراف . وبهذه المناسبة أذكر ما جرى بيني وبين أحد كبار رجال التربية وهو الشيخ مبارك
الميلي رحمه الله فانه سألني ذات يوم عن شخص يعرفه وعن أحواله العائلية فأفدته بما أعرف ومن
ذلك أنه وضع طفلة في مدرسة (كذا) وكانت مشبوهة لدينا فقال وما الذى حمله على أن يضع
طفله فيها ؟ قلت انه لم يجد غيرها ، وعلى كل حال فلان يتعلم فيها خير من الجهل فقال : كلا
فالجهل أحسن من تعلم مرتاب . كان من الحيطة ألا نسلم أبنائنا الا لمن نثق فيه من الأكفاء
الملتزمين لثوابتنا ثم نراقبهم ونعاقبهم . ولو كان هذا الحزم لما وصلنا اليوم الى حالة تبعث الشك
في كل شيء لدينا . أليس هذا من التعجل !

واذا كان هذا في الجيل الحاضر فان الأغلبية من أبنائه - والحمد لله - اشتغلت بما ينفع الناس ويصلح حال الأمة ويرقيها ويصعد بها الى مصاف الأمم الراقية ولا يقبلون كل مايلقى اليهم بل يبحثون ويحققون ويدققون ويتحرون وشعارهم قول الشاعر القديم :

انـــا - وان كرمت احسـابنـــا وزكت
- لسنـــا على الاحســـاب نتكل

نبني كما كانت أوائلنـــا : تبني ونفعل مثلمـــا فعلـوا

وكان ابن باديس ينشد الصدر الدخير من البيت النائي (ونفعل فوق مافعلوا) برهان وجود هذه الفئة الصالحة في الجيل الجديد أنهم طلبوا العلم وبلغوا القمة فيه وأصبحوا لا يرضون الا بالاختصاص كما هو الحال في فن التاريخ خذ لذلك مثلا في سنة 1927 م كنا لا نملك الا عددا قليلا من المؤرخين غير المختصين بل يكتبونه هواية مع اشتغالهم الاعظم بغيره واختصاصهم في آخر من فنون الحياة وممن برز في الميدان رفاق الاقران الشيخ مبارك الميلي رحمه الله المختص في فنون العربية والشريعة فلما كتب في التاريخ اتقن عمله واستطاع ان يجعل من الجزائر وحدة متكاملة في ماضيها وبحدودها الحاضرة وقد كانت في بعض ايامها السابقة موزعة بين الشرق والغرب يتنازعان على اجزائها ويدعونها ومع ان ابناءها كانوا ملوكا في الشرق او في الغرب كصنهاجة وبني عبد المؤمن وبني مرين ومن أجل هذا العمل الجليل ظفر الميلي من ابن باديس بقوله عن عمله انه عمل من أحيي أمة فله اجره كاملا ومن الذين كتبوا فيه ايضا المرحوم احمد توفيق المدني رحمه الله أحد أعمدة مجلة الشهاب ثم البصائر . ومنهم الاستاذ عبد الرحمن الجيلالي امد الله في عمره فقد جلى صفحات ناصعة من تاريخنا وكتب غيرهم قطعا مختلفة الاهمية والموضوع لكن دون اختصاص .

أما اليوم - أعني سنة 1991 - فقد أصبح لنا جامعات وأساتذتها من أبناء الجزائر وكلهم من ذوى الكفاءة والاختصاص يحتلون أرقى المناصب ويحملون أعظم الألقاب ومع ذلك فلا تغرنا الالقاب بل تقنعنا الاعمال ، ولا نستطيع أن نعدهم بل يكفي أن نعد منهم ومن هؤلاء الرجال الدكتور سعد الله وهو من المخضرمين ممن عاشوا أيام الهوان والذل والاستعباد ثم عاش أيام الازدهار بعد ذلك وارتحل في طلب العلم حتى ملأ الوطاب ومزال يثرى خزائن الثقافة بأعماله النافعة وهو اليوم شيخ مؤرخي الجزائر بل الامة العربية جمعاء يجلس في مجمع القاهرة مع الخالدين ويعجبني فيه شدة تواضعه . والغرور لا يناسب العلماء ولا يتخلقون بخلقه ومن علامات تواضعه أنه عندما وصف بما يستحق من أنه شيخ المؤرخين فقال : ذلك هو الشيخ مبارك وليس أنا وأنا أقول كل في عصره ومع ظروفه . كما أن من مؤرخين العلماء الاكفاء الدكتور يحي بوعزيز من جامعة وهران سمعته يتكلم في ملتقيات فسمعت العلم والتحقيق وما يبهج النفوس ويطربها واني أدعوا الله أن يسدد خطاه ويعصمه من الزلات فان زلة العالم بمقدار مكانته . ومنهم الدكتور نصر الدين سعيدوني رأيت بعض انتاجه فاعتززت به لان هذا من قدماء

طلبة معهد ابن باديس ، وأبوه من علماء الجزائر الذين كانوا يعمرون المدارس الحرة والمساجد ويشون الحياة في أمتهم ومن يشابه أباه فما ظلم فاذا كان الأب في الجامع فان ابني نصر الدين في الجامعة ومن هؤلاء المعاصرين المختصين الدكتور العربي الزبيرى الذى أفتخر بأنه كان من الطليعة في الجامعة يوم كنت بها في الستينات وسمع مني وأظنه يستنكف أن آذكر ذلك عنده غير أنني أعتب انتاج هذا الابن الكريم أنه يتحر فيه كال التحرى كما هو واجب من يكتب التاريخ بل رأيته يطمئن الي روايات بعض المعاصرين ويتبناها مع أنها صادرة عن جهل أو عن حقد دفين أو عن حزبية متعصبة تأبى ان تنسى مواقف قديمة سببها الانتخاب وقضى عليها الميثاق الوطني أيام الثورة وكان موقف العلماء سلبيا قد انحاز الى الثورة من أول أيام نشوبها في نوفمبر 1954 م لا انهم انتظروا سنة 1956 م كما يشهد بذلك النداء الذى صدر في 3 نوفمبر 1954 م واذيع من القاهرة في النصف الاول منه . ولا انهم خانوا فتورطوا في مقاومة الثورة كما تورط بعض كبار الرجال من (الوطنين) . فلكم وددت الا يقع العربي فيما وقع فيه وان يرتاب في رواية كل من لا تنطبق عليه الشروط الاسلامية : العدل والصدق والامانة والفطانة وعدم العداوة حتى مع العدالة وهذا لا يقدم في انتاج العربي فانه جيد غير كامل الجودة فلينقيه من رواية من لا يستحق أن يروى عنه .

ومن أبنائنا المختصين صاحب هذا الانتاج وهو الدكتور عبد الكريم بو الصفصاف . واني أترك الحكم للقارىء المنصف على هذا الانتاج البديع بعد أن ينظر فيه وأتيقن أنه سيحكم له لا عليه . ثم ان كثيرا من أبناء هذا الجيل لم أذكرهم لانني اجهل أسماءهم أو لم أطلع على انتاجهم لانهم كتبوه بغير لغة أمتهم أو لانه لم يبلغ الي - ولعل هذا لتقصير مني ويمكن ان ينسى بعضهم ولا يمكن أن ينسى الدكتور رابح التركي الذى رافق زمنا طويلا الشيخ البشير الابراهيمي وأصدر كتبا نفيسة عن التربية والمنهج الذى سلكه فيه رجال جمعية العلماء وذلك ليس من صميم التاريخ والاختصاص فيه لكن له صلة وثيقة بأعمال الجمعية ولا يتم تاريخهم الا ببيان منهجهم في التربية .

والخلاصة أن النهضة العلمية الثقافية أصبحت بديعة في وطننا وهذا ماكان رجالنا يؤمنون بالوصول اليه منذ أسسوا مدارسهم الابتدائية ثم الثانوية وكان هدفهم أن يصلوا الى الجامعة وقد كتب ابن باديس بحرف بارز على كراريس مدرسة التربية قول شوقي :

فلم ما استطعت لعل جيلا

سيأتي يحدث العجب العجابا

وكان يقول أما العجب فقد رأيناه ، وأما العجاب فسيراه من يأتي بعدنا . ونقول لشيخنا لقد طالت بنا الحياة بعدك ورأينا العجاب حتى رأينا في الجزائر دولة ليس فيها جامعة واحدة بل جامعات ، وفي أبنائها من سبح في فضاء الكون ، ومن اشتغل في المخابر وازدانت به المنابر واستخرج الكنوز من باطن الأرض لم تغب عنه البحار اننا

أمة تنشىء الحياة وتبني

كبناء الأبوة الأجداد

وقبل أن أختم وقد أطلت - وأرجوا ألا أكون قد أعللت وأنني كنت أود أن يكون الكلام على جمعية العلماء يبتدىء بالكلام على أسباب نشاتها ودواعيها منذ عام 1914 يوم رجع ابن باديس من رحلاته العلمية بنية الاستقرار في قسنطينة فان منذ ذلك اليوم عزم انشأ حركة خطط لها وعزم أن يقع الاعلان عن عمومها بعد عشر سنوات (أنظر مقاله في السنة عبد اويون) فلما انتهت عام 1924 جرب هذا الاعلان فكان الفشل فعدل الى انشاء ما يمهد له من الطباعة الوطنية والصحافة المبدئية . واستنار الأفق وتيقن بانبلاج الفجر الصادق وما جاءت الثلاثينات حتى دلل من الصعاب ماكان عسيرا . فانشئت جمعية العلماء في 5 مايو 1931 - فجاءت الفترة المؤرخ لها . وساعد في بروزها صحافة فرنسا بالاحتفالات القرنية . كما وددت كثيرا الا يكون سكت عن حديثه الممتع في حدود 1945 فان لجمعية العلماء انجازات عظيمة في بقية الاربعينات والخمسينات . كما ان جمعية العلماء لم تنته تماما بحلول 1962 وانما اختفى رسميا العمل تحت اسمها وبعنوانها وبقي من بقي من رجالها بعمل بل بفرض مبادئها حتى زال الخطر الوطني ورجعت الحرية باعلان الاسماء من الهيآت فرجع اليها اسمها . لكن استيفاء الموضوع يمثل هذا الاسهاب غير ممكن في عمل علمي جامعي .

الجزائر في يوم 04 جمادى الثانية 1412 /11 ديسمبر 1991 .

مقدمة البحث وخطته

يعتبر موضوع هذه الدراسة من أهم الموضوعات في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، لأنه يمثل مرحلة سياسية هامة في مسار الحركة الوطنية الجزائرية خلال الفترة الواقعة مابين سنتي 1931 – 1945 ، وهي المرحلة التى لاتزال ثمارها الفكرية يانعة حتى الآن . ففي غضون هذه السنوات ظهرت الى الوجود جمعيات دينية ، وأحزاب سياسية ، استعملت كل الأساليب والمناهج لمقاومة الإستعمار بشتى أنواعه ، حيث كان هناك الاتجاه الإصلاحي الوطني تحت راية الإسلام والعروبة ، والاتجاه الوطني الثوري تحت شعار ماأخذ بالقوة لا يسترد إلا بمثله او الإتجاه الإصلاحي الإدماجي تحت شعار الإستغراب والفرنسة ، والاتجاه العالمي الذي سعى إلى ربط الحركة الوطنية بالحركة العمالية فى فرنسا تحت شعار الخبز للجميع ، والثورة بالمبادىء ، والاتجاه التقليدي تحت راية الجمود والعزلة المحلية .

ويمكن تحديد كل هذه التيارات السياسية والوطنية التي تمتد من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار فيما يلي :

أولا – تيار يتنوع بين أقصى اليمين واليمين المعتدل ، وقد مثل هذين الاتجاهين على التوالي كل من الطرق الصوفية ، وجماعة المنتخبين .

ثانيا – اتجاه الوسط الوطني ، وقد عبرت عنه جمعية العلماء المسلمين الجزائريين .

ثالثا – تيار يتنوع بين اليسار الوطني الثوري واقصى اليسار الشيوعي .

وقد عبر عن هذين الإتجاهين نجم افريقيا الشمالية ، والحزب الشيوعي الجزائري وبينما نلاحظ ضعف نفوذ أقصى اليمين مع تطور الحركة الوطنية نلمس ميل قوى اليمين المعتدل ، وقوى الوسط الوطني نحو اليسار الوطني الثوري ، خاصة منذ قيام الحرب العالمية الثانية .

ومهما كانت هذه الاتجاهات السياسية والإصلاحية ، فقد أحدثت ثورة فى الأفكار وتغييرا فى العقول ، ويقظة فى النفوس ، ولا سيا جمعية العلماء التي كان ميلادها تفجيرا لثورة ثقافية لازالت تغذ الحياة السياسية والفكرية حتى الآن ، حيث كونت شريحة اجتماعية أصيلة مثقفة بالثقافة العربية الإسلامية ، أدركت أهمية البعد الثقافي وضرورته لهذه الأمة المحرومة من ينابيع العلم والمعرفة ، وبذلك ارتبطت بالقاعدة الشعبية الواسعة ارتباطا وثيقا لاتنفصم عراه ، حيث علم المعلمون ، ودرس الأساتذة ووعظ الوعاظ ، وكتب الكتاب، وأنشد الشعراء ، وانتقد النقاد ، فكانت نهضة ثقافية عريقة ، أعادت للجزائر اعتبارها القومي ، ووضعتها في محتواها التارخي

كقوة حية تصارع من أجل البقاء والحرية . خلال هذه المسيرة الطويلة التى قادها العلماء ، كونوا علاقات أخوية وعدائية مع مختلف التجمعات السياسية والدينية المعاصرة لهم ، وأثروا على قادتها أحيانا ، وتأثروا بهم أحيانا أخرى ، فكما أثر العلماء على بعض زعماء النخبة ، والحزب الشيوعي الجزائري ، وجعلوهم يدافعون عن الإسلام واللغة العربية ومؤسساتها ، تأثر هؤلاء العلماء أنفسهم بسياسة المعتدلين في بعض المواقف وكما أثر العلماء على بعض الطرقيين واستقطبوهم إلى صفوفهم تأثروا أيضا بحركتي نجم افريقيا الشمالية ، وحزب الشعب الجزائري الثوريين .

ولعل هذه الدراسة المقارنة ستساهم في حل مشكلة الأولوية التى تعطى لأنصار كل فريق وهي مشكلة ربما مازالت رواسبها قائمة حتى الآن .

ومن الأهمية بمكان أن يؤكد المرء ضرورة النظرة الوحيدة لجميع الاتجاهات الوطنية التى اختلفت في الطرق والوسائل من أجل الوصول إلى هدف واحد بناء على المعطيات التاريخية التي وجدت فيها الحركة الوطنية قبل اندلاع الثورة التحريرية ، إذ أن جميع هذه الحركات قد ساهمت في خلق وإثراء الفكر الوطني الثوري الذى أوجد الأرضية الصلبة للكفاح المسلح ، اذ كانو ، عدا القليل منهم ، يبحثون عن طرق الخلاص من الهيمنة الاستعمارية وإعادة الحلقة المفقودة من حياة الشعب الجزائري .

نقد المصادر والمراجع :

لقد كتب الكثير عن تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر كتبا مست كل جوانب الكفاح الوطني ضد الاستعمار الإستطاني الفرنسي ، ولكنها كانت كتبا عامة لم تتوغل فى أعماق الحركة الوطنية خلال النصف الأول من هذا القرن باستثناء بعض المؤرخين (الأكاديميين) الذين أفردوا مؤلفات خاصة لهذه الفترة أمثال : الدكتور أبوا القاسم سعد الله الذى تناول تاريخ الحركة الوطنية من 1900 حتى 1945 فى كتابين لهما قيمة علمية معتبرة ، بل فإن هذين الكتابين هما أهم ماكتب بالعربية عن هذه المرحلة حتى الآن .

أما بالفرنسية ، فإن أهم الدراسات التي أنجزت عن هذه الفترة ماكتبه الأستاذ علي مراد في كتابه «الحركة الإصلاحية الإسلامية» في الجزائر من 1925 حتى 1940 وما كتبه الأستاذ محفوظ قداش ، في كتابه تاريخ الوطنية الجزائرية من 1919 حتى 1951 ، وهو كتاب ضخم تناول كل الحركات الجزائرية خلال الفترة المذكورة . وتعتبر هذه المؤلفات كلها دراسات علمية أكاديمية تميزت بالاعتدال والموضوعية وكانت من أهم مراجع هذا البحث .

وهناك مصادر ومراجع أخرى تختلف نظرتها للحركة الوطنية باختلاف اتجاهات أصحابها ، فأصحاب اليمين من أنصار الاستعمار وصفوا الحركة الوطنية وقادتها بأوصاف غير علمية ، وإعتبروها أحيانا حركة خيالية تبحث عن السراب وسموا أصحابها (بالمشاغبين) (والغوغائيين) (والمتعصبين) (والمخربين) ، وهلم جرا ، وتتمثل هذه المصادر والمراجع في بعض الكتب

والدوريات ، وتقارير الإدارة الاستعمارية .

أما أصحاب نزعة اليسار الشيوعي من الفرنسيين ، فقد حاولوا إضفاء طابع الماركسية في بعض الأحيان على الحركة الوطنية الجزائرية مثل ما وقع مع نجم إفريقيا الشمالية في أول الأمر ، ووصفوا الوطنين بالرجعية ، والعجز عن فهم الديالكتيكية الماركسية ، ويتضح هذا المنحى الأخير من تقارير الفروع الشيوعية فى الجزائر(1) خلال العشرينات .

أما المصادر والمراجع المعتدلة ، فقد نظرت إلى الحركة الوطنية على أنها طفرة طبيعية ناتجة عن الضغط الاستعماري الإستطاني الذي كرس وجوده لاستنزاف واستغلال طاقات هذه البلاد ، وأعطت لكل اتجاه سياسي أو إصلاحي نصيبه من النضال داخل الإطار العام للحركة ، محاولة تبيان الجوانب السلبية والإيجابية لكل اتجاه .

أما هذه الدراسة فقد نحت منحى المقارنة التاريخية بين جمعية العلماء والحركات الجزائرية المعاصرة لها ، وتبيان الدور الوطني والثقافي الذي لعبه العلماء لتقريب هوة الخلاف بين الاتجاهات الوطنية على اختلاف مشاربها . وقد اتبعت فى هذه الدراسة المنهج التاريخي الوصفي في استعراض نشأة الأحزاب والجمعيات ، وتطورها التاريخي ، وترتيبها الزمني ، والمنهج التحليلي في عرض أهدافها وبرامجها وإيديولوجياتها السياسية ، والمنهج المقارن في تحديد هوياتها ، ومدى قربها أو بعدها عن الطبقات الشعبية في نضالها ضد المستعمر ومدى تمسكها بقيمها وتاريخها الوطني والقومي .

وقد حاولت بقدر الإمكان تجنب تكرار الموضوعات التى تطرقت لها فى بحث (ديبلوم الدراسات المعمقة) إلا عند الضرورة القصوى ، وقد أفرغت كل طاقتى فى جمع المادة من المكتبات العامة والخاصة داخل الوطن وخارجه ، وقمت بتبويبها وتحليلها وكتابتها بموضوعية ، وتجرد من العاطفة بقدر الإمكان حسب طبيعة الموضوع وإشكاليته ، ومع ذلك فإن الباحث لايدعي لنفسه الاستيفاء المطلق لهذا الموضوع من جميع جوانبه نظرا لتشعباته وملابساته السياسية ، نتيجة لسرعة التغيرات فى علاقات الجمعية بمعاصريها من الحركات الأخرى ، وحسبي أنني قد عشت الموضوع بعقلي وجسمى ، ولم أشعر بالراحة طيلة فترة إعداده إلا بعد طبعه والاستعداد لمناقشته ، فإن وفقت فذلك بفضل الله وعونه ، وإن أخطأت فحسبي أني عملت بإخلاص كبير ، وساهمت في دراسة هذا الجانب الوطني الهام من تاريخ نضال الشعب الجزائري ضد الاستعمار والاستغلال والعبودية .

أما بخصوص المصادر الاساسية المعتمدة في هذه الرسالة ، فيمكن تصنيفها حسب أهميتها على النحو التالي :

أولا – الجرائد والمجلات الوطنية التي كانت تصدر خلال مرحلة الدراسة ، وبعيدها وتعتبر

---

(1) راجع الفصل الثامن من هذا البحث .

من أثمن المصادر التاريخية حتى الآن ، وذلك نظرا لأن صحف هذه المرحلة من تاريخ الجزائر المعاصر ، كانت صحف رأي ومقال ، ومبدأ ، ونضال ، وليست صحف دعاية ، وخبر ، حيث كانت الوسيلة الوحيدة لجمعية العلماء من جهة والمنظمات الوطنية من جهة أخرى ، وصلة الوصل بين قادة الأمة وجماهير الشعب في المدن والأرياف الجزائرية ، ولتبليغ تعليماتهم ، وتوجيهاتهم للمناضلين بالنسبة للأحزاب السياسية ، والمشرفين على فروع الجمعية ومدارسها في أنحاء القطر بالنسبة للعلماء ، كما كانت الوسيلة الأساسية للجمعية في نشر قوانينها ولوائحها الخاصة بشعبها ، ومعاهدها والتعريف بمبادئها ، وأهدافها ، ووجهة نظر قادتها ، ولذلك أصبحت تلك الدوريات سجلا حافلا بأعمال جمعية العلماء خاصة والمنظمات الوطنية الأخرى بصورة عامة ، لاسيما وأن الذين كانوا يكتبون في هذه الجرائد والمجلات هم من فطاحل العلماء والسياسيين الذين برزوا على مسرح الحياة الجزائرية خلال النصف الأول من القرن الحالي ، وفي مقدمة هذه الدوريات مجلة الشهاب ، وجريدة البصائر ، وجريدة الكفاح الاجتماعي ، وجريدة الأمة وجريدة الشعب ،وجريدة الوفاق .

ثانيا - تقارير الشرطة السرية الفرنسية ، ومذكرات مركز الدراسات والاستعلامات في عمالة قسنطينة ، ومخطوط الجمعيات الدينية في الجزائر ومخطوط الجزائر في نصف قرن ، وهذان المصدران الأخيران عبارة عن دراستين ميدانيتين شاملتين بالدرجة الاولى قام بإعدادهما خبراء الشؤون الاستعمارية في الجزائر ، تناولت الأولى الطرق الصوفية ونشأتها وتطورها وأهميتها في الحفاظ على التوازن السياسي ، والهدوء الداخلي بين أتباعها والإدارة الفرنسية . وتضمنت الثانية نشأة الحركة الوطنية ودورها في إيقاظ الرأي العام الإسلامي الجزائري مع تحديد درجة خطورة كلا منها على الوجود الفرنسي في البلاد وهي عبارة عن تقارير مرقونة صدرت من قبل المسؤولين الفرنسيين في كل أنحاء القطر الجزائري .

ثالثا - الرواية الشفاهية عن الأشخاص الذين ساهموا في تأسيس جمعية العلماء أو الذين شغلوا فيما بعد مناصب إدارية في مجلسها الإداري أو في فروعها المنتشرة عبر القطر الجزائري أو الذين شاركوا في حركة التعليم العربي التي كانت تقودها جمعية العلماء خلال المرحلة المدروسة وبعدها .

رابعا - كتب التاريخ العربية والأجنبية التي تناولت تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر، وأهمها : رسالة الشرك ومظاهره ، لمؤلفها الأستاذ مبارك الميلي والتي نشرها سنة 1937 ، وهي بمثابة الأساس الإديولوجي لجمعية العلماء وتدخل ضمن المصادر الأساسية في هذا البحث ، ووثيقة (سجل مؤتمر جمعية العلماء) التي أعدها وقدم لها الإبراهيمي سنة 1935 ، وتعتبر هذه الوثيقة بمثابة المنهج النظري والعملي للعلماء أيضا ، وتحتوي على مقدمة طويلة تناولت نشأة الحركة الإصلاحية وتطورها في العالم الإسلامي عموما وفي الجزائر على وجه الخصوص ، كما تتضمن مجموع التقارير والخطب التي ألقيت في مؤتمر جمعية العلماء سنة 1935 ، وكتاب الأستاذ محمد قنانش

(الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين) وهو عبارة عن مذكرة ودراسة تحليلية لنجم افريقيا الشمالية وحزب الشعب الجزائري ، وهو كتاب قيم نظرا لمساهمة مؤلفه شخصيا في الحركة كمناضل مسؤول في حزب الشعب الجزائري . وكتاب بول إميل سارازين (Paul Emile Sarazin) (الأزمة الجزائرية) والذي يتضح من مضمونه أن صاحبه كان مسؤولا في الجزائر خلال الأربعينات ، وعلى دراية كبيرة بالأحداث السياسية في البلاد والذي نشره سنة 1949 . وكتاب هنري بنزات (Henri Benazet) (افريقيا الشمالية في خطر) ، فهذا الكتاب رغم أخطائه الكثيرة في بعض المصطلحات ومفاهيم الحركة الوطنية ، فإنه يعتبر مصدرا هاما لمعرفة وجهة نظر الاستعماريين ، وقد طبع سنة 1949 أيضا . وكل من سارازين وبنزات يعبر عن موقف السياسة الاستعمارية من الحركة الوطنية .

وكتاب شارل أندري جوليان (Charles André Julien) (افريقيا الشمالية تسير) الذي طبعه سنة 1951 ، فهذا الكتاب يعتبر دراسة تحليلية للحركة الوطنية في كل من أقطار المغرب العربي الثلاث : الجزائر ، تونس ، والمغرب ، ورغم أنه أرخ للإستعمار الفرنسي في هذه البلاد بالدرجة الأولى ، فإنه قد بين اتجاهات الحركة الوطنية على اختلاف مشاربها .

وهناك كتاب ذو أهمية بالغة في رصد الاتجاهات العامة للحركة الوطنية وموقف الإستعمار منها ، وهو كتاب السيد عباس فرحات (ليل الاستعمار) الذي كتبه إبان الثورة التحريرية ، فهذا المؤلف يعتبر مصدرا من مصادر الحركة الوطنية .

ومن أهم الكتب الخاصة بفترة الحركة الوطنية كتاب عمار أوزقان (الجهاد الأفضل) فهذا المؤلف يعتبر ذو قيمة علمية في تحديد إيديولوجيات الحركة الوطنية خاصة وأن صاحبه كان مسؤولا كبيرا في الحزب الشيوعي الجزائري منذ سنة 1936 م ، وكان شيوعيا معتدلا ، حاول توخي الحقيقة التاريخية بعيدا عن الميول الحزبية أو الإيديولوجية ،كما حاول التوفيق بين الإسلام والأفكار اللينينية الثورية .

وكتاب الأستاذ عمار طالبي (ابن باديس حياته وآثاره) الذي يتكون من أربعة أجزاء ويشتمل الجزء الأول على دراسة تحليلية قيمة للمجتمع الجزائري في عصر ابن باديس وتحتوي الأجزاء الثلاثة الأخرى على التراث الفكري العظيم الذي تركه ابن باديس بعد وفاته في مختلف المجلات والجرائد العربية ، فهو مصدر أساسي لاغنى عنه للدارسين في مجال الحركة الوطنية الجزائرية .

وكتاب الأستاذ محمد علي دبوز (نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة) في ثلاثة أجزاء و(أعلام الإصلاح في الجزائر) في ثلاثة أجزاء أيضا وقد اعتمدت على بعض هذه الأجزاء خاصة فيما يتعلق بسيرة الشخصيات البارزة من العلماء الذين تطرقت لهم بالدراسة في هذا البحث ، وهذه الكتب رغم أنها تتميز بالطابع الأدبي وأسلوب الوصف والمدح ، فإنها تعتبر مادة خام للبحوث العلمية .

ورسالة عبد الحميد زوزو (دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا) فهذا الكتاب رغم أنه قدم لنيل دبلوم الدراسات المعمقة ، فانه يمتاز بالجدية والتحليل لدور النجم وحزب الشعب في الحركة

الوطنية ، كما أن صاحبه اعتمد على مصادر قيمة في اعداده .

هذا ، ويتكون هذا البحث من مقدمة وعشرة فصول ، وخاتمة :

لقد تتبعنا مراحل الجمعية ، وأطوار المنظمات الجزائرية الأخرى منذ نشأتها حتى سنة 1945 محاولين إبراز نقط الالتقاء وأوجه الاختلاف بينها ،وعقدنا مقارنة تاريخية ، وثقافية ، واجتماعية ، وسياسية بين الجمعية والحركات الأخرى كل على حدة .

وقد تناول الفصل الأول جذور الحركة الإصلاحية ،واتجاهاتها في العالم العربي والإسلامي ثم ظهورها ونموها في الجزائر مع تبيان خصائصها ومميزاتها التي تميزت بها عن الأقطار الإسلامية الأخرى وأفردنا لأبرز قادة[1] الجمعية في هذا الفصل دراسة خاصة بكل واحد منهم ، تضمنت أفكارهم النظرية ، وجهودهم التربوية والوطنية التي بذلوها لإنهاض الشعب الجزائري من كبوته ، وتوعيته بحقوقه السليبة وقد أوضحنا بأن هؤلاء القادة جميعا كانوا يمثلون قمة الهرم الفكري في حركة الجمعية .

أما الفصل الثاني فقد عالج نشأة الجمعية والظروف والملابسات السياسية التي أحاطت بها في عامها الأول ، كما تضمن دراسة مبادئها وأهدافها ، وأسس دعوتها . لقد حاولنا في هذا الفصل تحليل ومناقشة التركيبة الإجتماعية والدينية ، التي تكونت منها الجمعية سنة 1931 ، وكيف تغير أعضاؤها المؤسسون بسرعة في ظروف صعبة كانت بداية لصراع مرير بينها وبين أعدائها من الطرقيين والإدارة الاستعمارية ، كما حاولنا تحليل دعوتها الإصلاحية ، وتوضيح مضامينها ، وأبعادها الوطنية والفلسفية .

أما الفصل الثالث ، فقد تناول الجهود العلمية والتربوية والوطنية التي قامت بها الجمعية خلال مرحلة هذه الدراسة مع توضيح موقفها من الحركة البربرية التي خلقها الإستعمار في الجزائر ، وغذاها بكل الوسائل المادية والمعنوية وكيف استطاع العلماء اضعافها ، ومحاصرتها في نطاق ضيق ، كما شمل هذا الفصل الوسائل المختلفة التي استخدمتها الجمعية في جهادها الوطني ضد الجهل والظلم والإستعمار مثل : المسجد ، والمدرسة ، والصحيفة ، والنادي ، وهذه الوسائل كانت تشكل في مجموعها الدعامة الأساسية في نجاح حركة العلماء ، وتعميقها بين الجماهير الإسلامية في هذا القطر .

أما الفصل الرابع ، فقد تتبع جذور الصراع وأشكاله بين الجمعية والإدارة الإستعمارية مع توضيح أسباب خوف سلطات الإحتلال من هذه الجمعية التي رفعت شعاره تعلموا توحدوا ، كما تناول الطرق والأساليب التي اتبعتها الجمعية للحفاظ على كيانها ، واستمرارها كمنظمة من اجراءات الحل والتعطيل الإستعمارية ، وهذه الطرق والأساليب كانت تتمثل في التكتيك

(1) وهؤلاء القادة هم : عبد الحميد بن باديس ، ومحمد البشير الابراهيمي ، والطيب العقبي ، ومبارك الميلي ، والعربي التبسي .

الذي اتبعه قادتها منذ البداية ، كما تضمن هذا الفصل الأزمات والأخطار التي تعرضت لها الجمعية من قبل إدارة الإحتلال خلال الثلاثينات والأربعينات .

أما الفصل الخامس ، فقد عالج موقف الجمعية من الطرق الصوفية وزوايا المرابطين وعلاقتها العدائية برجالها ، مع اعطاء مسحة شاملة على نشأة هذه الطرق وتطورها ، ومبادئها ، وأهدافها ، وأسباب الخلاف بينها ، وبين العلماء ، خاصة فيما يتعلق بنشر الخرافات واستغلال الشعب ، وخدمة الإدارة الإستعمارية مع تحديد الخطوط البيانية التي توضح نجاح العلماء ، وهزيمة الطرقيين في نهاية المطاف معتمدين في ذلك على شهادات خصوم الجمعية وأنصارها .

أما الفصل السادس ، فقد تناول علاقة الجمعية بنجم افريقيا الشمالية وحزب الشعب الجزائري ، وقد تركز هذا الموضوع حول تطور النجم وحزب الشعب ، وتحليل مواقفهما وبرنامجيهما الوطنيين منذ نشأتهما حتى حلهما موضحا أهم العقبات التي واجهت أعضاءهما خارج الوطن وداخله من قبل الحكومات الفرنسية المتعاقبة على السلطة في فرنسا ، وفي الجزائر على السواء حيث واجه قادة هذين الحزبين صعوبات جمة في نشر مبادئهما وافكارهما بين الجزائريين على الصعيد الوطني باعتبار أنهما قد ولدا في المهجر ، وعقدنا مقارنة بين أعضاء الجمعية وأعضاء الحزب الوطني من الوجهة الثقافية والاجتماعية ، والسياسية محاولين ابراز التقارب الطبيعي في وجهات نظريهما بخصوص القضية الوطنية مثبتين بالأدلة التاريخية الهدف المشترك الذي كانوا يعملون من أجله بوسائل مختلفة .

أما الفصل السابع ، فقد أفرد للعلاقة بين الجمعية واتحادية المنتخبين الجزائريين وقد احتوى على ثلاثة محاور رئيسية يتمثل الأول في تتبع التطور التاريخي لاتحادية المنتخبين منذ نشأتها حتى سنة 1945 مبينا مراحلها المختلفة مع التركيز على نشاط أعضائها ومواقفهم ، وأفكارهم السياسية ، والهزات التي تعرضوا لها خلال الثلاثينات والإنقسامات التي عرفوها قبل اختفاء منظمتهم ، وبعد حلها نهائيا سنة 1941 حيث بقي أعضاؤها بلا تجمعهم طوال سنوات الحرب العالمية الثانية .

. كما حاولنا تحليل هذه النخبة ، وعلاقتها مع الإدارة الفرنسية من جهة ومع جمعية العلماء من جهة أخرى ، وعقدنا مقارنة بين زعمائها ،وقادة الجمعية سواء من الناحية الإجتماعية أو الثقافية أوالسياسية ، ولا سيما فيما يتصل بمواقفها من الوطن الجزائري ، وعروبته ، وإسلامه نتيجة لمظاهر عن هذه الحركة من تشكيك في الشخصية الجزائرية .

أما الفصل الثامن ، فقد عالجنا فيه نشأة الحركة الشيوعية في الجزائر ، ومراحلها التاريخية محاولين تتبع مواقفها من الاستعمار ، والقضية الوطنية ، وقد بينا أن الحركة الشيوعية كانت خلال العشرينات وأوائل الثلاثينات مقتصرة تقريبا على العناصر الأوروبية المعادية للمفاهيم الوطنية وهادفة إلى ربط الحركة الوطنية الجزائرية بالحركة العمالية في فرنسا ، وأبرزنا مدى تخوف هذه الحركة في أول الأمر من التيار الإسلامي ، والنزعة الوطنية على السواء ، وقبل سنة

1936 لم يكن في الجزائر حزب شيوعي قائم بذاته ، وإنما كانت له فروع تابعة رأسا إلى الإد
المركزية للحزب الشيوعي في فرنسا ولكن منذ هذا التاريخ تحولت الفروع الجزائرية إلى حز
مستقل إداريا عن الحزب الشيوعي الفرنسي ، ولكنه ظل تابعا له سياسيا وإيديولوجيا
ودخله جزائريون تسلموا مناصب القيادة فيه ، إلا أنهم لم يكونوا في مستوى الجرأة التي كا
لقادة العلماء ونجم افريقيا الشمالية ، وحزب الشعب الجزائري في المطالبة بالاستقلال ، رغم أ
تعرضوا كثيرهم من أعضاء الحركات الأخرى الى الإضطهاد ، والنفي ، والسجن من قبل إد
الإحتلال ، وقد بينا الظروف والمناسبات التي اقترب فيها العلماء والشيوعيون بعضهم من بعـ
وعقدنا مقارنة بين رجال الجمعية ، وقادة الحزب الشيوعي ، ولا سيما في موقفيهما من مفهوم الأ
الجزائرية حسب تصور ذلك الوقت .

أما فيما يتصل بالفصل التاسع فقد عالجنا فيه المؤتمر الإسلامي الجزائرى العام المنعقد سـ
1936 مع تبيان الظروف الداخلية والخارجية التى ساعدت على عقده مركزين على دور العل
فى رأب الصدع الذي حدث فى صفوف الحركة الوطنية ، وجهودهم في عقد هذا التجمع السيا
الكبير ، والمشاركة في وضع برنامج مطالبه التى قدمت إلى الحكومة الفرنسية بهدف تفكيـ
الإستعمار ، وإقامة إدارة جديدة فى الجزائر ، يشارك فيها المسلمون ، ولا سيما دورهم في الدفا
عن المطالب المتعلقة بالدين والعربية والمؤسسات الإسلامية .

كما حاولنا أن نوضح فى هذا الفصل موقف العلماء من مشروع فيوليت ، حيث أكدنا على أ
تأييد العلماء لهذا المشروع كان من حيث المبدأ فقط ، وليس تأييدا لمضمونه وقد قارنا بين مو
العلماء ، ومواقف الأحزاب الأخرى من المؤتمر ومن مشروع فيوليت .

أما بخصوص الفصل العاشر ، فقد خصصناه لحركة أصدقاء البيان والحرية حيث تتبعنا نشـ
كفكرة ، وظهورها كجمعية سياسية ضمت في عضويتها كل الحركات البارزة في البلاد باستـ
الحزب الشيوعي ، محاولين قدر الإمكان إبراز مدى مساهمة العلماء في نشاط هذه الحر
بالإشتراك مع قادة التيارات الوطنية الأخرى وقد أوضحنا بأن حركة أصدقاء البيان والحرية
رغم أنها لم تعمر طويلا ، إلا أنها قد أحدثت تغييرا جذريا في المفاهيم السياسية والطرق النضا
ضد الإستعمار وكان حلها ، وقمع أعضائها بشدة ، بداية لمنهجية جديدة في الحركة الوطـ
وبرنامج الكفاح المسلح .

وقد أنهينا هذا البحث بخاتمة موجزة عرضنا فيها النتائج التى توصل اليها البحث وقد ذيـ
الرسالة بأربعة ملاحق تتصل اتصالا وثيقا بمحتوى موضوع البحث .

الأستاذ / عبد الكريم بوالصفصا
قسنطينة فى يوم 20 نوفمبر 983

الفصل الأول

حركة العلماء المصلحين وأبرز قادتهم

تمهيد :

لقد تعرض العالم الإسلامي الحديث في تطوره إلى حملة شرسة ، هي حملة التغريب ، والتبعية الثقافية ، والاقتصادية التي شنها الاستعمار الأوروبي على أقطاره المترامية الأطراف مستهدفا تحطيم قيم الأمة العربية الإسلامية والملامح الأصيلة لشخصيتها الثابتة في مراحل تاريخها الطويل ، وابتلاع معظم أجزاء أقطارها ابتلاعا كاملا .

ولم يكن للاستعمار الغربي سبيل إلى تحقيق هدفه المنشود ، سوى تناول (مادة التوجيه) المحلية ، وتشويهها ، ولم يكن هناك في العالم العربي والإسلامي سوى الإسلام وتراثه العظيم الذي خلفه المسلمون خلال مرحلة الخلق والابداع ، في عصورهم الذهبية ، ومن ثم فقد كان تشويه الإسلام وتراثه ، الهدف الأول للاستعمار الغربي ، وكانت وسيلته في ذلك ماخلقه من مفارقة بين الغرب الأوروبي والشرق الإسلامي ، من تقدم الأول وتخلف الثاني .

وظهر (العلم) وابتدأت (الدراسة) هنالك تبحث عن علل هذه المفارقة واجتمعت العلل عندهم في المقابلة بين المسيحية والإسلام ... المسيحية دين المتقدمين ، والإسلام دين المتخلفين ..

ونتيجة لذلك ، فقد ظهر فريق من المسلمين ينادي باقتفاء آثار الغرب فيما وصل إليه من حضارة صناعية وفكر طبيعي ...، ولكن ذلك لم يكن ممكنا في نظر هذا الفريق إلا بتقريب الإسلام من المسيحية ، وعلى أساس هذا التقريب قامت حركة

السيد أحمد خان[1] في الهند التي سماها (تجديدا) وحركة (ميرزا غلام أحمد)[2] التي أخذت طابع الدين والعقيدة ، وقد سعت هاتان الحركتان الى (تأويل) بعض مبادىء الإسلام التي تخالف المسيحية ، ولا سيا مايدعو إلى الاحتفاظ بـ (الشخصية الإسلامية وباستقلال الجماعة الإسلامية ، هذا وقد دعم الاستعمار الغربي هاتين الحركتين بوسائل مختلفة ، لأن في نجاحها بين الأوساط الإسلامية ، مايحقق له تحويل مادة (التوجيه في العالم الإسلامي إلى مادة غير صالحة تتماشى مع أهدافه ومطامحه . ومن هنا جاءت مقاومة المسلمين للاستعمار مرتبطة ارتباطا وثيقا بمحاربة الخرافات ، ورد التحريف الذي أدخل على الإسلام من جراء حملة الغرب الأوروبي ، وأعوانه في البلاد العربية والإسلامية .

وهكذا برز في الفكر الاسلامي - منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر - اتجاهان :

أحدهما ممالي للإستعمار الغربي في تقريب الإسلام من المسيحية أو تحويله إلى توجيه ديني يرضي المستعمر .

أما الثاني ، فقد كان يهدف إلى مقاومة هذا التقريب أو هذا التحويل مع الدعوة

---

(1) (1817 - 1898) له مؤلفات : (حياة محمد) سنة 1870 ، و(تفسير القرآن) سنة 1880 - 1895 الى سورة الكهف ، وتفسير الانجيل وقد سماه (تبيان الكلام) سنة 1862 ، وقد وصف جمال الدين الأفغاني (أحمد خان بهادور) بأنه عميل للانجليز ، وقد حاول ان يثبت أن الانجيل غير محرف ، ولكنه قد حرف القرآن في تفسيره السالف الذكر . (ظهر بمظهر الدهريين الطبيعيين ، ونادى بأن لاوجود الا للطبيعة العمياء ، وليس لهذا الكون اله حكيم ... وان جميع الأنبياء كانوا طبيعيين ... ولقب نفسه بالطبيعي) . وجهر بالدعوة لخلع الاديان كافة لكنه لم يدع انى ذلك أحدا الا المسلمين .. ونادى الطبيعة الطبيعة ، ليوسوس الناس بأن أوروبا ماتقدمت في المدينة ... الا برفض الأديان ، والرجوع الى الغرض المقصود في كل دين - على زعمه -) ونادى بالتعاون بين المسلمين والغربيين ، ودعا الى مأسماه (انسانية الأديان) أي المعنى الانساني العام الذي يدعو الأديان السماوية الى اعتباره وحفظه ، وهو مايشبه اليوم فكرة (العالمية) وقد بقيت تعاليم السيد أحمد خان وأراؤه ذات طابع اصلاحي ولم تصطبغ بصبغة العقيدة والمذهب الروحي ، وقد كان أحمد خان صحافيا ومدرسا بالهند/ ينظر مجلة العروة الوثقى ، ط2 ، دار الكتاب العربي ، بيروت 1980 ، ص414 ، وكذلك محمد البهي/ الفكر الاسلامي الحديث ، وصلته بالاستعمار الغربي ، ط2 ، دار الفكر ، بيروت 1973 ، ص22 .

(2) توفي سنة 1908 صاحب (مذهب القاديانية) له كتاب (براهين الأحمدية) ادعى في هذا الكتاب بأنه (المهدي) ، ويختلف مذهبه مع الاسلام الأصيل فى عدة مسائل ، منها قوله : ان عيسى عليه السلام هاجر بعد أن بعث من موته الظاهري الى كشمير فى الهند لينشر تعاليم الأنجيل ، في بلاده ، ويدعى أنه حل فيه عيسى ومحمد على السواء ، فهو نبي . وقد أبطل المذهب القادياني الجهاد في سبيل الله ، وحاول التقريب بين المسيحية والاسلام ، ويقول (أبو الحسن الندوي) وهو من كبار علماء الهند ، في كتيب له ، عنوانه (القاديانية ثورة على النبوة المحمدية والاسلام (... قد تحقق علميا وتاريخيا أن القاديانية وليدة السياسة الانجليزية) . ينظر نفس المرجع ، ص 46 ، 47 ، 48 .

إلى احتفاظ المسلمين بإسلامهم ، كما جاء به القرآن والسنة ، والعمل على استقلال المسلمين ، وعدم اندماجهم في الكيانات الأجنبية الأخرى . ولقد استمرت هذه الثنائية في توجيه التفكير الاسلامي حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ، حيث أضيف إليها اتجاه ثالث ، وهو الإتجاه المادي الماركسي .

وقد عرف الإتجاه الأول باسم (التجديد) بينما عرف الاتجاه الثاني باسم الاتجاه (الاصلاحي) ، وقد سار الاتجاه الأول في خدمة الاستعمار الغربي - ولكن من غير قصد مباشر - حيث أن هذا الاتجاه يعتبر (تقليدا) للدراسات الاسلامية في تفكير المستشرقين الغربيين .

وقد تبنى الاستعمار الغربي هذه الدراسة في الجامعات العربية نفسها ، لكي يدعم القائمين بها ، وتصديرها الى الشرق الاسلامي في شكل مؤلفات ترسل الى طلاب الثقافة .

وقد نتج عن هذه السياسة الثقافية الغربية ظهور تلاميذ وأتباع لهذه الموجة الفكرية المسمومة .

وهكذا بسط الغرب نفوذه على كل العالم الاسلامي ، فسيطر على التعليم ، والسياسة ، والصحافة ، واللغة ، والدين ، وعلى كل المؤسسات الاجتماعية ، وابتكر نظريات هدامة للقضاء على أخلاق المسلمين ، ومثلهم العليا ، وقد حمل بواسطة المستشرقين ، ومن حذا حذوهم من المفكرين العرب على بث الكثير من الأخطاء والمغالطات التاريخية لتشويه ماضي المسلمين وأمجادهم ، كما حاول انكار فضل الفكر العربي الاسلامي على الحضارة الغربية الحديثة .

وقد عمل على تحطيم القوى الروحية للأمة الاسلامية بنشر (البغاء والخمر)[1] . وقد حاول الغربيون أن يقدموا للأمة العربية من الحضارة مايتصل بالغرائز الحيوانية ، والترف النفسي ، واللهو المخدر ، بهدف القضاء على مقوماتها الشخصية ، وغرس روح الفساد في كيانها بدعوى أن المدنية الأوروبية كل لايتجزأ (فاما أن تؤخذ كلها أو تترك كلها) .

وقد أفرغ دعاة التغريب جهودهم في اثارة الشكوك حول الاسلام باعتباره القوى المحركة ، والباعثة على التحرر والانعتاق من ربقة العبودية والاستسلام[2] .

---

(1) ينظر أنور الجندي ، الفكر العربي المعاصر ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة بدون تاريخ ، ص 1 ، 2 .

(2) نفس المرجع ، ص 2

ولقد كانت الجزائر أول بلد عربي اسلامي سقط بين مخالب الاستعمار الفرنسي[1] الذي حاول احتواءه في كيان وطنه الأم، وازالة كل عقبة، تعترض سبيله، وفي طليعتها الدين الاسلامي، واللغة العربية. وقد حدث ذلك بعد ضعف الجزائر. وانهيار قوتها العظمى كنتيجة للضعف العام الذي أصاب الدولة العثمانية، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، باعتبارها القوى الاسلامية الحامية لمعظم أجزاء الوطن العربي، ولقد اتجهت السياسة الاستعمارية في الجزائر - بعد دراسة تحليلية معمقة لنفسية المجتمع، وأحواله العامة والخاصة - الى التصوف الذي كانت له مكانته المعتبرة بين المسلمين في ذلك الوقت، حيث شرع رجال الاستعمار، وأساطينه يحيكون خيوطهم، حول الطرق الصوفية وشيوخها حتى أوهموا المسلمين بأن هؤلاء الشيوخ هم أولياء الله الصالحون[2] ويمنعون ويبسطون الرزق لمن يشاؤون وبالاضافة الى هذه المحاولات الرامية الى القضاء على القيم الروحية والفكرية، فقد عمل الاستعمار بشتى الأساليب على تجريد الجزائريين من كل الحقوق المادية المتمثلة في أراضيهم الخصبة التي كانت تشكل المصدر الرئيسي لحياتهم المعيشية ومن ثم فقد وقف الشعب الجزائري موقف التحدي ورد الفعل، ومر بعدة تجارب نضالية لمقاومة الزحف الأوروبي على البلاد، ولكن تلك المقاومة لم تحقق أهدافها.

ومع بزوغ القرن العشرين غير المسلمون الجزائريون أسلوب كفاحهم، فكان عليهم أن يرابطوا ثقافيا، ودينيا وسياسيا لمقاومة الاستعمار العقائدي، والفكري، والاجتماعي، وسيطرته السياسية، والاقتصادية، كما رابط أسلافهم عسكريا خلال القرن التاسع عشر، لمقاومة هذا الاستعمار نفسه، فصارت الجزائر بفضل هذه المقاومة العسكرية، والثقافية، دار جهاد، مستمر، وتأتي أهمية الحركة الاصلاحية الاسلامية في الجزائر، كرد فعل مباشر على مخططات المستعمرين الفرنسيين، الذين عقدوا العزم على انهاء الاسلام في المجتمع الجزائري المعاصر، وتقليص وجوده حتى يبدو خاليا من كل محتوى وفعالية واقعية.

وهنا ينبغي على الباحث طرح الأسئلة التالية:

---

(1) ينظر كتابنا، جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ودورها في تطور الحركة الوطنية الجزائرية 1931 - 1945، ط1 دار البعث، قسنطينة، 1981، ص 51.

(2) محمد فتحي عثمان: (دعوة الاصلاح الاسلامي)، مجلة كلية العلوم الاجتماعية عدد 4 الرياض السعودية 1980، ص 433.

أولا : هل أن الحركة الإصلاحية السلفية التجديدية في الجزائر ظهرت من فراغ أم كان لها امتداد تاريخي داخل الوطن وخارجه ؟

ثانيا : هل أن هذه الحركة ولدت دفعة واحدة أم على مراحل متتالية ؟

بكل تأكيد أن هذه النهضة الإسلامية والوطنية في الجزائر أو الصحوة كما نسميها اليوم ، كان لها امتداد وتجديد لحركات إسلامية ، ومدارس فكرية وعملية ، ظهرت من قبل ، إختفى بعضها ولازال بعضها الآخر قائما بشكل أو بآخر حتى اليوم ، حركات قام بها رجال صادقون ، حاول كل واحد منهم إحياء الأمة أو تجديد الدين بتنقيته من الشعوذة والخرافات الدخيلة ، وبعث الثقافة العربية وتطويرها ، ومقاومة الإستعمار وإخراجه من البلاد الإسلامية .

ومن بين ماسجل التاريخ من هؤلاء العظماء ، موقض شبه الجزيرة العربية ، باعث الدعوة السلفية وخريج المدرسة الحنبلية (الشيخ محمد بن عبد الوهاب)[1] الذي كانت دعوته المنبع الذي إستلهمت منه الحركات الإصلاحية الحديثة تعاليمها الأساسية .[2] .

وهناك مؤسس الحركة السنوسية في ليبيا محمد بن علي السنوسي الجزائري[3] المسلم ، المجاهد في سبيل الدين والأوطان الإسلامية .

ويذكر منهم الداعية الثائر المجاهد ، الذي أيقظ الإسلام وجذوة الجهاد في الشعب السوداني ، وهو الإمام محمد بن أحمد بن السيد عبد الله[4] .

وهناك أيضا موقظ الشعوب الإسلامية ، ومنبه الأفكار وعدو الإستعمار ، وباذر بذور الثورة عليه في عالم الإسلام ، داعية (الجامعة الإسلامية)[5] السيد محمد جمال الدين الأفغاني[6] .

ويدخل في هذا السياق أيضا ، الأديب الرحالة المصلح ، داعية الحرية

---

(1) (1115 - 1206هـ/1703 - 1792م)

(2) ينظر ديوسف القرضاوي ، الصحوة الإسلامية وهموم الوطن العربي والإسلامي ، ط2 ، مكتبة رحاب ، الجزائر (1409هـ - 1989م) ، ص 32 .

(3) (1787م - 1266هـ - 1859م)

(4) (1260هـ/1844م - 1302هـ/1885م)

(5) (1222هـ/1832م - 1314هـ/1897م)

(6) ينظر يوسف القرضاوي ، المرجع السابق ، ص 33 . وكذلك علي المحافظة : الإتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة (1798 - 1914) بيروت 1970 ، ص 55 - 65

السياسية ، وعدو الإستبداد السياسي ، الشيخ عبد الرحمن الكواكبي[1] صاحب المؤلفين الشهيرين «طبائع الإستبداد ومصارع الإستعباد» و «أم القرى» .

وفي قافلة هؤلاء الشيخ رشيد رضا[2] تلميذ عبده وصاحبه ، وناشر علمه ، والذي أخذ من أستاذه الإستقلال في الفكر ، والثورة على الجمود والتقليد ، والتوغل في علم الحديث وآثار المدرسة السلفية ، فجمع بين القديم والجديد ، ووازن بين العقل والنقل ، وأصبح يمثل بوضوح (السلفية المجددة) الشهيرة و (تفسير المنار) ومؤلفات كثيرة كانت كواكب يقتدى بها في سبيل العلم والتجديد والإصلاح[3] .

في قلب شبه الجزيرة العربية ، وبعيدا عن الحضارة الغربية ، برز إلى الوجود رجل دعا إلى الثورة على الجمود وجاهد من أجل علم التوحيد الذي هو ميزة الإسلام الكبرى ، وهو محمد بن عبد الوهاب[4] ، الذي عرفت حركته فيما بعد باسم «الوهابية» ، وهي دعوة إلى العودة بالمسلمين إلى «الشهادة» كما فهمها السلف الصالح ، أي أنها تقرير للإسلام الحقيقي الذي جاء ليرفض ، قبل كل شيء ، جميع الآلهة التي أبى المشركون إلا أن يضعوها إلى جانب «الله الواحد الأحد» ويعبدونها بشتى الأشكال والصور ، ولم يهتم الوهابيون إطلاقا بالتدليل على وجود الله أو على نبوة الرسل أو على إثبات المعاد وما أشبه ذلك من قضايا علم الكلام الإسلامي التقليدي . - إذ لم يكن أهل الجزيرة في حاجة إلى هذه البرهنة إطلاقا - لكنهم عنوا فقط بتخليص التوحيد من الكدر الحسي المشخص الذي أغرقه فيه جهل عامة المسلمين - والتوحيد عند الوهابية له مضمون نفسي اجتماعي عميق ، فهو في الواقع توحيد «محرر» بكل معنى الكلمة : من الخرافات والأوهام أي من سلطة كل مخلوق ، وأكثر من ذلك كله ، فهو محرر للإنسان من سلطة الإنسان نفسه ، وهذا تحرير لايناظره إجتماعيا ، أي تحرير آخر . ومن هنا يمكن القول أن الوهابية هي رجوع إلى مبادىء السلف وسلوكاتهم الحقيقية ، لأن ماميز الإسلام الأول في الواقع وماكون قطب الرحى فيه إنما يدور حول هذا المعنى بالذات لـ «الشهادة» . ولكن مايمكن قوله الآن هو أن الوهابية لم تدفع ، عمليا واجتماعيا ، بعودتها السلفية إلى نتائجها

---

(1) (1265هـ/1848م - 1380هـ/1902م)

(2) (1282هـ/1354هـ - 1865م/1935م)

(3) د . يوسف القرضاوي ، المرجع السابق . ص 33

(4) (1115هـ/1703م - 1206هـ/1791م)

المنطقية اللازمة ، وأنها ظلت حبيسة أطر ثقافية ، عاجزة أصلا عن استخدام الينابيع السلفية لأغراض العالم الحديث . كما يمكن القول أيضا ، إن الإسهام الذي قدمته الفكرة الأساسية في الوهابية ، قد كان على رغم خطورته وأهميته ، محدودا جدا وفي حاجة إلى إثراء وتطوير وخاصة في المواطن التي لم تكن تبعد عن قلب العالم الحديث بعد الجزيرة العربية عنه ، أي في البقاع التي لم تكن للعقيدة الاسلامية فيها السيادة المطلقة ، حيث كان في هذه البلدان مذاهب وديانات وفلسفات شتى . فكان على عقيدة التوحيد في هذه الأقطار مثل الهند ، ومصر أن تكشف في ذاتها عن امكانيات أخرى وتستجيب لأمور لم تكن مطروحة في الجزيرة العربية[1] .

وتقوم الدعوة الوهابية على المبادىء التالية :

1 - العودة بالإسلام إلى صفائه الأول : ذلك أن العقيدة الإسلامية في عهد الرسول وخلفائه الراشدين كانت صافية نقية . فكانت مصدرا لعظمتهم ومبعثا لانتصاراتهم وفتوحاتهم الواسعة .

2 - التوحيد : التوحيد عند محمد بن عبد الوهاب نوعان : «توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية» . أما توحيد الربوبية فإن الله تعالى منفرد بالخلق والتدبير عن الملائكة والأنبياء وغيرهم ، وهذا حق لابد منه ، لكن لايدخل الرجل في الإسلام ، لأن أكثر الناس مقرّون به ولكن الذي يدخل الرجل في الإسلام هو توحيد الألوهية : وهو أن لايعبد إلا الله ، لاملكا مقربا ، ولا نبيا مرسلا - وأما من عصاه ودعا عيسى والملائكة واستنصرهم والتجأ إليهم فهو الذي جحد «لا إله إلا الله»[2] .

3 - منع التوسل والإستعانة بغير الله

4 - مسألة الشفاعة ومسألة الغلو في أهل القبور كلاهما ممنوع

5 - أنكر تأويل القرآن وكفر كل من يقر بذلك معتمدا على قوله تعالى : «ولا يعلم تأويله إلا الله» .

6 - مقاومة المسكرات

7 - منع التبغ

---

(1) فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام في العالم العربي الحديث ، ط1 ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، 1985 ص 191 - 192 - 193 .

(2) علي المحافظة : المرجع السابق ، ص 40 .

8 - تحريم الذبح لغير الله

9 - لا توكل ولا خشية ولا إنابة إلا لله رب العالمين[1] ، اعتمادا على قوله تعالى : «قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين»[2] ، وقوله : «وعلى الله توكلت وإليه أنيب»[3] ، وقوله : «ومن يتوكل على الله فهو حسبه»[4] ، و «فلا تخشوهم واخشوني» .

10 - دعا إلى التقشف في الحياة وإلى إجبار الناس على الصلاة والزكاة والقيام بأركان الإسلام بحذافرها . وهدفه من ذلك هو إعادة بناء المجتمع الإسلامي[5] .

يبدو من خلال النقاط السالفة الذكر أن الوهابية لم تكتف بالعبادة كما جاء بها الإسلام في القرآن والسنة ، وكما ذكرها ابن تيمية ، بل عملت على أن تكون بعض العادات أيضا داخلة في نطاق الإسلام ، فتحريم التبغ والتشديد فيه وتحريم القهوة وماماثلها على أنفسهم في أول الأمر ، أمور ليست محرمة في الإسلام .

وفي القرن التاسع عشر للميلاد ، برزت حركة إصلاحية سلفية أخرى في ليبيا ، بالمغرب العربي ، استمدت جذورها من مبادىء الحركة الوهابية ألا وهي الحركة السنوسية التي كانت أيضا طريقة صوفية معتدلة ، جمعت بين النظرة الوهابية للإصلاح الديني ومحاسن الطرق الصوفية . وسلكت طريقا وسطا بين الصوفية الاشراقية والصوفية البرهانية .

وكان هدفها الأسمى جعل الإنسان مسلما صالحا ، لاصوفيا غيبيا . فجلبت بطريقتها المعتدلة هذه أتباعا كثيرين وانتشرت بين أهل البادية انتشارا واسعا على الرغم من أن معرفتهم بالتعاليم الدينية والطرق الصوفية معرفة بسيطة وبدائية .

وترتكز السنوسية على المبادىء التالية :

1 - العودة بالإسلام إلى صفائه الأول

2 - اعتبار الكتاب والسنة مصدري الشريعة الإسلامية .

---

(1) عبد الغفور عطار ، محمد بن عبد الوهاب المملكة السعودية سنة 1397 هـ 1977م ، ص 178 ، ط5 وكذلك أحمد أمين ، زعماء الاصلاح في العصر الحديث ، القاهرة ، بنسبة 1949 ، ص 10 .

(2) سورة الأنعام ، الآية : 162 .

(3) سورة هود : الآية 88 .

(4) سورة الطلاق : الآية 3 .

(5) ينظر : عليه الحافظة : المرجع السابق ، ص ص 42 ، 43 .

3 - الدعوة إلى فتح باب الإجتهاد في الإسلام واعتبار غلقه سببا في تحجر الفكر الإسلامي ودخول البدع إليه .

4 - تطهير الدين مما علق به من بدع وخرافات

5 - الإيمان بما تدعيه الصوفية من الرؤيا والإتصال والكشف

6 - حصر الإمامة في قريش

وعلى تخوم ليبيا وبالقرب من السنوسيين بالذات ، يجد المرء مصلحا ثائرا تميزت تعاليمه بالدعوة الصريحة للثورة على الخرافات والجمود ، والعودة بالإسلام إلى منابعه الأولى والتعامل معها مباشرة ، وتهديد الأنظمة السياسية في العالم الإسلامي ، وهو محمد بن أحمد في السودان (المعروف باسم المهدي) . ومما جاء في تعاليمه :

1 - ترك الكتب لكتاب الله لأنها حاجبة عن فهم معناه ، قائلا : وطريقتنا لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ومذهبنا السنة والكتاب .

2 - الجمع بين المذاهب الأربعة والخروج بمذهب اجتهادي خاص ، والاعتقاد بأن العلماء السابقون لو أدركوه لاتبعوه ، على اعتبار أن مذهب المهدي هو الكتاب والسنة ، والتوكل على الله وطرح العمل بالمذاهب ورأي المشايخ . ذلك أن المهدي يعتقد أن انقسام المسلمين إلى عدة مذاهب ، واتباعهم الطرق الصوفية المختلفة يضعف من قوتهم ويسدل على تعاليم دينهم ستارا من الغموض .

3 - حصر الطريق الموصلة إلى الله بستة أمور هي : صلاة الجماعة ، والجهاد في سبيل الله ، والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه ، والإكثار من كلمة التوحيد ، وتلاوة القرآن الكريم ، وتلاوة الراتب وهو مجموعة من الآيات والأحاديث النبوية فرض على أتباعه حفظها غيبا .

4 - تحريم زيارة قبور الأولياء بعد أن أعلن مهديته . وتحريم الرقص والغناء ومنع البكاء وراء الميت ومقاومة السحر ، وكتابة الحجب ، ومقاومة شرب الحشيش والخمرة . ودعا إلى البساطة في الملبس والمأكل واحتفالات الزواج والجنازة .

5 - القضاء على الفساد السياسي في السودان وبقية الأقطار الإسلامية . والواقع أنه من الصعوبة بمكان تمييز أفكار المهدي السياسية عن تعاليمه الدينية ، حيث استنكر في بيانات مختلفة الظلم والإضطهاد وفساد «الأتراك» كموظفين رسميين ، كما استنكر ترفهم وضعف إيمانهم وتصرفاتهم كمسلمين .

3 – الدعوة إلى فتح باب الإجتهاد في الإسلام واعتبار غلقه سببا في تحجر الفكرالإسلامي ودخول البدع إليه .

4 – تطهير الدين مما علق به من بدع وخرافات

5 – الإيمان بما تدعيه الصوفية من الرؤيا والإتصال والكشف

6 – حصر الإمامة في قريش

وعلى تخوم ليبيا وبالقرب من السنوسيين بالذات ، يجد المرء مصلحا ثائرا تميزت تعاليمه بالدعوة الصريحة للثورة على الخرافات والجمود ، والعودة بالإسلام إلى منابعه الأولى والتعامل معها مباشرة ، وتهديد الأنظمة السياسية في العالم الإسلامي ، وهو محمد بن أحمد في السودان (المعروف باسم المهدي) . ومما جاء في تعاليمه :

1 – ترك الكتب لكتاب الله لأنها حاجبة عن فهم معناه ، قائلا : وطريقتنا لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ومذهبنا السنة والكتاب .

2 – الجمع بين المذاهب الأربعة والخروج بمذهب اجتهادي خاص ، والاعتقاد بأن العلماء السابقون لو أدركوه لاتبعوه ، على اعتبار أن مذهب المهدي هو الكتاب والسنة ، والتوكل على الله وطرح العمل بالمذاهب ورأي المشايخ . ذلك أن المهدي يعتقد أن انقسام المسلمين إلى عدة مذاهب ، واتباعهم الطرق الصوفية المختلفة يضعف من قوتهم ويسدل على تعاليم دينهم ستارا من الغموض .

3 – حصر الطريق الموصلة إلى الله بستة أمور هي : صلاة الجماعة ، والجهاد في سبيل الله ، والامتثال لأوامره واجتناب نواهيه ، والإكثار من كلمة التوحيد ، وتلاوة القرآن الكريم ، وتلاوة الراتب وهو مجموعة من الآيات والأحاديث النبوية فرض على أتباعه حفظها غيبا .

4 – تحريم زيارة قبور الأولياء بعد أن أعلن مهديته . وتحريم الرقص والغناء ومنع البكاء وراء الميت ومقاومة السحر ، وكتابة الحجب ، ومقاومة شرب الحشيش والخمرة . ودعا إلى البساطة في الملبس والمأكل واحتفالات الزواج والجنازة .

5 – القضاء على الفساد السياسي في السودان وبقية الأقطار الإسلامية . والواقع أنه من الصعوبة بمكان تمييز أفكار المهدي السياسية عن تعاليمه الدينية ، حيث استنكر في بيانات مختلفة الظلم والإضطهاد وفساد «الأتراك» كموظفين رسميين ، كما استنكر ترفهم وضعف إيمانهم وتصرفاتهم كمسلمين .

ويعتقد بعض الباحثين أن محمد عبده وجمال الدين الأفغاني من مدرسة بن تيمية ، والحق أن الأفغاني أنشأ مدرسة حديثة تسلك في التجديد الإسلامي مذهبا يؤمن بفعالية الفلسفة الحديثة ويحاول أن يقيم النهضة الإسلامية على أساسها كما قامت عليه نهضة أوروبا . وهذه المدرسة أقرب إلى بن رشد من بن تيمية ، لأن بن رشد كان يؤمن بالفلسفة وعلومها في عصره ويرى أنه لاتعارض بين الإسلام والفلسفة وعلومها في عصره[1] . أما بن تيمية فكان يخالف بن رشد في هذا الرأي ، ويرى تكفير الفلاسفة كما يراه مخالفوه من الأشعرية وبهذا انتصر رأي بن رشد في هذا العصر ، ولكنه جاء متأخرا[2] .

أما تعاليم جمال الدين فتتمثل في أن : الغرب مناهض للشرق ، وأن الروح الصليبية لم تبرح كامنة في الصدور كما كانت في قلب بطرس الناسك ، ولم يزل التعصب كامنا في عناصرها ، وهي تحاول بكل الوسائل ، القضاء على كل حركة يحاولها المسلمون للإصلاح والنهضة ... من أجل ذلك يجب على العالم الإسلامي أن يتحد لدفع الهجوم عليه ليستطيع الذود عن كيانه . ولا سبيل إلى ذلك إلا باكتناه أسباب تقدم الغرب ، والوقوف على عوامل تفوقه ومقدرته[3] .

أما القضايا التي تناولها جمال الدين بالبحث والتحليل فيمكننا إيجازها فيمايلي :

أولا : بحوث فلسفية ودينية في مسائل العقيدة : قضية الألوهية «مسألة إثبات وجود الله[4] . درجة النبوة ومقام الحكمة . عقائد الطبيعيين[5] وفساد مذهبهم ، ضرورة الدين للفرد والمجتمع[6] «عالمية التصوف»[7] .

ثانيا : بحوث في الشريعة الإسلامية :

العقيدة وتوجيه سلوك الفرد «سلوك الفرد يبين أثر البيئة على عامل الوراثة» توجيه الفرد من الداخل تنازع بين الفضيلة والرذيلة .

---

(1) نفس المرجع ، ص 528 .

(2) نفس المكان .

(3) أحمد أمين ، المرجع السابق ، ص 113 .

(4) جمال الدين ، رسالة الرد على الدهريين ، محمد عمارة ، الأعمال الكاملة ص 169 ، ط1 ، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

(5) نفس المصدر ، ص 149 .

(6) نفس المصدر ، ص 141 .

(7) نفس المصدر ، ص 298 .

ثالثا : بحوث في السياسة والإجتماع :

الاستعمار الأوروبي[1] والشرق الإسلامي «المقومات الحضارية» «الخلافة والجامعة الإسلامية» وحدة الأديان السماوية[2] .

قضية التتريك ، المحافل الماسونية ، الأحزاب السياسية[3] في الغرب . التعصب الجنسي والتعصب الديني . نداء إلى الإنسانية القرآن القرآن .

هذه هي أبرز المسائل التي عالجها جمال الدين بالبحث والدراسة ، أو بالحديث والمقالة أو سجلها عنه بعض حواريه أثناء دروسه أو عند املائه لخاطراته .

وإذا كنا قد أشرنا إلى كثير من المسائل التي كانت تشغل فكر جمال الدين ولو بشيء من الإقتضاب ، فإنه من الأهمية بمكان – وأنا أختم الكلام عما أثمرته عبقرية هذا الرجل – أن أذكر بإيجاز أعز أمنية جاهد من أجلها ، ألا وهي : فكرة الجامعة الإسلامية والتي تعني اتحاد جميع الأمم الإسلامية بما في ذلك فارس الشيعية ، اتحادا حرا تحت سلطان خلافة منظمة ، وكان جمال الدين يرى أنه من الممكن تحقيق مثل هذه الخطة تحقيقا منسقا وسريعا باتفاق جميع الحكومات الإسلامية ، أفضل من حركة تأتي من الأدنى .

ويعتبر الأستاذ الإمام محمد عبده من المجددين الحقيقيين في الإصلاح الإسلامي ، وفي علم الكلام ، وفي إعادة البناء للمجتمع الإسلامي ، ذلك أنه إنقضت قرون عدة قبل أن يظهر في الإسلام كتاب جديد في علم الكلام . إذ أن المؤلفات الأساسية في هذا العلم ترجع بالدرجة الأولى إلى القرنين الثالث والرابع الهجريين ، وماصنف بعد ذلك لم يكن إلا استئنافا للآراء التي وردت في تلك المؤلفات السابقة أو تأريخا لها ، دون أن يخلو مع ذلك من بعض التطورات . أما المؤلفات المتأخرة فقد كانت شروحا لا تضيف إلى العقائد المعروفة شيئا ذا بال ، وقد دارت جميعها تقريبا في فلك المذهب الأشعري أو مايقرب منه . وكذلك كان حال المؤلفات الحديثة ، فإن (أم البراهين) الذي وضعه أبو عبد الله محمد بن يوسف السنوسي[4] ، و(الجواهر الكلامية في العقائد الإسلامية) الذي صنفه الشيخ طاهر الجزائري[5] وغيرهما من كتب علم

(1) نفس المصدر ، ص 446 .
(2) خاطرات جمال الدين الأفغاني ، نفس المصدر ، ص 290 .
(3) جمال الدين الأفغاني ، المرجع السابق ، ص 142 .
(4) فهمي جدعان : المرجع السابق ، ص 197 .
(5) (1268هـ/1852م – 1338هـ/1920م) .

الكلام ، قد ظلت تدور في فلك علم الكلام وعلم أصول الدين التقليديين ، بعيدا عن مشاكل الفكر الحديث وإفرازاته اللاهوتية والفلسفية . ولم ينفرد من بين المؤلفات الحديثة بعناصر «كلامية» جديدة حقا إلا «رسالة التوحيد» التي صنفها الشيخ محمد عبده[1] والحقيقة أن «رسالة التوحيد» قد كانت أبرز المؤلفات الكلامية الحديثة على الإطلاق ، لأنها تمثل أحد أهم الجهود البنائية الإيجابية التي بذلها محمد عبده في حياته التي حفلت بشتى النشاطات، إن لم نقل أنها أبرزها جميعا لأن بقية كتاباته الأخرى قد تميزت بالروح الجدلية الدفاعية أو التبريرية ، أو بالوقوف عند نقاط عملية فقهية جزئية كانت موضوع فتوى واجتهاد أو ببعض الإهتمام بتفسير القرآن ، أو بالخوض في بعض القضايا السياسية .

والذي يبدو لأول وهلة هو أن «رسالة التوحيد» ليست إلا استئنافا كليا شاملا للأفكار الكلامية والفلسفية التقليدية . فأثر ابن سينا والأشاعرة والمعتزلة له بين في بعض أقسام «التوحيد» الخالصة . والإطار العام لمعتقدات أهل السنة التقليدية واضح كل الوضوح[2] .

وكانت مواقف محمد عبده في الدفاع عن حقيقة الإسلام الخالص ، مواقف مشهودة ، فعندما زعم جابرييل هانوتو ، – السياسي الفرنسي المعاصر لمحمد عبده – ، أن حالة التأخر التي يعاني منها المسلمون تصل في نهاية التحليل ، إلى العقيدة الإسلامية نفسها ، ذلك أنه في الوقت الذي انتجت فيه المسيحية المدنية الحديثة برمتها لم ينتج الإسلام إلا تقهقرا وانحطاطا !

وفي رأيه أن العقيدتين الأساسيتين اللتين يمكن أن يعزى إليهما هذا الإنحطاط ، هما على وجه التحديد عقيدة «التوحيد الخالص» وعقيدة «القدر» . أما عقيدة «التوحيد» فإنها ، بتقريرها للقدرة والعظمة اللامتناهيتين والعلو المطلق لله ، تجعل الإنسان في أسفل الوجود وتدفعه بالتالي إلى إغفال شؤون نفسه ، وبث القنوط في فؤاده ، وايهان عزيمته في الدنيا. أما عقيدة «القدرة» فإنها تلغي إرادة الإنسان وتشل فعاليته وترد وجوده إلى العدم[3] .

(1) (1266هـ/1849م – 1323هـ/1905م) .
(2) فهمي جدعان ، المرجع السابق ، ص 197 .
(3) انظر مقالتي هانوتو في كتابه الإسلام والرد على منتقديه للشيخ محمد عبده ، القاهرة 1346/1928 ، ص 13 إلى ص 28 .

الأرض ستة عشر قرنا ولم تأت بفلكي واحد ، وأخذ المسلمون يبحثون في العلوم بعد وفاة نبيهم ببضع سنين»[1] .

ومع هذا كله فقد اعترف محمد عبده في رده على هانوتو ، وكذلك في رده على فرح انطوان – الذي زعم في سياق الكلام على بن رشد أن الإسلام قد اضطهد العلم والفلسفة ، في الوقت الذي تسامحت فيه المسيحية معهما فأنتجت المدنية الحديثة – اعترف بأن خللا قد طرأ في العقيدة الدينية عند المسلمين ، وأدى إلى حالة الانحطاط التي تبدو على حياتهم منذ قرون . ولكن سبب هذا الانحطاط لايرجع بأي حال إلى طبيعة الاعتماد الديني الإسلامي نفسه . فإن أصول هذا الإعتقاد لايمكن إلا أن تكون حافزا على التمدن والتقديم كما كان الحال في بدايات الإسلام ، حين كانت المعتقدات سليمة صحيحة[2] .

والجمود ليس من طبيعة الإسلام وإنما هو «علة عرضت على المسلمين عندما دخل على قلوبهم عقائد أخرى ساكنت عقيدة الإسلام في أفئدتهم» أما السبب في تمكنها من نفوسهم فهو «تلك الشجرة الملعونة» ، شجرة السياسة ، فهذه الشجرة لم تحول الإسلام من «دين عربي» إلى «علم عربي» فحسب ، وإنما دفعت بأحد الخلفاء الذين اتخذوا من سعة الإسلام جنة لأخطائهم – إلى أن يستبدل بالجيش العربي – الذي ظن أنه يمكن أن يكون عونا لخليفة علوي على حكمه – جيشا أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم ممن اصطنع لنفسه بإحسانه واستعباده ، وممن لايخشى من جانبهم خطرا ، فما كان من ذلك إلا أن «استعجم الإسلام وانقلب عجميا واستبد الجند الجدد بالسلطان وبالدولة حاملين إلى الاسلام خشونة الجهل وألوية الظلم . فلم يحفلوا بالعلم ولا بأهله الحقيقيين ، وإنما حملوا كثيرا من أعوانهم على أن يتدرجوا في سلك العلماء ، ويتسربلوا بسرابيله فيدخلوا على العامة من باب التقوى وحماية الدين ، ليحسنوا التقاليد والشعائر التي سادت في الوثنية وغيرها ويسنوا من عبادة الأولياء والعلماء والمتشبهين بهم مايدفع بالناس إلى الضلالة ، ويقرروا ، بعد هذا كله ، «المتأخر ليس له أن يقول بغير مايقول «المتقدم» وجعلوا ذلك عقيدة «حتى يقف الفكر وتجمد العقول» .

---

(1) نفس المصدر ، ص 45

(2) فهمي جدعان ، المرجع السابق ، ص 203 .

ولم يقفوا عند هذا وإنما بثوا في العامة في شتى الأطراف والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لايعنيه .

وأن مايظهر من فساد الأعمال واختلال الأحوال ليس من صنع الحكام وإنما هو تحقيق لما ورد في الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لاحيلة في إصلاح حال ولا مآل ، وان الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه»[1] .

وإنه لأمر طبيعي أن تكون عقيدة « القدر» هي أحد الأسلحة التي لجأ إليها هذا الجيش من المضللين الذين يعاونهم «ولاة الشر» . لإيهان العزائم وتثبيط النفوس ، وغل الأيدي عن العمل . كما أنه من الطبيعي أن تجد هذه الخرافة وغيرها أرضا خصبة في عالم ساده الجهل أو أريد للجهل فيه أن يسود ، فتردف حالة «اليأس» التي راحت ترين على النفوس وتسلب المسلمين الأمل الذي كان الدين «يخترق به أطباق السماوات» ، وتؤدي بهم إلى وضع هو أشبه بوضع «العجماوات» ، وضع يعريهم تماما من الإسلام لكي لايبقى منه على أجسادهم وقلوبهم إلا «صورة» بلا معنى[2] .

إن مفاسد الجمود لاتقف عند حد ، لكن جناياتها تظهر أكثر ماتظهر في اللغة وفي التعليم .

أما جناية الجمود على اللغة ، فقد تبلورت في قصر «المحصلين تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم» إذ ليس للمتأخر إلا أن يأخذ بما قال المتقدم ، وهذه الحالة أدت بهم إلى النظر في الألفاظ لذاتها ، وبالتالي إلى إهمال علوم السلف ، فضلا على التنكب عن الخروج على جمود القدماء . وأعظم من هذه الجناية جناية «التفريق وتمزيق نظام الأمة» بالتشبث بنزعة التمذهب ، والتشيع للفرق والمذاهب ، وقصر السلوك على «تقليد» معين مع ماصحب ذلك من طعن اتخذته «السياسة» لتقوية تمايز الفرق وتناحرها بحيث يسهل لأصحابها السيادة .

أما الجمود في الشريعة ، فقد ضيق على أهلها بعد سعة وتسامح ، وسهل الخروج عنها لصعوبة فهم عبارات الفقهاء فضلا عن تشددهم واختلافهم في مذاهبهم . ومن

---

(1) محمد عبده الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية ، مصر ، مطبعة المنار ، 1367هـ ، ص 124 .

(2) نفس المصدر ، ص 125 .

الطبيعي أن يجد هذا فسادا في الأخلاق وانحراف عن حدود الشريعة وعجزا عن متابعة أحكام الدين .

أشد من الجمود في العمل ، الجمود في العقيدة . فبعد أن كان العقل هو ينبوع اليقين وأصل مبادىء الإيمان صار النقل هو الأصل في ذلك . أما الجمود في التعليم فقد أصابت شروره فريق المتعلمين على «الطرق الجديدة» أي الأجنبية ، والمتعلمين على «الطرق الرسمية» الدينية ، على حد سواء . فأولئك ضعف ايمانهم ووهن بما سرى إلى أفئدتهم وعقولهم من التعليم الأجنبي ، وذووهم سادرون بعلمهم القديم لايلتفتون إلى طرق الإقناع والاستدلال التي يمكن أن تقي أبناءهم من الضلال .

أما أبناء «التعليم الديني» ، الرسمي وغير الرسمي ، فقد جمد تعليمهم عند العلوم القديمة لايتخلله شيء من العلوم الحديثة ، وإذا عرفوا شيئا منها أنكره معلموهم عليهم ونفروهم منه وطالبوهم بالعودة إلى كتب الدين ليجدوا فيها كل شيء مما ينصرهم على أنفسهم وعلى هذه الكتب فضلا عن فهم مافيها من عبارات مشتتة معقدة منفرة[1] .

ولقد توج هذا «الجمود على الموجود» بنيانه النفسي بهذه الحالة الرهيبة من اليأس التي ولدت فريقا من الجاهلين الخاملين «العدميين» الذين لايقفون عند الشك ذواتهم وإنما يذهبون أيضا إلى تشكيك الناس في أنفسهم وفي دينهم ذاته . لقد بات أولئك الجاهلون الخامدون يقولون مايقوله بعض أعداء القرآن أنفسهم : «إن الزمان قد أقبل على آخره ، وإن الساعة أوشكت أن تقوم ، وإن ماوقع فيه الناس من الفساد وما مني به الدين من الكساد وما عرض عليه من العلل وما نراه فيه من الخلل ، إنما هو أعراض الشيخوخة والهرم فلا فائدة في السعي ولا ثمرة للعمل .

فلا حركة إلا إلى العدم ، ولا يصح أن يمتد بصرنا إلا إلى العدم ولا حفرة الجهل وأعوان اليأس ، يهرفون بما لايعرفون : «ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته ؟ إن الذي مضى بيننا وبين مبدأ الإسلام ألف وثلاثمائة وعشرون عاما . وإنما هي يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى وأن آيات الله في الكون – وإن كانت تدل على أن مامضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير – تشهد بأن مابقي لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير ، فما هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا ! إن مابيننا وبين ظهور الإسلام لايزيد عن

---

(1) محمد عبده ، الإسلام والنصرانية ، ص ص 126 ، 144 .

عمر ستة وعشرين رجلا ، كل رجل يعيش خمسين سنة . فهل يعد مثل ذلك دهرا طويلا بالنسبة إلى دين عام كدين الإسلام ! إن زمنا كهذا لايكفي - وقد تبين أنه لم يكف - لاهتداء الناس كافة بهديه . إن الحق هو أن الله قد وعد بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله ، وان هذا الدين قد سار في هذه الطريق وفي سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواما ثم انحرف به أهله عن سبيله . لكن «لن ينقضي العالم حتى يتم ذلك الوعد ويأخذ الدين بيد العلم ويتعاونا معا على تقديم العقل والوجدان ، فيدرك العقل مبلغ قوته ويعرف حدود سلطنته فيتصرف فيا أتاه الله تصرف الراشدين ويكشف مامكنه فيه من أسرار العالمين ، معترفا بأن لقدرته متقطعا ولعلمه حدودا. هنالك يلتقي العقل مع الوجدان الصادق ويتحدان في الوجهة بمقتضى الفطرة والغريزة إذ هما «عينان للنفس تنظر بهما : عين تقع على القريب وأخرى تمتد إلى البعيد» . العقل ينظر في الغايات والأسباب والمسببات والبسائط والمركبات ، والوجدان يقع على مشاهدات الحس الباطني وعلى الحدود الشعورية والوجودية المباشرة . والنفس في حاجة إلى كلتا هاتين «العينين» إذ هي لاتنتفع بإحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالأخرى ، فالعلم الصحيح مقوم للوجدان ، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم . أما الدين الكامل فهو «علم وذوق ، عقل وقلب ، برهان وإذعان ، فكر ووجدان»[1] . وان اقتصار الدين على أحد هذين الأمرين يسقط إحدى قائمتيه ، أما التخالف بين العقل والوجدان فلا يعني إلا أن شرخا قد أصاب الفرد فحول الإنسان إلى إنسانين والوجود إلى وجودين .

بهذا سيتخطى الإسلام حالة «الجمود على الموجود» وحالة الانحطاط التي يعاني منها . وهو حين ينجح في تحرير نفسه من حالة الانحلال التي قيّد بها ..! وسينجح قطعا لأن علة الجمود عارضة ستزول ولأن الشدائد والقوارع التي حلت بدياره لن تلبث أن تنبه أهله من غفلتهم وسباتهم - لن يقف أبدا عثرة في سبيل المدنية ، ولكنه على العكس من ذلك تماما ، «سيهذبها وينقيها من أوضاعها»[2] .

ومتى عرفت المدنية الإسلام ، ومتى عرف أهل الإسلام المدنية ، فإنها ستكون من أقوى أنصاره .

---

(1) محمد عبده ، الاسلام والنصرانية ، ص 152 .

(2) نفس المصدر ، ص 148 .

وبخصوص الدفاع وتوضيح فكرة (الجامعة الإسلامية) التي كانت دوما موضوع سوء فهم ، عن قصد أو عن غير قصد ، فإن محمد عبده كان أول من أولى هذه المسألة اهتماما خاصا . ففي رده على حديث أدلى به جابرييل هانوتو لصاحب (الأهرام) - وصف فيه المسلمين بالدعوة لهذه الجامعة ولتوحيد السلطة الدينية والسياسية في شخص واحد في جميع البلاد الإسلامية - أكد محمد عبده «أن هذه الدعوة لم يوجد لها أثر إلى اليوم في بلاد المسلمين .. وأن ما علق بالأوهام منها فإنما منشؤه سوء فهم بعض مسيحي الشرق ، ثم انعكاس ذلك في أذهان سياسية الغرب - وقد يكون سوء نية بعضهم مدخل في تعظيم ماتوهم فيها» . إن كل مافي الأمر هو أن طائفا من الدين طاف بعقول بعض المسلمين في أقطار مختلفة فحرك ساكنهم وأثار هممهم إلى النظر فيما كان عليه أهل الإسلام من مجد وما آتوا إليه من انحطاط تمثل في تسرب البدع إلى العقائد والأعمال واهمالهم لأمور دينهم ودنياهم وتواكلهم يأسهم من أنفسهم ودينهم وانقيادهم لحكام لم يفهموا من معنى الحكم إلا تسخير الأبدان لأهوائهم واذلال النفوس لخشونة سلطانهم وابتزاز الأموال لإنفاقها في ارضاء شهواتهم ، لايرجعون في ذلك إلى عدل أو كتاب أو سنة فأفسدوا أخلاق الكافة بما حملوها على النفاق والغش والخداع والظلم .

ولقد كان طبيعيا أن يهب هذا الفريق من عقلاء المسلمين لإصلاح الأمور ولإعادة ثقة المسلمين بدينهم واستخدام هذا الدين في تقويم شؤونهم . والذي يمكن أن يقال هو أن الغرض الذي يرمي إليه جميعهم هو «تصحيح الإعتقاد وإزالة ماطرأ عليه من الخطأ في فهم نصوص الدين ، حتى إذا سلمت العقائد من البدع تبعتها سلامة الأعمال من الخلل والاضطراب واستقامت أحوال الأفراد واستنارت بصائرهم بالعلوم الحقيقية ، دينية ودنيوية ، وتهذيب أخلاقهم بالملكات السليمة ، وسترى الصلاح منهم إلى الأمة» .

أما الرجعة إلى الدين سواء في مصر أو في غيرها ، من أجل إثارة فتنة على الأوروبيين أو غيرهم من الأمم المجاورة للمسلمين ، فهو أمر لم يخطر ببال أحد ، وليست المخاوف التي تدور في نفوس البعض ، كلما دار حديث الدين ، إلا نسجا لغيلان من الخيال ، فإن أهل الوطن الواحد لا يستغني بعضهم عن بعض . وغاية الأمر أن إصلاح حال المسلمين يقضي بأن «ماكان ينال اليوم بدون حق يصبح وهو لاينال إلا بحق ، والأجنبي الذي كان ينفق الواحد ويربح المائة يرجع إلى الإعتدال

في الكسب ويحتاج إلى شيء من التعب في استدرار الربح» . أما مايعرض في طر...
الدعوة إلى الدين» من الناس مسلم بمصر معونة من مسلم بسوريا أو بالهند أو ببلاد...
أو بأفغانستان ، بحيث يكون نجاح الدواء في موضع باعثا على الإقتداء بالمستطب...
في موضع آخر .

أما السعي في توحيد المسلمين ، وهم كما هم ، فلم يمر بعقل أحد منهم ، ولو دعي...
إليه داع لكان أجدر به أن يرسل إلى مستشفى المجانين . إن الغرض الحقيقي من...
الدعوة إلى جامعة الدين» - سواء الكلام في «حكمة الحج» أم في أية مناسبة...
أخرى - ينبغي أن يفهم منه فقط رغبة المسلمين في أن يستعين بعضهم ببعض على...
إصلاح ما فسد من عقائدهم أو اختل من أعمالهم ، ومدافعة ماينزل بهم من قحط أو...
ظلم أو بلاء - وليس ثمة شك في أن المسلمين ، إذا تهذبت أخلاقهم بالدين واندفعوا...
إلى اكتساب العلوم وتحصيل المعارف ، لحقوا بالتمدن الأوروبي وسابقوا أهله فيجب...
اتفاق المصالح عند ذلك ممكنا والتفاهم يسيرا[1] .

حتى الآن يكون مصلحوا القرن التاسع عشر في المشرق العربي خاصة ، قد عالجوا...
جل الموضوعات التي كانت تشغل بال الجماهير المسلمة في تلك الأصقاع ، وقد ركزوا...
خاصة على تربية الأجيال وإصلاح الأنظمة السياسية ، وتنقية الدين من البدع...
والخرافات ورفع مستوى الوعي لدى الإنسان العربي المسلم ، ومقاومة المد الإستعماري...
الغربي الذي أخذ في ابتلاع البلاد الإسلامية جزءا بعد الآخر في حملة عسكرية...
وسياسية وثقافية شرسة . وكان علماء الجزائر يتتبعون نهضة الشرق منذ خاتمة القرن...
التاسع عشر تتبعا تدريجيا ، وتوارث التلاميذ على الأساتذة والشيوخ هذا التتبع مع...
اتساع في الآفاق وزيادة في الوعي والإدراك لقضايا الأمة ومشاكلها الحيوية ، وجمعوا...
بين القضايا المتميزة للشعب الجزائري ، وبين قضايا الأمة عامة ، وانتهوا إلى نتيجة...
حتمية تجعل أساليب ومناهج الكفاح أو الجهاد في الجزائر تختلف عن تلك التي اتبعت...
في الشرق وجزائر القرن التاسع عشر . وتبدأ بعد اختبار طويل للصراعات السياسية...
والثقافية والإقتصادية والإجتماعية مع الدولة المستعمرة منذ انبلاج القرن العشرين ،
وكان في مقدمة هذه الصراعات الجابهة الثقافية التي كانت أشد إلحاحا من غيرها .

وقد تزعم هذا الإتجاه العلماء المصلحون الجدد .

(1) محمد عبده ، الإسلام والرد على منتقديه ، ص ص ٣٠ ، ٣١ .

من أهم الظواهر البارزة بين الحربين العالميتين في الجزائر ، تطور حركة الاصلاح الديني المعروفة باسم «الاصلاح الاسلامي»[1] وهو الاصلاح الذي يستمد جذوره من الحديث النبوي الشريف ، الذي ورد على لسان رسول الله (ص) في خطبة الوداع حين قال : «تركت فيكم أمرين ماان تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا ، كتاب الله وسنتي» .

فالاصلاح الاسلامي في الجزائر بهذا المعنى لايزيد عن كونه ، التطبيق الصحيح لمبادئ الاسلام[2] ، والرجوع بالمسلمين الى منابعه الصافية ، وهو الاصلاح الذي دعا اليه بعض العلماء المسلمين المجددين أمثال ابن تيمية[3] ، ومحمد بن عبد الوهاب[4] ، ومن ثم فان الاصلاح الاسلامي (هو ارادة تستهدف العودة الى المنابع ، ومثل السلف الصالح ، من أجل تحرير الشعوب الاسلامية المضطهدة)[5] ولذلك فان حركة الاصلاح في الجزائر قد عملت على تطهير الاسلام مما علق به من شوائب ، وأخرجته من العزلة التي فرضت عليه في ظل الاحتلال الفرنسي ، وأعادته الى الاطار الاسلامي ، العالمي ، وهكذا وقفت هذه الحركة مواقف سياسية ، وثقافية ، مضادة للتأثيرات الفرنسية ، المختلفة .

وكان ذلك بتطوير الصحافة ، والتعليم العربيين ، فكان لهذه الحركة في تكوين وتطوير الوطنية الجزائرية دور كبير[6] .

والحق أن ميلاد الحركة الاصلاحية الصحيحة في الجزائر لم يظهر للوجود الا عقب الحرب العالمية الأولى[7] عندما بدأ العلماء بقيادة ابن باديس والابراهيمي وغيرهما في

(1) CHARLES ROBERT AGERON, Histoire de L'Algérie Contemporaine (1871-1954) T.2. 1ère édition, Paris 1979 P. 321.
(2) انظر الهادي الحسني ... ، عبد الحسن الأخضري والطور السلفية في الجزائر مجلة الأصالة ، عدد ٦٢ ، قسنطينة ، الجزائر ١٩٧٨ ، ص ٢١ .
(3) ابن تيمية : تقي الدين أحمد ، ١٢٦٣ - ١٣٢٧ ، ولد في حران (بسوريا) فقيه حنبلي ، أتقن القرآن ، والحديث ، والفقه ، والكلام ، وسلك سبل السلف الصالح ، ومن أهم آثاره كتاب «السياسة الشرعية في اصلاح الراعي والرعية» طبع بدمشق سنة ١٩٥١ ، ومجموعة الفتاوى الكبرى الذي طبع بمصر ، في خمسة اجزاء سنة ١٩١١ .
(4) محمد بن عبد الوهاب : (١٦٩٤ - ١٧٦٥) ولد بالعيينة بإقليم عارض (نجد) نشأ على المذهب الحنبلي ، أكمل دراسته بالبصرة ، عرف بين قومه بالتقوى وصدق التدين ، أحسن بن سعود وفادته في نجد ، وناصره ، من آثاره : (رسالة التوحيد) قام بحركة اصلاحية سلفية ضد الخرافات ، والشعوذة في الجزيرة العربية .
(5) HARLES ROBERT AGERON, Op Cit, P. 321
(6) IBID
(7) يظر الابراهيمي ، سجل مؤتمر جمعية العلماء ، ط2 ، الجزائر ١٩٨٢ ، ص ٢١٣ .

العمل المباشر مع الجماهير الشعبية ضد المرابطين والاندماجيين من جهة والادارة الاستعمارية من جهة أخرى ، فكان تأسيس جريدة المنتقد سنة 1925 ، وصحيفة الشهاب بعدها ايذانا باندلاع حرب طويلة المدى شملت كل مظاهر (الدروشة) والانحراف عن جادة الاسلام ومحاولات المسخ والتشويه للشخصية الوطنية .

ولقد عرف العقد الثالث من هذا القرن صراعا عنيفا بين ثلاثة اتجاهات رئيسية في البلاد وهي :

العلماء المصلحون المجددون والمحافظون التقليديون ، ودعاة الفرنسة والتغريب . وقد نادى الفريق الأول بتوحيد المثقفين الجزائريين لاحياء اللغة العربية وتطهير الدين الاسلامي ، من الخرافات والشعوذة ، وبعث التراث العربي الاسلامي ، وتجديده في البلاد ، فحدثت بينهم ، وبين الطرقيين ودعاة (الفرنسة والتغريب) حرب كلامية وفكرية ، بلغت ذروتها في منتصف العقد الرابع ، وانتهت بانتصار المصلحين .

وبعبارة أخرى فان أهم حدث عرفته سنوات العشرينات وتناقلته الصحف ، هو الصراع بين المدرستين ، العربية الشرقية والفرنسية الغربية حول مستقبل الجزائر ، فأنصار المدرسة العربية كانوا ينزعون نحو اعادة ربط الجزائر بالأمة العربية ، وحضارتها الاسلامية . أما دعاة المدرسة الفرنسية ، فكانوا يرون ضرورة ربط الجزائر بالحضارة الفرنسية . وقد اختلفوا بادئ ذي بدء حول مفهوم الادماج ، فالمصلحون ، كانوا يفسرون سياسة الاندماج على أنها التجنس بالجنسية الفرنسية ، ورفض العمل بقانون الشريعة الاسلامية. أما الاندماجيون فكانوا يردون على الاصلاحيين، بأن الاندماج يعني الارتباط سياسيا بالاقليم الفرنسي، مع الاحتفاظ بالديانة الاسلامية، والجنسية الجزائرية العربية.

وكان الاندماجيون يبررون سياستهم بأن سكان الجزائر قسمان ، قسم حي ، وقسم على حافة الهاوية ، قسم أوروبي وقسم أهلي ، قسم يتمتع بكل الحقوق ، وقسم محروم من جميعها[1] .

وكانوا يعتبرون حركة المصلحين (قبرا للجزائريين) – حسب تعبيرهم – بدعوة أن التمدن العربي الاسلامي مفقود في الجزائر ، ومن ثم فلا يسع الجزائريين أن يبقوا على حالتهم الحاضرة[2] .

---

(1) الشهاب ، أنصار الادماج ، عدد 147 ، 18 ماي 1928 ، ص 3 .

أما العلماء المصلحون فقد اعتبروا بدورهم سياسة الاندماجيين مأزقا خطيرا لايمكن الخروج منه بالنسبة للجزائريين ، وأن فقدان التمدن العربي الاسلامي في الجزائر يمكن احياؤه بنقله عن جيرانها وأشقائها المشارقة ، واستدلوا على ذلك بقولهم : (وهذا التمدن الأوروبي الفرنسي الذي تراه لازما ، فقد كان مفقودا أيضا في الجزائر ، ولم يزل مفقودا ، فما الداعي لترجيح تمدن بعيد عن دين الأمة وأخلاقها ، وعوائدها على تمدن هو متفق معها في كل ذلك)[1] . وقد اعتبر المصلحون عملية التشبث بالحضارة الغربية ، وفي وقت وصلت فيه هذه الأخيرة الى طور الشيخوخة ، خطأ ووقوعا في هوة سحيقة ، سيما وأن المصلحين قد قرؤوا لبعض علماء الاجتماع آراء تعتبر الحضارة الغربية في طورها الأخير وأن أوروبا انتهت من تمثيل دورها التاريخي ، وأنه لايمكن قيام حركة جديدة بعد الآن الا من الشرق[2] .

وهكذا استمر الصراع والخلاف بين الفئات الاجتماعية والسياسية الجزائرية المثقفة من جهة ، وبينها وبين الادارة الفرنسية من جهة أخرى ، حتى عشية الحرب العالمية الثانية ، فكان ذلك أخطر مرحلة تاريخية في الحياة الدينية والثقافية في الجزائر المعاصرة[3] .

أما الصراع بين المصلحين المجددين والمحافظين والتقليديين ، فلم يكن أقل شأن من الأول ، ولكن هذا الصراع لم يكن ظاهرة انفردت بها الجزائر وحدها ، بل فإن الجزائر لم تكن قد عرفت هذا الصراع الا بعد الحرب العالمية الأولى بالمقارنة مع المجتمعات الاسلامية الشرقية التي عمتها تلك الظاهرة منذ النصف الأخير من القرن التاسع عشر تحت تأثير ودعوة المصلحين أمثال : أحمد خان السالف الذكر ، في الهند ، وجمال الدين الأفغاني[4] ، في كل المشرق الاسلامي ،

---

(1) ينظر نفس المكان .

(2) ينظر نفس المكان ، وكذلك .

ALI MERAD, Le reformisme musulman en Algérie de 1925 à 1940. Marton Paris - France 1967, pp 42–43;

CHARLES-ANDRE JULIEN, L'Afrique du nord en marche, Nationalisme musulman et souveraineté. Imprimé à l'imprimerie Deverns, Paris 1972, P. 102.

(3) ALI MERAD, Op Cit, PP 42. 43 ; CH.A. JULIEN, Op Cit, P. 102.

(4) جمال الدين الأفغاني : ولد في سعد آباد (أفغانستان) 1838 – 1897 جال في الشرق والغرب ، فأحرز ثقافة واسعة ، وكان خطيبا بارعا ، ودعا الى الوحدة الاسلامية له (ابطال الدهريين ، وبيان مفاسدهم) طبع في بيروت سنة 1885 ، ويرتقي الأفغاني من سلالة علي الترمذي المحدث الشهير الذي لا تزال تآليفه تحمل اسمه وهو (سنن الترمذي) ويرجع نسب الترمذي الى الحسين بن علي بن أبي طالب انظر المهدي البوعبدلي (دور رجال الدين ، الأفغاني في يقظة الشرق ونهظة المسلمين : مجلة الأصالة عدد 44 ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر ، أفريل 77 ، ص 28 .

ومحمد عبده[1] ، في مصر ، ولكن الشيء الذي لاسبيل الى نكرانه هو أن الصراع الذي كان بين المصلحين والمحافظين التقليديين لم يصل في أي بلد اسلامي الى الحد الذي بلغه في الجزائر وذلك نظرا للتناقضات الاجتماعية ، والثقافية ، والسياسية والاقتصادية ، التي عرفتها الجزائر في عهد الاحتلال الفرنسي[2] .

ولقد كان هذا الصراع في أول الأمر (مذهبيا عَقَدِيًا) ثم اتخذ فيما بعد طابعا سياسيا[3] ، بين المجموعتين ، وبالاضافة الى ذلك فان الادارة المحلية لم تبق مكتوفة الأيدي أمام هذه الخصومة الدينية ، وكانت تعتقد أن تدخلها المباشر في القضية قد يكبح جماح الحركة الاسلامية ، وكان بطبيعة الحال أن تستفيد السلطات الاستعمارية من ابقاء الوضع جامدا في البلاد ، وذلك لتنفيذ سياستها الاستعمارية (في الجزائر الفرنسية) .

وكان من البديهي ، أن تؤيد ادارة الاحتلال شيوخ الزوايا بقصد إبقاء الجزائر معزولا عما يجري في المشرق العربي من اصلاح وتجديد في الحياة الثقافية والدينية وبلا شك السياسية ، وكان من حسن حظ الجزائر أن برز فيها رجال مصلحون أنقذوها كما قال شاعر عربي من وضع وصفه (بغرفة الانتظار للموت)[4] .

شخصية ابن باديس ورفاقه المصلحون

ابن باديس (1889 – 1940)

ولد عبد الحميد ابن باديس يوم 4 ديسمبر سنة 1889 بقسنطينة ، فكان الولد البكر لأبويه وكانت أسرته مشهورة بالعلم والثراء والجاه في قسنطينة ، وهي أسرة تاريخية عريقة في القدم كان لها نفوذ سياسي منذ قرون خلت في المغرب الاسلامي[5] ، وقد أعلنت ولاءها للفرنسيين في وقت مبكر من الاحتلال بـ

(1) محمد عبده : (1849 – 1905) ولد في دلتا مصر ، من علماء المسلمين المعاصرين الدعاة الى الاصلاح ، تأثر بجمال الدين الافغاني ، حرر جريدة (الوقائع المصرية) له (رسالة التوحيد) واشترك مع جمال الدين الأفغاني في اصدار وتحرير مجلة العروة الوثقى .

(2) Loc Cit, CH.A. JULIEN, P. 12.

(3) A. MERAD, Op Cit, P. 54.

(4) C.A. JULIEN, Op Cit, P. 101.

(5) كانت أسرة ابن باديس منذ القدم ذات نفوذ ، مسيرة للسياسة والحكم في المغرب العربي والأندلس الاسلامي نبغ منها شخصيات تاريخية لامعة منها بلكين بن زيري ، والمعزبن باديس ، وكان جده يحارب المذاهب الباطنية ، وبدع الشيعة في افريقية ، ومن أسلافه المأخرين قاضي قسنطينة الشهير أبو العباس حميدة بن باديس ومكي بن باديس القاضي أيضا بها .

مكانتها البارزة في المجتمع ، وجده (المكي بن باديس) كان قاضيا ، وأول مستشار عام بقسنطينة لدى الفرنسيين ، وقد تقلد وساما من يد نابليون الثالث[1] ، ودعي للاستشارة في الجزائر ، وباريس .

أما أبوه فقد كان مندوبا ماليا وعضوا في المجلس الأعلى ، وباش آغا شرفيا وقد احتل مكانة مرموقة بين جماعة الأشراف ، وكان من ذوي الفضل والخلق الاسلامي ومن حفظة القرآن الكريم .

وكان أخوه مولود الزبير مثقفا بالثقافة الفرنسية ومحاميا بنفس اللغة[2] أما عبد الحميد فقد كان على النقيض من أفراد أسرته ، فهو لم يدخل المدرسة الفرنسية[3] ، ولم يشغل أية وظيفة لدى السلطات الفرنسية طوال حياته ، وقد بدأ تعليمه القرآني على يد الشيخ (محمد المداسي) وحفظه في سن الثالث عشرة من عمره ، وفي سنة 1903 دخل الشاب عبد الحميد مرحلة جديدة من حياته حين اختار له أبوه أحد الشيوخ الصالحين من ذوي المعارف الاسلامية العربية وهو الشيخ (أحمد بوحمد ابن لونيسي) الذي علمه مبادئ العربية ، والمعارف الاسلامية ، والتوجيه العلمي والاخلاقي الصحيح .

وفي سنة 1908 غادر ابن باديس مسقط رأسه ميمما جامع الزيتونة[4] الذي تخرج منه بشهادة (التطويع سنة 1910 – 1911 ،[5] ثم علم فيه سنة واحدة على عادة المتخرجين في ذلك الوقت قبل أن يعود الى أرض الوطن .

(71) تقلد رئاسة الجمهورية من 1848 الى 1852 وامبراطور من 1852 الى 1870 .

(72) ALI MERAD, Op Cit, P. 80.

(73) CH.R. AGERON, Op Cit, P. 324.

(74) عمار الطالبي : ابن باديس حياته وآثاره ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى دار اليقظة العربية ، بيروت 1968 ، ص 75 .
وكذلك : C.R. AGERON, Op Cit, P. 324.

(75) نشرت جريدة (المشير) التونسية فى عددها الصادر في 6 أوت 1911 ، اسم الطالب عبد الحميد بن محمد المصطفى بن باديس ضمن لسماء الطلبة الزيتونيين الذين نالوا شهادة (التطويع 9 من الجامع الأعظم في نهاية السنة الدراسية (1910 – 1911) ، وكان ترتيبه الأول بين جميع الطلبة الناجحين كما كان الطالب الجزائري الوحيد الذي تخرج من الزيتونة في تلك الدورة ، وذلك على خلاف ماذهب اليه معظم الذين أرخوا لدراسة الشيخ ابن باديس ، ومن بينهم الدكتور تركي رابح الذي ذهب الى أن ابن باديس تخرج في السنة الدراسية (1911 – 1912) ، انظر ص 160من كتابه (الشيخ بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم) . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1970 وكذلك الدكتور عمار طالبي ، المرجع السابق ، ص 76 . ينظر : محمد الصالح الجابري العلامة عبد الحميد بن باديس فى تونس مجلة تاريخ العرب والعالم / بيروت 25 حزيران/يونيو 1981 ، ص 25 .

ان ابن باديس ، بناء على رأي أجرون AGERON[1] كان يجيد اللغة الفرنسية
ويتكلمها – رغم أنه لم يدخل المدرسة الفرنسية – ولكنه كان يتظاهر بأنه يجهلها (في)
خطابه مع الفرنسيين كان يستعمل مترجما له .

وفي سنة 1913 شرع في التعليم العربي بالجامع الكبير[2] ، بقسنطينة وعشية
الحرب العالمية الأولى (1914) قام باداء فريضة الحج ، وزار معظم مدن الشرق
العربي ، ثم عاد الى قسنطينة ليباشر من جديد مهنةالتعليم حتى توفي بها سنة 1940 .

وبناء على مأقره ابن باديس نفسه فان أسرته قد لعبت دورا أساسيا في تكوينه
ماديا ومعنويا ، وخاصة أباه الذي رباه ، ووجهه توجيها ، أخلاقيا وعلميا ، و(حماه)
من المكاره صغيرا ، وكبيرا ، على حد تعبيره[3] .

ان نبوغ ابن باديس ، المبكر ، ورعاية عائلته له ، واتصاله بالعلماء في الجزائر ،
وتونس ، والمشرق العربي عموما ، قد جعل منه رجل عصره ، وامام اتباعه وأنصاره ،
وسياسيا ماهرا ، ووطنيا مخلصا[4] .

فقد روي عن النبي (ص) قوله : (ان الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة
سنة من يجدد لها دينها[5] . فابن باديس بناء على هذا الحديث هو الرجل الذي
بعثه الله لانقاذ هذا الشعب ، وتجديد دينه . ومن أجل ذلك كرس حياته لخدمة
الدين ، والعلم ، والوطن ، وابراز الشخصية الاسلامية الجزائرية ، فأصبح هذا العمل
هو معنى وجود كيانه في الحياة .

وقد تنبأ بمستقبل البلاد في مناسبات متعددة بفكره المستنير ، ونظرته البعيدة ،
وكان يمتاز بخصال حميدة ، وأخلاق فاضلة ، يتذوق فن الكتابة الصحافية والأدبية ،
والدينية ، وهذه الصفات المجتمعة في شخصه ميزته عن زملائه الآخرين[6] .

بل أنه كان من أقوى الشخصيات الاسلامية في المغرب ، حيث كان ايمانه قويا
بانتصار الاسلام في الجزائر ، وكان له تأثير عميق في الأوساط المثقفة (ببلاغة جدلية) ،

(1) Loc Cit.
(2) عمار طالبي : المرجع السابق ، ص 80 .
(3) ينظر نفس المرجع السابق ، ص 77 .
(4) C.R. AGERON, Op Cit, P. 324.
(5) رواه أبو داود .
(6) IBID.

وكان بالنسبة للجزائريين ، لامعلما تقليديا ، وعقلانيا فحسب ، بل أضحى (مرشد
الأمة الكبير الى الطريق المستقيم) ولا سيما وأنه اعتقد – مثل الثعالبي في
تونس – بقوة الاسلام دون سواها لاحياء بلاده والسير بها نحو الاستقلال[1] .

وقد أعلن عن مبادئه الوطنية في أول جريدة انتقادية أصدرها سنة 1925 وهي
(المنتقد) التي كانت تحمل شعار (الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء)[2] .

ولقد كتب سنة 1935 عن هذه الجريدة قائلا : (انها كانت تلفت انتباه
الجزائريين المسلمين الى حقهم في أخذ مكانتهم بين الشعوب وتبين لهم بأنهم يشكلون
وطنا له لغته ، ودينه وتاريخه)[3] .

وقد كان هدف صحيفتي المنتقد والشهاب اللتين أسسها سنة 1925 يتمثل في
توحيد جماعة العلماء التي أنشأت الجمعية فيما بعد .

وهكذا فان ابن باديس بفضل ارادته (الفولاذية) ، أصبح جديرا بالزعامة ، ومحل
ثقة بين زملائه العلماء ، ولا سيما وأنه كان معتدل المزاج (متسامحا مع خصوم الاصلاح
أحيانا ، وصار محل احترام المصلحين والمحافظين على السواء) .

وجملة القول فان هذا الزعيم يعتبر بلا منازع مؤسس المدرسة العربية الاصلاحية
الاسلامية في الجزائر ، وأنه الرجل الذي ضحى بحياته ، ووضع كل امكاناته الجسمية
والفكرية في سبيل اصلاح المجتمع الاسلامي في هذا القطر .

وبناء على هذه الخصال أختير رئيسا للجمعية منذ نشأتها ، وأصبح المحرك والمدافع
الرئيسي عنها ، ومنذئذ أخذ في ارساء قواعد الاصلاح ، وتنظيم خطته لاحباط
مشاريع فرنسا الاستعمارية ، دون أن تفطن هذه الأخيرة لخطورته ، لأنها كانت
تعتقد أنه مثل غيره من الفقهاء الآخرين[4] .

ولو أن المرء لايقلل من جهود بعض الشخصيات الاصلاحية الأخرى قبله ، إلا
أن المتتبع لنشاط الجمعية خلال الثلاثينات ، يجد شخصية ابن باديس هي المحور
الأساسي لأعمال الجمعية .

(1) C. A. JULIEN, Op Cit, P. 102, C.R. AGERON, Op Cit, P. 324.
(2) المنتقد عدد 1 قسنطينة 2 يوليو 1925 .
(3) C.R. AGERON, OpIBID, P. 325.
(4) د . محمود قاسم – الامام عبد الحميد بن باديس – الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية ، دار المعارف ، مصر 1968 ، ص 9 .

وهكذا عاش ابن باديس مجاهدا في سبيل وطنه وشعبه دون أن يشغل منصبا أو وظيفة في الادارة أو يتقرب منها قيد أنملة ، وخلال حياته كان يحث تلاميذه على اقتفاء آثاره في مناسبات عديدة ، فقبل رحلته الأبدية بسنة واحدة (1939) أقامت جمعية التربية والتعليم بقسنطينة حفلة تكريم للطلبة المتخرجين من جامع الزيتونة ، ودعي ابن باديس للاشراف عليها باعتباره زعيم الأمة ، ورئيس الجمعية ، وعندما وقف خطيبا لم يفته أن يذكر هؤلاء الخريجين بأنهم يتميزون على أقرانهم من الأقطار المجاورة الذين درسوا معهم في الزيتونة ، لأنهم يقرؤون العلم للعلم لا للوظيفة كما يفعل غيرهم ، منبها أياهم لما تنتظره الأمة منهم قائلا : (انكم رجعتم الى وطنكم تحملون شهادات علمية ، ولذلك كنتم جديرين بهذا التكريم ، ولكن لاتظنوا أنكم ستجدون مصاعب الحياة قد أزيلت من طريقكم ، ويجب أن تعلموا يـاأبنائي انكم مقبلون على خوض معركة جديدة من أجل خدمة أمتكم ووطنكم بما أحرزتم عليه من علم)[1] .

وهكذا وبعد أن بين لهم السبب التكريمي ، والمهمة الشاقة التي تنتظرهم في وطنهم ، أضاف قائلا : (وان كان أبناء الشقيقة تونس يدرسون العلم في الزيتونة ليصبحوا موظفين في بلادهم ، فان فضلكم الوحيد هو أنكم تقرؤون العلم للعلم ، وليس للوظيفة ، وهو شرف فكونوا عند حسن ظن أمتكم بكم ، كونوا على استعداد لاداء واجبكم نحو وطنكم)[2] .

وصفوة القول أن المتتبع لتاريخ الجزائر المعاصر ونهضتها العلمية وحركتها الأدبية وسبر أغوارها وأطوارها ، يجد أن فجرها قد انبلج من مدينة قسنطينة ، وأنها قد استهلت يوم عودة الشيخ عبد الحميد بن باديس من هجرته لتعلم العلم وتعليمه ، بعد أن عاد الى أرض الوطن (مملوء الوطاب ، بفقه أسرار السنة والكتاب)[3] . فمنذ رجع أوقف أعماله على الانذار والتحذير بالوعظ والارشاد ، والتدريس ، والتحرير ، وبأعماله نهضت قسنطينة نهضة علمية انتشرت في انحاء القطر الجزائري بانتشار تلاميذة الشيخ انتشار شعاع الشمس على الأديم .

هذا بايجاز عن حياة ابن باديس العلمية والدينية والوطنية ، والتي لخصها سنة 1937 بقوله : (لمن أعيش أنا ؟ أعيش للاسلام والجزائر)[4] .

(1) محمد الصالح الجابري : مجلة تاريخ العرب والعالم ، العدد السابق ، ص 25 .
(2) ينظر نفس المكان .
(3) حمزة بوكوشة : جريدة البصائر ، عدد 118 قسنطينة ، 17 جوان 1938 ، ص 3 .
(4) ينظر مجلة الشهاب : لمن أعيش المجلة 12 الجزء 10 قسنطينة جانفي 1937 صفحة 425 .

أما اذا أراد الباحث مقارنته مع أبرز المصلحين المسلمين المعاصرين في المجال الاصلاحي ، فقد يجده في مكان الصدارة بين هؤلاء المصلحين المعاصرين له ، ولعل أبرز مصلح يمكن مقارنته مع ابن باديس ، هو الشيخ محمد عبده ، الذي ذاع صيته في ارجاء العالم الاسلامي كله ، وله بعض التأثيرات الايجابية على رائد النهضة العربية الاسلامية في الجزائر ، وهو تأثير السلف على الخلف .

ويمكن ايجاز أوجه الالتقاء وأوجه الاختلاف بين ابن باديس ومحمد عبده في النقاط التالية :

1) لقد اهتم كل منهما بتصحيح المفاهيم ، والعقائد ، بالاعتماد على تفسير القرآن ، لتنقية العقول ، من التقاليد الفاسدة ، والبدع الباطلة ، والخرافات الزائفة .

2) اهتم كلاهما بالتربية والتعليم في المدارس ، للنهوض بأبناء المسلمين .

3) فكما اقترن اسم محمد عبده (بالجمعية الخيرية الاسلامية) ومؤسساتها التعليمية ، والاصلاحية ، في مصر ، اقترن اسم ابن باديس بجمعية العلماء المسلمين في الجزائر ، واذا كان محمد عبده قد عني بمناهضة الجمود الفقهي والتعصب المذهبي ، فان ابن باديس كان أشد صرامة في مقاومة الطرقية المنحرفة عن جادة الاسلام ، وكما كان التسلط الخطير في مجال الدين بمصر من قبل بعض مؤسسات الأزهر ، وعلمائه الجامدين ، الخاضعين لتأثير الحاكمين ، كان تسلط شيوخ الطرقيين ، في مجال الدين أكثر خطورة أيضا في الجزائر ، نظرا لموالاتهم للادارة الاستعمارية ، وانحرافهم عقائديا ، وسلوكيا .

واذا كان للأزهر دور في نشر التعليم بمصر ، فان الجزائر ، قد خلت من أية مؤسسة تعليمية ، وتربوية عالية ، حيث كان طلاب العلم في هذه الأخيرة يكملون دراستهم في كل من الزيتونة ، والقرويين[1] والأزهر بالقطرين المجاورين تونس والمغرب ، ومصر .

وكما التقى عبد الحميد بن باديس مع محمد عبده، التقى أيضا مع غيره من دعاة الاصلاح الاسلامي بالمشرق العربي ، أو في أي قطر من الأقطار الاسلامية الأخرى، ولكن يبقى له رغم ذلك كله طابعه الخاص، وتبقى لحركته خصائصها المتميزة، ويقول الكاتب الفرنسي (تيان لاكوتير T. LACOTIERE) (أن مجددي فكرة الوطن الجزائري هم بالأحرى الذين أسسوا (جمعية العلماء) ومن الممكن أن نجد بيان هذا المذهب في رد ابن باديس على مقال فرحات عباس: (لو أنني عثرت على الوطن الجزائري.. الخ..) .

(1) فتحي عثمان : مجلة العلوم الاجتماعية ، العدد السابق ، ص ص 274 – 265 .

ولقد تميزت حركة عبد الحميد بن باديس في الاصلاح الاسلامي بالجزائر بجهوده الدؤوبة في التعليم الذي بدأه بنفسه قبيل الحرب العالمية الأولى في الجامع الأخضر بقسنطينة ، انتهت بتلك الشبكة من المدارس المنتشرة عبر الوطن كله . وقد ارتبطت تلك الجهود التعليمية بالدعوة الشعبية العامة للاصلاح الاسلامي - الذي اضطلع به زعماء الجمعية وتلامذتهم - ارتباطا وثيق العرى ، وتشربوا من مبادئها ، وأخلصوا لها في مجالي التربية ، والتعليم ، اللذين صارا صنوين لايفترقان عقليا ، وفكريا ، وان اختص كل مجال بجهازه من ناحية التنظيم[1] .

واذا كانت الطرق الصوفية في مصر ، عاجزة عن مقاومة الحركة الاصلاحية فانها في الجزائر كانت قوية تستند على الملايين من العامة من جهة ، وعلى الادارة الاستعمارية من جهة أخرى .

واذا كانت نزعة محمد عبده في الاصلاح لاتتجه الى تكوين قاعدة شعبية عامة ،منتظمة تتبنى أفكاره ، وترتبط بتوجيهه ، وقيادته ، حيث كان معلما ، بالدرجة الأولى ، اذ كانت علاقته مرتبطة بالطبقة المثقفة ، لابالجماهير الشعبية ، فان ابن باديس كان متصلا بكل الطبقات الاجتماعية على اختلاف مشاربها ، ومن ثم فقد اصطدم بالطرقيين وبعض الطبقات الخاضعة لنفوذ الزوايا أو الموالية للادارة الفرنسية .

ورغم أن ابن باديس لم يصطدم بمؤسسة تعليمية تقليدية مثلما هو الحال في الأزهر ، فان منهجه الاصلاحي لم يخل من نقد تربوي ، وعلمي ، للبرامج المتبعة في التعليم الاسلامي ابان عهده ، سواء في الزيتونة ، أو في الأزهر ويقول الأستاذ فتحي عثمان[2] (ويبدو في جلاء شخصيتي ابن باديس ومحمد عبده ، ونشاطيهما أن الأول كان أكثر حركية ... أما محمد عبده فقد كان رجل بحث ، وعلم ، وتأليف ، وتدريس بوجه خاص ، ولم يكن رجل عمل شعبي منتظم مستمر مثل ابن باديس ، الذي كان صابرًا على العمل آناء الليل وأطراف النهار ، دؤوبا على الحركة ، مؤمنا بالعمل الشعبي في قاعدته الواسعة ، قادرا على ممارسة العمل ومتاعبه ومصاعبه .

واذا كان محمد عبده يعطي للأمة علما ، وفكرا ، فان مؤسساته أنتهت بموته

(1) ينظر نفس المرجع ، ص 501 .

غالبا ، أو قد استمر قليلا بعد وفاته ، وأن مزاجه هو ميزاج العالم الذي لايعيش طويلا خارج مكتبه ومكتبته ، كما أن مجلسه لم يكن يخرج عن حوار الخاصة ، لكن ليس في استطاعته أن يعايش الجماهير كثيرا ، أو يثابر على الحركة الشعبية ، ولو في مجال الاصلاح الفكري البعيد عن السياسة ، وقد تعقدت نفسه من العمل السياسي ، منذ الثورة العرابية التي كانت لها نتائج وخيمة على مصر ، ولم يجذبه الى النضال ضد الاستعمار الا شخصية جمال الدين الأفغاني (النارية) التي يلتحم معها حين يحاورها[1] .

أما ابن باديس فكان بحق رجل الجماهير ، العامل معها ، ووسطها رغم مكانته الرفيعة ، ومكانة أسرته بين تلك الجماهير ، المتعطشة الى الهضم والاستيعاب ، وقد جاء نشاطه صورة صادقة لطاقته الحركية . هذا بالاضافة الى عقليته ، الحكيمة المدبرة ، وبديهته السريعة . بل ان كتاباته ، ودروسه وخطبه ، علاوة عن جهوده العلمية ، التي تمثل حركيته وحرارته خير تمثيل حيث كانت تنطلق من كلماته الى قلوب المسلمين وعقولهم ، تيارات دافقة ، بالنور والحب ، والتفاني في خدمة الدين ، والوطن ، فكان يصوغ من الاسلام ، صورا متكاملة للفكر ، والعمل ، ومن الوطن صورا حماسية تلهب مشاعر المسلمين وتدفعهم الى التضحية ، والفداء في سبيل احياء مجدهم ، وإطلاق سراح حريتهم المكبلة بالقيود ، والأغلال طوال قرن من الزمن ، وهكذا كان ابن باديس رجل العصر وزعيم الأمة ، وقائد الجماهير ، جاب أنحاء القطر - على اتساعه - طولا وعرضا مؤسسا الفروع لجمعيته ، ومنشئا المدارس لأبناء المسلمين جامعا على دعوته كل عناصر السكان على اختلاف نزعاتهم ، ومذاهبهم[2] .

وبذلك أصبح رمز جهاد للشعب الجزائري ، وقدوة حسنة يقتدى به في الدفاع عن الدين ، والوطن ، وطلب العلم . والجزائر المستقلة اليوم تقيم له الأسابيع الثقافية ، وتطلق اسمه على المعاهد ، والمدارس ، والمساجد ، والشوارع ، والأحياء ، والمدن ، انه رائد العصر حقا .

(1) نفس المرجع ، ص 484 .

(2) ينظر نفس المكان .

الشيخ محمد البشير الابراهيمي 1889 – 1965

يعتبر العلامة محمد البشير الابراهيمي الشخصية الثانية في الحركة الاصلاحية وجمعية العلماء بعد ابن باديس .

وقد كان أول نائب لرئيس الجمعية وآخر رئيس لها بعد وفاة رئيسها الأول الامام عبد الحميد بن باديس .

ولد الابراهيمي مع بزوغ شمس الثالث عشر من شهر شوال سنة 1306 هـ، حزيران (جوان) 1889م[1] ، في قبيلة اولاد ابراهيم بالقرب من رأس الوادي (ولاية سطيف)[2] ، في بيت عريق[3] في العلم والأدب ، فنشأ وترعرع في جو ملائم ساعده على النبوغ الفكري بعد أن حفظ القرآن ، وكثيرا من العلوم وهو ابن تسع سنوات ، ودرس علوم الدين والعربية ، على يد عمه الشيخ المكي الإبراهيمي ، الذي كان علامة زمانه في العلوم العربية بالمنطقة ، وحصل على اجازة من عمه في تلك العلوم والمعارف التي تلقاها على يده ، ولم يكن عمره يتجاوز الأربع عشرة سنة ، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره (1911) ، رحل الى المدينة المنورة مقتفيا آثار والده الذي سبقه اليها . وفي هذه الأخيرة تلقى (علم التفسير ، والحديث ، وعلم الرجال وأنساب العرب)[4] .

ولما قضى ست سنوات في المدينة انتقل أثناء الحرب العالمية الأولى الى دمشق بعد أن أرغم على الذهاب اليها رفقة والده . وفي هذه المدينة الأخيرة اشتغل بالتعليم الحر، ثم عين أستاذا للأدب العربي في المدرسة السلطانية[5] في عهد حكومة الاستقلال الوطني .

---

(1) انظر محمد الطاهر فضلاء : أعلام الجزائر – الامام الرائد – الشيح محمد البشير الابراهيمي – مطبعة البعث – قسنطينة – الجزائر 1967 ، ص 171 . نقلا عن مجلة (الشبان المسلمين المصريين) عدد 101 جويلية 1965 . وانظر أيضا الشهاب المجلد السادس ، الجزء الأول ، قسنطينة ، فيفري 1930 ، ص 50 .

(2) أورد روبير أجرون خطأ أن الابراهيمي ولد في بجاية ، المرجع السابق ، ص 325 كما ذكر السيد : ابن الريف البخلاخي احمد خطأ أيضا أن الابراهيمي ولد في قسنطينة أظهر : ماقالة العلامة المجاهد السيخ محمد البشير الإبراهيمي مجلة الأمة د46 قطر شوامل 1406 هـ تمر زديولين 1904م ص 55 .

(3) ذكر شارل اندري جوليان : ان اشيخ الابراهيمي يرتقي من أسرة فلاحية المرجع السابق ، ص 102 .

(4) مجلة الثقافة : الذكرى التاسعة لوفاة الشيخ الابراهيمي عدد 21 الجزائر جويلية 74 ص 137 .

(5) كانت المدرسة السلطانية هي الثانوية الوحيدة في ذلك الوقت بدمشق .

وهكذا شارك في النهضة العلمية والأدبية والقومية في بلاد الشام[1] ، وبعد أن وضعت الحرب أوزارها رجع الشيخ سنة (1922)[2] ، الى الجزائر يحمل أفكارا ونظريات إصلاحية جديدة ، وأخذ في نشر العلم والأدب من أجل الإصلاح (الإنساني) الإسلامي الإجتماعي ، وكتابة المقالات ونشرها على أعمدة الصحف في مختلف الموضوعات[3] ، (العلمية ، والتربوية ، والأدبية ، والإصلاحية)[4] .

ولقد كان لإقامة الشيخ الابراهيمي في الحجاز وسوريا أثر كبير في مستقبل حياته الثقافية والسياسية ، ففي المدينة ودمشق ، نهل الشيخ من منابع الثقافة العربية الإسلامية (والمثاليات الشرقية)[5] ، التي دعا اليها جمال الدين الأفغاني والشيخ محمد عبده في القرن الماضي ، وكون منها رصيدا علميا لإصلاح بلاده التي كانت ترزح تحت الجمود الفكري والزحف العقائدي الأجنبي .

وخلال العشرينات اتصل الإبراهيمي بالشيخ ابن باديس واتفق[6] الرجلان سنة 1924 بمدينة سطيف على إنشاء جمعية للعلماء باسم (الاخاء العلمي) وعلى الرغم من أن الشيخ الإبراهيمي لم يبدأ بالاصلاح عند عودته مباشرة كما فعل ابن باديس ، والعقبي فان اتصاله الوثيق بابن باديس جعله يتحول من المجال الأدبي الى الميدان الإصلاحي[7] ، وأصبح بذلك الشخصية الثانية بعد الشيخ عبد الحميد بن باديس في الحركة الإصلاحية ، ومن مؤسسي جمعية العلماء التي كانت صفعة قوية للإستعمار الذي احتفل سنة 1930 بمرور مائة عام على احتواء الشخصية الجزائرية في كيانه .

ومنذ سنة 1931 دخل الشيخ الإبراهيمي مرحلة جديدة من حياته النضالية دفاعا عن الدين والوطن ضد المستعمر ، وهنا نسمع الشيخ يقول : (هذه المرحلة من حياتي هي مناط فخري وتاج أعمالي العلمية ، والإجتماعية ، والأفق المشرق من حياتي ، وهذه هي المرحلة التي عملت فيها لديني ووطني ، أعمالا أرجو أن تكون بمقربة من رضى الله ، وهذه هي المواقف التي أشعر فيها كلما وقفت أرد الضلالات المبتدعة في الدين، أو أكاذيب الإستعمار، أشعر كأن كلامي أمتزج بزجل الملائكة بتسبيح الله[8].

---

(1) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ج3/ ط1 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1981 ، ص5 .

(2) C.R. AGERON, Op Cit, P. 325.

(3) انظر محمد الطاهر فضلاً : المرجع السابق ، ص 171 .

(4) مجلة الثقافة : عدد 21 ، مرجع سابق ، ص 137 .

(5) C.A. JULIEN, Op Cit, P. 102

(6) ينظر : سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ط 1 ، 2 46 .

(7) ينظر : د. أبو القاسم سعد الله، الحركة الوطنية الجزائرية 1900 – 1930 ط 1، بيروت 1969، ص 449.

(8) مجلة الثقافة : عدد 21 ، مرجع سابق ، ص 138 .

وهكذا ظل الشيخ الإبراهيمي منذ انتخابه نائبا للرئيس في جمعية العلماء مخلصا أمينا ، لمبادىء الجمعية وأهدافها ، وإلى زميله الشيخ ابن باديس ، وشارك في المؤتمر الإسلامي الجزائري العام سنة 1936 ، مع زملائه العلماء باسم الجمعية ، وكتب عن المؤتمر وبرنامجه وأهدافه وعن المناخ الذي أحاط به والملابسات التي غشيته ، الشيء الكثير في مجلة الشهاب ، كان من بين أعضاء وفد المؤتمر الذي سافر إلى باريس في شهر تموز (جويلية) سنة 1936م . لتقديم مطالب الشعب الجزائري إلى حكومة باريس ممثلا للعلماء عن مقاطعة وهران ، هذا وفي سنة 1935 قام بجمع تقارير مؤتمر جمعية العلماء في كتاب سماه (سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين) بعد أن قدم له بمقدمة طويلة وافية ، بين فيها مفهوم الإصلاح ونشأته وتطوره بأسلوب العالم المتطلع في كل المعارف والعلوم الدينية والانسانية(1) .

واذا كان العقبي قد انسحب من جمعية العلماء سنة 1938 بسبب خلاف بينه وبين الشيخ ابن باديس ، فان الإبراهيمي قد ظل وفيا للجمعية وللرئيس ، وفور اندلاع الحرب العالمية الثانية ، حاول الفرنسيون إرغام الشيخ الإبراهيمي على الإلتحاق بالإذاعة الجزائرية بهدف جذب الجزائريين الى الوقوف بجانب فرنسا في أوروبا ، وافريقيا الشمالية ، واقناعهم بأن انتصار فرنسا هو انتصار للجزائريين أنفسهم ، ولكن الشيخ وقف موقفا لايقل أهمية عن موقف الشيخ ابن باديس – أمام مسألة إرسال برقية الولاء والتأييد سنة 1938 – حيث رفض رفضا مطلقا أمر الحكومة الفرنسية القاضي بنقله إلى الإذاعة ، فقامت هذه الأخيرة بنفيه الى آفلو (جنوب وهران) (2) ، مما سمح للشيخ العربي التبسي أن يتولى رئاسة الجمعية بعد وفاة الشيخ ابن باديس ، وظل مكلفا بمهمة تسيير مدارس الجمعية حتى تحرر الشيخ الإبراهيمي من منفاه في يوم 28 كانون الأول (ديسمبر) 1942 ، ومنذ ذلك الحين أصبح رئيسا للجمعية بحكم وجوده فيها كنائب للرئيس الراحل(3) ، وانتخاب الأعضاء له تقديرا للجهود التي بذلها في سبيل الدفاع عن مبادىء الجمعية وأهدافها ، ونظرا لمواقفه الشجاعة ضد المستعمر الفرنسي .

---

(1) مجلة الشهاب ، م12 ، ج4 – قسنطينة ، جويلية 1936 ، ص236 .

(2) عباس بن الشيخ الحسين : محادثة شخصية – الجزائر يوم 8 ، 9 ، 10 ماي 1976 .
وكذلك : الشيخ عبد اللطيف بن علي السلطاني : مراسلة خاصة بهذا الموضوع – الجزائر 18 ماي 1976 .

(3) عباس بن الشيخ الحسين : المحادثة السابقة .

ولما استرجعت الجمعية قوتها ، وانتشرت دعوتها في كافة أرجاء القطر الجزائري أصبحت حقيقة ثابتة ، وقوة ديناميكية فعالة في المجتمع الجزئري ، بعد تجميد استمر طيلة سنوات الحرب في تنظيماتها وهياكلها الإدارية ، وأقبل الشعب على بناء المدارس وإرسال البعثات ، وتوفير الإمكانيات لنشر الثقافة وبث الوعي بين الجماهير .

بعد هذا كله فكر الشيخ الابراهيمي في إيجاد مكان لها في الخارج أي الخروج بدعوة الجمعية من النطاق المحلي الى الصعيد العربي الإسلامي ثم العالمي . ومن أجل هذا الهدف كانت رحلة الشيخ الإبراهيمي بعد الحرب العالمية الثانية الى الشرق بعد أن كان قد عاش فيه سنوات طوالا في ريعان شبابه(1) .

وعلاوة على أن الإبراهيمي كان وطنيا مصلحا دافع في أحرج الظروف عن الشعب الجزائري ، ودينه ، ولغته ، فقد كان بحرا في العلوم الإنسانية حتى أنه نال شهرة واسعة بين أساتذة وطلاب مصر الذين وضعوا برنامجا خاصا لزيارته في كلية الآداب في اللغة ، والتاريخ ، وعلم الاجتماع ، فكان كلما دخل قسما وطلب منه أن يقول كلمة يأخذ رأس موضوع الدرس من الأستاذ الحاضر ويتحدث فيه بعذوبة واستفاضة ، وفصاحة كمن يغرف من بحر ، ويخوض في المحاضرة بقوة العالم المتعمق مما حير وأدهش الأساتذة والطلبة الذين تعودوا على التخصص الضيق(2) .

وخلال رحلته الى الشرق اتصل بعدة شخصيات إسلامية ، أمثال (المودودي) في باكستان ، والصواف في العراق ، وكثير من علماء ومشائخ مصر ، وسوريا ، والسعودية كما اتصل بعدد من الجمعيات الاسلامية القوية ، كالإخوان المسلمين(3) ، والشبان المسلمين في مصر ، وعباد الرحمن في لبنان ، والجمعية الإسلامية في باكستان ، والجمعية الغراء في سوريا(4) .

وأثناء إقامته الطويلة في المشرق ، كان يخطب ، ويحرر المقالات ، ويدلي

---

(1) محمد الطاهر فضلاء : المرجع السابق ، ص 91 ، 92 .

(2) مجلة الثقافة : عدد 21 ، مرجع سابق ص 138 .

(3) جمعية إسلامية أسسها الشيخ حسن البنا في مصر سنة (1347 هـ/1928م ، مكان هدفها هو الإصلاح الإسلامي والرجوع بالمسلمين إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وتطهير العقول من الخرافات والأوهام وارجاع الناس إلى هدي الإسلام الحنيف وقد قام البنا وجماعته بتأسيس المدارس وإصدار الصحف والإتصال بالجماهير في كل المدن والقرى من الصباح حتى منتصف الليل لنشر دعوتهم . استشهد حسن البنا سنة 1368 هـ/1949م .
ينظر فتحي عثمان : المرجع السابق ، ص 468 ، 486 .

(4) [illegible] مرجع سابق ، ص 92 .

بالأحاديث الصحفية ، ويشرح القضية الجزائرية قبل اندلاع الثورة وخلالها ، وظل يتتبع تطورات الكفاح الوطني فى الجزائر ، وعلى اتصال مستمر بقادة الثورة بالقاهرة .

ويعتبر الابراهيمي حقا من القلائل الذين مهدوا بثورتهم الفكرية إلى الثورة المسلحة ، فقد كانت مقالاته الصحفية ، ومحاضراته العامة دعوة الى الجهاد ، واليقظة ، وإحياء الاسلام ، والعروبة فى الجزائر ، ولاسيما ماكان يكتبه فى جريدة (البصائر) لسان حال جمعية العلماء ورغم أنه أدرك طعم الحرية ، والاستقلال فى بلاده فإنه لم يتوقف عن مواصلة الجهاد الى آخر حياته ، من أجل أرساء قواعد الاسلام ، والعربية والحرية فى هذه البلاد .

وكما كان رفيقه ابن باديس يجاهد ، ويناضل من أجل وحدة شعوب المغرب العربي ، والعالم الإسلامي قاطبة ، كان الابراهيمي شخصية بارزة فى العالم الاسلامي بجهاده ، ونضاله من أجل قضايا العرب ، والمسلمين .

دعا الى حسن الجوار بين شعوب المغرب العربي ، وعروبة الشمال الافريقي . وفي ذلك يقول : «ودين الله يوجب حقوق الأخوة ، ويدعو الى إيثار الجار ، والاحسان إليه ، وهو بهذا يعمم التناصر ، ويقيم فى الأرض سرعة التعاون ، فما من جار إلا له جار ، والناس كلهم متجاورون جوار الدار للدار ، القرية للقرية ، فجوار المدينة للمدينة ، فجوار الوطن للوطن ، فإذا أخذوا بهذه الشريعة ، وأقاموا حدودها ، ثم التناصر ، والتعاون ، وسدت المنافسة وعلى المفسدين فى الأرض ، ولكن الاستعمار بهذه السياسة . بدل شريعة الله بشرعة الشيطان ، فعند ذلك أقصر اهتمامك على دارك ، ولا تلتفت الى جارك»[1] .

وبخصوص عروبة الشمال الافريقي ، ووحدته ، يقول البشير الابراهيمي : «عروبة الشمال الافريقي بجميع أجزائه طبيعية كيفما كانت الأصول التي انحدرت منها الدماء والينابيع التى انفجرت منها الأخلاق والخصائص ، والنواحي التى جاءت منها العادات والتقاليد ، وهي اثبت أساس ، وأقدم عمر ، وأصفى عنصر من انجليزية الانجليز ، وألمانية الألمان ، هذه العروبة ، الأصيلة ، العريقة فى هذا الوطن هي التى صيرته

---

(1) البخلاخي أحند . العلامة المجاهد الشيخ محمد البشير الإبراهيمي مجلة الأمة – عدد 46 تموز (يوليو) 1984 ،

وطنا واحدا لم تفرقه إلا السياسة ، سياسة الخلاف فى عصوره الوسطى ، وسياسة الاستعمار فى عهده الأخير» .

أما مواقفه من القضايا العربية فيلمسها المرء بوضوح فى قضية فلسطين حيث يقول : «ماأضاع فلسطين إلا العرب وقد جاءتهم النذر فتماروا بها ، ثم حق الأمر وهم غارون فاندهشوا، ثم وقعت الواقعة فأبلوا وعمد خطباؤهم الى الخطب ينمقونها، وشعراؤهم الى القصائد يزوقونها وساستهم إلى الأهواء يلفقونها ، وعمد خصومهم اليهود الى الغايات يحققونها ، والى العهود يمزقونها ، وقضي الأمر وأوسعناهم سبا ، وراحوا بالإبل» .

هذا وكما نادى الابراهيمي بوحدة الشمال الافريقي ، والوطن العربي والعالم الإسلامي نادى بضرورة ، إسترجاع اللغة العربية ، وإحلالها محل اللغة الفرنسية فى الجزائر وفى ذلك يقول : «اللغة العربية هي لغة الاسلام الرسمية ، ولهذه اللغة على الأمة الجزائرية حقان أكيدان ، كل منها يقتضي وجوب تعلمها فكيف إذا اجتمعا ؟ حق من حيث أنها لغة دين الأمة بحكم أن الأمة مسلمة ، وحق من حيث أنها لغة جنسها أن الأمة عربية الجنس ، ففي المحافظة عليها تعليمها ، وذلك كله لأنها مفتاح الدين ، أو جزء من الدين» .

وهكذا ، عاش الشيخ الابراهيمي أستاذا ، وصحافيا ، وأديبا ،وداعية اسلاميا طيلة حياته مجاهدا الاستعمار ، والطرق الفاسدة ، حتى توفي فى يوم 22 ماي 1965 .

الشيخ الطيب العقبي (1889 – 1959)

يعتبر الشيخ العقبي الشخصية الثالثة بعد ابن باديس والإبراهيمي قبل أن ينفصل عن الجمعية سنة 1938 .

ولد هذا العلامة المصلح بقرية سيدي عقبة قرب مدينة بسكرة جنوب قسنطينة[1] ، وشاءت الأقدار أن يكون من مواليد العقد التاسع من القرن الماضي (1890) وهو العقد الذي ولد فيه كل من الشيخ ابن باديس والشيخ الإبراهيمي والأمين العمودي .

---

(1) ينظر تفصيل اصل العقبي ونسبه في كتاب محمد علي دبوز : نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ،

ولما بلغ العقبي السادسة من عمره هاجر صحبة أسرته الى الحجاز سنة 1895[1] ، مثله في ذلك مثل الابراهيمي ، إلى المدينة المنورة وبالمدينة نهل من المعارف العربية المختلفة ، وتشبع بمباديء الإسلام الصحيحة الصافية ، وعاش أيام الثورة العربية الكبرى هناك ، واتهم من قبل الأتراك بالإشتراك في هذه الثورة ، فنفي الى تركيا ، ثم رجع الى مكة ليدير جريدة القبلة[2] والمطبعة الأميرية .

وفي سنة 1920 رحبت به الجزائر على بساط الشعر والخطابة والكتابة ، بعد أن كان قد تأثر بالأفكار القومية ، والدعوة الاصلاحية في المشرق العربي[3] .

وفي مدينة بسكرة أهتم بتفسير القرآن الكريم ، وأسس جريدة الاصلاح ، في يوم 8 سبتمبر 1927[4] ، وهي احدى جرائد الانبعاث الفكري ، والنهضة الاصلاحية ، والثورة القلمية ، التي قال عنها الشيخ البشير الإبراهيمي[5] (... ثم تأسست جريدة الاصلاح ببسكرة ، فكان اسمها أخف وقعا ، وان كانت مقالاتها أسد مرمى ، وأشد لذعا ...) .

وبعد إقامته في بسكرة بضع سنين انتقل الى مدينة الجزائر ، وهناك نصب نفسه لمكاتبة الصحف العربية الداعية الى الإصلاح ، فكان الشهاب جريدة ومجلة ، لا يقع في يد القراء ، إلا وعلى أعمدته مقالة أو قصيدة للعقبي تفيض بالأفكار الحية والانتقادات البناءة التي تنبعث من صميم الإصلاح الاسلامي الصحيح ، ذلك أنه كان يرى وحدة الأمة تتمزق (بين رجعية منحرفة وتقدمية ملحدة) ، ومعالم الشخصية الوطنية ضائعة بين تيارين جارفين ، أولهما ينزع الى عصر الظلام ، وثانيهما يقذفها في بؤرة (المادية البوهيمية)[6] .

ولما تأسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931 اصبح من بين أعضائها المساعدين وتولى تحرير جرائدها العربية ، واشتهر بحملاته العنيفة على الطرقيين

---

(1) جريدة النجاح ، عدد 1884 قسنطينة 12 أوت 1936 ، نشرت هذه الجريدة ترجمة عن العقبي بعد اتهامه باغتيال المفتي كحول .

(2) جريدة الشريف حسين بن علي ملك الحجاز في ذلك الوقت ، ينظر جريدة النجاح : العدد السابق .

(3) د . صالح خرفي : صفحات من الجزائر ، دراسات ومقالات من 1962 - 1972 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1973 ، ص283 .

(4) جريدة النجاح ، عدد 1884 ، قسنطينة 12 أوت 1936 .

(5) ينظر : سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، المرجع السابق ، ص51

المضللين ، والدعوة الى تجديد الإسلام ، واللغة العربية ، حتى وصف بالوهابية في دعوته ، وبهيج الجماهير الجزائرية المسلمة في خطبه ، فمنع بقرار إداري من القاء الدروس والمحاضرات في مساجد العاصمة ، وذلك بعد أن رفض اقتراح السلطات الفرنسية الذي يقضي بمنحه منصبا رسميا في الادارة الجزائرية[1] ، وقد كان مقصودا الى جانب ابن باديس في منشور ميشال سنة 1933 حين وصفه المنشور بأنه الناطق باسم جمعية العلماء[2] .

وبالرغم من أن العقبي لم يصل إلى مستوى ابن باديس فقد كان مجدا في عمله ، متصلبا في مواقفه ، عميقا في أفكاره ، فصيحا في خطبه ، غزيرا في أسلوبه ، وقطبا من أقطاب الإصلاح وجمعية العلماء ، ولا غرابة في أن يستهدفه منشور ميشال سنة 1933 ، وأن تدبر مؤامرة ضده سنة 1936 ، وهو الذي تولى الدعوة الى تطهير مدينة الجزائر من الخرافات وإنقاذها من الإنحطاط الخلقي والفساد الإجتماعي .

وقد كان حقا بحكم قوته الشخصية رمزا للجمعية وممثلا لها، فكان اخفاؤه من مسرح العلماء معناه ازالة الجمعية تماما من الوجود، حسب تعبير الشيخ عبد الحميد بن باديس[3] .

ولعل الشيء الذي يبعث على التساؤل هو أن بعض تلامذة ابن باديس يشيرون الى أن العقبي لم يدخل الجمعية بقلبه ، وان كان قد دافع عنها بلسانه ، وقلمه في مواقف متعددة[4] .

ولعل مايؤكد هذا الرأي هو أن العقبي لم يشغل في الجمعية عند تأسيسها منصبا بارزا سوى أنه كان عضوا مساعدا فقط ، ولم تسند إليه أية مسؤولية عليا في المجلس الإداري .

ويبدو أنه قد أخذ يتزعزع من مركز قوته الشخصية التي كان يتمتع بها بين زملائه العلماء منذ سنة 1936 ، ويعود ذلك إلى سجنه على اثر المؤامرة التي دبرت ضده لضرب جمعية العلماء ، وبيان ذلك أنه بعد رجوع وفد المؤتمر الاسلامي من باريس الى الجزائر حاكت الإدارة الاستعمارية خيوط مؤامرة ضد الجمعية التي لعبت

---

(1) Bulletin du Comité de L'Afrique Française n° 7 Alger 1939 pp. 200-202 pp. 200-202.

(2) Circulaire MECHEL, 19 Fevrier 1933. MECHEL, Secrétaire Général de la Préfecture d'Alger, charge des Affaires Indigènes, ANDRE NOUCHI, p. 69.

(3) جريدة البصائر : عدد 176 ، قسنطينة 28 جويلية 1939 .

دورا بارزا في المؤتمر المذكور وأوحت الى أذنابها باغتيال مفتي الجزائر كحول عمر ، والصقت التهمة بالشيخ الطيب العقبي .

في صبيحة يوم الأحد 2 آب (أوت) 1936 قتل الشيخ محمود كحول الامام المفتي[1] لمدينة الجزائر ، بينما كان عشرة آلاف شخص من المسلمين بالملعب البلدي حول أعضاء وفد المؤتمر الاسلامي الجزائري الذي عاد من باريس يحمل الوعود والبشائر من الوزارة الفرنسية ورئيسها (ليون بلوم) بانجاز عدد من مطالب المسلمين .

لقد أثيرت حول اغتيال المفتي كحول ادعاءات كثيرة باطلة ، فهناك ادعاء يقضي بأن سبب هذه الجريمة يعود الى البرقية التي أرسلها هو والمفتي ابن زكري ، وكثير من الشخصيات الدينية الرسمية (في يوم 19 تموز جويلية 1936) الى رئيس الحكومة الفرنسية يعارضون فيها شرعية وفد المؤتمر الاسلامي ، ويحتجون على تمثيله للشعب الجزائري ، ويؤيدون قرارات الادارة المتعلقة بالحد من نشاط العلماء المصلحين ، ولا سيما منشور[2] (ميشال)[3] .

---

(1) كان الشيخ محمود بن الحاج كحول بن دالي من علماء الدين الجزائريين ولكنه لم يكن ينتسب لجمعية العلماء أو عضوا فيها ، لأنه كان موظفا رسميا لدى الحكومة ، وتولى تدريس العربية والشريعة الاسلامية في مدرسة قسنطينة الحكومية فترة من الزمن ، ثم نقلته الادارة الى مدينة الجزائر ، فصار محررا في قسم الترجمة في الولاية العامة ثم عين اماما في الجامع الكبير ، ونائبا للمفتي المالكي في العاصمة فأصبح من المقربين الى الادارة الفرنسية بحكم منصبه .

وقيل أنه كان يعارض بعض الموظفين السامين الفرنسيين في ادارة الشؤون الأهلية بخصوص احتجازهم لأموال بعض الأوقاف الاسلامية فتآمروا ضده وعزموا على التخلص منه قبل أن يكشفهم ، ولما كانت جمعية العلماء ونادي الترقي من أشد خصوم الادارة وكانت الفرصة مواتية لالصاق التهمة بالعلماء المصلحين بعد أن وجه برقية احتجاج ضد وفدالمؤتمر الاسلامي الى الحكومة في يوم 19 تموز (جويلية) 1936 . أراد هؤلاء المتآمرون في ادراة الاحتلال أن يضربوا عصفورين بحجر واحد ، فاغتالوا ابن دالي كحول ونسبوا الجريمة لجمعية العلماء وخصوا بذلك الشيخ العقبي الذي كان شخصية هامة في الجمعية من جهة ، وزعيم نادي الترقي من جهة أخرى ، وكانت عملية الاغتيال بواسطة عصابة ارشتها الادارة الفرنسية ، وكان الهدف من وراء ذلك كله هو القضاء على نادي الترقي ، وجمعية العلماء ، وطمس منابع الاصلاح الاسلامي ، المعاصر في الجزائر .

ينظر تفصيل هذا الموضوع في كتاب محمد على دبوز : نهضة الجزائر الحديثة ، وثورتها المباركة ، الجزء 2 المرجع السابق ، ص117 .

(2) Bulletin du comité de l'Afrique Française, P.P. 20 – 203

(3) مشال كان يشغل منصب الشؤون الأهلية والكاتب العام لولاية الجزائر العامة ، وكان المنشوران اللذان أصدرهما عبارة عن تعليمات إدارية موجهة الى رجال الأمن ، والادارة الفرنسية فى شتى نواحي القطر بمراقبة العلماء ، والتضييق عليهم ، ومنعهم من أداء مهمتهم الدينية وتعليم اللغة العربية بدعوى أنهم يبثون المبادىء الوهابية ، والمذهب الشيوعي ، وأنهم وقفوا بأعمال مضادة للوجود الفرنسي فى قفاز الدول الأجنبية .

وهناك رأي آخر يذهب إلى أن سبب قتله ، هو عداوته للعلماء ، وسعيه لإغلاق المساجد فى وجوههم .

أما الإبراهيمي فقد كتب فى هذا الموضوع مقالا طويلا فى جريدة البصائر ، هاجم فيه شدة الصحافة الفرنسية التي كتبت مقالات وتعاليق ضافية حول اغتيال المفتي واتهام الأستاذ العقبي وزميله عباس التركي بالتحريض على الجريمة تضخيما للحادث ، ثم لخص الآراء المتضاربة حول هذا الموضوع فقال : «قال قوم ان القتل سياسي وقال آخرون أن القتل ديني وقال غيرهم أن القتل شخصي» واستند الرأي الأول على أن سبب أغتيال المفتي يرجع إلى معارضة لوفد المؤتمر الإسلامي ، الجزائري ، ومطالبه ، عندما كتب برقية يبتدأ فيها من الوفد بنوعيه السياسي ، والديني ، ومعنى هذا الرأي أنه وجه التهمة إلى الوفد.

أما الرأي الثاني : فمستنده يقوم على أن القتيل عالم ديني أو على الأقل ذو منصب ديني ، وقد عرف بالخصومة لحركة الاصلاح الديني ومغزى هذا الرأي ، أنه وجه التهمة الى جمعية العلماء ، أوالى النادي الذي هو مركزها أو إلى العقبي الذي هو ممثلها الأكبر فى العاصمة[1] .

وقد أضاف الابراهيمي قائلا : ان المصلحين لايدعون بأنهم أصدقاء للمفتي كحول ولكنهم لايسمحون للمغرضين أن يتهموهم بمعاداته بالمعنى العرفي الذي يفهمه الناس ، للعداوة لأن كحول ليس وحده عدوا للإصلاح ، وقد وصف الابراهيمي ، كحول بأنه رجل ذكي نزاع بطبيعته إلى الاستقلال الفكري فلو تركته الظروف لكان فى عداد المصلحين ، وعلى هذا فمعارضته للاصلاح الديني ليست نابعة من ذاته ، ولكنها مصطنعة ، نتيجة لوظيفته الرسمية فى الادارة الاستعمارية ، وبحكم منصبه الديني يستعمل «حينا آلة كيد ، وحينا جارمة صيد» .

هذا ثم وصف الابراهيمي جو الفرحة التي غمرت الناس ساعة تحرير العقبي وزميله عباس تركي من الاعتقال ، حيث هب الناس من كل حدب ، وصوب يهنؤون بعضهم بعضا فى الشوارع مهللين ، ومكبرين ، وكأنه يوم عيد من أعيادهم الدينية ثم تتالت الزيارات على الشيخ ، وانهالت البرقيات من الداخل والخارج تهنيه ، وتهنىء جمعية العلماء ، بنجاة أحد أقطابها من المؤامرة التى دبرت ضده من قبل إدارة الاحتلال

---

(1) مقتل الشيخ كحول – ليسجل التاريخ ، ولتشهد الأجيال المقبلة (تحقيقات مهمة) جريدة البصائر ، عدد

ومهما يكن بطلان هذه الادعاءات ، الملفقة لخنق أصوات العلماء ، فقد اتهم الشيخ العقبي بهذه الجريمة ، وقدم الى المحكمة مرات متعددة ، ومع ذلك فقد كان موقفه أثناء جلسات المحكمة من شهر آب (أوت) 1936 إلى 28 حزيران (جوان) سنة 1939 ، موقفا شجاعا ، حيث كان يتكلم أمام القضاء وكأنه فى نادي الترقي حتى أن رئيس المحكمة كان يتحرج لفصاحته وقوة حجته ، واستمر الشيخ العقبي على مواقفه هذه طيلة محاكمته حتى برىء من التهمة فى حزيران جوان 1939[1] ، وفي مطلع 1938 حاول الاشتراكيون ، وعلى رأسهم السيد فيوليت اسدال الستار على قضية كحول ، وتبرئة المتهمين ، لأن هؤلاء الاشتراكيين كانوا يعلمون أن خيوط المؤامرة قد نسجتها أوامر الموظفين السامين فى الولاية العامة بالجزائر ، ولكن ابن دالي عمر بن الضحية احتج في مقال شديد اللهجة[2] ، ضد الوزراء الاشتراكيين ، واتهمهم بمقال شديد الدوجة ، بممارسة الضغط على المحاكم . من أجل اخفاء الحقيقة حول قضية أبيه[3] .

أما بخصوص الخلاف الذي وقع بين العقبي وزملائه في المجلس الاداري لجمعية العلماء ، فترجع أصوله حسب شاهد عيان[4] الى حادثة اغتيال المفتي كحول ، فمنذ ذلك التاريخ أصبح العقبي حسب هذا الرأي يميل الى التيار الموالي للحكومة ، فظهر بينه وبين ابن باديس شيء من الخلاف[5] ، ويبدو ذلك واضحا في اجتماع الدورة الثامنة لمجلس العلماء سنة 1938[6] ، حين طلب العقبي من الرئيس أن توجه الجمعية برقية ولاء وتأييد للحكومة كسائر الجمعيات الأخرى في موقفها من الحرب المنتظرة فعارض الشيخ عبد الحميد بن باديس ، معارضة شديدة وقال : (ان جمعيتنا لاتقدم شواهد اخلاص) ، ولا تقوم بأي عمل من أعمال التملق للحكومة ، فأجابه العقبي بأن هذا واجب أدبي أكيد[7] ، فأنا لي ستة أولاد أحافظ على مصير حياتهم ، فرد عليه ابن باديس بقوله : ان الذي يفكر في عائلته وأولاده لاينبغي أن يتقدم لميادين الأعمال الوطنية الحرة[8] ، فأكد له العقبي بأنه اذا لم ترسل الجمعية برقية

(1) ينظر جريدة البصائر : عدد 173 ، قسنطينة 7 جوان 1939 .
(2) نشرت هذه المقالة في جريدة الأرزق الصغير (le petit bleu) في يوم 13 جانفي 1938 .
(3) Bulletin du comité de l'Afrique Française, Op. Cit, pp. 200 – 204
(4) أحمد توفيق للدني : حديث شخصي الجزائر – 2 فيفري 1976 .
(5) عباس ابن الشيخ الحسين ، محادثة شخصية ، الجزائر 8 ، 9 ، 10 ماي 1976 .
(6) أحمد توفيق للدني : المحادثة السابقة .
(7) جريدة النجاح عدد 96 22 ، قسنطينة ، 6 أكتوبر 1938 ، ص 1 .
(8) ينظر : نفس المصدر وكذلك جريدة البصائر ، عدد 135 ، قسنطينة 14 أكتوبر 1938 ،ص 4 .

ولاء الى الحكومة الفرنسية ، فسيقدم استعفاءه من المجلس الاداري في الحال ، ثم صرح أمام أعضاء المجلس قائلا : (جمعية العلماء لم تكون العقبي ، وانما كونها العقبي وأمثاله بالمبادىء والدعوة ، لقد كنا نعمل فرادى حتى هبت سانحة رحمة ، فكان تأسيس جمعية العلماء في الجزائر ، وفي المدينة التي هي فرنسية رغم أنف كل أحد وكل مكابر منذ مائة عام ، فرنسية خاضعة لقوة فرنسا ولقوانين فرنسا وتتصرف فيها كيفما شاءت ... وقد تأسست جمعية العلماء علمية دينية لاغير ، ولكن أعداءها كثرت أصنافهم وتنوعت مكائدهم ، واتحدت مقاصدهم للقضاء عليها وأولوا بعض اجراءاتها بما هي بريئة من مقاصدها ، وبعيدة عن ارادتها ، ولقد كنت دائما معارضا لها .. وفي اعتقادي أن البلاء قد انصب على جمعية العلماء من بعض اجراءاتها أولها المضادون لها بصور غير لائقة ، وكم كنت أتألم لمثل هذه الاجراءات ، وكم كنت أحذر وأنذر – لأنني أعلم كثيرا مما لايعلمون – ولكنها كانت تقع رغم أنفي لأن الأغلبية كانت على خلاف رأيي ، وأخيرا فانني أصرح بأنني ماعدت احتمل مثلها ، وقد قام بسبب ذلك خلاف بيني وبين الأعضاء وقد اجتهدت أن أقنعهم برأيي ولكن لم أستطع[1] . ويتضح من هذا التصريح أن العقبي كان على خلاف مع أعضاء الجمعية قبل سنة 1938 ، وكان معارضا لبعض أعمالها التي يؤكد بأنها كانت سببا في عرقلة نشاطها من طرف الادارة الاستعمارية ، لأن العقبي على مايبدو كان أكثر تمسك من زملائه بمبادىء الجمعية كما وردت في قانونها الاساسي ، ولكن كان يريد أن يكون صاحب الكلمة العليا والنفوذ الواسع في الجمعية[2] .

وعند ماجاءت مسألة ارسال البرقية للحكومة سنة 1938 حدد العقبي موقفه بوضوح من زملائه الآخرين ، وكشف عن الخلافات التي كانت بينه وبينهم منذ نشأة الجمعية ، وانتهى به هذا الخلاف مع ابن باديس الى تقديم الاستقالة والانسحاب نهائيا من الجمعية ، كعظو اداري ذلك أن العقبي كان متعصبا لرأيه ، وابن باديس متصلبا في موقفه ، حيث رد على زميله بوضوح العبارة ، وقال : (لقد جاءت الايعازات من كل ناحية لأكشف لكم النقاب عن هذه الخلافات وعن المتملقين)[3] الذين يريدون

(1) جريدة البصائر : عدد 135 ، قسنطينة ، 14 أكتوبر 1938 ، ص5 .
(2) احمد توفيق للدني : المحادثة السابقة .
(3) جريدة البصائر : عدد 135 ، 14 أكتوبر 1938 ، ص5 .

أن نشاركهم (في تقديم فروض الطاعة ، وعبارات الود والاستسلام في الوقت الذي نحن فيه غير ثائرين ولا عاصين ، ولقد قلت مرارا أني لاأستطيع حشر نفسي في زمرة هذه الفئة ، إن ضميري يأبى هذا ، إنه لايطاوعني)[1] . فرد عليه العقبي بنفي التملق عن نفسه وقال : (إن رأسه معرض للخطر وأنه سيحاكم أمام مجلس المحكمة الجنائية ، وأنه يخاف على نفسه وأولاده .

ولكن بعد كتابة البرقية التي كانت تتضمن عبارات الاحتجاج ، والتأييد والود تارة أخرى ، والتي حررت في عبارات أنيقة شريفة امتنع العقبي عن توقيعها ، وتهرب من تحمل المسؤولية عندما أبى الرئيس امضاءها ، وفي الأخير قال ابن باديس مخاطبا العقبي ومن كان حاضرا من العلماء : (في كم خطاب قلنا إننا لسنا فرنسا ، ولكننا مع فرنسا ، ولسنا ضدها ، وقلنا إننا لسنا ضد أي جنس من الأجناس ، فخلقنا الإسلامي يأبى علينا أن نعادي الأجناس ، وقلنا أننا لم نكن ولن نكون آلة في يد أي أجنبي ، إن شرف الاسلام وعزة العروبة يمنعاننا من أن نكون ذيلا لأحد ولو كان ذلك ممكنا)[2] .

أما العقبي فقد صمم على اثر هذا الخلاف أن يستقيل من الجمعية نهائيا رغم أنهم جددوا انتخابه مرة أخرى في المجلس الاداري ، وأكد للرئيس في كتاب الاستعفاء بأنه لم يكن متأثرا بأي عامل من العوامل الخارجية ، كما لم يكن يطمح لشغل وظيفة حكومية في جهاز الادارة الفرنسية ، وانما كان السبب حسب تصريحه هو حفاظه على (البقية الباقية من تراث هذه الأمة ، وحرصه على المصلحة العامة)[3] ، خوفا من الإصطدام مع زملائه اذا بقي في الجمعية .

ويمكن القول أن وضعية العقبي في ذلك الظرف التاريخي العصيب تحتاج الى تحليلات نفسية اذ لايمكن للباحث أن يحكم على تصريحاته وحدها دون أن يستعرض الأوضاع الصعبة التي وجد فيها منذ سنة 1936 ، وهي السنة التي سجن فيها بتهمة اغتيال كحول ، حيث كان للأخبار التي تناقلتها الصحف حول اعتقاله أثر عميق في نفسه ، كما أن شعوره بأن زملائه العلماء قد تخلوا عنه ولم يبذلوا جهدا في الدفاع عنه[4] ، جعله يحس بالغربة والاهانة من قبل أعضاء الجمعية .

---

(1) جريدة البصائر : عدد 135 ، 14 أكتوبر 1938 ، ص5 .
(2) نفس المصدر . (3) نفس المصدر .
(4) جريدة البصائر : عدد 135 ، 14 أكتوبر 1938 ، ص5 .

وعندما جاءت مسألة ارسال البرقية لتأييد فرنسا كان العقبي مايزال تحت طائلة الاتهام ومتابعة القضاء له ، بالاضافة الى أنه كان يرى في حياد الجمعية خطرا على نشاطها العلمي والأدبي ، فأراد أن يتمسك برأيه ، ولكن ابن باديس وثلثي أعضاء المجلس الاداري رفضوا ارسال البرقية ، فقرر العقبي الانسحاب من عضوية الجمعية وراح يؤسس جمعية دينية باسم (الاصلاح الاسلامي) وجعل لسان حالها جريدته القديمة (الاصلاح)[1] ، التي استمرت حتى سنة 1948[2] ، وأصبح موقف العقبي منذ انسحابه من عضوية الجمعية لايعارض الحكومة ، بل أنه أضحى منذ سنة 1939 مواليا للادارة الفرنسية ، وهو الولاء الذي لم يحد عنه فيا بعد[3] ، وأخذ يعمل على اقناع السلطات الفرنسية بأن الايمان بالاسلام لايتعارض مع المواطنة الفرنسية مهما كان متأصلا في نفوس الأهالي ، وأكد بأن موقفه لن يتغير ، وهو الدفاع عن مبادىء الحركة الاصلاحية ، وأنه ضد الذين يدعون بأنهم حماة الدين ، وفي الوقت نفسه يلوثون وجهه بالبدع والخرافات ، هذا وقد ظل الشيخ العقبي متمسكا بموقفه ضد الطرقيين الذين اتخذوا الدين مطية للمحافظة على مكانتهم الاجتماعية ، والاقتصادية على حساب الأغلبية المسحوقة ، من الجزائريين .

ومن هنا يمكن القول إن هدف العقبي في الحركة لم يكن الاصلاح بالمفهوم الشامل ، كما هو الحال لدى ابن باديس وأتباعه ، فالعقبي كان يسعى الى تطهير الدين والأخلاق الاسلامية ولو في كنف فرنسا ، بينما ابن باديس وزملاؤه الآخرون يهدفون الى أبعد من ذلك ، فالإصلاح عندهم مهما بدأ بالثقافة أو الدين أو المجتمع بما في ذلك السياسة ، وقد كانوا مضطرين الى البدء من المعتقد ، لأن فرنسا كانت تحكم الجزائر حكما مباشرا ولا تحكم باسم الدين الاسلامي ، بل انها جردت الدين من محتوى الدولة

---

(1) نفس المصدر .
(2) عادت الاصلاح الى الظهور في يوم 28 ديسمبر سنة 1939 في الجزائر العاصمة بعد أن توقف آخر عدد منها في السلسلة الأولى في يوم 25 سبتمبر سنة 1930 ، وكانت نصف شهرية ، ثم توقفت مرة أخرى أثناء الحرب العالمية الثانية ، وذلك في 22 فيفري 1942 ، ثم عادت الى الظهور أسبوعية في 10 ماي 1947 ، الى أن توقفت نهائيا في يوم 3 مارس 1948 بعد أن صدر منها حوالي 73 عددا نص على ذلك : Rapport de police, Alger, Décembre 1939, Archives Historiques, Wilaya de Constantine
وكذلك علي دبوز : نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ح2 ، ص122 .
وكذلك د . محمد ناصر : الصحف العربية الجزائرية من 1847 – 1939 الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1980 ، ص91 .
(3) C.A, JULIEN, Op Cit, pp. 105-106.

وجعلته تعبديا فقط[1] ، لذلك كان على العلماء أن يصلحوا الجانب التعبدي والجانب السياسي معا ، وهذا ماجعلهم يصطدمون بالإدارة الفرنسية ، وفي ذلك يقول الأستاذ محمد البشير الابراهيمي في خطبة له بعنوان : (الاصلاح الديني لايتم الا بالإصلاح الاجتماعي) مندداً بالذين يريدون أن يكون اصلاح الجمعية محصورا في النطاق الديني بمفهومه الضيق : (... وياويح الجاهلين أيريدون من كلمة الإصلاح أن نقول للمسلم قل : لاإله إلا الله مذعنا طائعا ، وصل لربك أوّاهاً خاشعاً ، وصم له مبتهلا ضارعا ، بيت الله أوّاباً راجعا ، ثم كن ما شئت نهبة للناهب ، وغنيمة للغاصب ، ومطية ذلولا للراكب ، إن كان هذا مايريدون فلا ولا قرة عين ، وانما نقول للمسلم اذا فصلنا : كن رجلا عزيزا قويا عالما هاديا محسنا كسوبا معطيا من نفسك ، آخذا لها ، عارفا للحياة ، سباقا في ميادينها ، صادقا صابرا ، هينا اذا أريد منك الخير ، صلبا اذا أردت على الشر ، ونقول له اذا أجملنا : كن مسلما كما يريد منك القرآن ، وكفى)[2] .

وفي هذا الاطار يمكن اعتبار العقبي وأتباعه الذين انشقوا عن ادارة العلماء يمثلون الجناح اليميني المعتدل في الجمعية ، أما ابن باديس وأتباعه رغم اعتدالهم في بداية الحركة ، فيمثلون الجناح اليساري المتطرف ، إن صح التعبير .

وهكذا ومهما كانت مواقف العقبي الأخيرة من الجمعية ، ومهما كان مفهومه للاصلاح فانه قد ساهم مساهمة فعالة في الثورة على الجمود والفساد الخلقي والإجتماعي ، وأرهب كلا من الطرقيين المنحرفين والاداريين الفرنسيين على السواء ، وترك بصماته الاصلاحية واضحة في سجل تاريخ الجزائر المعاصر ، ولولا شخصيته البارزة وقلمه الفياض ولسانه الفصيح اللاذع ضد الادارة وأعوانها لما تعرض للاتهام والاعتقال ولما وصف بمهيج الجماهير الشعبية من طرف ادارة الاحتلال .

والحق أن شخصية العقبي ودوره في الحركة الاصلاحية الاسلامية في الجزائر مازالت في حاجة الى البحث والتنقيب لازالة الغبار عنها خاصة بعد وفاة ابن باديس .

---

(1) د . أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق – ج3 ، ص93 .

(2) آثار محمد البشير الابراهيمي : ج1 – ط1 – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، ص216 ، نقلا عن الأستاذ عبد الرحمان شيبان ، مجالس التذكير في حديث البشير النذير – ط1 ، دار البعث ، قسنطينة 1983 ، ص17 .

الشيخ مبارك بن محمد الهلالي الميلي (1997 – 1945)

خرج الشيخ مبارك الى عالم الحياة سنة 1897 بالميلية ، ونشأ في أحضان عائلة متوسطة الحال ، وانتقل الى مدينة ميلة قرب قسنطينة لمتابعة دراسته ، ومنها الى قسنطينة التي رحبت به طالبا في حلقات ابن باديس العلمية ثم اجتذبته جامعة الزيتونة الى رحابها ليوسع في مداركه العلمية ، والأدبية ويعود منها حائزا على شهادة (التطويع) من أساتذتها الكبار الى قسنطينة ليباشر عمله معلما ومربيا في مدارسها الحرة[1] ، جامع سيدي بومعزة ومنها رحل الى الأغواط التي أقام فيها سبع سنوات من (1927 – 1933)[2] ، ولقد استطاع وبفضل دروسه العلمية والتربوية أن يغير من الحياة الاجتماعية والثقافية بين سكان تلك المنطقة حيث اتبع في تدريسه للعربية الطرق التربوية العصرية ، فاستطاع أن يستقطب حوله اهتمام الشباب بدراسة العربية وتشويقهم الى ادراك أسرارها ، واستنباط معانيها .

واستطاع ، وبحكم وجوده في تلك المدينة شبه الصحراوية أن يدعم الحركة الاصلاحية ، ويعمل على ترسيخ مبادئها في نفوس الجماهير الجزائرية ، المتعطشة للعلم والمعرفة في الجنوب الذي كان خاضعا الى نفوذ شيوخ الزوايا[3] وقد وجد المناخ ملائما في الأغواط مما أتاح له فرصة طيبة للبحث العلمي الذي خرج منه بكتاب قيم في تاريخ الجزائر[4] وتجدر الاشارة الى أن الشيخ قد ترك آثارا أخرى في قسنطينة قبل ان يتحول الى الاغواط ، حيث كانت عودته الى مدينة قسنطينة بداية للجد

---

(1) ALI MERAD, Op Cit, p. 91.

(2) باشر مبارك الميلي مهنة التعليم في الأغواط بعد أن فتح الوطنيون مدرسة تهدف الى تكوين ابنائهم تكوينا عربيا فرنسيا بعد تفكير جاد من طرف سكان البلد لبلوغ هذا المقصد النبيل ، بعد تحالف جماعة الاصلاح مع نفسها في ذلك الجزء الشبه الصحراوي ، واستمر التفكير والتشاور مدة ثلاث سنوات حتى شيدوا مدرسة فتحت أبوابها في اليوم الثالث عشر من شهر فيفري 1927 ، وأخذ الأهالي في تلك المدينة يبحثون عن مدرس كفء لذلك المنصب ، فلم يتمكنوا من الحصول على واحد أحسن من مبارك الميلي ، فاختاره المؤسسون لهذا العمل وتقبل الفكرة بارتياح : أحمد بوشمال : جريدة الشهاب ، عدد 85 ، 24 فيفري 1927 ، من ص15 – ص18 .

(3) ALI MERAD, Op Cit, p. 91.

(4) عنوان الكتاب : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، يقع في ثلاثة أجزاء يتناول الأول العصور القديمة ؛ ويدرس الثاني المغرب الاسلامي ، ويعالج الثالث العهد التركي ، ومن الملاحظ أن هذا الجزء الأخير لم يكتب منه المؤلف الا عشرين صفحة نظرا لندرة المراجع العربية وصعوبة الترجمة من الفرنسية ، وبعد وفاته أكمله ابنه الأستاذ محمد الميلي سنة 1964 . ينظر تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج3 مطابع بدران وشركائه ، بيروت ، لبنان 1964 ص7 .

والنضال في حياة الحركة الاصلاحية الدينية ، والنهضة العربية بالجزائر ، ولا غرابة في ذلك اذا علمنا أن الشيخ مبارك الميلي كان باكورة المدرسة الباديسية في عاصمة الشرق الجزائري ، لذلك يلاحظ المرء أن الشيخ ابن باديس قد وجد فيه (الابن البار ، والأخ المصافي والتلميذ الأنجب ، فاشتد به ساعده)[1] ، في وقت كان فيه الأستاذ ابن باديس يعد للانقلاب الاجتماعي ، في كل ميادين الحياة ، أسلحته بتهيئة الأسباب واتخاذ الوسائل ، وكان بحلول الشيخ مبارك بقسنطينة ، أن حلت بين المسلمين فيها (الحلقة المفقودة ، والضالة المنشودة ، فاتفق الجميع على وضع الأسس الصالحة للمطبعة العربية الاسلامية ، والصحافة العربية الحرة ، فكانت المطبعة الجزائرية الاسلامية ، وكانت جريدة المنتقد)[2] .

ومن أجل نشر الدعوة الاسلامية في كل أرجاء الوطن انتقل الشيخ مبارك الى الأغواط ومكث فيها سبع سنوات ، كما سبقت الاشارة ، ولكنه اضطر الى الخروج منها في سبتمبر 1933 ، بعد أن حققت فيها حركته الاصلاحية نجاحا كبيرا ، وحاول الاقامة بمدينة بوسعادة ، ولكنه اختار أخيرا الاستقرار في ميلة وفي هذه المدينة الصغيرة تحول الشيخ الى مصدر اشعاع ثقافي ، وديني ، واستطاع أن يغير الحياة الاجتماعية للسكان المسلمين في تلك المدينة ، رغم العراقيل التي واجهته من طرف امامها الرسمي هناك[3] .

ومع ذلك فقد نجح الشيخ في تمزيق الجمود الفكرى وحبذ لأهل ميلة حب العمل ، والاهتمام بالنظافة والحماس في الدراسة ، علاوة على انتاجه الثقافي في ميدان التأليف[4] .

وكان أهم كتاب مذهبي له هو (رسالة الشرك ومظاهره) ، وبالاضافة الى نشاطه في ميدان التربية والتعليم والتأليف ، فقد شارك في حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مشاركة فعالة ، بجانب الزعماء الآخرين ، حيث كان أمين ماليتها منذ سنة 1931 .

(1) جريدة الشعلة ، عدد 11 قسنطينة 16 فيفري 1950 ، ص4 .

(2) ينظر المصدرنفسه .

(3) ALI MERAD, Op Cit, p. 91.

(4) وهو مؤلف في المرابطية ومظاهرها المختلفة ، وهو النص المذهبي الوحيد الذي انتجته المدرسة الاصلاحية الجزائرية سنة 1937 :

وفي سنة 1937 كلفته الجمعية بادارة جريدتها الرسمية (البصائر) بعد نقلها الى قسنطينة وفي سنة 1940 ، وبعد وفاة ابن باديس تولى مهمة التعليم ، والدفاع عن الحركة الاصلاحية بالجامع الأخضر بقسنطينة الذي كان أول مركز ثقافي للاصلاح الاسلامي في الجزائر وظل وفيا لمبادىء الجمعية وأهدافها حتى لفظ أنفاسه الأخيرة يوم 9 فيفري 1945[1] .

وهكذا كان الشيخ مبارك الميلي شخصية اصلاحية بارزة ، ذات وزن كبير بين جماعة المصلحين الجزائريين ، كما كان من أكبر دعاة الاصلاح المعروفين بانتاجهم الفكري الغزير ، في شتى ميادين الحياة العلمية ، والأدبية ، والاجتماعية والسياسية .

وكان الشيخ يتأجج بروح الغيرة على وطنه الذي كان يراه يسير نحو التدهور والانحطاط ، في وقت كانت فيه الأمم الغربية تتدرج في سلم الرقي العلمي ، والاقتصادي ، والسياسي ، وسائر ضروب الحياة الشعبية[2] .

واذا كان الشيخ مبارك قد ترك آثارا علمية ، وأدبية ، فله يرجع الفضل ... في نشر الحركة الاصلاحية الدينية في الجنوب الجزئري ، وهي المنطقة التي لم تكن تحت سيطرة الطريقة التيجانية[3] ، فحسب ، بل كانت ميدانا فسيحا لأسرتين متنافستين ومتصارعتين وهما : عائلة ابن سالم التي كانت تجسد في مظهرها عادات المدينة وتقاليدها ، وأسرة فرحات التي كانت تمثل عادات القبيلة . وبالرغم من أن منطقة الأغواط كانت تعيش منذ منتصف القرن التاسع عشر في جو كفاح مظلم بين ثلاث قوات اجتماعية متعارضة ، فان الشيخ مبارك استطاع أن يتعرف بدقة على لعبة هذه القوة الموجودة ، واستطاع أن يكسب صداقة رؤساء مختلف القبائل التي كانت لها الصلاحيات في تسيير شؤونها الخاصة على الصعيد المحلي من طرف الحكومة الفرنسية[4] .

وقد عرف كيف يلعب بذكائه في الميدان السياسى المحلي لاقناع فرنسا بأن الاصلاح الديني هو مذهب غير متناقض مع سياسة الحكومة .

(1) ALI MERAD, Op Cit, p. 92.

(2) مبارك الميلي : جريدة الشهاب ، عدد 28 قسنطينة 26 ماي 1927 ، ص7 .

(3) التيجانية طريقة دينية صوفية ، سميت بالتيجانية نسبة الى مؤسسها الشيخ أبي العباس أحمد بن محمد بن سالم بن المختار التيجاني ، وقد سمي مؤسس الطريقة هذا بالتيجاني نسبة الى قبيلة التجانية بني توحين . وأبصر النور عام 1150هـ (1937م) بقرية ماضي ، الواقعة على بعد 70 كلم من مدينة الأغواط بالجنوب الجزائري .

(4) ALI MERAD, Op Cit, p. 92.

الاسلامية . وبعث الثقافة العربية الاسلامية الى الوجود بعد أن خفتت أنوارها خلال القرن الماضي [1] .

وقد شن حملة مطهرة على الأمراض الاجتماعية في دروسه المسجدية وفي كتاباته الصحفية . حيث كان يبين بأسلوب عربي مبين آفاتها . وويلاتها على أصحابها . كما هجم بشدة على الالحاد الذي كانت تنشره المدرسة الاستعمارية . والأحزاب السياسية المنحرفة . وحمل بعنف على البدع والخرافات التي ألصقت بالدين الاسلامي الحنيف . وعلى ضلالات الطرقيين الضالين الذين خدروا العامة واستغلوا سذاجتها . وخاصة ظاهرة الزردة [2] وحفلات مواليد رؤساء الطرقيين واعتقاد الناس في الشيخ والايمان بطريقته وغيرها من المفاسد الأخلاقية ، والاجتماعية . وكان لدعوته الاصلاحية ، وحملته الموفقة على الطرقيين أن تآمر هؤلاء ضده . وحاولوا قتله [3] . كما حاولوا اغتيال ابن باديس سنة 1926 فحفظه الله من كيدهم .

وهكذا قضى الشيخ حياته ثائرا ، ثورة ايجابية بناءة في خدمة الشعب الجزائري المسلم ، وما من يوم ينقضي الا وكنت ترى للشيخ صفحة مشرقة في حياته وأعماله ، ويكفي المرء دليل المقارنة بين منجزات الرجل ، وإقامته القصيرة على أديم البسيطة .

وعندئذ يتأكد بأن الشيخ مبارك كان عبقريا حقا ظهر في عهد كانت فيه البلاد تدور تبحث عن قوة خلاقة تخلصها من السنين العجاف ؛ فكان مبارك الميلي يجانب زملائه العلماء الآخرين صحافيا ، ومعلما ، وواعظا ، ومرشدا ، كما كان مؤلفا ومحققا ، ومؤسسا للمشاريع ، والاشراف عليها في مختلف النشاطات الاجتماعية ، رغم الداء الذي لازمه مدة طويلة حتى قضى نحبه وهو ابن الثامنة والأربعين .

---

(1) Loc. cit.

(2) الزردة : حفلة سنوية يبسط فيها الطعام والشراب ، وتصحبها أسواق للتجارة والفجور والرقص والذهول واللعب بالمقاليد والنار ، وتقام حول قبور المشائخ ، وتدوم أياما ، وكان الاستعمار يأمر بها لافساد الأخلاق وتشويه الدين الاسلامي العظيم .

(3) ينظر محمد علي دبوز : نهضة الجزائر الحديثة وثورتها المباركة ، ج3 مرجع السابق ، ص270 .

الشيخ العربي بن بلقاسم التبسي (1895 – 1957)

ولد الشيخ العربي التبسي[1] بناحية أسطح سنة 1895 ، وكان الابن البكر لأبويه. وبذلك يلتقي مع الشيخ عبد الحميد بن باديس في مكانته بين أفراد أسرته ، كما يلتقي مع الشيخ مبارك الميلي في نفس العقد الأخير من القرن التاسع عشر، الذي ولد فيه كل منهما ، ويروي المرحوم على دبوز أن التبسي . (كان جميل الطلعة تبدو في قسمات ونظراته من شهوره الأولى علامات الشخصية القوية ، والذكاء الوقاد)[2] .

ولقد اهتم أبواه بتربيته تربية اسلامية منذ أن أبصر النور حتى صار رجلا يشرق بدوره على تربية الناشئة ، وبحكم نشأته في بيئة متدينة ، فقد تغلغلت العقيدة الاسلامية في نفس الطفل من السنوات الأولى من حياته ، وتكونت لديه (الشخصية الاجتماعية) التي تجعل صاحبها يعمل للأمة لا لنفسه وحدها .

كما كان لرسوخ العقيدة الاسلامية في قلبه وعقله وايمانه العميق بالله أثر في حياته العملية ، جعله يسعى دوما الى انجاز مشاريع الخير والأعمال الصالحة ، فكانت هذه العقيدة الدينية هي أساس بناء شخصيته[3] ، وكان قوي البنية ، كثير النشاط . دائم الثبات ، في مختلف أعماله .

ولقد جمع في طفولته بين الدراسة والفلاحة ، فكان يقضي اجازته في أعمال الفلاحة وهو طالب بجامع الزيتونة بتونس .

وبناء على رأي الأستاذ على دبوز ، فان الشيخ التبسي قد ورث عن أبويه فكرة حميدة ، وهي (أن العلم هو سبب السعادة في الدارين) ، وهو الأداة الفعالة للكفاح من أجل البقاء ، وطلبه واجب على كل مسلم ومسلمة ، فصار هذا المبدأ عقيدة راسخة في نفسه ، وجهته ، في كل أطوار حياته ، وجعلته يرابط من أجل العلم ويتفانى في خدمته .

---

(1) هو الشيخ العربي بن بلقاسم بن مبارك بن فرحات ، ولقبه فرحات ، وهو اسم جده الثاني الذي تعتز به أسرته كل الاعتزاز لصلاحه ومجده ، فتلقبت باسمه ، ولد في أسطح شمال الجبل الأبيض في الجنوب الغربي لمدينة تبسة على بعد 70 كلم منها .

(2) ينظر : محمد على دبوز : أعلام الاصلاح في الجزائر من سنة 1921 – 1975 . ط1 ، ج1 ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر 1976 ، ص43 .

لما بلغ العربي السادسة من عمره التحق بكتاب القرية لحفظ القرآن الكريم ، ومنه انتقل الى زاوية (خنقة سيدي ناجي الرحمانية)[1] ، التي كان معهدها مشهورا بالصلاح وتحفيظ القرآن ، فتربى فيها التبسي تربية دينية وعقلية قوية وختم فيها القرآن الكريم بل قرأ المبادىء بالزاوية المذكورة بليانة .

وبعد ثلاث سنوات قضاها في هذه الزاوية انتقل الى زاوية نقطة[2] ، حيث تلقى فيها مبادىءالعربية وأصول الشريعة الاسلامية ، فتفتحت له أبواب العلم ، وازداد شعوره بحلاوته ، فوجهه اساتذته الى مايوافق شخصيته واتجاهه ، وكان ذلك الاختيار هو العلوم الشرعية ، فاتقن مبادىء الفقه ، وازداد حبه للعلوم العربية ، فدرس في النحو ، أجرومية ابن أجروم الصنهاجي المازيغي المغربي ، وما يناظرها من الكتب في الشريعة الاسلامية ، وبذلك رفع راية الدين والعربية في وطنه .

وهكذا فان العربي التبسي قضى ثلاث سنوات في معهد نقطة ، ومنها انتقل الى جامع الزيتونة سنة 1915 لمزاولة دراسته العليا على الأساتذة الكبار حيث شعر بأنه مايزال في حاجة الى المزيد من العلوم والمعارف العربية الاسلامية ، وخلال دراسته في الزيتونة كان طالبا مجتهدا لايعرف الا الجد والعمل ، ومطالعة الكتب المختلفة في شتى فروع المعرفة ، حتى أنه لم يكن يجلس الا في النوادي الأدبية ، والسياسية التي يجد في محاضراتها وخطبها الوطنية نشوة روحه ، أو مع (أساتذته الاجتماعيين) .

ولما حصل التبسي على شهادة الأهلية من جامع الزيتونة ، وأصبح مؤهلا لشهادة التحصيل سافر الى جامعة الأزهر بالقاهرة ، ولما أنهى دراسته هنالك رجع الى تونس فشارك في امتحان التحصيل ، ونجح نجاحا فائقا ، وعندما اشتد ساعد الحركة الوطنية ، التونسية ، وأنشيء الحزب الدستوري الحر سنة 1920 أصبح العربي من جملة الأنصار العاملين لصالحه ، حيث كان ثائرا بطبعه على الاستعمار[3] .

وكانت مدة اقامته في تونس سبع سنوات من سنة 1913 الى سنة 1920 حيث رحل منها الى مصر التي قضى فيها سبع سنوات أخرى ، ثم عاد الى الجزائر حين سمع باستفحال الحركة الاصلاحية عن طريق الرسائل والصحف التي كانت تنقل اليه

---

(1) تقع زاوية خنقة سيدي ناجي الرحمانية في الجنوب الغربي بجبال النمامشة بالجنوب الشرقي الجزائري .

(2) هي زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز في مدينة نفطة الواقعة بجنوب تونس الغربي ، وكنت مدينة نفطة بلد الدين والعلم والأدب والصلاح ، منذ العهود القديمة .

(3) محمد علي دبوز : أعلام الاصلاح في الجزائر ج2 المرجع السابق ، ص62 .

نشاط العلماء الذين رجعوا الى أرض الوطن وأخذوا يؤسسون المدارس والجمعيات وينشرون الصحف .

وكان قد شارك مع جماعة الشهاب ، وهو في القاهرة منذ شهر جانفي 1927 ، وفي نفس السنة (1927) نزل في مدينة تبسة ، وشرع في ميدان التعليم على النهج الاصلاحي الذي نال رضاء الشيخ ابن باديس في قسنطينة[1] .

ومنذ سنة 1932 ظهر الشيخ العربي التبسي على المنبر الرسمي للحركة الاصلاحية ، وفي شهر أكتوبرسنة 1935 أصبح عضوا في المجلس الاداري لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، وشغل منصب الأمين العام للجمعية خلفا للأمين العمودي ، ومنذئذ أصبح من الأعضاء العاملين المقربين لابن باديس ولما توفي ابن باديس وخلفه على رئاسة الجمعية الشيخ البشير الابراهيمي أصبح العربي التبسي نائبا له وفي سنة 1953 وبعد أن استقر الابراهيمي بصفة مؤقتة في الشرق العربي أصبح العربي التبسي قائما عاما لحركة جمعية[2] العلماء ، ولما اندلعت ثورة التحرير (نوفمبر 1954) وقرر زعماء الجمعية الانضمام الى جبهة التحرير الوطني ، وحل الجمعية نهائيا ، قامت سلطات الاحتلال باختطاف الشيخ العربي التبسي واغتياله في ظروف غامضة في يوم 4 أفريل سنة 1957[3] ، ومن الجدير بالذكر أن الشيخ العربي التبسي قد تعرض الى عملية الاعتقال مرات عديدة ابان الحرب العالمية الثانية ، فبينما فرضت ادارة الاحتلال الاقامة الجبرية على كل من الشيخ البشير الابراهيمي في آفلو ، والشيخ ابراهيم بيوض في القرارة ، قامت باعتقال الشيخ العربي التبسي ، وذلك نظرا لأنه كان أكثر من زملائه العلماء ثورة في ذلك الوقت ضد الاستعمار ، وأقوى لهجة في الهجوم على مظالمه .

ففي سنة 1943 اعتقل الشيخ العربي وحبس في سجن باتنة ، ثم نقل الى سجن قسنطينة ، حيث وضع في زنزانة منفردة ، حتى قام الشيخ الابراهيمي والسيد عباس فرحات بمساعي مع الجنرال (جيرو) الفرنسي وأقنعاه ببراءة الشيخ العربي وأبلغاه

(1) ينظر نفس المرجع ج2 ، ص15 .
وكذلك : ALI MERAD, Op Cit, p. 114.

(2) ALI MERAD, Op Cit, p. 114.

(3) Loc Cit.

استياء الأمة الجزائرية نتيجة لسجنه[1] ، فحرراه من الاعتقال ، بعد أن قضى ستة أشهر في السجن ، وكان ذلك في سنة 1943 ، حين بدأت السلطات الفرنسية تسلك سياسة اللين وتقترب من رجال الاصلاح ، فسارع الشيخ العربي الى مدينة تبسة ليواصل جهاده هناك في ميدان التعليم وظل حتى سنة 1945 ، حين وقعت حوادث 8 ماي 1945 التي استهدف المعمرون من ورائها القضاء على الحركة الوطنية ، واعتقلوا مرة أخرى الشيخ العربي التبسي وهو في مدينة قسنطينة ، وسجنوه بالجنوب الغربي للجزائر في الصحراء حتى يكون بعيدا عن كل الأتباع والأنصار ، وبقي في السجون شهورا كثيرة هو ومن معه من رجال جمعية العلماء ، حتى أطلق سراحه سنة 1945[2] .

والحق أن الشيخ العربي التبسي رغم أنه كان من أهم رجال جمعية العلماء بين الحربين العالميتين الا أن شخصيته قد برزت أكثر بعد الحرب العالمية الثانية . وبناء على رأي علي مراد[3] أن الشيخ العربي كان من أبرز الشخصيات التي كانت تعمل على نشر وتدعيم الحركة الاصلاحية في منطقة الشرق الجزائري . ولكن مشاركته في الميدان النظري كانت تبدو ضئيلة بالقياس الى الزعماء الآخرين في جمعية العلماء ، حيث أن تكوين الشيخ كان تقليديا ، وكان (صاحب منهب قديم معقد) وكانت مجهوداته في ميدان الاصلاح موجهة نحو استرجاع (علم الأخلاق) والنهوض بالدين الاسلامي ، وحتى أن أفكاره ودعايته الشفوية في المساجد والمدارس ، والمكتوبة في الصحف - ولاسيا في الشهاب - كانت تدور كلها حول القضايا الدينية في المجتمع الاسلامي ، وقليلا ماكان يوجد بين زعماء المدرسة الاصلاحية في الجزائر مثل هذا الداعية الذي كان شديد الارتباط بعمله في ميدان الاصلاح من أجل خلق حياة اجتماعية اسلامية خالصة ، وكان يعمل جاهدا من أجل المبادئ والأفكار الاسلامية تعايش الناس ، وأن يسير الاسلام مطبقا في مجال العبادات وعلى نطاق الحياة المعنوية في المؤسسات الاجتماعية[4] .

كان هذا هو طموحه الشخصي ، كما صرح هو نفسه بهذا الاتجاه ، كما كان هذا هو

(1) ينظر نفس المرجع .

(2) ينظر نفس المرجع ، ص47 .

(3) Ibid, 114-115.

أمله في كل لحظة من حياته ، ويمكن اعتباره صاحب مذهب أخلاقي ورجلا متكرا
ومن الملاحظ أنه كان متصلبا في دعوته الاسلامية تجاه المؤمنين . هذا في الوقت
الذي كان فيه تطور المجتمع الجزائري يتعارض مع أفكاره الاصلاحية وكان هو نفسه
يدرك هذا التعارض ولم يكن راضيا عن هذا الوضع .

لم يكن تسامحه مع الوطنيين المتمسكين بتقاليدهم الاسلامية القديمة في نظره يبرر
مواصلة دعوته وجهوده الاصلاحية لاسترجاع الحياة الاجتماعية التي تتفق (مع مبادئ
القرآن ، والسنة المحمدية ، ومبادىء[1] فقهاء التشريع الاسلامي) .

ويبدو واضحا أن مذهب العربي التبسي يجسد في مضمونه تمجيد الأخلاق القديمة
السامية ، وأن أفكاره الاصلاحية كانت تدعو المسلمين الى الرجوع الى منابع الاسلام
الصافية الصحيحة . وكان في حياته الخاصة ، وخلال تدريسه ، وفي ارشاداته العامة
يبدو وكأنه محافظ تقليدي يركز في أبحاثه الاصلاحية على الاسلام الحقيقي ، وقد
كان تمسكه بالاسلام الصحيح يدفعه الى القيام بمحاولات جدية من أجل تطوير المجتمع
الذي - يعتبره في الواقع حقيقة تاريخية - ولذلك كان تعجبه شديدا من عدم
استقطاب الرأي العام (الاسلامي الأهلي لاسترجاع الاسلام الصحيح)[2] على الرغم
من الدعوة الاصلاحية التي قام بنشرها هو وزملاؤه المصلحون داخل المجتمع . وبتعبير
بسيط ، فان العربي التبسي كان يتساءل كيف يمكن أن ندعي الاسلام ونكتفي
بالجوانب الشكلية منه ، ونتصور استرجاع الاسلام بأشكاله الظاهرة ، ومظاهره
الاجتماعية دون التركيز على الاهتمام بجوهره ، ومن هنا كان يطمح الى الكمال
الاسلامي على منهج واضح يتجلى في الشعائر الدينية والشريعة الرشيدة ، كما كان يحلم
أيضا بخلق مجتمع اسلامي يقوم فيه العلماء المتدينون بدور كبير في تربية الشباب ،
وقيادة الكبار ، واستلام السلطة ، وتنظيم المجتمع في البلاد[3] .

وهكذا كان اصلاح العربي التبسي يبدو مركزا نحو بعث السنة وتطبيقها بكل
دقة وصرامة رشيدة ، وكانت هذه النظرية الشخصية للاصلاح بعيدة عن وجهة نظر
أتباع ابن باديس وأنصاره الآخرين ، فهؤلاء كانوا : ينظرون الى الاصلاح كل من

Ibid, 114-115. (1)
ALI MERAD, Op cit, p 115. (2)
Ibid, p 116. (3)

زاوية معينة وفقا للمبادىء الضرورية في البحث المذهبي للحركة من أجل تكييف
الحياة الاسلامية مع الحضارة المعاصرة[1] .

والدارس لأفكار الشيخ العربي التبسي يستنتج أن دعوته الاصلاحية كانت تختلف
شيئا ما عن مذهب الشهاب وكان من الفروض ، بل من الواجب ، أن يدخل تجديدا
يتلاءم مع التطور الحتمي للمجتمع الاسلامي ، لكن أفكاره كانت تمثل اختيارا تقليديا
تسيطر عليه فكرة التسلط الديني بشكل مفرط .

والحق أن الشيخ العربي التبسي لم تكن له حرية النشاط كزملائه العلماء
الآخرين لذلك لم يكن في مستوى رفيع يجعله صاحب مذهب ومؤسس مدرسة . وفي
سنوات مابين الحربين لم يكلف من طرف الشيخ ابن باديس للقيام بمهمة تتطلب
اعطاء وجهة نظره الخاص ، كما لم يكن له مجال يسمح له بالتكيف مع الحياة
المعاصرة ، وكان يكلف خاصة بمهمة الوعظ والارشاد شارحا للناس بلاجهد
الأخلاق - العقيدة الاسلامية ، وكان نشاطه محصورا خاصة في شرح تعليم القرآن
والأحاديث النبوية بكل اهتمام ودقة ، وتعليم الناس الآداب الاسلامية المعروفة ،
المستقرة في التقاليد[2] . هذا وقد أصدر (في شهر كانون الثاني)جانفي) 1938
فتوى باسم جمعية العلماء تضمنت أربع مسائل هامة وهي :

1) حكم الله في التجنس والتوبة منه .
2) حكم الله في استئناف الأحكام الشرعية للمحاكم المدنية والتوبة منه .
3) حكم الله في الوصية للورثة على يد الموثق المدني والتوبة منها .
4) حكم الله في التزوج بغير المسلمات والتوبة منه .

وبعد أن صنف هذه الأمور الأربعة علق عليها قائلا :

(هذه المسائل الأربعة حدثت باستعباد بعض الشعوب الاسلامية يوم أن تسلط الغرب
على الشرق الضعيف .

وكان القصد من التجنس هو غزو العقائد الدينية وتحويل تفكير المتجنس
بطريق يستهوي الذين يؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة) .

وقد حكم في هذه الفتوى على المتجنس بجنسية غير اسلامية بالحرمان من الاسلام

Loc. Cit. (1)

وتشريعه ، ومن تحليله وتحريمه ، ومن آدابه ، وتاريخه ، وأحسابه وأنسابه ، على
أساس أنه ترك عقيدته الاسلامية مختارا ، مستدلا في ذلك بالآية الكريمة : (فلا
وربك لايؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم . الآية)[1] .

كما حرم في نص هذه الفتوى استئناف الأحكام الشرعية التي يصدرها القضاة
المسلمون الى محاكم مدنية .

وكذلك حرم الوصية التي يجعلها بعض الناس تنفذ بعد وفاتهم على يد الموثق
المدني لمن يشاؤون ويمنعون من يشاؤون من ذوي الحقوق .

وأما المسألة الرابعة فقد نص فيها على تحريم زواج المسلم بالأجنبية عن الاسلام
على أساس أن قانون بلدها يجعل النساء قوامات على الرجال وهو على عكس الشريعة
الاسلامية (الرجال قوامون على النساء)[2] .

بل ان قانون بلدهن يقضي بدمج الزوج عقب ابرام عقد الزواج في أمة تلك
المرأة . وأكثر من ذلك كله فان أبناءه من تلك الزوجة الأجنبية يصيرون تابعين
لأمهم مما يقطع الصلة بينهم وبين الشريعة الاسلامية[3] ، ومن خلال نص هذه
الفتوى يلاحظ المرء أن الشيخ العربي لم يفرق بين المرأة الكتابية وغير الكتابية كما أنه
لم يشر الى الزواج بالأجنبية في بلد الزوج الذي تطبق فيه الشريعة الاسلامية ، لأن
الجزائر كانت خاضعة للقوانين الفرنسية بالنسبة للمواطنين الفرنسيين ، ولذلك اكتفى
في هذه الفتوى بالصنف الأول .

هذا ونرى الشيخ مرة أخرى يربط زواج الجزائري المسلم مع الفرنسية بالاستعمار
حيث يقول : (من يتزوج فرنسية يدخل الاستعمار الى بيته .)[4] .

ومما يرويه أقارب الشيخ وتلامذته عنه أنه كان أشد الناس عداوة للاستعمار وهم
ينسبون اليه مانصه (من عاش فليعش بعداوته لفرنسا ومن مات فليحمل معه هذه
العداوة الى القبر)[5] .

وهكذا جمع هذا العلامة المصلح بين التمسك القوي بالاسلام ، والثورة على

(1) سورة النساء ، آية 65 .
(2) سورةالنساء ، آية 34 .
(3) العربي التبسي ، جريدة البصائر عدد 94 ، قسنطينة 7 جانفي1938 ، ص2 .
(4) عمار اوزقان ، الجهاد الأفضل . ط2 دار الطليعة ، بيروت 1964 ، ص64 .
(5) علي بلاسي/ الاتجاه الأسلامي فى الثورة الجزائرية ، رسالة لم تنشر ، ص158 .

الاستعمار البغيض الذي أفسد العقيدة الاسلامية وشوه أحكام الشريعة السمحاء .

ولقد كان التبسي أكثر العلماء تحمسا للثورة التحريرية ، مما جعل الاستعمار
يسارع الى اختطافه واغتياله في ظروف غامضة كما سلف الذكر .

ان الدارس لحياة وأفكار هذه الشخصيات الاصلاحية لايستطيع أن يستوفي كل
جوانبها على الوجه الأكمل ، وذلك نظرا لمواقفهم المختلفة وتطورهم المستمر تجاه دولة
الاحتلال من جهة ، والهيئات والأحزاب المحلية من جهة أخرى .

ومن الجدير بالملاحظة أن ابن باديس والابراهيمي قد أخذا قسطا وافرا من
البحث والتمحيص من طرف المؤرخين والكتاب ، ولا سيا تلاميذهما . أما الشيخ
مبارك الميلي ، والشيخ العربي التبسي ، والشيخ الطيب العقبي ، فانهم بالرغم من
مكانتهم اللامعة بين العلماء ، فانه حتى الآن لم تصدر دراسة معمقة لحياة هؤلاء
الرجال وجهادهم ، وحتى الذين كتبوا عنهم لم تكن كتابتهم شاملة لكل الجوانب ،
وهناك دراستين فقط لباحثين جزائريين[1] أولاهما سنة 1967[2] ، وثانيهما في
سنة 1974 وسنة 1976[3] ، وحتى هاتين الدراستين لم تستوفيا حق هؤلاء الرجال
الثلاثة ، فالأولى اقتصرت على أفكارهم وفلسفتهم ، أما الثانية فقد تتبعت حياة
التبسي العلمية ، ومدحت مواقفه البطولية في ميدان التعليم دون أن تحدد مذهبه
الاصلاحي ، رغم أنها عرفته عموما أنه كان عالما تقليديا متصلبا في مواقفه الدينية .

والواقع أن الباحث تعوزه المصادر والمراجع ، ولا سيما بالنسبة للشيخ التبسي .
فهذا الأخير نظرا لموته في ظروف غامضة ، وفي وقت بلغت فيه الثورة
التحريرية أوجها ، لم تكتب عنه الجرائد ، ولا المجلات ، أما الشيخ مبارك الميلي ،
فرغم أنه توفي في وقت كانت فيه الحركة الوطنية الجزائرية قد وقفت فيه على
قدميها ، فان الذين كتبوا عنه كانوا قليلين .

وعلى أية حال فان هؤلاء العلماء جميعا كانوا يمثلون المدرسة الحقيقية للوطنية
الجزائرية تتغذى منها جميع القوى الوطنية الأخرى في البلاد ، وذلك أن هؤلاء
العلماء كونوا خلال اقامتهم في المشرق العربي رصيدا ثقافيا عاليا وتشبعوا بروح

(1) الأول وهو على مراد ، الاصلاح الاسلامي في الجزائر . والثاني محمد على دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر .
(2) ALI MERAD, Op Cit, pp. 91-93.
(3) ينظر : على دبوز اعلام الاصلاح فى الجزائر ج1 ص37 الى ص76 ، وج 2 من ص 15 الى ص 72 .

الاصلاح الناضج ، وبالافكار المعادية للاستعمار ، وبمبادئ الحركة الداعية الى الرجوع الى منابع الاسلام الصافية التي سار عليها السلف الصالح ، فعادوا الى الوطن ونفوسهم تتقد حماسا الى التغيير والثورة على الجمود الفكري وظلم الاستعمار الذي بذل قصارى جهده لطمس الشخصية الوطنية ووأد الثقافة العربية ، وعزل الاسلام في دوائر ضيقة بعيدا عن روح العصر ، وتقدم الحياة البشرية .

ومن خلال ماتقدم يتضح أن هؤلاء العلماء قد تشربوا من منبع واحد ، وهو المذهب الاصلاحي السلفي ، كما كان ينشر في مجلة المنار لصاحبها رشيد رضا . ولعل أكثر هؤلاء المصلحين تأثرا بمنهج المنار هو ابن باديس الذي كان يقول دائما : (أنه من أتباع رشيد رضا ، وأنه سيتبع منهجه لاحياء الدين الصحيح وجعله متفتحا على القيم الحديثة المعتدلة(1) . مثل المصلحين السوريين والمصريين الذين يؤمنون بأن الاسلام الحق المستمدمن الكتاب والسنة ، صالح لكل زمان ومكان(2) .

ان بعض العلماء مثل الشيخ مبارك الميلي كانوا محافظين ولكنهم يحاولون أن يسلكوا طريقا وسطا (بين المحافظين المتزمتين والمحدثين المتطرفين) ، وقد عبر الشيخ مبارك نفسه عن رأي هذين الاتجاهين (سنة 1936) حول تعليم المرأة المسلمة فقال ماملخصه : إن العلماء قد انقسموا الى فريقين حول تعليم المرأة المسلمة ، فمنهم المناصر ومنهم المعارض ، فبالنسبة للفريق المناصر فقد نادى بتعمير المدارس الاصلاحية (بالبنين والبنات) بحجة .

(1) (ان فساد العقول وانحطاط الأخلاق كانا شاملين للامة ذكورا واناثا) .

(2) (ان المرأة شقيقة الرجل في الانسانية فلتكن شريكته في التربية والتهذيب ، فلاينبغي أن تحرم من ينابيع العلم والتربية) .

(3) (وأن الأم هي المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الابناء معلوماتهم الأولية) ،

(4) (وأن الأنثى مكلفة في حكم الاسلام بمثل مايكلف به الرجل لايفترقان الا فيما يرجع للقوة والسيادة فيختص بالرجل كالامامة وولاية مناصب الحكم ، والا فيما يعود الى الضعف والحنان فيختص بالأنثى) .

(5) (وأن المرأة شريكة الرجل في منزله وقرينته في حياته لاغنى لأحدهما عن الآخر ، فلابد من تشاركهما في التهذيب وتقاربهما في التثقيف) .

C.R. AGERON, Op Cit, p. 326. (1)

Loc Cit. (2)

أما رأي الفريق الثاني في معارضة تعليم البنت فيقوم على الحجج التالية :

1) (ان ادخالها الى المكتب يجمع بينها وبين الابن وفي ذلك الاختلاط ماتخشى عاقبته ، وخطره على العفاف والفضيلة .) .

2) (وأن تعليمها الكتابة يسهل عليها الوصول الى وساوس نفسها ويقرب منها مايدعوها اليه هواها .) .

3) (وخلاصة ما أدلى به هذا الفريق هو الاسترابة بالبنت والمحافظة على خلق الحياء الذي هو أجمل ما في المرأة)(1) .

وهكذا فان العلماء أرادوا أن يسيروا في حركتهم الاصلاحية وفقا للآية الكريمة : (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ...)(2) .

فلا هم محافظون متزمتون ، ولا تقدميون متطرفون .

ان محاربة البدع التي أدخلت : (على الاسلام الجزائري) كما يقول روبير آجرون [R. AGERON] وغيره من الكتاب الفرنسيين هي التي وحدت جهود العلماء ، ولم تترك المجال للاصلاح الفردي .

ان روبير آجرون(3) [R. AGERON] وهو من أبرز الذين كتبوا عن تاريخ الجزائر المعاصر من الفرنسيين . يسمي الاسلام في هذه الفترة باسم (الاسلام الجزائري) ، ولست أدري ماذا يعني بهذه التسمية ، وكأن اسلام الجزائريين خاص بهم ، وأن رسولهم هو غير رسول الاسلام ، إن المصلحين الجزائريين كان يجمعهم هدف واحد ، وهو العودة الى المنابع الاسلامية الصافية (المتمثلة في الكتاب والسنة والفكر النبوي) ، حيث كانت حركتهم التعليمية ترتكز على نشر تعاليم القرآن والسنة النبوية ، وكان تعليمهم يمتاز بالبساطة واليسر من أجل توحيد الله وجمع شمل المسلمين ، وقد أولوا اهتماما كبيرا بالأخلاق الحميدة وهاجموا الفقهاء الآخرين الذين لايهتمون الا بالأمور الفقهية والتقاليد الخرافية .

وهكذا أدان المصلحون البدع ومؤسسات الطريقيين ، ومذاهبهم وسحرهم وشعوذتهم ، وكل أعمالهم الشنيعة .

---

(1) ينظر تنصيل هذا الموضوع في كتابنا جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، المرجع السابق ص329 .. 330 ، وينظر أيضا مبارك الميلي ، مجلة الشهاب 12 ، ج6 – قسنطينة – أوت – سبتمبر 1936 ، ص255 .

(2) سورة البقرة ، آية 143 .

وكانوا يؤمنون بأن الرجوع الى مبادىء الاسلام الصحيحة من شأنه أن يحرر المسلمين من كل التقاليد الفاسدة والسلطات غير الشرعية والبدع والخرافات[1].

ومن الناحية الأخلاقية، فقد حاربوا كل مظاهر الفساد والانحراف عن مبادىء الاسلام، ودعوا الى الاقتداء بالسلف الصالح من أجل سعادة المسلمين، وأكدوا بأن الرقي الأخلاقي للجزائريين سيؤدي الى التطور السياسي اعتمادا على الآية القرآنية الكريمة: (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)[2].

وبناء على رأي آجرون): فان اهتمام العلماء برفع المستوى المادي والخلقي للأمة، لم يؤد بهم الى خلق مذهب اجتماعي، لأنهم ظلوا متمسكين بالمبادىء القرآنية التي تدين استغلال الانسان لأخيه الانسان، وبالدعوة الى الوحدة الاسلامية، والتعاون بين جميع الطبقات، ولكنهم ليسوا محافظين اجتماعيين بالمعنى المعروف، الا أنهم كانوا رجعيين، لأنهم انحدروا من البورجوازية الجزائرية القديمة، ويأملون عن قصد أو غير قصد في الرجوع الى الوراء لتكوين دولة اسلامية مثالية، يكون الفقهاء فيها هم المسيرين، وهذا ماكان يعيقهم عن فهم المشاكل الاجتماعية الحديثة)[3].

ان هذا الحكم في رأينا يبدو قاسيا لأن العلماء لم يكونوا جميعا من الطبقة البورجوازية، كما أن أفكارهم لم تكن رجعية بدليل أنهم دعوا الى حرية الفكر ونبذ التقليد، لأن ذلك هو طريق التقدم الحقيقي، حيث قال أحدهم[4] في سنة 1935: (ان كل أمة ابتليت بداء التقليد فقد أضاعت رشدها وضلت سواء السبيل، وتركت أعظم ميزة منحها الانسان، ألا وهي العقل فيطرقها الخلل في أعمالها المادية والأدبية، فتصبح مملوكة الغير... فما علينا الا أن نطلق للفكر سراحه يصول ويجول (وعلى) دعاة الاصلاح العاملين على انقاذ الأمة الجزائرية من ربقة التقليد، أن تكون نقطة الاصلاح هي العمل لحرية الأفكار.).

كما أن تصريحاتهم المتكررة، كانت تتضمن قبولهم للتطور المادي والتقني، والاعتناء بالشباب.

ورغم أنهم ظلوا يمثلون رجال الماضي، فان ذلك لم يؤثر في شعبيتهم. ومن

(1) Ibid, p. 327.

(2) سورة الرعد، آية 11.

(3) C.R. AGERON, Op Cit, p. 327.

(4) الشيخ علي بن سعد التماري، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ص199.

المواقف الأكثر شعبية، تلك التي وقفوها ضد عائلات المرابطين الكبيرة، والطرقيين الأثرياء، ووصفهم للمرابطين بأنهم يمثلون الأرستقراطية الريفية، التي هي بقايا من العصور الوسطى، المتعاونة مع الغزاة المتسلطين المستغلين الجشعين للشعب.

وهكذا استطاع العلماء المصلحون أن يخلقوا جوا من الكراهية الاجتماعية ضد المرابطين، وجعلوا الناس يشككون في علاقاتهم مع هذه الفئة الانتهازية التي استغلت سذاجة العامة وجهلها، مما جعل زعماءها يقتربون أكثر من الادارة الفرنسية للدفاع عن مصالحهم الخاصة.

وهكذا عمل هؤلاء المصلحون منذ البداية على اخراج المسلمين من نظام اجتماعي تقليدي متحجر وغير منسجم.

وحسب رأي روبير آجرون [R. AGERON] أيضا فان نقد العلماء الواقعي في هجومهم على المرابطين كان يتفق مع نقد الغربيين.

ان خطاب العلماء الأخلاقي العنيف لبعض مظاهر الممارسات الدينية مكنهم من اعادة الاعتبار لايمان الجماهير، بعد أن أداتوا مذاهب الطرقيين الفاسدة، وعملوا بقوة على ابطال التقاليد الخرافية، ووهد الجماهير الريفية، وأعلنوا الثورة ضد بعض الشباب المنحرف في المدن، وبذلك حققوا نجاحا فائقا بين الذين كانوا تائهين، يبحثون عن طريق نهضتهم، فوجدوا أمنيتهم الغالية لدى أساتذة المدرسة السلفية كرجال تقدميين[1].

ونظرا للفراغ الثقافي الذي كانت تعاني منه (الأمة) الجزائرية حتى سنة 1920، فان العلماء قد حددوا خطتهم بوضوح من أجل النهوض بالثقافة العربية التي أوشكت على الانهيار، في الجزائر، وادخال النهضة ونشرها في البلاد. ولكي يحققوا هدفهم ركزوا جهودهم على تعليم اللغة العربية، وبعث التراث العربي القديم والحديث.

ان هذه الفكرة الأساسية في حركة العلماء قد عبر عنها الشيخ البشير الابراهيمي بقوله: (ان كل عصريتنا وثقافتنا في وقتنا الحاضر تمثل في اللغة العربية)[2].

ذلك أن العلماء كانوا يعتقدون بأن معرفة اللغة العربية معرفة جيدة وازدياد عدد قراء العربية يؤدي الى النهضة السياسية والثقافية للبلاد، وهذا يؤدي بدوره الى

(1) C.R. AGERON, Op Cit, p. 328.

(2) Loc Cit, HENRI BENAZET, L'Afrique Française en danger, Paris 1947 p. 30.

الشعور بالانتماء الى الحضارة العربية الاسلامية ، وتقويتها واحياء الشخصية الوطنية الجزائرية ، لأن الجزائر لاتجد أصلها الثقافي الا في العروبة وحدها . وكان الهدف الأخير في حركة العلماء الثقافية يتمثل في تعريف الجزائريين بأصالتهم وقيمهم وعاداتهم ، وتاريخ أمجادهم وبذلك يستطيعون مواجهة التحديات الغربية ولا سيما محاولة الفرنسة .

وكانت جهود العلماء في الميدان الثقافي جهودا عملية تمثلت في تأليف الكتب التربوية ، وتوفير وسائل الايضاح التعليمية .

وفي حركتهم التعليمية انطلقوا من الأسس المبسطة كالشعر وكتابة الرسائل والصحافة والتاريخ .

ومن هنا كان كفاح العلماء مركزا خاصة حول الدفاع عن الثقافة العربية والوطن الجزائري[1] .

وهكذا فان اهمال اللغة العربية ، ومحاربتها من طرف الاستعمار الفرنسي ، قد آلم كثيرا ابن باديس وزملاءه ، وشغل بالهم منذ نهاية الحرب العالمية الأولى ، ومن ثم كانت جهود المصلحين الجزائريين تتمثل أساسا في حمل رسالة اللغة العربية التي قال عنها أحدهم : (أنها لغة الهندسة الاغريقية ، ولغة الشعر اليهودي ، وهي احدى عجائب الدنيا الثلاث –)[2] .

C.R. AGERON, Op Cit pp 328-329. (1)
HENRI BENAZET, Op Cit, p. 30. (2)

الفصل الثاني

وحدة العلماء وتأسيس الجمعية

وحدة العلماء وتأسيس الجمعية :

رأينا في الفصل الأول بأن الفترة الواقعة مابين 1920 و 1931 ، قد عرفت يقظة عامة في البلاد ؛ شملت كل مظهر من مظاهر الحياة الجزائرية : الأدبية ، والاجتماعية ، والعلمية ، والدينية ، والصحفية ، والاقتصادية ، والسياسية ، وقد جاءت هذه النهضة – العامة – كما يقول الابراهيمي :بعد شعور (الأمة بسوء الحال ... الشعور بالفساد وهو أول مراحل الاصلاح)[1] .

وفي هذا المناخ الملائم نسبيا أراد العلماء المصلحون أن يلعبوا دورا نشيطا في البلاد على غرار الحركات الجزائرية الموجودة في ذلك الوقت ففكروا منذ سنة 1924[2] ، في انشاء جمعية دينية تجمع شملهم ، وتوحد جهودهم ، ولكن هذا المشروع لم يخرج الى حيز الوجود ، الا بعد ست سنوات من التردد (نتيجة هذا لبعض الخلافات المذهبية) التي وقعت بينهم وبين المحافظين التقليديين .

وبناء على رأي روبير آجرون[3] ، فان شيوخ الزوايا رغم أنهم كانوا مستائين بشدة من مهاجمة صحافة العلماء المصلحين لهم ، فانهم حاولوا أن يتقربوا من العلماء المعتدلين ، وطلبوا منهم أن يكفوا عن مهاجمتهم وأن يعملوا بالاشتراك معهم على تجديد الدين والأخلاق .

ويبدو أن هذه الرغبة من طرف الطرقيين – بناء على هذا الرأي – في التقارب مع المصلحين قد جاءت كنتيجة لشعورهم بالخطر من دعوة العلماء المصلحين . ومهما

(1) محمد البشير الابراهيمي : سجل مؤتمر العلماء المسلمين الجزائريين مرجع سابق ، ص 57 .
(2) ينظر تفصيل هذا الموضوع في كتابنا : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين مرجع ، سابق ، من ص 73 الى ص 82 .
(3) OP CIT, P. 329.

يكن من أمر فان الاحتفالات الفرنسية بمرور مائة عام على احتلال الجزائر، عجلت باتحاد علماء القطر، وميلاد الجمعية(1)، ذلك أن العلماء الذين شاركوا في تلك الاحتفالات، مشاركة حزينة صرخوا قائلين عندئذ (لقد احتفلوا بعيدهم الأول أي الفرنسيون) ولكنهم لن يحتفلوا بعيدهم الثاني(2).

ومن هنا يتضح أن الهدف من انشاء الجمعية، كان هدفا وطنيا وسياسيا بالدرجة الأولى، يتمثل في توحيد الآراء وتجميع الشعب حول غاية واحدة.

وفي هذا الجو الأخوي الاسلامي ولدت الجمعية. وكان صاحب المبادرة العملية هو عمر اسماعيل أحد أغنياء الجزائر العاصمة وأعيانها، الذي تصورها أن تكون جمعية مفتوحة لكل علماء الدين، ولكل من يريد رفع المستوى الفكري والخلقي للشعب الجزائري.

وحسب رواية الأستاذ أحمد توفيق المدني(3)، فان جماعة من ذوي الاتجاه الاصلاحي العربي الاسلامي كانوا يترددون على نادي الترقي(4) لمناقشة الأوضاع التي آلت اليها البلاد – وخاصة بعد الاحتفال بالذكرى المئوية التي كانت مجالا فسيحا للمتعصبين الفرنسيين الذين هاجموا الاسلام والمسلمين بشدة(5) – وعلى حد قوله: اجتمع هو نفسه مع ثلاثة(6) من المصلحين في شهر تموز (جويلية) سنة 1930، وتناقشوا باسهاب في الآثار المؤلمة التي تركتها الاحتفالات المئوية على الرأي العام الاسلامي في الجزائر، وأجمعوا أخيرا على تأسيس هيئة للعلماء تجمع شملهم وتوحد صفوفهم(7). ورغم أن فكرة انشاء جمعية للعلماء تحت أي اسم من الأسماء قد أثيرت عشية الحرب العالمية الأولى، ونادى بها ابن باديس والابراهيمي سنة 1924 (كما سلف

(1) ينظر تحليل هذا الموضوع في كتابنا السالف الذكر، من ص 85 الى ص 91.

(2) JOSEPH. DEPARMET. LE Pan-Arabisme et la Berberie Bulletin du Comité de L'Afrique Française N° 7 Juillet 1937. P.

(3) حديث شخصي أجراه الباحث بمركز الأبحاث التاريخية الجزائر يوم 11 فيفري 1976.

(4) نادي الترقي هو عبارة عن مركز افتتح عام 1927 ببطحاء الحكومة في الجزائر من طرف جماعة من أعيان وأغنياء الجزائر المسلمين وكانت بنايته تشتمل على ثلاث قاعات بديعة (أرشقها البهو) كان الغرض من تأسيسه هو طرح وبحث ومناقشة الأوضاع التي آل اليها المجتمع الجزائري بين رواد النهضة وعلمائها.
انظر محضر افتتاح النادي: جريدة الشهاب – عدد 106 قسنطينة 21 جويلية 1927 ص 32

(5) ينظر تفصيل هذا الموضوع في كتابنا السالف الذكر من ص 185 الى ص 91.

(6) وهؤلاء الثلاثة هم: (عمر اسماعيل، محمد العاصمي، محمد عباسة).

(7) أحمد توفيق المدني: الحادثة السابقة.

الذكر) ودعت اليها جريدة الشهاب سنة 1925، فان الأستاذ أحمد توفيق المدني يؤكد بأن التفكير في انشاء هذه الجمعية هو وليد عام 1930 فقط.

وعلى أي حال فمها تكن المبالغة في هذا الرأي فان للاحتفالات المئوية دورا في الاسراع بانشائها، نظرا لما أحدثته في البلاد من استفزاز وتحد للمشاعر الدينية والوطنية، وان كان بعض الكتاب على خلاف هذا الرأي، اذ يعتبرون ان اهانة الاسلام والمسلمين في الجزائر كان قبل ذلك بمائة عام، ولكن أصحاب هذا الرأي فاتهم أن يدركوا حقيقة وهي أن الجزائريين بعد الحرب العالمية الأولى قد بلغوا من الوعي ماجعلهم يبادرون الى الاتحاد والعمل، بالاضافة الى توفر عوامل سياسية أخرى وهو مالم يتح لأسلافهم قبل الحرب الكونية الأولى.

ميلاد الجمعية وتأسيس مجلسها الاداري:

كتب عمر اسماعيل في أوائل 1931 في مجلة الشهاب، وجريدة النجاح نداء الى علماء الجزائر مفاده: أن من يؤسس (جمعية للعلماء المسلمين الجزائريين) له جائزة قيمتها ألف فرنك (أي مايعادل حاليا 6000 دج على الأقل).

ويقول الأستاذ أحمد توفيق المدني في روايته السالفة الذكر، أنه كتب بخط يده مائة وعشرين دعوة لعلماء القطر الجزائري، بهدف عقد اجتماع في العاصمة بنادي الترقي لتأسيس (جمعية العلماء) فلبى الدعوة اثنان وسبعون عالما بالحضور، واعتذر بالكتابة والقبول نحو خمسين عالما آخرين(1). واجتمعوا في اليوم الخامس من شهر أيار (ماي) 1931 بنادي الترقي بناء على دعوة اللجنة التأسيسية المؤلفة من جماعة فضلاء العاصمة التي كان يترأسها السيد عمر اسماعيل، وجرى الاجتماع في شكل جمعية عمومية لسن القانون الأساسي للجمعية وعينوا للرئاسة المؤقتة السيد (أبا يعلا الزواوي) وللكتابة الأستاذ (محمد الأمين العمودي)، وتم وضع القانون الأساسي وتلاه كاتب الجلسة على الحاضرين، فأقره كل الأعضاء بالاجماع(2). وفي اليوم نفسه تم انتخاب (الهيئة الادارية) طبقا لمنطوق احدى مواد القانون الأساسي وحتى تضمن الجمعية

(1) جريدة النجاح – عدد 1131 – قسنطينة 18 مارس 1931، ص 1.

(2) الشهاب المجلد السابع، الجزء الخامس، قسنطينة ماي 1931، ص 341 وكذلك أحمد توفيق المدني، حديث شخصي سالف الذكر.

وبناء على هـذا الرأي فـان انتخـاب المجلس الاداري لم يجر بطريقـة ديمقراطيـة ، وهذا له مايبرره ، لأن جماعـة المصلحين المجـددين ، كانوا حريصين على ابعـاد رجـال القطاعات الدينية الأخرى من المحافظين المتزمتين نظرا للصراع المحتدم بينهما ، وخوفا من فشل رسالة الاصلاح التي تحمل العلماء عبء نشرها في المجتمع الجزائري ، وخـاصـة وأن بعض المصلحين كانوا جدرين بتحمل هـذه المسؤوليـة الخطيرة مثل (ابن بـاديس) الذي كان له الفضل الأعظم في توحيد علماء القطر ، وتهيئـة الرأي العـام لتقبل هـذه الجمعية ، علاوة على الشعبية التي كان يتمتع بها زملاؤه الآخرون في الوسط الجزائري .

ومن هنا يمكن القول أن اجراء الانتخـاب بطريقـة الاقتراح كان عمليـة تكتيكيـة اقتضتها ظروف البلاد العامة ، ولا سيما وأن العلماء المجددين الـذين كانوا يحملون لواء الحركة الاصلاحيـة ، قـد عزموا على انقـاذ البلاد من تسلـط شيوخ الـزوايـا ورجـال الطرق الصوفيـة المتعـاونين مع الادارة الفرنسيـة ، ولـذا فلاغرابـة في اسنـاد المنـاصب الهامة في الجمعية الى العلماء المصلحين ، وفي اجراء الانتخاب بطريقة الاقتراح .

وقد يتساءل المرء عن سبب غياب ابن باديس في اليوم الأول من الاجتماع رغم أنه كان أهم الشخصيات المعتبرة في الحركة الاصلاحية .

والحق أن عدم حضور ابن باديس وانتخابه غيابيا يعود في واقع الأمر الى أنه كان يرفض رئاسة هذه الجمعية لاعتبارات معينة من بينها (أنـه كان يفكر في موقف والـده وهو عمدة من عمـد الحكومـة الـواهين)(1) . ولعلـه كان يريـد أن يبقى مستقـلا حتى يستطيع أن يحارب الأعداء أينما كانوا باسمه الخاص .

أما عن سبب اتخاذ العـاصمـة مقرا للجمعيـة رغم أن مؤسسيهـا البـارزين كانوا من شرق البلاد ، ورغم أن قسنطينة كانت مهدا للحركة الاصلاحية الناضجـة في الجزائر ، وأن خطتها الأولى(2) كانت تنص على أن تكون قسنطينة مقرا للجمعيـة فـان الراجح في اختيـار الجزائر بـدل قسنطينـة يعود الى كون الأولى مقرا للسلطـة المركـزيـة من جهة ، ولـوجـود نـادي الترقي الـذي ولـدت فيـه الجمعيـة ، والـذي كان أعضـاؤه من مؤسسيها ومساعديها الأوائل ماديا .

ويبدو أيضا أن ابن باديس أراد أن يبعد عنـه احتكار السلطـة في هـذه المنظمـة

---

(1) الأستاذ أحمد توفيق المدني – مذكرات القسم الثاني ، ط1 الجزائر 1978 ، ص 179 .

(2) التي وضعها ابن باديس والابراهيمي في سطيف سنة 1924 .

التأسيسية فوز العلماء المصلحين المجددين - اشترطت توفر عدة اعتبارات في الترشيح لعضوية المجلس الاداري ، ولم تتبع في تكوين المجلس الاداري لا الانتخاب السري ولا العلني ، بل لجأت الى طريقة الاقتراح ، وقامت بعرض أسماء معينة[1] ، على الحاضرين ، فكانت النتيجة أن وافق الحاضرون بالاجماع على هذه الأسماء المقترحة التي أصبح أصحابها يشكلون المجلس الاداري . وقد انتخبت الهيئة الادارية ابن باديس غيابيا للرئاسة ، والابراهيمي نائبا له ، وللكتابة العامة الأمين العمودي ، والمساعد الطيب العقبي ، وانتخبت لأمانة المال الأستاذ مبارك الميلي والأستاذ ابراهيم بيوض مساعدا له ، وباقي الأعضاء للاستشارة والعضوية . وقررت الهيئة الادارية في أول جلسة لها ترجمة القانون الأساسي الى الفرنسية ، وتقديمه الى الحكومة للمصادقة عليه ويلاحظ أن اللجنة التحضيرية بعد انتهاء الأعمال ونجاح الفكرة أقامت حفلة على شرف الضيوف ، وأعضاء الجمعية الدينية وجماعة من النواب الأهالي ، وهيئة ادارة النادي ، ووجهت الدعوة الى مدير الشؤون الأهلية المستشرق (ميرانط) (MIRANTE) الذي اعتذر عن الحضور[2] .

ويبدو أن الحكمة من هذا الحفل كانت تتمثل في اطلاع الرأي العام الجزائري والأوروبي على انشاء هذه الجمعية وأهميتها في المجتمع .

ولقد ضمت الجمعية في عضويتها اتجاهات مختلفة كان بعضها اصلاحيا مجددا ، وكان البعض الآخر يمثل المحافظين ، ويبدو أن ادخال رجال الدين من غير المصلحين (كان مجرد تكتيك ويتضح ذلك من أن المناصب الهامة في الجمعية قد تولاها المصلحون)[3] . أما رؤساء الزوايا الذين كانوا يمثلون ست طرق هامة في البلاد فانهم لم يكونوا سوى أعضاء مساعدين فقط[4] .

---

(1) وهم (ثلاثة عشر عضوا ، عبد الحميد بن باديس ، محمد البشير الابراهيمي ، الطيب العقبي، محمد الامين العمودي ، مبارك الميلي ، ابراهيم بيوض ، المولود الحافظي ، مولاي بن الشريف ، الطيب المهاجي ، السعيد الياجوري ، حسن الطرابلسي عبد القادر القاسمي ، محمد الفضيل اليراتني .

(2) محمد البشير الابراهيمي : محضر الجلسة التمهيدية لتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - مجلة الشهاب - المجلد السابع ، الجزء الخامس ماي 1931 ، ص 341 - 344 ، نشر في كل من مجلة الشهاب وجريدتي النجاح والبلاغ .

(3) أبو القاسم سعد الله - الحركة الوطنية الجزائرية - 1930 - 1945 الجزء الثالث ، مطبعة البجلاوي البولاقية ، مصر 1975 ، ص 87 .

C.R. AGERON, Op Cit, P. 329. (4)

وبناء على هذا الرأي فان انتخاب المجلس الاداري لم يجر بطريقة ديمقراطية ، وهذا له مايبرره ، لأن جماعة المصلحين المجددين ، كانوا حريصين على ابعاد رجال القطاعات الدينية الأخرى من المحافظين المتزمتين نظرا للصراع المحتدم بينهما ، وخوفا من فشل رسالة الاصلاح التي تحمل العلماء عبء نشرها في المجتمع الجزائري ، وخاصة وأن بعض المصلحين كانوا جدرين بتحمل هذه المسؤولية الخطيرة مثل (ابن باديس) الذي كان له الفضل الأعظم في توحيد علماء القطر ، وتهيئة الرأي العام لتقبل هذه الجمعية ، علاوة على الشعبية التي كان يتمتع بها زملاؤه الآخرون في الوسط الجزائري .

ومن هنا يمكن القول أن اجراء الانتخاب بطريقة الاقتراح كان عملية تكتيكية تقتضيها ظروف البلاد العامة ، ولا سيا وأن العلماء المجددين الذين كانوا يحملون لواء الحركة الاصلاحية ، قد عزموا على انقاذ البلاد من تسلط شيوخ الزوايا ورجال الطرق الصوفية المتعاونين مع الادارة الفرنسية ، ولذا فلاغرابة في اسناد المناصب الهامة في الجمعية الى العلماء المصلحين ، وفي اجراء الانتخاب بطريقة الاقتراح .

وقد يتساءل المرء عن سبب غياب ابن باديس في اليوم الأول من الاجتماع رغم أنه كان أهم الشخصيات المعتبرة في الحركة الاصلاحية .

والحق أن عدم حضور ابن باديس وانتخابه غيابيا يعود في واقع الأمر الى أنه كان يرفض رئاسة هذه الجمعية لاعتبارات معينة من بينها (أنه كان يفكر في موقف والده وهو عمدة من عمد الحكومة الواهين)[1] . ولعله كان يريد أن يبقى مستقلا حتى يستطيع أن يحارب الأعداء أينا كانوا باسمه الخاص .

أما عن سبب اتخاذ العاصمة مقرا للجمعية رغم أن مؤسسيها البارزين كانوا من شرق البلاد ، ورغم أن قسنطينة كانت مهدا للحركة الاصلاحية الناضجة في الجزائر ، وأن خطتها الأولى[2] كانت تنص على أن تكون قسنطينة مقرا للجمعية فان الراجح في اختيار الجزائر بدل قسنطينة يعود الى كون الأولى مقرا للسلطة المركزية من جهة ، ولوجود نادي الترقي الذي ولدت فيه الجمعية ، والذي كان أعضاؤه من مؤسسيها ومساعديها الأوائل ماديا .

ويبدو أيضا أن ابن باديس أراد أن يبعد عنه احتكار السلطة في هذه المنظمة

---

(1) الأستاذ أحمد توفيق المدني - مذكرات القسم الثاني ، ط1 الجزائر 1978 ، ص 179 .

(2) [illegible] 1924

الجديدة فحبذ أن يكون مقر الجمعية بالعاصمة حتى تكون ممثلة على الأقل لعلماء القطر كله لا للمصلحين وحدهم[1] ، وهذا ماأكده ابن باديس[2] ، في أول خطاب له بعد انتخابه رئيسا للجمعية اذ يقول : (انني كرست حياتي للتعليم ، وهذا هدف من أهداف الجمعية) وأضاف بأنه من دعاة التسامح مع كل الاتجاهات ويتفق هذا الاتجاه مع التكتيك – الذي سبق ذكره – لاستبعاد معارضة السلطات الفرنسية لانشاء هذه الجمعية ، كما يدل دلالة واضحة على جمهرة الحركة .

ولما كان أعضاء المجلس الاداري من جهات متفرقة ونائية عن العاصمة وكان العمل الاداري بالمركز يتطلب الاستمرارية ، رأى المسؤولون في الجمعية ضرورة تعيين لجنة العمل الدائمة من سكان العاصمة وضواحيها تحت رئاسة عمر اسماعيل[3] ، تسهر على التنظيمات الادارية والمالية وتحضر للاجتماعات الدورية والطارئة .

وهكذا انشئت جمعية العلماء (والحكومة لاتدري ماذا تصنع ولا تعرف بماذا تقابلها) [4] والطرقيون الذين شاركوا في عضويتها يجهلون أهدافها السامية .

وبعد تشكيل الهيئة الادارية وانتخاب الرئيس على النحو السالف الذكر قدم القانون الأساسي الى الحكومة العامة ، فصادقت عليه بعد خمسة عشر يوما فقط[5] ، وقد اشتمل هذا القانون على أربعة وعشرين فصلا « تتضمن أهداف الجمعية واتجاهاتها ووسائل عملها ، ومنهجها الاصلاحي ، والتنظيمات المالية ، والادارية ، كما اشتملت على الأساليب التي تتبعها في معالجة القضايا المستجدة على الصعيد الوطني ، أو على المستوى الداخلي بين الأعضاء وقد نص القانون الأساسي على محاربة الأمراض الاجتماعية مثل الخمر والميسر والبطالة والفجور ، بعد أن حدد الشكل القانوني للجمعية وأضفى عليها الصبغة الدينية ، والأدبية ، ونص على ابعادها من خضم السياسة .

وقد وضع هذا القانون ، كما يقول الابراهيمي : (على قواعد من العلم والدين لاتثير شكا ، ولا تخيف . وكانت الحكومة الفرنسية في ذلك الوقت تستهين بأعمال

(1) أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، ج 3 ، ص 88 . وكذلك الشيخ البشير الابراهيمي – سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 51 و52 .
(2) مجلة الشهاب ، المجلد السابع ، الجزء السادس ، قسنطينة جوان 1931 من ص 351 – 356 .
(3) نفس المصدر ص 394 .
(4) أحمد توفيق المدني – حياة وكفاح – مذكرات القسم الثاني ، مرجع سابق ، ص 181 .
(5) راجع نصوص هذا القانون في الملحق الأول من هذا البحث .

العالم المسلم ، وتعتقد أننا لانضطلع بالأعمال العظيمة فخيبنا ظنها والحمد لله)[1] .

وبجانب القانون الأساسي فقد وضع للجمعية لائحة داخلية تشتمل على مائة وسبع وأربعين مادة تنظم علاقاتها مع غيرها من الجمعيات والأحزاب وتحدد مهام كل عضو من الأعضاء .

وهكذا كان تأسيس الجمعية بهذا الشكل (الذي ضم جميع العناصر الدينية في البلاد) بمثابة نقطة تحول واتحاد لم يدم سوى عام واحد ، حيث كانت أهداف الجميع متباينة ونظرتهم للاصلاح متعارضة (ومهما كان الأمر فقد تقبلها الرأي العام[2] ، ورضيت بها كل الاتجاهات التي أصبحت تشعر بالعزلة عن التيارات الأخرى ، كما أن الادارة الفرنسية ابتهجت لانشاء الجمعية بهدف ملء الفراغ الذي كان يحس به الأهالي ، ولاستقطاب كل علماء القطر في هذه المنظمة حتى يكون ربطهم بها يسيرا ، وتتضح لها كل الاتجاهات المناوئة والمؤيدة لسياستها الاستعمارية في الجزائر ، وقد حدثني أحد الأعضاء المؤيدين للجمعية[3] ، أن عمر اسماعيل قد اتصل أيام الدعوة الاخيرة لانشاء الجمعية (بميرانط) مدير الشؤون الأهلية وأخبره برغبة العلماء في تأسيس هيئة اصلاحية لهم ، فاشترط عليه (ميرانط) ادخال شيوخ الزوايا الجزائرية في هذه الجمعية ، رغم أن (ميرانط) نفسه لم يكن يحب الطرقيين .

أما المؤرخ الفرنسي روبير آجيرون (R. AGERON) فيرى أن (ميرانط) عندما وافق على انشاء الجمعية كان قد أفهم خطأ بأن هذه الجمعية قد أنشئت لأغراض انتخابية فقط ، ولذلك منح الرخصة للشيخ الابراهيمي[4] .

أما الأستاذ أحمد توفيق المدني[5] فقد قال بخصوص هذا الموضوع (هناك شرط أساسي جوهري يجب احترامه اذا ماجمعنا حقا » جمعية العلماء المسلمين الجزائريين «ألا وهو جميع العال من كل الطوائف ومن كل المذاهب الموجودة بالجزائر حتى تمثل وحدة وطنية صحية ، ثم أن البلاد تجابه اليوم تصادما مابين فكرتين أساسيتين ، هما الاصلاح

(1) محمد البشير الابراهيمي : (أنا) مجلة مجمع اللغة العربية ، ج 21 القاهرة 1966 ، ص 147 .
(2) أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية – الجزء 3 ، ص 88 .
(3) وهو الشيخ ابن يكلي عبد الرحمن بن عمر – أثناء المحادثة التي أجراها معه الباحث في بريان – يوم 8 فيفري 1977 .
(4) C.R. AGERON, Op Cit. P. 329.
(5) أنظر : حياة كفاح ، مذكرات القسم الثاني ، ص 175 .

والطرقية ، فكما أن رجال الاصلاح الاسلامي يكونون ولا ريب في طليعة ... العلماء ، فعلينا أن يكون ضمن العلماء أيضا رجال من الطرقية ، فداخل هذه ... الصالحة يجب أن ينصهر الجميع ويخرج منها الشعب الجزائري الأصيل ، شابا ... عملاقا) وهكذا فمها يكن من اختلاف في الرأي حول أسباب موافقة الحكومة ... انشاء الجمعية ، فان العلماء المصلحين كانوا عارفين مسبقا بنوايا الادارة الاستعمارية ولذلك سالموا خصومهم وأسدلوا الستار على أهدافهم وتطلعاتهم الوطنية حتى يتمكنوا من تثبيت أقدامهم وتعزيز مواقفهم الدفاعية عن فكرتهم[1] .

والحق أن الرجاء كان ضعيفا في تحقيق أمنية اجتماع العلماء لولا تزايد الشعور لدى (الأمة) بسوء الحال التي هي عليه ، والفساد الذي كان متفشيا بين أبنائها .

واذا كانت الادارة الفرنسية قد استقبلت ميلاد الجمعية بموافقة مشروطة ، فان ... هذه الأخيرة كان شديدا على الجماعات التي ألفت استغلال الجماهير وسذاجتها .

وسنرى أن هذه الجماعات التي أظهرت رغبتها في تأسيس الجمعية أول الأمر قد انسحبت بعد عام فقط لتشن حربا عشواء على الجمعية وزعمائها[2] .

والواقع أن انضمام بعض الطرقيين ، ورجال الزوايا الى الجمعية عند تأسيسها ، كانت لهم أغراض لم تخف على العلماء المصلحين ، ولا على الكتاب المعاصرين ، فقد علقت جريدة البصائر على تأسيس الجمعية بعد سبع سنوات بقولها : (تأسست الجمعية في جو قد غشيته سحب الريب ، فالحكومة مرتابة منها تخشى على ناموسها ، والطرقية التي كان يمثلها في الجمعية رجالها مرتابة من كفاءة ممثليها وقدرتهم على الدفاع عنها ، ومفكروا الأمة قد غلب عليهم اليأس في نجاح الحركات الشعبية ، فهم في ريبة من نمو ذلك المولود المبارك[3] . وهذا ان دل على شيء فإنما يدل على أن انضمام الطرقيين الى الجمعية وموافقة الادارة الفرنسية على تأسيسها في أول الأمر كان مرفوقا بالشكوك والخوف ، ولولا التكتيك الذي اتبعه ابن باديس والابراهيمي في الدعوة الى عقد الاجتماع التأسيسي للجمعية ، لما كان في وسع المصلحين أن يحصلوا على موافقة الحكومة ، وكسب أصوات الطرقيين .

---

(1) أبو القاسم سعد الله ، الحركة الوطنية الجزائرية ، ج 3 ، ص 89 .
(2) الشيخ البشير الابراهيمي . سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - مرجع سابق ، ص 51 ، 52 .
(3) جريدة البصائر . عدد 57 . قسنطينة 28 جانفي 1938 ، ص 1 ، 2 .

وقد وصف (البشير الابراهيمي) كيف نجح هو (وابن باديس) في اجتناب العلماء والفقهاء الى الجمعية بقوله : (دعونا فقهاء الوطن كلهم وكانت الدعوة التي وجهناها اليهم صادرة باسم الأمة كلها ليس فيها اسمي ولا اسم ابن باديس لأن أولئك الفقهاء كانوا يخافوننا لما سبق لنا من الحملات الصادقة على جمودهم ، ووصفنا اياهم بأنهم بلاء على الأمة ، وعلى الدين ، لسكوتهم على المنكرات الدينية ، وبأنهم مطايا الاستعمار ، يذل الأمة ويستعبدها باسمهم ، فاستجابوا جميعا للدعوة واجتمعوا في يومها المقرر ، ودام اجتماعنا في نادي الترقي أربعة أيام ... ولما تراءت الوجوه وتعالت أصوات الحق أيقن أولئك الفقهاء بأنهم مازالوا في دور التلمذة وخضعوا خضوع المسلم للحق ، وسلموا القيادة لنا فانتخب المجلس الاداري من رجال أكفاء جمعتهم وحدة المشرب ووحدة الفكرة ... ووحدة المناهضين للاستعمار وقد أوكل المجتمعون ترشيحهم الينا وانتخبوهم بالاجماع وانتخبوا ابن باديس رئيسا ... وأصبحت الجمعية حقيقة واقعة قانونية)[1] .

ويبدو أن الهدف من دخول رجال الدين من القطاعات الأخرى غير الاصلاحية هو التخفيف من تشاءم شيوخ الطرق وأرباب الزوايا ، وتسخير هذه المؤسسة لخدمة أهدافهم الخاصة[2] ، ولكن الطرقيين كانوا عاجزين عن مواصلة السير داخل هذه الجمعية لأنهم شعروا كما قال الشيخ الابراهيمي : بأنهم مازالوا يتتلمذون على رجال الاصلاح المجددين ، وفي الاجتماع العام الذي انعقد في يوم (24 ماي 1932) تأكدوا أن هذه الجمعية ، لا تخدم أغراضهم ولا أهداف الادارة الاستعمارية ، وذلك بعد الخطاب الذي ألقاه ابن باديس[3] في الاجتماع المذكور حيث قال فيه : ان تأسيس جمعية كجمعية العلماء هذه في قطر مترامي الأطراف ، لم يتعود بعد على حياة الجمعيات والنوادي ، يتطلب جهودا عظيمة لترسيخ أقدام هذه الجمعية ، وتحقيق الأغراض التي أسست من أجلها ، لأن (الأمة) الجزائرية في هذا الظرف العصيب ، تفتقر الى وسائل روابط الاخاء والوحدة ، والتضامن والشعور بالمصير المشترك ، وحث الناس على العمل (بمبادىء الجمعية) لمحاربة الآفات الاجتماعية (كالخمر والميسر ، والبطالة ،

---

(1) د . محمود قاسم ، ص 23 ، نقلا عن مجلة اللغة العربية ، ع 21 ، 1966 ، م ن ص 143 - 144 .
(2) محمد البشير الابراهيمي . سجل جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 51 ، 52 .
(3) عبد الحميد بن باديس . جريدة النجاح ، ع 311 قسنطينة 29 ماي 1932 ، ص 2 .

والفجور ...) ، فانسحبوا جميعا ، وتألف المجلس الاداري من زعماء الاصلاح وأنصارهم . ولجأ الطرقيون بوحي من الادارة الاستعمارية وأعوانها الى تأسيس جمعية لمحاربة الاصلاح الجديد باسم (جمعية علماء السنة)[1] .

وهكذا فبعد سنة من التعايش الصعب بين المصلحين والمحافظين المختلفين في الهدف والاتجاه ، حدث الانفصال وانتهى (الزواج المصلحي) بين المجموعتين ، وتولت جماعة المصلحين بزعامة ابن باديس زمام قيادة الجمعية ، وأخرجوا كلا من عمر اسماعيل والشيخ مولود الحافظي ، ولكن الطرقيين الذين خرجوا من الجمعية ، قرروا انشاء جمعية خاصة بمساعدة عمر اسماعيل[2] المادية وفي يوم 15 سبتمبر 1932 وأمام 750 شخص أسس الشيخ الحافظي (جمعية علماء السنة الجزائريين) ، ويتضح من القانون الأساسي لهذه الجمعية أن أهدافها هي نفس أهداف جمعية 5 ماي 1931[3] .

وإذا كانت صحافة العلماء قد اعتبرت أن تكوين جمعية السنة كان بوحي من الادارة الفرنسية ، فان المؤرخ روبير آجرون[4] (R. AGERON) يرى بأنها تأسست بمعزل عن تأثير الادارة ، بدليل أن شيوخ الزوايا قد اشتكوا الى النواب الماليين الفرنسيين من العراقيل التي وضعت أمام جمعيتهم من طرف مصالح الشؤون الأهلية .

هذا ورغم أن الطرقيين قد خرجوا من جمعية العلماء المصلحين ، وأنشأوا جمعية خاصة بهم لمحاربة العلماء الأحرار ، فان ابن باديس وجماعته لم يفقدوا الأمل في اقناع شيوخ المرابطين بضرورة الاصلاح ، وقاموا بعدة رحلات[5] للدعاية وشرح برنامجهم وأهدافهم منذ سنة 1932[6] .

وعلى أية حال فمها كان الاختلاف في الرأي حول العوامل التي دفعت الطرقيين الى تأسيس جمعية السنة ، فمما لاشك فيه أن تقارب المصالح بينهم وبين الادارة الاستعمارية هي التي جعلتهم يبادرون بتأسيس هذه الجمعية .

(1) محمد البشير الابراهيمي ، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 52 .
(2) عمر اسماعيل كان من أغنياء مدينة الجزائر وأعيانها قال عنه الأستاذ أحمد توفيق المدني : (كان عاميا ذكيا طموحا ، قليل المعلومات ، غزير الأفكار ، دؤوب العمل ، ويقال أنه أثرى أثناء الحرب العالمية الأولى من تجارة وراء الستار) ينظر ، حياة كفاح ، القسم الثاني ، مرجع سابق ، ص 173 .
(3) C.R. AGERON, Op Cit, P. 330.
(4) IBID, P. 342.
(5) ينظر تفصيل هذا الموضوع في كتابنا : جمعية العلماء المسلمين الجزائريين من ص 125 – 139 .
(6) C.R. AGERON, Op Cit, P. 330.

وهكذا فان العلماء الذين كانت وراءهم الجماهير المثقفة الواعية استطاعوا أن يقودوا (الأمة) زهاء ربع قرن ، معلمين ، ومرشدين ، وباثين في الناس حب الدين ، والوطن ، والحرية التي تضمن للانسان كرامته .

أما جمعية السنة التي كانت تحت سيطرة الطرقيين فانها لم تعمر أكثر من ثلاث سنوات لأنها كانت منبوذة من طرف الوطنيين المخلصين ، بل أنها كانت تفتقر الى أتباع وأنصار يدافعون عنها باخلاص حتى أصبحت عبئا على الادارة الاستعمارية .

أهداف الجمعية :

ان المتصفح لقانون الجمعية يدرك أنها أنشئت للوعظ والارشاد ، وتهذيب الناس ، ومحاربة الأمراض الاجتماعية ، والابتعاد عن كل المسائل السياسية[1] ، ولكن المتتبع لأعمال الجمعية ونشاطها منذ ميلادها حتى سنة 1956 يجد ، وبكل وضوح ، أن أهدافها كانت وطنية سياسية بالدرجة الأولى ، وان كانت قد بدأت بتطهير المعتقد ، وتهذيب السلوك وتحسين الأخلاق .

ان الكتاب على تباين اتجاهاتهم ومشاربهم ، قد اختلفوا في التعبير عن أهداف الجمعية ، ولكنهم اتفقوا في الغالب على الجوهر – من خلال المنجزات التي تحققت تحت لواء الجمعية – باستثناء بعض الخصوم ، أو الذين كانوا يرون موتهم في استمرار حركة العلماء المصلحين .

وقد كتب الكثير عن أهداف جمعية العلماء ، فبعضهم حصرها في التعليم العربي ، ومحاربة الخرافات ، وتطهير الاسلام مما علق به من شوائب خلال العصور المتأخرة . بينما ذهب البعض الآخر الى ربطها بالنشاط السياسي ، ومعاداة الاستعمار ، وفكرة تكوين الدولة الجزائرية ، ورغم فريق ثالث بأن العلماء هم (مجموعة من أنصاف المثقفين جاءوا اليها من الخارج)[2] .

وقد لخصت جريدة (لسان العرب) أهداف الجمعية سنة 1947 في نقطتين اثنتين هما : إحياء ما اندثر من تعاليم الاسلام ، واحياء مامات من مظاهر اللغة العربية[3] .

(1) ينظر : القانون الأساسي لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين 1931 الملحق الاول في هذا البحث
(2) أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ج 3 ، ص 90 .
(3) الشيخ محمد المختار بن محمود – مقر الجمعية الجديد – جريدة لسان العرب عدد 2 ، تونس ، 18 جانفي 1947 ، ص 4 . كتب هذا المقال بمناسبة شراء الجمعية مقرا (مركزا) جديدا يقع بالساحة العربية بالعاصمة .

أما ابن باديس فقد قال سنة 1935: أن الغرض من تأسيس جمعية العلماء المس...
الجزائريين، هو محاربة الخرافات والشعوذة، التي عمت البلاد نتيجة لأعمال الطرقيين...

أما الدكتور خير الدين أبو علي السوري[2] فقد قال : إن هذه الجمعية بالاضافة الى كونها دينية فهي تهدف الى تثقيف وتهذيب المسلمين ، وتدعو القوم الى نبذ الخرافات الدخيلة على الاسلام والرجوع (للاسلامية البسيطة الأساس، النقية المبادىء) وأن هذه الجمعية ليس قصدها الاصلاح (اللاهوتي) وحده ، بل ترمي الى تثقيف القوم دينيا ، وأدبيا ، وعلميا[3] .

ولعل أشمل تعريف لأهداف الجمعية مالخصة أحد أعضائها[4] سنة 1935 بقوله : إن أهداف جمعية العلماء تتمثل في احياء الاسلام باحياء الكتاب والسنة ، واحياء اللغة العربية ، وآدابها ، واحياء التاريخ الاسلامي وآثار رجاله المخلصين .

أما هنري بنزات (H. BENAZETE)[5] فيرى بأن هدف العلماء كان يتمثل في تكوين (حكومة جزائرية تحكمها قوانين القرآن خارج السيطرة الأوروبية وعضوا في المجتمع الاسلامي الكبير ...) .

أما فرحات عباس[6] ، الذي لم يكن من العلماء ، ولا من المثقفين بالعربية فيرى بأن برنامج الجمعية كان يتلخص في الرجوع الى العربية والاسلام ، ومحاربة أصحاب الزوايا والطرقيين المتواطئين مع الاستعمار ، وتكوين اطارات الثقافة العربية .

أما الادارة الفرنسية فقد وصفت أهداف الجمعية سنة 1941 فقالت : إن أهداف الجمعية تتمثل في تجديد الاسلام وتطهيره من الخرافات التي الصقها به شيوخ الزوايا ، وتطوير التعليم الديني والثقافة العربية[7] ، بينما رأى جوزيف ديبارمي

(1) ينظر : جريدة النجاح ، عدد 1683 ، قسنطينة 15 مارس 1935 ، ص 1 .
(2) الذي كان مستوطنا في أمريكا، وزار قسنطينة سنة 1933، وبعد أن رجع من زيارته الى شمال افريقيا كتب في مجلة (الليه) الراقية مقالا نشرته مجلة الشهاب بخصوص حركة العلماء في الجزائر والحركة الاصلاحية في للغرب عموما.
(3) ينظر : مجلة الشهاب ، المجلد العاشر ، الجزء الخامس ، قسنطينة ماي 1934 ص 260 – 261 .
(4) محمد خير الدين ، سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، ص 160 .
(5) Op Cit, P. 32.
(6) ليل الاستعمار (حرب الجزائر وثورتها) تعريب أبو بكر رحال ، مطبعة المحمدية المغرب ، بدون تاريخ ، ص 150 .
(7) Note du C.I.E au Préfet de Constantine. Historique et Position, Politique de l'Association des Aulimas de la Fédération des élus du Partie du Peuple Algérien, du Parti Communiste d'Algérie et du Congrès Musulman. 4 Décembre 1941.

(J. DEPARMIET) سنة 1932 أن أهداف جمعية العلماء هي : فهم لغة القرآن والرجوع الى الثقافة الاسلامية القديمة ، وجعل المغرب العربي كقلعة للعبقرية الشرقية في وجه الغرب وتنقية وتبسيط الدين الاسلامي[1] .

أما شارل أندري جوليان[2] ، فقد قال في هذا السياق : (كان برنامج العلماء دينيا) ، وثقافيا في آن واحد ، فمن الوجهة الدينية أرادوا الرجوع بالاسلام في الجزائر الى نقاوته الأصلية ... ومن الوجهة الثقافية سعوا الى جمع شتات المجموعة الاسلامية بالتقريب بين السنيين والخوارج والعرب والبربر بدون تمييز في الجنس والأصل قصد خلق كتلة واحدة من المسلمين الجزائريين .

وأخيرا فقد حدد الشيخ البشير الابراهيمي[3] أهداف الجمعية في النقطتين التاليتين : (احياء مجد الدين الاسلامي ، واحياء مجد اللغة العربية) ، فأما احياء مجد الدين الاسلامي ، فيتمثل في اقامته كما أمر الله ، أن يقام بتصحيح أركانه الأربعة : العقيدة ، والعبادة ، والمعاملة ، والخلق . وأما احياء مجد اللغة العربية فلكونها لسان هذا الدين ومترجم أسراره ، ولسان القرآن ، ولسان محمد (ص) ، ولسان تاريخ الدين الاسلامي ، ولسان أمة من قبل ومن بعد .

والحق أنه لايمكن حصر أهداف الجمعية في اتجاه واحد ، فقادتها كانوا يتظاهرون بأنها جمعية دينية تهذيب لاغاية لها الا تهذيب المسلمين وتربيتهم تربية إسلامية تتماشى مع المدنية الفرنسية[4] ، ولكن هذا الأسلوب لم يكن الا غطاء رقيقا للأهداف الحقيقية التي كانت في جوهرها سياسية وطنية ، أرادوا ذلك أم لم يريدوا ، وقد اتضح ذلك في مواقف ومناسبات كثيرة ويؤكد هذا الرأي الاضطهادات التي تعرض لها زعماء الجمعية كالزج بهم في السجون والمحاكمات ، ومختلف الاتهامات .

ويمكن تلخيص برنامج العلماء في هدفين رئيسيين أولهما حالي ، والثاني بعيد المدى :

يتمثل الأول في تصفية الاسلام مما علق به من الشوائب ، ومحاربة جمود الزوايا ، واحياء اللغة العربية ، ومعالم التاريخ القومي الاسلامي ، وانشاء المدارس ، والمساجد

(1) أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ج 3 ، ص 91 ،
(2) Op Cit, P. 102.
(3) مجلة الشهاب ، المجلد 5 ، الجزء 6 ، قسنطينة جويلية 1929 .
(4) ابن باديس ، الشهاب ، المجلد 11 الجزء 3 قسنطينة جوان 1935 ، ص 63 .

الحرة ، وفصل الدين عن الحكومة ، وتوعية وتثقيف الشعب الجزائري صغاره وكباره ، وتربية الشباب تربية عربية اسلامية ، ومحاربة الآفات الاجتماعية بكل أنواعها ، والوقوف ضد محاولة مسخ الشخصية الجزائرية ، ومحو معالميها التاريخية ، وتوحيد الشعب الجزائري قاطبة حول هدف واحد بتوحيد الفكرة والاتجاه .

أما الهدف الثاني : فكان استرجاع استقلال الجزائر وتكوين دولة عربية اسلامية ، وقد اتضح ذلك في منسابات متعددة برز فيها قادة الجمعية بتفكير بعيد النظر الى المستقبل ، فابن باديس الذي كان رئيس هذه الجمعية أعلن سنة 1936 – وهو مايزال عضوا في المؤتمر الاسلامي – أن الهدف من وجوده فيه هو ضمان الشخصية الجزائرية ، وأن المطالبة ببرنامج بلوم فيوليت (BLOM Viollet) ، يجب أن لاتتحول الى مشروع يهدر مقومات الشخصية الوطنية[1] . وهكذا فان العلماء كانوا يدركون ويؤكدون بأن النهضة العلمية والدينية في الجزائر لايمكن أن تكون بمعزل عن السياسة ، وفي هذا السياق قال ابن باديس[2] : سنة (1937) : لابد لنا من الجمع بين السياسة والعلم ، ولا ينهض العلم والدين حق النهوض الا اذا نهضت السياسة بجد ..)

ويلاحظ المرء في قول ابن باديس هذا أنه قدم السياسة على العلم ولذلك فمن الخطأ أن نقول بأن العلماء كانوا مصلحين دينيين لاسياسيين ، لأن الدين والعلم لايمكن اصلاحهما في ظل السياسة الاستعمارية التي تحاربهما معا .

دعوة الجمعية :

من المعروف أن الامام عبد الحميد بن باديس قد ربط نشاط الجمعية في دعوتها بالحياة الدينية ، والثقافية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، باعتبار أن الدين الاسلامي هو دين شمولي[3] ، في أسسه ومبادئه ، يتضمن كل جوانب الحياة البشرية ، وعلاقاتها الانسانية .

ولعل في استعراض الأسس والمبادىء التي قامت عليها دعوة الجمعية مايوضح لنا

(1) محمد الميلي : ابن باديس وعروبة الجزائر – الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1973 ، ص 25 .
(2) الشهاب : المجلد 13 ، الجزء 5 قسنطينة 15 جويلية 1937 ، ص 234 .
(3) سيد قطب : العدالة الاجتماعية في الاسلام ، ط 7 ، دار الشروق ، بيروت 1981 ، ص 272 .

التماثل ، والتشابه الموجود بين كل من فلسفة الجمعية ، والنظرية الاسلامية التي تحدد العلاقات بين المسلمين من جهة ، وبينهم وبين غيرهم من جهة أخرى ، ويمكن تتبع هذه الأسس مع شيء من التحليل في الخطوات التالية :

1) الاسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده ، وأرسل به جميع رسله ، وكمله على يد نبيه (محمد الذي لانبي بعده)[1] . ويتضح من هذه الفقرة أن ابن باديس يريد أن يؤكد للناس جميعا قول الله تعالى (ان الدين عند الله الاسلام)[2]

ومعنى ذلك أنه لادين يقبله الله تعالى من أحد سوى الاسلام ، لأنه هو الطريق القويم لتنمية الملكات الانسانية واعدادها خير اعداد لنيل الحياتين الآجلة والعاجلة[3] ، فمن لقى الله بعد بعث محمد صلى الله عليه وسلم بدين على غير شريعة الاسلام فمردود عليه ، وذلك بناء على قوله تعالى (ومن يبتغى غير الاسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين)[4] .

ويرى ابن كثير أن هذه الآية تخبر (بانحصار الدين عند الله في الاسلام) . ان علة الاعتداد بالاسلام تكمن في كونه دينا فطريا سليما خالدا ، ذلك أن بعض الديانات السماوية الأخرى قد امتدت اليها يد التحريف والتغيير ، في حين أن الاسلام ظل يحافظ على شكله ومضمونه ، وفي القرآن مايؤكد أبدية هذه الشريعة ، قال تعالى : (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون)[5] .

وانطلاقا من هذه المعطيات الموجزة ، يريد ابن باديس أن يقول للشعب الجزائري على اختلاف مشاربه ومذاهبه ، أن الاسلام هو مناط الفخر والاعتزاز ، وهو مايجعل المسلمين مطالبين بالتعرف عليه والتمسك به ، وتطبيق أحكامه السمحاء التي تكنهم حتما من التقدم والرقي .

2) (الاسلام هو دين البشرية الذي لاتسعد الا به) ، وذلك للخصائص التالية :

1) (أنه يدعو الى الأخوة الاسلامية بين جميع المسلمين ، ويذكر بالأخوة الانسانية بين البشر أجمعين) .

(1) ينظر النص الكامل لدعوة الجمعية : في الشهاب : المجلد 13 ، الجزء4 قسنطينة 11 جوان 1937 ، ص 176 .
(2) سورة آل عمران ، آية 19 .
(3) محمد الصالح الصديق : مقاصد القرآن ، ط2 ، مطبعة البعث ، قسنطينة ، الجزائر 1983 ، ص 221 .
(4) سورة آل عمران ، آية 85 .

ان هذه الدعوة مؤكدة في النظرية الاسلامية التي دعت الى الأخوة في الدين، وركزت على الأخوة الانسانية ، وذلك أن الانسان مرتبط في حياته بعناصر هذا الوجود ارتباطا متكاملا ، وبالتالي فانه متصل أوثق الاتصال مع البشرية في هذا الكون الفسيح ، وأن العلاقات الاجتماعية متداخلة ومتكاملة بعضها البعض، والاسلام أول النظريات التي أعطت للعلاقات الانسانية مفهوما واضحا ، هذا ماتفهمه من قوله تعالى : (ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذي تساءلون به والارحام، ان الله كان عليكم رقيبا)[1] .

ومن ذلك أيضا قوله تعالى : (ياأيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير)[2] .

هذا وقد حدد الاسلام تكامل المسلمين في الدائرة الاسلامية ، كما حدد حاجة المسلمين للانسانية داخل الاطار الانساني ، والحق أن المسلمين بعد اتحادهم وتضامنهم تحت راية الاسلام ، لم يعودوا في حاجة الى البشر .

2) (يسوي في الكرامة البشرية والحقوق الانسانية بين جميع الأجناس والألوان) ويريد ابن باديس وهو يؤكد هذا المبدأ أن يقف موقف المعلم لشعبه ، ويغمز جانب المستعمر المتعنت الذي يميز بين الاوروبيين واليهود من جهة ، وبين السكان المسلمين من أهالي البلاد من جهة أخرى ، وذلك ليبين بالدليل القاطع للمغرورين والمخدوعين بمباديء الديمقراطية الفرنسية والمدنية الأوروبية عموما أنها لاتمت الى الانسانية بصلة، وأن الأفضل لهم أن يتمسكوا بأصالة عروبتهم ، ومباديء دينهم الذي يغنيهم كلية عن الديمقراطيات الغربية .

ان هذه الدعوة ، وان بدت في ظاهرها بسيطة فانها تحمل في طياتها أسمى المثل والمبادىء ، وتتجلى هذه المثل في قول الرسول ﷺ في حجة الوداع (أيها الناس كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى) وقوله كذلك : (أيها الناس من أخذت له مالا فهذا مالي فليأخذ منه ، ومن ضربته فليقتص مني ، قبل يوم القيامة)[3] .

---

(1) سورة النساء ، آية 1 .

3) (لأنه يفرض العدل فرضا عاما بين جميع الناس بلا أدنى تمييز) . وبهذا يواصل ابن باديس شرح دعوة جمعية العلماء ، مؤكدا صحة قيام العدل الحقيقي في الاسلام ، الضامن لسعادة البشرية .

والحق أن الاسلام ومتى طبق كليا يضمن سيادة العدل في المجتمع ، ولعل في استعراض بعض الروايات مايؤكد قيام العدل في الدولة الاسلامية حقا : من ذلك أن عليا بن أبي طالب كان يجلس في حضرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنهما ، فجاء يهودي يشكو عليا ، فقال عمر - الذي تحول الى قاض - لعلي : (قم ياأبا الحسن وقف الى جانب خصمك) فتغير وجه علي ولما انتهى عمر من قضائه قال لعلي : ياعلي لماذا تغير وجهك حينما طلبت منك أن تقف الى جانب خصمك ؟ فقال علي : ماتغير وجهي لذلك ياأمير المؤمنين ، وانما تغير لأنك لم تسويني وبين خصمي ، فعاد يسأله في عجب : كيف ؟ قال على : لأنك ناديتني بكنيتي فقلت ياأبا الحسن ، والكنية محل التكريم ، وكان عليك أن تناديني باسمي فتقول ياعلي ...) .

وفي رواية أخرى أن ابن عمرو بن العاص ضرب ابن المصري ، وقال له : أتسبقني وأنا ابن الأكرمين ، فشكا المصري الى عمر فكتب هذا الى عمرو بن العاص يطلب منه الحضور ، للنظر في القضية ، ولما تبين له وجه الحق أعطى الأمر لابن المصري قائلا له : اضرب ابن الأكرمين ، فضربه فقال عمر مؤكدا حق الانسان في الحرية : متى استعبدتم الناس وقد لدتهم أمهاتهم أحرارا) .

ان في هذه الآيات . القرآنية والاحاديث النبوية وسلوك السلف الصالح : مايوضح قيام العدل ويفرض بين الناس .

ولقد كان ابن باديس وهو يؤكد هذا المبدأ يقول للمستعمر الذي يبرز احتلاله للآخرين العدل والمساواة أن الاسلام بتعاليمه الخالدة قد سبق هذه الأحداث قرون عديدة وفي نفس الوقت يدعو المسلم الجزائري إلى الرجوع إلى متابع الاسلام الصحيح .

4) (يدعو الى الاحسان العام : ان لهذه الدعوة عمقا فلسفيا في تفسير النصوص الاسلامية . فالظاهرة الغالبة على أسلوب الكتاب والسنة هي الدعوة الى الاحسان ... تحية وينصرف الاحسان الى

ردوها)(1) . ويقول أيضا (ولا تنس نصيبك من الدنيا ، واحسن كما أحسن الله اليك)(2) . وقوله تعالى (ولا تستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن)(3) . ويقول الرسول ﷺ (لو أحسنوا النية لأحسنوا العمل) .

ان في هذه الآيات والأحاديث مايوضح توافق الاحسان العام في الاسلام ، وهو الميزة التي تفتقد اليها الحضارة الغربية .

5) (يحرم الظلم بجميع وجوهه ، وبأقل قليلة من أحد على أي أحد من الناس ،

ان هذا المبدأ مفتقد في السياسة الفرنسية المطبقة على الجزائر ، فظلم الادارة كان واضحا للأهالي وان ادعت مناصرة قضايا الشعوب وحقوق الانسان .

ولقد استهدفت دعوة الجمعية - وهي تعلن تمسكها بالمبدأ الاسلامي المتمثل في تحريم الظلم - الموجهة لفرنسا وللنخبة المتعلقة بأهداف حضارتها ، لفت الأنظار الى كنوز المدنية الاسلامية .

6) (يمجد العقل ويدعو الى بناء الحياة كلها على التفكير ، وبهذا المبدأ تقدم الجمعية دعوة للمشككين لتطمئنهم على الاسلام ، وتبين لهم أنه ليس دينا كهنوتيا ، وفي القرآن الكريم نصوص متعددة تدعو الى التفكير العلمي المنظم القائم على التجربة والملاحظة .

قال تعالى : (قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لايؤمنون)(4) . وقوله تعالى : (ان في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب)(5) . وقوله تعالى : (وفي أنفسكم أفلا تبصرون)(6) .

7) (ينشر دعوته بالحجة والاقناع لابالختل والاكراه .

ان في هذا المبدأ الذي رفعته الجمعية تعريضا صريحا لموقف الاستعمار الفرنسي وطابوره الخامس من المبشرين والطرق الصوفية الفاسدة ، وتعريضا بالمعجبين بهذه المدنية الفرنسية ، فاسلوب التعريض بالاستعمار الفرنسي هنا واضح ، بالطريقة

(1) سورة النساء ،آية 86 .
(2) سورة القصص ، آية 77 .
(3) سورة فصلت ، آية 34 .
(4) سورة يونس ، آية 101 .
(5) سورة آل عمران ، آية 190 .
(6) سورة الذاريات ، آية 21 .

المعكوسة وبضدها تتميز الأشياء ، لو كانوا يعقلون ، والعيب ليس في الاستعمار الفرنسي وما اتبعه من أساليب الختل والاكراه بقصد محو مقومات الشخصية الجزائرية بابعادها عن منابع الدين الاسلامي واللغة العربية ، ولكن العيب كل العيب في أولئك الذين ظلوا حتى سنة 1931 وما يزالون حتى الآن يتغنون بحضارة فرنسا ويتشبثون بأهدابها .

ان مبدأ نشر الدعوة بالحجة والاقناع مبدأ تأكد في الاسلام وفي سيرة الرسول ﷺ ، فالسيرة توضح لنا عدم اجبار الأقاليم المفتوحة على اعتناق الاسلام بالقوة ، بل ان الطوائف غير الاسلامية كانت تتمتع بقدر كبير من الحرية للدخول أو عدم الدخول في الاسلام .

8) يترك . لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاؤون ، وبهذا تكون الجمعية قد حققت وأكدت مبدأ اسلاميا وهي تنص على حرية العقيدة ، ويقول عزوجل : (لااكراه في الدين ، قد تبين الرشد من الغي)(1) فأين فرنسا من هذا المثل الأعلى ، وهي التي ادعت بأنها حامية حمى الحريات ؟.

9)(وفي اطار العدالة الاجتماعية ، وجهت الجمعية أنظار المعجبين ، المتأثرين بأفكار الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي تغلغلت دعايته في هذه الأقطار. الاسلامية ، حيث بين ابن باديس في هذه الدعوة بأسلوب مركز ، أن الاسلام دعا الى لون من العدالة الاجتماعية هي أقرب الى الانسانية من الدعوات المتطرقة الجامحة ، التي تعرقل سير الحضارة الانسانية ، وفقا للسليقة البشرية ، ذلك أن الاسلام يدعو الى (اشراك الفقراء في الأموال) حيث شرع في مجال التنمية الاقتصادية ، وسائل غير الربا ، والاحتكار مثل : القراض ، المزارعة ، والمغارسة ، مما يظهر فيه التعاون العادل بين العمال وأصحاب الأراضي والأموال ، وهذه دعوة الى العدالة الاجتماعية سبقت الدعوات الوضعية بمئات السنين .

10) (وفي مجال التكافل الاجتماعي نجد أن الاسلام (يدعو الى رحمة الضعيف ، فيكفي العاجز ، ويعلم الجاهل ، ويرشد الضال ، ويعين المضطر ، ويغيث الملهوف ، وينصر المظلوم ، ويأخذ على يد الظالم) .

11) (وفي مجال الحرية ، توجه الجمعية لطمة قاسية الى الحضارة الفرنسية حيث

(1) سورة البقرة ، آية 256 .

توضح أن الاسلام (يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه) وقد أوضحنا ذلك فيما سبق.

12) أخيرا فان الاسلام (يجعل الحكم شورى ليس فيه استبداد ، ولو لأعدل الناس والأمثلة على ذلك كثيرة ، فأعدل المستبدين عمر بن الخطاب ، ومع هذا حين وقف يخطب قائلا : (أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ، قال له : أحد المسلمين ، ولا طاعة لك ياعمر حتى توضح من أين جئت بهذا الثوب ، فلما وضح الأمر قال له المسلم : الآن قل ، نسمع ونطيع ياعمر.) .

من خلال ماتقدم يتضح أن الجمعية قد أخذت منذ نشأتها تدعو الناس الى الايمان الصحيح بأن الدين عند الله الاسلام ، وأن محمدا هو آخر الأنبياء والرسل - أي كما قال صلى الله عليه وسلم : (أنا العاقب فلا نبي بعدي) ، وذلك لتطهير العقيدة من الشكوك والشوائب التي علقت بأذهان الناس من جراء الطرقية التي خدرت عقول العامة ، وجعلت شيوخها كواسطة بين العبد وربه ، بل ان بعضهم قد بلغت به الجرأة الى أن يدعي الألوهية حيث قال (فتشت عليك يا الله ، وجدت روحي أنا الله)[1] ، وكذلك الكنيسة المسيحية التي استعملت كل الوسائل لتشويه العقيدة الاسلامية ، ووصف المسيحية بالتسامح والانسانية ، وأنها دين يتماشى مع روح العصر والمدنية الغربية لاحبا في الدين بل لخدمة الاستعمار ، وخير دليل على محاولات الكنيسة لمحو العقيدة الاسلامية من نفوس الجزائريين ماكتبه (الكاردينال لافيجري (CARDINAL LAVIGERIE)[2] ، في أول تقرير له بعث به الى الحكومة الفرنسية في العقد السابع من القرن التاسع عشر والذي قال فيه (ان ادخال الأهالي للديانة المسيحية واجب مقدس ، ينبغي أن نرقي هذا الشعب ولنضرب صفحا على غلطات الماضي ، فأول مايجب علينا معهم هو الحيلولة بينهم ، وبين القرآن بدلا من غلطات الماضي كاحياء مملكة عربية ، ينبغي لنا على الأقل أن نهتم بالصبيان ، فندخل في عقولهم تعاليم جديدة ألا وهي تعاليم الانجيل)[3] .

(1) ينظر : ابن باديس : كلمة صريحة ، الشهاب ، المجلد 2 ، الجزء1 قسنطينة ، أفريل 1936 ، ص 43 .

(2) شارل لافيجري 1825 – 1892م ، رجل دين مسيحي فرنسي ، ولد في بايون ، كان أسقف المدينة نانسي 1863 ، رئيس أساقفة الجزائر العاصمة 1866 ، وكاردينالا سنة 1882 ورئيس أساقفة قرطاج 1884 ، أسس في سنة 1968 مراكز التبشير في افريقيا تسمى بمراكز البيض ، كان يكره العبودية ، وفي 1890 حقق أمنية البابا ليون الثالث عشر الايطالي (1810 – 1903) الذي نادى بوحدة الكاتوليك في فرنسا :

Petit Larousse en Couleurs. Edit. Larousse. Paris 1908, P. P. 1350.1355.

والحق أن هذه المساعي الخطيرة من قبل الفرنسيين للقضاء على الاسلام في الجزائر - وهو المنبع الأساسي الذي يستلهم منه الجزائريون حياتهم وعزتهم في الدنيا والآخرة - تمثل حجر الزاوية في جعل جمعية العلماء تركز في دعوتها على الدين ، لأن خلق مجتمع جديد يقتضي تصفية العقول من رواسب الماضي البغيض وتطهير النفوس من الخرافات الزائفة ، ولكن اشتغال الجمعية في السنوات الأولى من نشأتها بمحاربة البدع والتركيز على الجانب الديني ، قد جعلها محل نقد من السياسيين الوطنيين الذين كانوا يعتقدون في أن أقرب طريق الى الاستقلال هو العمل السياسي ، وهذا الاختلاف في الوسائل كان حاجزا في طريق الاتحاد بين جمعية العلماء ونجم افريقيا الشمالية ، وحزب الشعب الجزائري ، رغم أن الهدف كان واحدا .

واذا كانت الجمعية قد أنطلقت من الدين فان ذلك لم يكن من أجل العبادة والزهد في الحياة فحسب ، ولكن على أساس أن الاسلام يكون احتراما عاليا للانسان المؤمن به ، ويدعو الى تمجيد العقل أيضا ، والعدالة الاجتماعية ومحو الفوارق العنصرية ، كما يدعو الى الثورة على الظلم ، وفي ذلك يقول ابن باديس : (ان الدين الاسلامي يحرم عليكم أن تظلموا يهوديا أو نصرانيا ، أو مسلما ، وأيضا لايرضى لكم أن تقبلوا الظلم من يهودي ولا نصراني ولا مسلم)[1] . وقال أيضا - (أن نهضتنا قد بنينا أركانها على الدين (فكانت سلاما على البشرية لايخشاها - والله - النصراني لنصرانيته ، ولا اليهودي ليهوديته ، بل ولا المجوسي لمجوسيته ، ولكن يجب - والله - أن يخشاها الظالم لظلمه والدجال لدجله والخائن لخيانته)[2] . وينادي بالتآخي بين الناس وترك الحرية في المعتقدات وبناء الحياة على التفكير السليم ، كما يدعوا الى القضاء على الفقر باقامة العدالة الاجتماعية بين الفقراء والأغنياء ، ويحث على التعليم ومحاربة الجهل بكل أشكاله ، والثورة على الاستعباد والاستغلال بشتى أنواعه واقامة الحكم الديمقراطي القائم على أساس الشورى بين الجماعة لا على أساس الحكم الفردي المستبد .

والخلاصة أن دعوة الجمعية قد تضمنت العودة الى منابع الاسلام الصافية المتمثلة في الكتاب والسنة ، وسلوك السلف الصالح ، والثورة على الجمود الفكري ، والبدع ،

(1) عبد الحميد بن باديس : جريدة البصائر ، عدد 94 ، قسنطينة ، 4 فيفري 1938 ، ص 6 .

(2) الشهاب ، المجلد 13 ، الجزء 8 ، قسنطينة ، اكتوبر 1937 ، ص 357 .

والخرافات ، ومحاربة الجهل والظلم والاستغلال ، وازالة كابوس الاستعمار الجاثم على البلاد منذ أكثر من مائة عام ، وهذه الدعوة رغم أنها لم تكن مذهبا فلسفيا ، فهي قد شملت ايديولوجية الجمعية في الميدانين العملي والنظري على حد سواء .

وقد سلكت الجمعية في دعوتها الاصلاحية ثلاثة مناهج تتصل أحيانا بالخاصة وتتعلق تارة أخرى بالعامة ، وتتجه أحيانا الى المعاندين ، وهذه الدعوة كانت اما لاصلاح الاعتقاد أو لاصلاح الأخلاق أو لاصلاح الأعمال .

فهذه المحاور الثلاثة هي أصل طريق السعادة لجميع الأمم ، فالأول يتضمن قسم التوحيد ، وأحوال العالم الآخر ، والثاني يحتوي جانب مكارم الأخلاق وما يتعلق بها من أحوال النفوس ، وأنماط السلوك وملكاتها الفطرية التي تنشأ قابلة للتكيف والتهذيب ، أما المحور الثالث فيشمل النظام العملي التكليفي من عبادات ومعاملات مع الأفراد ، والجماعات البشرية المختلفة ، وعلى هذه الأسس الثلاثة جاء القرآن الكريم .

والمصلح الديني يجب أن يكون على علم تام بهذه الأقسام الثلاثة ، كما أنه يجب أن يكون على وعي تام لكي يميز بين طرق الدعوة الاسلامية ، لأن المنهج المتعلق بدعوة الخاصة يختلف عن الطريق المتصل بدعوة العامة ، وهما يتميزان عن الطريق الخاص بدعوة المعاندين[1] . ويوضح ذلك قوله تعالى : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن)[2] .

وهذه الآية تشير الى طريق الخاصة (بالحكمة) والى طريق العامة (بالموعظة الحسنة) والى طريق المعاندين بقوله (وجادلهم بالتي هي أحسن) .

ومن الجدير بالذكر أن علماء الجزائر كانوا مضطلعين بكل طرق الدعوة الاسلامية الصحيحة لاقناع الناس بالاصلاح القويم ، مستعملين كل الأساليب الكلامية المكنة فمن التركيز على البيان العربي الساحر ، الى التذكير بأمجاد الأمة التليدة ، الى ضرب الأمثلة بأقطاب الجامعة الاسلامية الكبار ، كجمال الدين الأفغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، صاحب مجلة (المنار) الشهيرة ، ومحي الدين بن الخطيب صاحب مجلة (الفتح) وكذلك بالمصلحين والمفكرين الانسانيين في فرنسا ، أمثال (فولتير) و(روسو)[3] ، وغيرهما .

---

(1) محمد الرزقي الشرفاوي الأزهري ، المقالات الاصلاحية ، جريدة البصائر ، عدد 111 ، قسنطينة 20 أفريل 1938 ص 4 .

(2) سورة النحل ، آية 125 .

(3) عبد الحميد بن باديس ، جريدة البصائر ، عدد 97 قسنطينة 28 جانفي 1938 ص 3

والحق أن دعوة الجمعية لم تكن محلية اقليمية ، ولكنها كانت دعوة طبقت الأفاق ،
ن الحدود السياسية والطبيعية لترن في آذان الشرق والغرب ، ففي مقال لأحد
اء الصالحين(1) ، عام 1938 ، يلاحظ المرء دعوة صريحة كتبت بأسلوب عربي ،
ع ، وبكل شجاعة وواقعية ، كشفت بجرأة جشاعة المستعمر وطغيانه ، ووضعية
ب المستعبد المستغل ، معبرة عن الأهداف الانسانية السامية التي تدعوا اليها ،
مل من أجلها جمعية العلماء ومحاولة التعريف بالقضية الجزائرية لشعوب الشرق
غرب ، وهذا بعض ماجاء فيها : «يجب أولا أن نعمل لأنفسنا واثقين بمؤهلاتها ،
نهدين على نضالنا ، ونستعد ثانيا للدعاية لنهضتنا مستكملين العدة لنبعث صوتا
دوى لوقعه أرجاء المعمورة ، وتتفجر له القلوب رأفة وحنوا ، أما ونحن في سبات
يق لانهتم بالدعايات الخارجية ، ولا بالأقلام ، ولا بالصحف ، ولا بالوسائل
خاصة ، ولا نسعى أو نجتهد لنبعث شخصيات من شخصياتنا القديرة للشرق ،
وأخرى للغرب - لالغرض الا - لبث قضيتنا ، وتوضيح هدفنا الأسمى ، واطلاع
الفكر العام بما نحن فيه ، من جور المستعمر ، واغتصاب الحق ، وامتلاك الحرية ،
واغلاق نوافذ كل نور لأفكارنا أو استنارة لعقولنا ، أو تمهيد لثقافتنا ، يضاف الى هذا
وذلك تصوير وتجسيم الجهود المبذولة بسخاء في كل مايخمد الشعور القومي ويميت
الروح الأدبي ،.. تاريخنا ، وديننا ، انسانيتنا ، والقرن العشرون كلها وراءنا تهيب بنا
أن فكروا، وتعلقوا وتبصروا، واجتهدوا لتصنعوا لبنة ذهبية في بناء المدينة الحديثة).

وصفوة القول أن الاصلاح الاسلامي الصحيح لم يظهر فى الجزائر الا بعد الحرب
العالمية الأولى ، وذلك بعد عودة بعض المثقفين الجزائريين من المشرق يحملون
نظريات جديدة ، كونوها لأنفسهم خلال اقامتهم فى الحجاز مهد الاسلام ، ومنبت
الاصلاح الاسلامي الحديث ، والعلماء أنفسهم لم ينكروا استفادتهم من أفكار ، وأعمال
المصلحين المسلمين فى المشرق ، والمتصفح (السجل علماء الجزائر) يجدهم يشيدون باولئك
العلماء ، وآثارهم أمثال : ابن تيمية ، والشوكاني ، وابن القيم الجوزية ، وجمال الدين
الافغاني ، ومحمد عبده ، ورشيد رضا ، ومجلتي العروة الوثقى ، والمنار الشهيرتين .

الا أن هذا لايعني أن علماء الجزائر كانوا ناقلين مقلدين لغيرهم ، بل أنهم كانوا
مفكرين مبدعين استفادوا من اخوانهم المشارقة استفادة الخلف عن السلف ، ولكن

(1) أحمد بن دياب القنطري ، جريدة البصائر عدد 99 ، قسنطينة 11 فيفري 1938 ، ص 5 .

ظروف بلادهم المنحطة التى كانت تعيش فى تمزق لشخصيتها واستعبادا لأبنائها
واستغلال لثرواتها من طرف أمة أجنبية هي التى - أضافت - وبسو
شك - لمصلحي الجزائر منهجا عمليا لنظرياتهم الفكرية من اجل انقاذ شعبهم
المنهارة . ولقد اتبع هؤلاء المصلحون الوسائل الحديثة فى دعوتهم للثورة على الجمود
الفكرى ، والانحطاط الخلقي ، والفساد العقائدى ، مثل الصحافة ، والمدرسة ، وهي
الوسائل التى ميزتهم عن غيرهم من المصلحين الآخرين فى القرون السالفة .

هذا ويمكن اعتبار الاحتفالات الفرنسية بمرور مائة عام على احتلال الجزائر
عاملا هاما فى جمع كلمة العلماء وتوحيد صفوفهم . ذلك أن هذه الاحتفالات قد
صادفت تطور الوعي الوطني ، والشعور بالظلم ، والاستعباد من طرف الاستعمار
لأنه كلما أزداد الشعب وعيا أزداد شعوره بالظلم والحرمان .

ومن هذا المنطلق يمكن اعتبار ميلاد جمعية العلماء بداية للحركة الوطنية
الجزائرية بدليل أنه قبل سنة 1931 لم يكن يوجد فى الجزائر منظمة أعلنت دفاعها
عن الشخصية الوطنية ، بل أن كل ماهنالك هو وجود حركات تدعو الى الفرنسة
والتغريب ، ودمج الجزائر فى الكيان الفرنسي .

ومما يعجب له المرء حقا ، هو كيف استطاع العلماء المصلحون أن يجمعوا شتات
كل فقهاء القطر الجزائرى فى مؤتمر وطني موحد لتأسيس جمعية العلماء وأن يخلقوا جوا
أخويا انصهرت فيه كل الاتجاهات التقليدية والمجددة على السواء ، رغم الحملة التى شنها
هؤلاء العلماء على جمود أولئك الفقهاء ومع ذلك فقد تمكنوا من اجتذابهم ، وكسب
أصواتهم ، كما استطاعوا بذكائهم وتكتيكهم الخاص أن يقنعوا الادارة الاستعمارية
بضرورة انشاء هذه الجمعية رغم المعلومات التى كانت تمتلكها هذه الأخيرة عنهم منذ
سنة 1925 والتى كانت تحذرها من خطر دعوتهم الوحدوية ، كما أن صياغة القانون
الأساسى للجمعية بطريقة حكيمة - حجر عليها الانغماس فى المسائل السياسية - يعتبر
حجر الزاوية فى نجاح العلماء ، وموافقة السلطات الفرنسية على انشاء الجمعية أما
بخصوص أهداف الجمعية فيتضح مما سبق أنها شملت كل الجوانب الدينية والوطنية بما
فى ذلك احياء وبعث جميع مقومات الشخصية الجزائرية وتكوين الانسان الجزائري
تكوينا عربيا اسلاميا تهيئة استعداد للثورة على المستعمر ، واستلام السلطة ، وقيادة
الشعب ، وتكوين الدولة العربية الاسلامية التى تجمع بين الآصالة والتفتح .

أما دعوتهم الاصلاحية ، فقد اقاموها على قواعد ...

... الاجتماع مع كل الطبقات الاجتماعية وفقا لمستوياتها الثقافية ، ومكانتها الاجتماعية
مستخدمين فى ذلك المنهج الاسلامي القويم الذى يتيح للفرد حرية التفكير
والاختيار ، وبذلك نجحوا فيما لم ينجح فيه غيرهم من الحركات الدينية والسياسية
الأخرى .

ولعل السؤال الذى يطرح نفسه باستمرار هو هل أن جمعية العلماء كانت جمعية
دينية فحسب أم أنها كانت سياسية ؟

ان معظم الكتاب يتفقون على أنها قد ولدت كجمعية دينية لاسياسية ، ولكن
اضطهاد قادتها ومؤسساتها بالاجراءات الاضطهادية من قبل الادارة الاستعمارية هو
الذى جعلها تخوض غمار السياسة رغم أنفها[1] .

حقا أن المتصفح لقانونها الأساسي لايلاحظ شيئا من السياسة ، ولكن الدارس
الأول وأعمال اعضائها وقادتها يجد ماهو أبعد من السياسة ، وهو التغيير الجذرى لكل
مقومات الحياة فى ذلك الوقت ، بل أن قولهم : (احتفلوا بعيدهم الأول أي الفرنسيون
ولكنهم لن يحتفلوا بعيدهم الثاني) كان ينطوى على أهداف سياسية خالصة ، بل أنه
كان يمثل برنامجهم المستقبلي . ومن هنا يجب أن لاتغيب عن أذهان كل من يتصدى
بالبحث والتنقيب عن آثار العلماء هذه الحقيقة المستقرة فى تراثهم الحي اليوم وغد ،
واخراج الطرقيين من الجمعية ومحاربتهم ، وبث الدعاة فى كل انحاء الوطن وانشاء
الفروع ، وتأسيس المدارس ، واصدار الصحف ، وبناء المساجد كل ذلك كان يهدف
الى احياء الشخصية الوطنية ، وتنمية الفكر العربي الاسلامي فى البلاد ، وبالتالي فهو
عمل سياسي لاريب فيه ، لأنه لايمكن فصل السياسة عن باقي مقومات الحياة الأخرى
وابن باديس نفسه كان يؤكد باستمرار على ارتباط السياسة بالدين ، والمجتمع ،
والاقتصاد[2] ولذلك فان الرأي العام الفرنسي ، والادارة الاستعمارية كانا يعتبران
العلماء الأعداء الحقيقيين لفرنسا ، لأن تعلقهم بالثقافة العربية الاسلامية كان يعطي
لحركتهم بعدا واسع النطاق يتجاوز الحدود الاقليمية[3] ليشمل القومية العربية بصفة
عامة .

---

(1) MAHFOUD KADDACHE: Histoire du Nationalisme Algérien, Tome 1. S.N.E.D Alger. 1980, P. 332.

(2) الشهاب ، م 13 ، ج 5 ، قسنطينة 10 جويلية 1937 ، ص 234 .

الفصل الثالث

تطور الجمعية وجهودها الوطنية في مجالي الوحدة والتعليم

تقف جمعية العلماء المسلمين الجزائريين إبان النصف الأول من القرن العشرين في طليعة الجمعيات الدينية السياسية التي عرفها الوطن العربي خلال الحقبة المذكورة وذلك نظرا لجهودها المتعددة وأعمالها الحضارية البارزة التي قامت بها على الصعيد الوطني من جهة وعلى المستوى المغاربي والعربي من جهة أخرى والمتصفح لقوانين وصحافة هذه الجمعية ورسائل رجالها ولتقارير السلط الفرنسية في الجزائر ، يجد - وبدون عناء فكري - المشروعات الثقافية والدينية والاجتماعية والسياسية التي وضعتها هذه الجمعية على مدى ربع قرن ، بعضها تم انجازه وبعضها شرع في تطبيقه .

في حين بقية البعض الآخر تصور للمستقبل القريب والبعيد إلى أن وضعت الثورة التحريرية جزء منه في محتواه التاريخي كقوة حضارية دفعت الشعب الجزائري الى الكفاح وبالأحرى إلى الجهاد في سبيل البقاء والحرية ولا يزال الجزء من هذا التصور الحضاري بصدد التطبيق في الجزائر المستقلة من جهة . وفي إطار المغرب العربي الكبير من جهة أخرى .

ولسنا نبالغ إذا قلنا أن بعض البلدان المستقلة في العالم الثالث الآن لم تصل إلى انجاز بعض المشروعات الثقافية والدينية والوحدوية التي وصلت إليها جمعية العلماء الجزائريين في ذلك الوقت ، وقد صدق من قال : إن جمعية العلماء كانت «دولة داخل دولة» وهذا القول لم يأت اعتباطا أو جزافا ، بل هو حقيقة واقعة ، نتيجة للمعطيات التالية :

1 – إحياؤها للدين الاسلامي وتطهيره من الشوائب التي علقت به خلال القرون الأخيرة .

2 – عملها على بعث وتطوير الثقافة العربية الإسلامية وفي مقدمتها اللغة العربية التي أوشكت على الأندثار في الجزائر .

3 – جهودها في توحيد الأغلبية الساحقة من الشعب الجزائري تحت راية الاسلام والعروبة .

4 – عملها على نشر الوعي السياسي والوطني ، بين الأجيال التي رفعت راية الكفاح المسلح سنة 1954 .

5 – سعيها لإعادة ربط الجزائر بالأمة العربية والإسلامية من مغربها إلى مشرقها.

6 – جهودها في مجالي الدعوة والعمل على وحدة المغرب العربي في كفاحه ضد المستعمر المشترك على اعتبار أن هذه الشعوب هي شعب واحد ، لم تفرق بينه إلا سياسة الاستعمار الاجنبي .

7 – تعاطفها ماديا ومعنويا مع الشعوب العربية الاسلامية في كفاحها ضد الامبريالية والصهيونية العالمية ولا سيا مع قضية الشعب الفلسطيني .

وهذه المنجزات الحضارية كلها ، كانت تنفذ بواسطة المؤسسات المختلفة التي أنشأها العلماء ، في كل أنحاء القطر الجزائري ، بل وحتى في فرنسا نفسها ، رغم سيف الرقابة المسلط على رؤوسهم – مثل : المدارس والمساجد والكتاتيب القرآنية والصحافة والنوادي والفروع (الشعب) ... الخ من الوسائل والمؤسسات التي أنشأها العلماء بأموال الشعب لتبليغ رسالتهم إلى الأمة داخل الوطن وخارجه .

وإذا كانت جمعية العلماء قد انشئت تحت شعار إحياء الدين الاسلامي وبعث الثقافة العربية والتاريخ الوطني ، فإن هذه المبادىء كانت في حد ذاتها مقومات أساسية في الشخصية الوطنية ، ذلك أن العلماء قد عملوا منذ البداية على توحيد كل المسلمين الجزائريين ، بالتقريب بين المالكيين والإباضيين والبربر ، بدون تميز (في الجنس أو الاصل) والمذهب) بهدف خلق كتلة واحدة تضم جميع السكان الوطنيين وقد اهتموا أولا وقبل كل شيء بالناحية التربوية ، فعملوا على نشر تعليم عربي متين «مستوحى من مبادىء الوحدة العربية الإسلامية»[1] .

---

(1) ينظر : شارل أندري جوليان ، افريقيا الشمالية تسير ، تعريب المخي سليم وآخرون ، ط 3 ، الدار التونسية للنشر 1976 ، ص 136 .

نشأة النزعة البربرية وموقف العلماء منها :

لقد شرع الفرنسيون منذ أن بسطوا نفوذهم على الوطن الجزائري ينتهجون «سياسة فرق تسد» فعملوا على التميزيين السكان المسلمين بخلق الجهوية والعنصرية والعصبية القبلية والصراعات المذهبية : واعتبروا القبائل «أكثر قابلية للاندماج» وكانوا يرون أن إسلامهم سطحي ، وهم أعداء فطريون للعرب» .

والنزعة الإقليمية لدى القبائل والتي خلقتها وغذتها وضخمتها كتابات الحرب الكلامية ، لم تلبث أن نشأت عنها أسطورة قبلية حقيقية .

ولقد اعتبر الفرنسيون شعب القبائل منحدرا من الغاليين (Goulois) والرومان والبربر المسيحيين من العهد الروماني ، وحتى من الوندال ولهذا فإن الفرنسيين علقوا أمالا عريضة على «أن يعيدوا إليهم إيمانهم المسيحي» كما يدعون ، وهذا مايفسر ماقام به الكردينال لفيجري (Lavigerie) من 1863 إلى 1870[1] .

وقد كتب فيكتور بيكة في مؤلفه المسمى (مراكش) (Le Maroc Par Victor Piquet) قائلا : «إن البربر كان منهم مجوس ووثنيون ويهود ، وفي صدر النصرانية قبلوا الدين المسيحي ، لكنهم نسوا عندما تمكنوا من الاستقلال ، ثم دانوا بالإسلام ، الذي ببساطة قواعده يستميل العقل ويرسخ في جميع الأمم التي تدين به وأن البربر أسلموا إسلاما لايزال مشوبا بأحوال وأوضاع خاصة بهم»[2] ثم قال مستشهدا بباحث آخر : ان العالم المختص في أمور البربر المسيو دوتي (Douté) الذي جال بين قبائل البربر نوه بالسجايا الحسنة لهذا الشعب البربري وقال : «ان به مناط الآمال في افريقيا ، إنه شعب يظهر عليه الميل من نفسه إلى المدنية الفرنسية وأن يتكلموا بالفرنسية قبل وصول الثقافة العربية واللسان العربي إليهم ، وعلى هذا النحو يتحقق بلا ريب أكثر مما هو مظنون خيالنا العظيم بمراكش فرنسية ..... وفي النية تأسيس مكاتب فرنسية بربرية في الجهات التي لم تستعرب من بلاد البربر وهذا تصور حسن جدا ...

فإذا كانت بلاد القبائل من الجزائر ليس فيها إلا بعض أقوام من البربر فإن قسما عظيما من أهل المغرب الأقصى لايعرفون العربية ، أو يتكلمون اللغتين البربرية

---

(1) ينظر : شارل رويبد أجيرون ، تاريخ الجزائر المعاصرة ، ترجمة عيسى عصفور ط 2 ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر سنة 1982 ، ص 108 .

(2) الامير شكيب إرسلان ، حاضر العالم الاسلامي ، ج2 . ط 4 دار الفكر : بيروت سنة 1973 ص ص

والعربية ، وليس لنا أدنى مصلحة أن تنتشر بينهم اللغة العربية لغة الجامعة الإسلامية بل بالعكس ...»[1] والحق أن هذه المحاولة الرامية إلى تمزيق هذا الشعب الواحد ، قد شملت كل أقطار المغرب العربي ، حيث تم تأليف مئات الكتب بالأمازيغية على اختلاف لهجاتها . وانشئت معاهد وجمعيات وصحف لهذا الغرض .

وفي 1927 ألقى المستشرق الفرنسي ماسينيون نفسه (Louis Massignon) محاضرة بكليج دي فرانس تحت عنوان (الوحدة البربرية) وقد اكتست هذه المحاولات من قبل الفرنسيين طابعا علميا في ظاهرها ، ففي تونس على سبيل المثال قام طبيبان بتأليف كتاب ضخم في مقاييس جماجم البربر وأوصافهم وسماتهم العضوية والعرقية ، مع مقارنة بصمات ومقاييس جماجم الغاليين (Goulois) وقد فرض الاستعمار على أبناء المسلمين الجزائريين في المدارس الفرنسية أن ينشدوا «كان أجدادنا من الغاليين ، وكانت بلادنا في القديم تسمى غليا» (La Gaule) وأن يتشرفوا بالانتساب إليهم[2] .

وفرضوا على منطقة القبائل أن تتخلى عن القضاة المسلمين ، وعن العمل بقوانين الشريعة الإسلامية ، وأن تعمل بالقوانين الفرنسية وبالأعراف المحلية وأغلقوا المدارس القرآنية وفرضوا التعليم الاجباري في المدارس الفرنسية[3] . ومع هذا كله ورغم بعض المحاولات الغريبة في الاسراع بنشر الفرنسة بين سكان المنطقة ، فقد انصرفوا بوجه خاص إلى الدفاع عن قوانين القبائل ضد الشريعة الاسلامية وتشجيع استعمال اللهجات القبائلية .

وفي سنة 1898 أعطي للقبائل تمثيل خاص في المجالس المالية بهدف التفريق بين الشعب الجزائري ، بدعوى هذا بربري وهذا عربي[4] .

وعشية الحرب العالمية الأولى دعا أحد الكتاب الفرنسيين إلى تشجيع النزعة البربرية ، لمنع الجزائريين من التأثر بفكرة «الجامعة الاسلامية» (الوحدة الإسلامية)[5] ، التي كانت قد انتشرت في الشرق العربي تحت دعوة المصلحين المعاصرين يومئذ .

---

(1) شكيب إرسلان : المرجع السابق ص 180 – 181 .
(2) عمار الطالبي ابن باديس حياته وآثاره ، ج ، ط 1 ، دار اليقظة العربية بيروت ، 1968 م ص .ص 50 – 51 .
(3) شارل روبير اجيرون ، المرجع السابق ، ص 108 .
(4) نفس المكان
(5) أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، 1900 – 1930 ج2 ، بيروت 1969 م ص 139 .

المعروف تاريخيا ، أن الامازيغ قد فتحوا صدورهم ، وعقولهم للدين الاسلامي وحضارته المحررة منذ أن استقر المسلمون الفاتحون في الشمال الإفريقي ، خلال القرن الأول الهجري السابع الميلادي وأصبح الأمازيغ يفتخرون بانتمائهم للأمة العربية اليوم والدين الاسلامي[1] .

ولكن الفرنسيين حاولوا فصل المناطق التي يقطنها هؤلاء الامازيغ عن بقية أجزاء الوطن الاخرى ، ومنعوا تدريس الثقافة العربية الاسلامية لأبناء القبائل وعوضوها بتعليم الثقافة الفرنسية . كما أسلفنا ، بهدف فرنستهم وتجنيسهم والقضاء على شخصيتهم العربية الاسلامية[2] ورغم هذه الجهود التي بذلت لإحلال المسيحية والفرنسية والأمازيغية محل الإسلام واللغة العربية في الجزائر عموما في منطقة القبائل على وجه الخصوص فإن فرنسا لم تحقق كل ماكانت تصبوا إليه وانتهت كل مخططاتها في هذا المجال ، عند تكوين مجموعة ظئيلة ، آمنت «بخرافة الكيان البربري» وانخدعت بما كان يمنيهم به الفرنسيون من تقدم ورقي إذا هم تخلوا عن مقومات شخصيتهم الوطنية كسلمين ، ومن ثم فقد بدأ بعض المثقفين من القبائل يتحدثون عن تاريخ منطقتهم بطابع خاص بهم .

وفي سنة 1925 كتب (السعيد بوليفة) كتابا تحت عنوان «جرجرة عبر التاريخ» .

وقام بعض المعلمين المتفرنسين من جهتهم بحملة سياسية اندماجية .

وكان لجرائدهم الناطقة بالفرنسية دور واضح ، في نشر هذه الدعاية بين سكان المنطقة ، كجريدة «صوت المتواضعين» (La Voie des Humbles) للمعلم الفاسي ، وجريدة «صوت الاهلي» (La voie Indiginis) للمعلم الزناتي :

كما قام واكلي رئيس جمعية المواطنين الفرنسيين بعمالة الجزائر بدعاية لصالح تجنيس القبائل .

وقد كان للإتحاد الكاتوليكي الأهلي نشرية يديرها (جياكوبيتي (Giacobitti)) بينما كان جوزيف زنتار ، وهو جزائري من القبائل أيضا ، يدير نشرية أخرى تسمى «المطرنن» أي (المتجنس) .

كما أصدروا مجلة أدبية باللهجة البربرية وبما أن البربرية ليس لها حروف ، فقد

---

(1) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ، ص 34 .
(2) رابح تركي : التعليم القومي والشخصية الوطنية 1931 ، ص 190 . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر سنة 1975 ، ص 190 .

والعربية ، وليس لنا أدنى مصلحة أن تنتشر بينهم اللغة العربية لغة الجامعة الإسلامية بل بالعكس ...»(1) والحق أن هذه المحاولة الرامية إلى تمزيق هذا الشعب الواحد ، قد شملت كل أقطار المغرب العربي ، حيث تم تأليف مئات الكتب بالأمازيغية على اختلاف لهجاتها . وانشئت معاهد وجمعيات وصحف لهذا الغرض .

وفي 1927 ألقى المستشرق الفرنسي ماسينيون نفسه (Louis Massignon) محاضرة بكليج دي فرانس تحت عنوان (الوحدة البربرية) وقد اكتست هذه المحاولات من قبل الفرنسيين طابعا علميا في ظاهرها ، ففي تونس على سبيل المثال قام طبيبان بتأليف كتاب ضخم في مقاييس جماجم البربر وأوصافهم وسماتهم العضوية والعرقية ، مع مقارنة بصمات ومقاييس جماجم الغاليين (Goulois) وقد فرض الاستعمار على أبناء المسلمين الجزائريين في المدارس الفرنسية أن ينشدوا «كان أجدادنا من الغاليين ، وكانت بلادنا في القديم تسمى غليا» (La Gaule) وأن يتشرفوا بالانتساب إليهم(2) .

وفرضوا على منطقة القبائل أن تتخلى عن القضاة المسلمين ، وعن العمل بقوانين الشريعة الإسلامية ، وأن تعمل بالقوانين الفرنسية وبالأعراف المحلية وأغلقوا المدارس القرآنية وفرضوا التعليم الاجباري في المدارس الفرنسية(3) . ومع هذا كله ورغم بعض المحاولات الغريبة في الاسراع بنشر الفرنسة بين سكان المنطقة ، فقد انصرفوا بوجه خاص إلى الدفاع عن قوانين القبائل ضد الشريعة الاسلامية وتشجيع استعمال اللهجات القبائلية .

وفي سنة 1898 أعطي للقبائل تمثيل خاص في المجالس المالية بهدف التفريق بين الشعب الجزائري ، بدعوى هذا بربري وهذا عربي(4) .

وعشية الحرب العالمية الأولى دعا أحد الكتاب الفرنسيين إلى تشجيع النزعة البربرية ، لمنع الجزائريين من التأثر بفكرة «الجامعة الاسلامية» (الوحدة الإسلامية)(5) ، التي كانت قد انتشرت في الشرق العربي تحت دعوة المصلحين المعاصرين يومئذ .

---

(1) شكيب إرسلان : المرجع السابق ص 180 – 181 .

(2) عمار الطالبي ابن باديس حياته وآثاره ، ج ، ط 1 ، دار اليقظة العربية بيروت ، 1968 م ص.ص 50 – 51 .

(3) شارل روبير اجيرون ، المرجع السابق ، ص 108 .

(4) نفس المكان

(5) أبو القاسم سعد الله : الحركة الوطنية الجزائرية ، 1900 – 1930 ج2 ، بيروت 1969 م ص 139 .

والمعروف تاريخيا ، أن الامازيغ قد فتحوا صدورهم ، وعقولهم للدين الاسلامي وحضارته المحررة منذ أن استقر المسلمون الفاتحون في الشمال الإفريقي ، خلال القرن الأول الهجري السابع الميلادي وأصبح الأمازيغ يفتخرون بانتمائهم للأمة العربية اليوم والدين الاسلامي(1) .

ولكن الفرنسيين حاولوا فصل المناطق التي يقطنها هؤلاء الامازيغ عن بقية أجزاء الوطن الاخرى ، ومنعوا تدريس الثقافة العربية الاسلامية لأبناء القبائل وعوضوها بتعليم الثقافة الفرنسية . كما أسلفنا ، بهدف فرنستهم وتجنيسهم والقضاء على شخصيتهم العربية الاسلامية(2) ورغم هذه الجهود التي بذلت لإحلال المسيحية والفرنسية والأمازيغية محل الإسلام واللغة العربية في الجزائر عموما في منطقة القبائل على وجه الخصوص فإن فرنسا لم تحقق كل ماكانت تصبوا إليه وانتهت كل مخططاتها في هذا المجال ، عند تكوين مجموعة ظئيلة ، آمنت «بخرافة الكيان البربري» وانخدعت بما كان يمنيهم به الفرنسيون من تقدم ورقي إذا هم تخلوا عن مقومات شخصيتهم الوطنية كمسلمين ، ومن ثم فقد بدأ بعض المثقفين من القبائل يتحدثون عن تاريخ منطقتهم بطابع خاص بهم .

وفي سنة 1925 كتب (السعيد بوليفة) كتابا تحت عنوان «جرجرة عبر التاريخ» .

وقام بعض المعلمين المتفرنسين من جهتهم بحملة سياسية اندماجية .

وكان لجرائدهم الناطقة بالفرنسية دور واضح ، في نشر هذه الدعاية بين سكان المنطقة ، كجريدة «صوت المتواضعين» (La Voie des Humbles) للمعلم الفاسي ، وجريدة «صوت الاهلي» (La voie Indiginis) للمعلم الزناتي :

كما قام واكلي رئيس جمعية المواطنين الفرنسيين بعمالة الجزائر بدعاية لصالح تجنيس القبائل .

وقد كان للإتحاد الكاتوليكي الأهلي نشرية يديرها (جياكوبيتي (Giacobitti)) بينما كان جوزيف زنتار ، وهو جزائري من القبائل أيضا ، يدير نشرية أخرى تسمى «المطرنن» أي (المتجنس) .

كما أصدروا مجلة أدبية باللهجة البربرية وبما أن البربرية ليس لها حروف ، فقد

---

(1) شارل أندري جوليان : المرجع السابق ، ص 34 .

(2) رابح تركي : التعليم القومي والشخصية الوطنية 1931 ، ص 190 . الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر سنة 1975 ، ص 190 .

أعاروها حروفا لاتنية[1] . وبدون شك فإن هذه المطبوعات قد لعبت دورا بارزا في تشجيع الحركة البربرية ، وسياسة التنصير والتجنيس بالجنسية الفرنسية وفي سنة 1931 نشر (حسين لحمك) المدعو (حسناني لحمك «وهو قبائلي» كتابا تحت عنوان «رسائل جزائرية» كان عبارة عن بيان بربري مجد فيه الشعب البربري ، الذي أنجب يوغرطه وماسنيسا – والقديس أوغيستان وقال بأنه هو نفسه أقرب إلى أوغيستان من سيدي عقبة وقد تأسف على أن الإسلام قد فرض على (وطنه) . «أن مستقبل فرنسا في الجزائر يتجسد في البربر»[2] .

مما سبق يتضح أن الاستعمار الفرنسي قد ركز جهوده على منطقة القبائل بوجه خاص ، محاولا التشكيك في أصل سكان هذا الإقليم من الوطن ، بإدخال تحريفات ومغالطات على تاريخهم وانتمائهم للأمة العربية الإسلامية ، بهدف خلق أقليات قومية وطوائف دينية في البلاد ، حتى يسهل عليه ابتلاعها ودمجها نهائيا في الوطن الفرنسي . ولذلك فإن أغلبية الجزائريين الذين تنصروا على أيدي الآباء البيض ، كانوا من القبائل .

ومع هذا كله يمكن القول أن فرنسا قد فشلت فشلا ذريعا في تنفيذ مخططها التجزيئي في ذلك الوقت لأن الشعب الجزائري كان محصنا بدينه ولغته وقيمه الحضارية التليدة .

ومن هنا نلاحظ أن السياسة الإستعمارية في الجزائر قد تعرضت إلى انتقادات شديدة من قبل مؤرخي وكتاب فرنسا نفسها بسبب هذا الفشل .

إلا أن الاستعمار لم يكن غبيا إلى هذه الدرجة ، فقد غرس قبل خروجه من البلاد بذور الفتنة والأنقسام وجعل عليها من يحضيها وينميها في الخفاء تارة وفي العلانية تارة أخرى ، ترعاها وتباركها الأم الحنون من وراء البحر .

وما هذه الأصوات الناعقة والأبواق المروجة للأمازيغية والفرنكو فونية اليوم ، الا نتاج لتلك البذور القديمة المتجددة ولكننا لانعتقد أن الذين يرفعون اليوم شعار هذه الأطروحات الهدامة وطنيون أصلاء ، لأن الماضي أثبت أن الشعب الجزائري منذ

(1) عثمان سعدي ، الاصول العربية للبربر ، آفاق عربية عدد 19 السنة 3 ، بغداد ، 1980 ، ص 8 .

(2) C.R Ageron, Histoire de L'Algérie Contemporaine (1871-1954) Tome 22 1er Edition, Paris, 1979, P. 339.

فجر التاريخ إلى يوم الناس هذا لم يستكن لعدو أجنبي ولا قبل الأنسلاخ عن شخصيته رغم ماتوالت عليه نكبات ومحن من قبل الأمم المدمرة .

وبعد هذه اللمحة التاريخية الموجزة عن الجهود الفرنسية التي بذلت جهدها بسخاء لطمس الكيان الجزائري أو تقسيمه ، نرى الآن كيف كان موقف العلماء من هذه المحاولات ولا سيا من تدهور الاسلام والثقافة العربية في منطقة القبائل .

ردود فعل الجمعية على فكرة الحركة البربرية :

لقد وقف العلماء من سياسة التجزئة الوطنية التي انتهجها الاستعمار خلال مائة عام موقفا ثابتا لم يتزعزع طيلة ثلث قرن وقد أكدوا على أن الأمازيغ والعرب قد انحدروا من أصل واحد . وأن الإسلام قد مزج بينهما في بوتقة واحدة خلال بضعة عشر قرنا ، فهم شعب واحد يشترك في الدين واللغة والتاريخ والشاعر والأحاسيس والآلام والآمال لايمكن فصمه عن بعضه البعض ، وفي ذلك يقول الامام عبد الحميد بن باديس[1] في مقال له سنة 1938 تحت عنوان «كيف صارت الجزائر عربية» : «مامن نكران الأمة الجزائرية (الشعب الجزائري) كانت امازيغية من قديم عهدها – وأن أي أمة من الامم التي اتصلت بها استطاعت أن تقلبها عن كيانها ولا أن تخرج بها عن أمازيغيتها أو تدمجها في عنصرها ، بل كانت هي تبتلع الفاتحين ، فينقلبون إليها ويصبحون كسائر أبنائها ، فلما جاء العرب وفتحوا الجزائر فتحا إسلاميا لنشر الهداية ... وإقامة العدل الحقيقي بين جميع الناس لافرق بين العرب الفاتحين والأمازيغ أبناء الوطن الأصليين . دخل الأمازيغ . في الاسلام وتعلموا لغة الاسلام العربية طائعين ، ووجدوا أبواب التقدم في الحياة كلها مفتوحة في وجوههم ، فامتزجوا بالعرب بالمصاهرة ونافسوهم في مجالس العلم والأدب وشاطروهم سياسة الملك وقيادة الجيوش .

وقاسموهم كل مرافق الحياة ، فأقام الجميع صرح الحضارة الإسلامية ، يعربون عنها وينشرون لواءها بلغة واحدة هي اللغة العربية الخالدة ، فاتحدوا في العقيدة والنحلة . كما اتحدوا في الأدب واللغة فاصبحو شعبا واحدا عربيا متحدا غاية الاتحاد ، ممتزجا غاية الامتزاج ، وأي افتراق يبقى بعد أن اتحد الفؤاد واتحد اللسان ،؟»

(1) مجلة الشهاب ، م 13 ج 12 ، قسنطينة ، فيفري 1938 ص ص 510 ، 511 .

وفي مقال آخر تحت عنوان «ماجمعته يد الله لاتفرقه يد الشيطان» سنة 1939
أوضح ابن باديس[1] .

التحام الشعب العربي والأمازيغي في الجزائر ، تحت راية واحدة هي راية الاسلام فقال : «إن ابناء يعرب وأبناء مازيغ ، قد جمع بينهم الاسلام منذ بضعة عشر قرنا ، ثم دأبت تلك القرون تمزج مابينهم في الشدة والرخاء وتؤلف بينهم في العسر واليسر وتوحدهم في السراء والضراء حتى كونت منهم خلال أحقاب بعيدة ، عنصرا مسلما جزائريا أمه الجزائر وأبوه الاسلام .

ومن هذين النصين ، يتضح أن ابن باديس قد حكم مسبقا بفشل هذه المحاولة الاستعمارية التجزئية للشعب الجزائري مؤكدا تلاحم الوحدة الوطنية ، لكي يغلق الباب أمام الاستعمار والمعجبين بحضارته موضحا بأن الشعب الجزائري الذي صهرته المحن والتجارب وجمعته وحدة الهدف والمصير في بوتقة تاريخية واحدة لايمكن أن تمزقه اليد الاجنبية التي وصفها (بيد الشيطان . ولقد كان ابن باديس خلال الجولات التي قام بها في كل أنحاء الوطن لنشر الوعي والتعريف بمبادىء الجمعية وأهدافها ، يحث الناس عن الوحدة والتضامن والمحبة والتآخي والتعاون بين جميع سكان القطر ، داعيا أياهم إلى نبذ كل تفرقة عنصرية أو مذهبية[2] . حيث كان ابن باديس يقود وفودا إلى كل جهات البلاد بما في ذلك منطقة القبائل ، كلما دعت الضرورة إلى ذلك .

وكان يرافقه بعض العلماء في ذلك مثل حمزة بوكوشة[3] . قبل أن يصبح معتمد الجمعية في باريس وهو لايزال على قيد الحياة . وخلال هذه الزيارات كان العلماء يعملون على نشر الوعي الديني والوطني وهم في سباق مع الارساليات التبشيرية . وفي سنة 1939 صرح الاستاذ أحمد توفيق المدني محذرا من الخطر الذي يهدد العربية والإسلام في القبائل داعيا إلى العمل من أجل انقاذ الوضع قبل تفاقه كما ندد بأعمال الآباء البيض الذين يعملون على تنصير المسلمين واخراجهم من الحضيرة العربية والدين الإسلامي[4] . وقد أعلن أحد العلماء وهو (الشيخ العربي التبسي) ذات مرة قائلا :

(1) مجلة الشهاب م 11 ، ج 11 ، قسنطينة ، فيفري 1939 ، ص ص 605 .
(2) Mahfoud KADDACHE, Histoire du Nationalisme Algerien question Nationale et Politique Algerienne 1919-1951 Tome I, SNED, Alger, 1980, P. 333.
(3) محمد الصالح رمضان أحد تلامذة ابن باديس وعضو جمعية العلماء ندوة اذاعية في يوم 28 ماي 1989 .
(4) C.R. Ageron, Op Cit, P. 340. IBID P. 580-518. Loc Cit.

ان الجزائر العربية المسلمة الحرة ستكون مفتوحة للجميع اذا كانت لنا حكومة اسلامية ولن يعود هناك تفرقة في الدين أو الجنس[1] .

وقد استنكر العلماء بشدة فكرة الاستعمار العربي التي حاول الفرنسيون ترسيخها في أذهان الناس وهي : – أن العرب كانوا قد استعمروا هذه البلاد – وأكدوا على أن الفتح العربي لم يكن إلا بهدف التبشير بالدين الاسلامي ومدنيته الراقية .

كما أدانوا المحاولات الاستعمارية الرامية إلى إضعاف اللغة العربية بواسطة استعمال اللهجات البربرية على أمواج الأثير كإنشاء قناة إذاعية خاصة باللهجة القبائلية في الإذاعة الجزائرية .

وقالو : «أن البربرية هي مذهب رجعي انقسامي امبريالي» وقد كتب عمار أوزقان وهو من القبائل ولم يكن من جمعية العلماء . في هذا الصدد قائلا : «ان البربرية هي أداة للسيطرة الاستعمارية»[2] .

ويلتقي العلماء مع حزب الشعب في القول بأن العناصر البربرية المضادة للحركة الوطنية لم تكن إلا عونا للإستعمار .

إن العلماء حاربوا السياسة البربرية بكل الوسائل الممكنة عن طريق المؤلفات والصحافة والدعاية المختلفة الاشكال وقد بين الأستاذ أحمد توفيق المدني في مؤلفه (كتاب الجزائر)[3] أصول العرب والبربر وأكد على أنهم ينحدرون من سلالة واحدة وهاجم المؤرخين الاوروبيين الذين يحاولون ترسيخ معلومات خاطئة عن البربر قصد تحويلهم عن أصلهم الأسيوي . ومن هنا فقد كان لحملات العلماء نتائج ايجابية ، حتى أصبح الأمازيغ لاينكرون إنتمائهم (للرسول ﷺ) ومجيئهم ضمن الهجرات العربية إلى هذه الاصقاع[4] .

ويكفينا دليلا على استجابة أبناء القبائل لدعوة العلماء ، هو أن كثيرا من تلامذة ابن باديس النجباء كانوا من تلك المنطقة أمثال الشيخ «الفضيل الورتلاني» الداعية والمجاهد الكبير و«السعيد الصالحي» «وباعزيز بن عمر» الذي كان يكتب مقالات

(1) احمد توفيق المدني : كتاب الجزائر ، ط 2 ، دار المعارف ، القاهرة ، سنة 1963 ، ص 97 .
(2) C.H.R. AGERON, Op Cit, P. 340.
(3) الشيخ علي المغربي : عضو سابق في جمعية العلماء ، ونائب رئيس المجلس الاسلامي الاعلى في الجزائر ندوة اذاعية ، 28 ماي 1989 م .
(4) علي المغربي ومحمد الصالح رمضان ، نفس المرجع .

راقية إصلاحية في صحف جمعية العلماء بالإضافة إلى أنه كان عضوا فيها(1) .

وقد كان العلماء في حركتهم التعليمية وفي دفاعهم عن الوحدة العربية للجزائر، لايفرقون بين السكان وأكدوا على أن العربي هو كل من يتكلم اللغة العربية .

وهكذا وبفضل حملات العلماء وجهودهم الجبارة في الدفاع عن الوحدة الوطنية ، بقيت نسبة المتجنسين محدودة جدا ، إذا ماقورنت بجهود الحكومات الفرنسية والكنيسة الكاتوليكية التي بذلت في هذا المجال . ولعل ماساعد العلماء على الوقوف في وجه السياسة البربرية الاستعمارية هو وجود دعاة مصلحين من القبائل أنفسهم ، بين العلماء بالاضافة إلى أن كثيرا من الزوايا الصغيرة ، في بلاد القبائل ، كانت من أتباع المصلحين حيث كان للعلماء ، في تلك المنطقة واحد وثلاثون مدرسة وثلاث وثلاثون زاوية إصلاحية إستجابة لدعوتهم ، مقابل ثلاثين كنيسة تقوم بدور التنصير والفرنسة(2) .

وعندما تأسست جمعية القبائل في سنة 1936 بمساعدة الادارة في الجزائر ، هاجمها العلماء بشدة ، وقد كانوا أذكياء في إضعاف هذه الجمعية ، حيث أدخلوا عناصر منهم في عضويتها تمكنت من أخذ زمام القيادة ، وبذلك نجحوا في خطتهم الوحدوية(3)

وإذا أردنا أن نعرف نسبة المتجنسين في منطقة القبائل بالأرقام حتى ندرك مدى نجاح العلماء في دفاعهم عن الشخصية العربية الاسلامية للجزائر وخطورة الوضع هناك ، نسوق الاحصائيات التالية :

في بلديتين من بلديات منطقة القبائل ، فالبلدية المختلطة (الاربعاء ، ناثراثن (Fort National) والتي كانت أكثر انفتاحا للتأثيرات الفرنسية وميدانا فسيحا لجهود الآباء البيض (وجمعية المواطنين الفرنسيين) لم يتجاوز عدد المتجنسين فيها 813 من مجموع 78000 نسمة ، أي حوالي أكثر من 1% فقط ، رغم أن هذه المنطقة كانت تضم 35 مدرسة فرنسية علمانية لائكية ، يوجد فيها 64 قسما يتعلم فيها حوالي 3000 تلميذا في السنة . وفي بلدية (بني يني) التي تعتبر نموذجا للمنطقة كان يوجد بها 60 معلما قبائليا ، كانوا متجنسين كلهم تقريبا ، ومع ذلك كله فإن حركة العلماء قد

---

(1) C.R. AGERON, Op Cit, P.P. 340-341.

(2) علي مرحوم : حديث التحول جريدة البصائر عدد 97 قسنطينة ، 27 جانفي ، 1938 ص 4 وكذلك C.H.R. Ageron Op Cit, P.P. 340-341.

(3) C.H.R. AGERON, Op Cit, P.P. 340-341.

حالت دون ارتفاع عدد متجنسين ، كما حافظت على ابقاء الثقافة العربية في ناحية القبائل . أما في منطقة قبائل قسنطينة التي كانت فيها حركة العلماء قوية ، فإن نسبة التجنسين كانت ضئيلة جدا ، رغم أن الكثير من الشباب (الذكور) قد تعلموا الفرنسية في المدارس التي انشئت في القرى وبعض المشاتي .

أما في الأوراس فقد تميزت حركة المصلحين بالعمق والإنتشار السريعين بفضل الشباب الذي كونه وأعده ابن باديس لحمل لواء الحركة فأخرجوا الأوراس من قبضة الزوايا ونفوذ المرابطين المتعاونين مع الاستعمار ....

حيث أصبحت المدارس القرآنية خلايا متأججة بأفكار الاصلاح ودعاية المصلحين نتيجة للفقر والحرمان اللذين كانت تعاني منهما المنطقة ، فإن الاصلاح قد انتشر بسرعة بين الناس وبث فيهم حماسا كبيرا ، وأصبح الشيخ بلقاسم دردور المدعو (عمر) عل تقدير المصلحين نتيجة أعماله الإصلاحية البارزة في المنطقة وبذلك عرف الأوراس ثورة دينية واجتماعية لم يشهد لها التاريخ مثيلا في هذا الإقليم وأصبحت المنطقة كلها تحت تأثير العلماء المصلحين منذ سنة 1938 . وهكذا حقق العلماء فوزا كبيرا في هذه القضية الجوهرية للشخصية الوطنية الجزائرية ، حيث بقيت الحركة البربرية ودعاية التجنيس قاصرتين على بعض المثقفين من القبائل ، ولم تجد صدى واسعا بين الجماهير ولا لدى منظمة معينة تنادي بهذا الاتجاه ، ولا يزال اتباع جمعية العلماء وتلاميذتها حتى الآن يشكلون الصخرة التي تتحطم فوقها جميع المحاولات الرامية إلى المساس بالشخصية العربية الاسلامية لهذا الشعب .

دور الجمعية في حركة الاحياء القومي والنهضة الوطنية :

وهكذا فان دعوة العلماء في الميادين ، الدينية ، والثقافية ، والسياسية ، كانت تنفذ بكل الوسائل الممكنة ، وحسب ماتسمح به ردود الفعل الادارية ، فقبل نهاية 1932 كان المنبر في المساجد هو الوسيلة الوحيدة الأكثر فعالية للدعاية ، ولكن عندما سلبوا هذه الحرية لجؤوا الى وسائل أخرى أصبحت أكثر انتشارا وذيوعا في البلاد ، مثل النوادي ، والصحف ، والفروع التي أنشئت في المدن ، والقرى ، الجزائرية ، وأضحى كل مكان يمر به دعاة الجمعية الا ويعرف ظهور نوادي جديدة ، أو مدارس ، أو شعبا تابعة للعلماء .

وبناء على مصادر المصلحين الاحصائية ، فان عدد شعب الجمعية بلغ في سنة 1936 ، 40 في عمالة قسنطينة ، و12 في عمالة الجزائر ، (باستثناء الزوايا الاصلاحية في منطقة القبائل) ، و12 في عمالة وهران .

وقد تضاعف هذا العدد في غضون سنتين فقط (1936 – 1938) حيث بلغ في هذه السنة الأخيرة 150 فرعا على الأقل[1] .

أما المعروف لدى الأوساط الرسمية الفرنسية هو (أن عدد النوادي والجمعيات والمدارس هو 100) .

ولعل أهم وسيلة فعالة لدى العلماء في تغيير الذهنية الجزائرية ، كانت تتمثل في تكوين شبيبة متمسكة (بعقيدة اسلامية جديدة)، بعيدة عن تأثير الطرقيين ، ذلك أن العلماء قد علقوا كل آمالهم على الشباب ، فكانوا أول من دعا الى تكوين الكشافة الاسلامية ، من أجل استقطاب عدد كبير من الشباب ، حيث كانوا يوفرون لهم الألبسة والأوسمة ، ويغذونهم بالأفكار الوطنية ، والمشاعر الدينية ، فالأناشيد التي كانوا يكتبونها للكشافة الاسلامية ، تتضمن كلمات خطيرة ، وكان بعضها ينتهي بعبارة (فاذا هلكت فصيحتي تحيا الجزائر والعرب)[2] .

وقد أصبحت جمعية الكشافة الاسلامية ، التي أنشأها العلماء تعتبر بحق مدرسة للتربية الدينية والوطنية[3] .

وكان العلماء أكثر تمسكا بانشاء المدارس الحرة المستقلة عن تأثير الادارة ، ولتحقيق هذا الهدف كونوا ونشطوا جمعيات تربوية بيداغوجية ، وعملوا على اقناع المسلمين الجزائريين بأنه من الواجب عليهم مساعدة هذه المدارس وارسال أبنائهم اليها . وحثوا الناس على الاهتمام باللغة العربية، والدفاع عنها قائلين: (من يبتعد عن اللغة العربية. فقد ابتعد عن عبادة الله ومن يبتعد عن عبادة الله فسيلاقي عذابا شديدا)[4].

وكانت مدارس العلماء في مجملها تقريبا، مدارس ابتدائية، خلال مرحلة الدراسة، ويستغرق التعليم في المرحلة الابتدائية، ست سنوات[5] وتتكون من ثلاثة أقسام هي:

---

(1) C.R. AGERON, Op Cit, P. 337.

(2) HENRY BENAZET, OP Cit, P. 32

(3) C.R. AGERON, Op Cit, P. 337.

(4) Loc Cit.

(5) ينص روبير أجرون (R. AGRON) في كتابه السابق ، ص 337 على أن المرحلة الابتدائية في مدارس ...

1 - القسم التحضيري ومدته سنتان .

2 - القسم الابتدائي وفترته سنتان .

3 - القسم المتوسط ومدته سنتان .

وكان محتوى مناهج مدارس جمعية العلماء يقوم على ثلاثة أسس تتمثل في :

أولا : تربية اسلامية متينة منظمة .

ثانيا : ثقافة عربية ابتدائية .

ثالثا : مبادىء أولية للمعارف العلمية .

فبواسطة القرآن الكريم ، والتاريخ الاسلامي ، الأثري (المقدس) والتعليم ، الديني والاخلاقي ، يتمكن تلامذة الجمعية من معرفة حقائق الاسلام ، وبفضل دروس المحادثة ، واللغة ، والقرآن ، والمطالعة ، والقواعد العربية ، ثم التحرير والانشاء ، يتعلمون التخاطب الصحيح السليم بلسان عربي مبين .

كما يدخلون هذا العالم المحيط بهم بواسطة دروس المشاهدة المدققة ودراسة الجغرافية والتاريخ[1] .

وهكذا فإن مدارس الجمعية كانت تعلم في مجموعها للتلاميذ الجزائريين بالاضافة الى المعارف المختلفة الوطنية الجزائرية ، والأناشيد المحلية والمحفوظات التي كانت تعلم في بغداد والقاهرة .

وقد تطورت مدارس الجمعية خلال سنوات 1931 – 1938 تطورا ملحوظا ، حيث يرى روبير آجرون : أن هذا التزايد في المدارس والكتاتيب القرآنية يعود الى عاملين أساسيين :

أولهما تسامح الادارة الفرنسية ، وثانيهما : مساعدة الأهالي .

أما الباحث فيرى أن العامل الأول كان شكليا لأن السبب الحقيقي في انتشار مدارس الجمعية بسرعة في أنحاء القطر ، يرجع أساسا الى الجهود التي بذلها العلماء في هذا الميدان ، وقد تعرضوا من أجل ذلك الى مضايقات شديدة من طرف السلطات الاستعمارية .

وبناء على احصاء عامل عمالة قسنطينة في سنة 1938 ، فان عدد مدارس الجمعية قد بلغ في عمالة قسنطينة وحدها 85 مدرسة ، تدار من قبل معلمين مصلحين ، تضم

---

(1) ... المرجع السابق ، ص 277 .

4047 تلميذا مسجلا . أما في عمالة الجزائر فقد تزايد عدد المدارس على النحو التالي :
في 1935 ، 28 مدرسة ، في 1937 ، 33 مدرسة ، وفي 1938 ، 68 مدرسة ،
وتضم 9063 تلميذا ، الا أن هذا العدد كان يضم بعض المدارس التي تأسست خارج
اطار الجمعية ، ولكنها كانت مدارس عصرية تدرس الكتب العربية ، وتختلف (عن
المدارس القرآنية التقليدية) .

أما الكتاتيب القرآنية فقد بلغ عددها سنة 1934 ، 2542 ، يعلم بها 2618
معلما ، كن من بينها 3٪[1] تابعة للعلماء أي ما يقدر ب 76 كتابا .

وفي سنة 1936 ، كان عدد التلاميذ في المدارس القرآنية الحرة يقدر ب50193
تلميذا ، ولكن مرسوم 8 مارس 1938 الذي ينص على غلق المدارس الحرة التي فتحت
بدون رخصة ، قد عرقل التعليم العربي ، ولم يعد الى ازدهاره الا بعد 1944[2] .

والحق أن التأثير التربوي ، والثقافي للعلماء على المجتمع الجزائري لم يقتصر على
المدرسة والصحافة فحسب ، بل أنه يرجع الى حركتهم المتنوعة المتشعبة على جميع
الأصعدة . ومع هذا فقد كان للمدرسة دور فعال في يقظة الشعب ، وترسيخ المفاهيم
الوطنية في نفوس الشباب الناهض ، وقد وصف البشير الابراهيمي ، المدرسة بقوله :
بأنها جنة الدنيا ، وكل شعب لاتبنى له المدارس تبنى له السجون[3] . ويستخلص
من هذا أن العلماء قد أدركوا حقيقة هامة ، وهي أنه كلما زاد عدد المثقفين اشتدت
الدعوة الى المطالبة بالاستقلال ، سيما وأن الجزائريين كانوا محرومين من التعليم العربي
في الوقت الذي كانوا فيه في حاجة ماسة اليه .

والملاحظ أن الجمعية خلال مرحلة الدراسة (1931 – 1945) ، كانت في صراع
مرير مع سلطات الاحتلال وخصومها ، من بعض رجال الطرق الصوفية المنحرفين ،
وبعض السياسيين الجزائريين الذين كانوا لايرون النور خارج الاطار الفرنسي ،
فالادارة بعد أن تفطنت لخطورة الجمعية وما أحدثته من تغيير في العقلية الجزائرية ،
سارعت لغلق المدارس ، والمساجد ، والكتاتيب القرآنية في شتى أنحاء هذا القطر ،
الذي كان يعتبر من أغنى بلاد الدنيا بالأطفال المشردين ، وأخذت تلاحق المعلمين

---

(1) C.R. AGERON, Op Cit, pp. 338-339

(2) Loc Cit.

(3) رابح تركي ، المرجع السابق ، ص 200 .

هنا يوجد رسم خريطة تبين فيها توسع حركة الإصلاح

والمدرسين في مؤسسات الجمعية[1] ، كما عمدت الى انشاء جمعيات تحت أسماء دينية مختلفة كالتي أنشأتها في تبسة باسم (الجمعية الدينية الاسلامية) ، ووضعت على رأسها معمرا (كولون) يدير شؤونها ويوجه أهدافها . وقد تكونت هذه الجمعيات لأغراض استعمارية ، ولبث الدعاية الكاذبة في عقول العامة من الناس ، ومن جملة ما كانت تروجه ، أن العلماء المصلحين ينكرون وجود الأولياء ، وقد جاؤوا بدين جديد ، ومنذ أن ظهرت الدعوة الاصلاحية انقطعت البركة ، وأمسك الله عنا المطر ... الخ .

وكان لهذه الدعاية - بطبيعة الحال - تأثير كبير على عقول العامة التي تعودت الخنوع لأرباب الزوايا الذين كانوا يعملون على وأد كل حركة مناهضة للجمود وبالتالي للاستعمار[2] .

وقد كانت الوسائل التي استخدمتها حكومة الاحتلال لمقاومة التعليم العربي ، اما قوانين أصدرها مجلس الأمة في فرنسا ، في أوقات مختلفة ، ولأسباب متنوعة ، واما قرارات ادارية فردية مصدرها الجزائر ، ومبناها على ايعازات بوليسية توحيها الروح الاستعمارية[3] .

ورغم هذه الرقابة المشددة على مؤسسات الجمعية واطاراتها فقد ظلت المدارس تؤدي رسالتها التعليمية حتى فجر الاستقلال .

وبجانب المدارس أسس العلماء صحافة راقية ، لعبت دورا بالغ الأهمية في توعية الشعب وتثقيفه ، ونشر مبادىء الجمعية والدفاع عن مؤسساتها التعليمية ، واطاراتها الوطنية .

فمنذ سنة 1925 ، بادرت نخبة من العلماء في قسنطينة بوحي من الشيخ ابن باديس الى إنشاء جريدة المنتقد[4] ولكنها عطلت بسبب لهجتها الانتقادية الشديدة بقرار من الادارة الفرنسية بعد صدور ثمانية عشر عددا منها فقط ، وفي نفس السنة

(1) ينظر ، جريدة النجاح ، عدد 1484 ، قسنطينة 22 سبتمبر 1935 ، وينظر أيضا ، جريدة البصائر ، عدد 115 ، قسنطينة 27 ماي 1938 .

(2) جريدة البصائر ، عدد 199 ، قسنطينة 24 جوان 1938 .

(3) ينظر الشيخ البشير الابراهيمي - جريدة البصائر عدد 65 قسنطينة 31 جانفي 1949 .

(4) تأسست جريدة المنتقد ، وظهر العدد الأول منها في يوم 2 تموز (جويلية) سنة 1925 ، بقسنطينة ، وكانت تصدر صبيحة الخميس من كل أسبوع ، شعارها الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء . وتوقفت بعد صدور 18 عدد منها يوم 29 تشرين الأول (أكتوبر) 1925 .
لينظر جريدة المنتقد عدد 1 ، قسنطينة 2 جويلية 1925 .

(1925) ، أسس ابن باديس جريدة الشهاب ، مع اصطناع شيء من المرونة السياسية التي برع فيها خلال عقدين من الزمن ، فخفف اللهجة ، وسار على خطة المنتقد[1] في محاربة الطرق الصوفية ، ومخالفتها لروح الشريعة الاسلامية ، وفي نشر فكرة الاصلاح ، وكان لهذه المرونة التي تميزت بها جريدة الشهاب دور في الاحتفاظ بها حتى أواخر سنة 1939 ، علاوة على الطابع الديني الذي خرجت به هذه الصحيفة .

وفي هذه المجلة دراسات وحلول كثيرة لمشاكل العصر الذي عاش فيه ابن باديس ، ولم تقتصر هذه الحلول على المسائل المحلية الجزائرية ، ولا الافريقية الاقليمية ، ولا الشرقية الاسلامية فحسب ، بل حتى الانسانية العالمية[2] .

ولقد تجند الكثير من العلماء المصلحين للكتابة في هذه الصحيفة فاختص ، كل من الشيخ مبارك الميلي والشيخ الابراهيمي بمشاكل المجتمع الجزائري ، والأستاذ أحمد توفيق المدني بالكتابة عن الشهر السياسي[3] . ومحمد السعيد الزاهري بالمقالات الاصلاحية ، والدعوة الى تجديد الاسلام وتطهيره من البدع والخرافات . ولما أسست جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أصدرت قرارا سنة 1933 يقضي بتخصيص جزء من الشهاب تنشر فيه خطب أعضائها ومحاضراتهم وفتاويهم وجميع منشوراتها العلمية . أما نشراتها الادارية فتعطى لسائر الصحف الدورية ، ثم أصدرت الجمعية جرائد خاصة بها (كالشريعة المحمدية) و(السنة النبوية) و (الصراط السوي)[4] ،

ولكن الادارة الفرنسية سارعت الى منع هذه الصحف ، فعطلتها تعطيلا متواليا ، فأوقفت السنة النبوية ثم الشريعة المحمدية ، وأخيرا جريدة الصراط السوي أتبع تعطيل[5] .

(1) ينظر محمود قاسم ، المرجع السابق ، ص 20 .

(2) ينظر أحمد بن ذياب ، جريدة البصائر ، عدد 77 ، قسنطينة 25 أفريل 1949 .

(3) محمود قاسم ، المرجع السابق ، ص 21 .

(4) ينظر ، الشهاب ، المجلد العاشر ، الجزء التاسع ، قسنطينة أوت 1934 ص 377 .

(5) نفس المصدر ، ص 372 .

وكذلك بمقتضى قرار وزير الخارجية الفرنسي (شوطان CHAUTMPS)[1] الصادر بتاريخ 23 ديسمبر من 1933 .

وقد علقت جريدة البصائر على هذا القرار ، فقالت : أن نصه كان عاما ينسحب على كل جريدة عربية تصدرها الجمعية ، أو أحد رجالها ، وكل جريدة تكون على غرار الصراط . ومعنى هذا أن السلطات الفرنسية كانت تمنع كل دعوة الى الدين الخالص ، والعلم الصحيح ، وتمنع كل دعوة الى الفضيلة والأخلاق الكريمة .

وفي 27 كانون الأول (ديسمبر) 1935 أسست الجمعية جريدة البصائر التي كانت تحمل شعار : (قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمي فعليها ، وما أنا عليكم بحفيظ)[2] ، وأصبحت لسانها الرسمي ، في مرحلتيها الاولى ، والثانية ، وهي الجريدة التي كانت تحمل راية البيان العربي في شمال افريقيا ، وتكافح من أجل احياء اللغة العربية وارجاع الاسلام الى عهده الزاهر[3] . وتتصارع مع الادارة الاستعمارية دفاعا عن مؤسسات الجمعية ومبادئها[4] .

والحق أن دور صحافة الجمعية لم يقتصر على نشر فكرة الاصلاح ، الديني فحسب ، بل كان من بين أهدافها الأساسية ، محاربة الطرق الصوفية ، والادارة الاستعمارية ، والعمل على احياء الشخصية الجزائرية ، وربطها بالوطن العربي الاسلامي ، وابراز معالم التاريخ الوطني ، من أقدم العصور حتى أيامها كما كانت تقوم بدور المعلم والمرشد ، والمربي بما تنشره من دروس وتوجيهات ، تربوية بين المسلمين الجزائريين .

والمتصفح لصحف الجمعية خلال الثلاثينات يجد فصولا كاملة من كتب العلماء المؤرخين ، فكانت تنشرها الصحافة المذكورة لقراء العربية مستهدفة اطلاع الجمهور على مراحل الكفاح الذي سجله الأجداد في مختلف العصور ضد الغزاة الأجانب .

واذا كانت صحف الجمعية قد تعرضت لحصار شديد من قبل الادارة خلال عقد الثلاثينات ، فقد نالت اقبالا وتأييدا وتشجيعا ومساندة حتى من غير قراء العربية ، لأن الأمر متعلق بمصير الوطن والعروبة والاسلام .

هذا باختصار عن دور صحافة الجمعية منذ نشأتها حتى عام 1939 ، أما إبان الحرب الثانية فقد تعطلت جميع الجرائد والمجلات الناطقة باسم الجمعية أو باسم أعضائها ، ولم تظهر الى الوجود صحيفة واحدة ، سوى جريدة الاصلاح ، التي أعاد اصدارها الشيخ الطيب العقبي بعد انسحابه من الجمعية سنة 1938 ، وجريدة الوفاق التي كان يصدرها الشيخ الزاهري ، وقد يعود هذا الركود في حركة الصحف الى أسباب الحرب ، ذلك أن قادة الجمعية قد اختاروا السكوت والحياد الايجابي ، لأن فرنسا كانت في حاجة الى تأييد العلماء في حربها مع الألمان حتى تظهر للعالم أن شعوب المستعمرات الخاضعة لها تساندها ماديا ومعنويا ، وهذا ماكان ابن باديس والأغلبية الساحقة من أعضاء المجلس الاداري للجمعية ، قد رفضوه في اجتماع 1938 ، حيث أعلن ابن باديس بأنه لن يوافق على ارسال برقية التأييد الى الحكومة ولو قطعت رأسه[1] .

هذا وبجانب مدارس الجمعية وصحافتها كان هناك المسجد الذي يقوم بدور هام في اداء رسالة الجمعية ، فبالاضافة الى كونه محلا للتعبد فقد كان مدرسة لمكافحة الأمية ، ومركزا لبث فكرة الاصلاح وتوجيه المسلمين الى مايصلح به دينهم ودنياهم .

وقد شرح ابن باديس أهمية المسجد في احدى مقالاته المنشورة في الشهاب فقال :

---

(1) وهذا نص ترجمة القرار الوزاري : (ان وزير الداخلية بعد اطلاعه على الفصلين 14 ، 99 من قانون 19 جويلية سنة 1895 المتعلقين بالصحافة ، وبعد مطالعة الجريدة العربية المسماة (الصراط) التي يديرها السيد عبد الحميد بن باديس ، وصاحب امتيازها السيد بوشمال أحمد ، وتلك الجريدة تصدر بقسنطينة بالمطبعة الجزائرية ، الكائنة بنهج اليكسيس لامبير رقم 33 .

وحيث أن وجود هذه الجريدة أنبأ عما يخالف النظام العام في الأوساط الأهلية بالقطر الجزائري ، وبناء على التقرير الذي قدمه الوالي العام ، بالقطر الجزائري ، أمرنا بما يلي ، فصل فريد ، أن نشر وبيع وتوزيع الجريدة العربية المسماة (الصراط) الصادرة بقسنطينة ، ممنوع في القطر الجزائري ، هذا المنع ينسحب على كل جريدة باللغة العربية وعلى المشرب المذكور ، ويكون مركز تحريرها وادارتها بالقطر الجزائري ، ولو كان لها صاحب امتياز غير المتقدم ذكره وطبعت بمطبعة أخرى) .

باريس 23 ديسمبر 1933 ، نقلا عن جريدة البصائ ، عدد 94 ، قسنطينة 7 جانفي 1938 ، وينظر أيضا جريدة النجاح ، عدد 1536 ، قسنطينة 28 ديسمبر 1934 .

(2) سورة الأنعام ، آية 104 .

(3) جريدة البصائر ، عدد 78 قسنطينة 2 ماي 1949 .

(4) نقلت ادارة جريدة البصائر من الجزائر الى قسنطينة ، في يوم 29 أكتوبر سنة 1937 ، وأسندت رئاسة التحرير – بالاضافة الى الاشراف العام – الى الشيخ مبارك الميلي ، وكان أول عدد صدر في قسنطينة هو العدد الرابع والثمانين ، ونشرت الجريدة في هذا العدد مقالا للشيخ مبارك الميلي وصف فيه أهمية الصحافة ودورها في كل حركة اصلاحية ، فقال : (وان من اهم الخطط وأعم الوسائل لتحقيق الغايات ، ونشر الدعوات ، انشاء الصحف السيارة التي تحفظ جيدا الأقوال وسديد النظريات ، وتدخل بها على الطالب في مسكنه وعلى التاجر في متجره ، بل لايحجبها على الفتيات خدر ، ولا حرس ، ولا يحول بينها وبينهن خفر ولا شرس ، وما وجدت فكرة الاصلاح الديني ، بأرض الجزائر حتى وجدت لها صحف تعبر عنها ، وتبشر بها ، وتدافع عنها) . جريدة البصائر ، عدد 84 ، 29 أكتوبر 1937 .

(1) جريدة البصائر ، عدد 135 ، قسنطينة 14 أكتوبر 1938 ، ص 5 .

(اذا كانت المساجد معمورة بدروس العلم ، فان العامة التي ترتاد المساجد تكون من العلم على حظ وافر ، وتتكون منها طبقة مثقفة الفكر صحيحة العقيدة ، وبصيرة بالدين ، فتكن هي في نفوسها ولا تهمل - وقد عرفت العلم وذاقت حلاوته - تعليم أبنائها ، وهكذا ينشر العلم في الأمة ويكثر طلابه من أبنائها)[1] .

وبناء على ماأورده ابن باديس حول أهمية المساجد ، والدور الذي تؤديه في المجتمعات الاسلامية ، فان الجمعية قد اتخذت من المساجد أداة فعالة لتربية العامة وتعليمها ، ونقطة التقاء بين قادة الجمعية ومختلف الطبقات الجزائرية المسلمة ، ومن أهم المساجد التي كانت مراكز اشعاع حضري تساهم في تطوير وتنوير العقلية الجزائرية بقسط وافر ، الجامع الأخضر ، سيدي قموش ، وسيدي عبد المؤمن ، والمسجد الكبير ، وسيدي فتح الله بقسنطينة[2] .

هذا بالاضافة الى المساجد الأخرى التي أنشأها العلماء في شتى أنحاء القطر بأموال الشعب التي كان يتبرع بها للجمعية .

ويلاحظ المرء أن انتشار المساجد بسرعة مذهلة في البلاد أدهش الادارة الاستعمارية ، فسارعت لاغلاق بعضها ، ومنع العلماء المصلحين من القاء الدروس والمحاضرات من أعلى المنابر الخاضعة لإشرافها ، فثارت ثائرة (الأمة) حسب قول الابراهيمي : (فأنشأت بمالها بضعة وتسعين مسجدا في سنة واحدة في أمهات المدن والقرى)[3] .

ولعل هذا ماجعل المتصرف الادارى لبلدية فج مزالة المختلطة يحذر فيما بعد من تزايد المساجد الاصلاحية ، حيث نبه الى أن هذه المساجد المشيدة بأموال الشعب تصبح فى المستقبل مراكز دعوة قوية تجبر المرابطين على التقهقر ، وتقف صامدة فى وجه الطرقية[4] .

ولا شك أن تحذيرات الادارة الفرنسية من تزايد المساجد كانت تدل على مدى أهمية هذه المؤسسات في ميدان المقاومة . وكانت النوادى من بين الوسائل التى

(1) مجلة الشهاب ، المجلد السادس ، الجزء الحادي عشر ، ديسمبر 1930 ، ص 692 ، 693 .

(2) وكل هذه المساجد مازالت الى اليوم .

(3) ينظر : رابح تركي ، المرجع السابق ، ص 227 ، نقلا عن الابراهيمي ، مجلة مجمع اللغة العربية ، عدد 21 ، القاهرة 1966 ، ص 146 .

(4) l'Algérie du demi-siecle vue par les autorités locales, Janvier 1954, P. I.

استعملتها الجمعية لنشر الوعي والثقافة بين الشباب المسلمين الجزائريين بعد أن كان الجزائريون يفتقرون للاجتماعات واللقاءات حول ماينفعهم فى دينهم ودنياهم ، لأن القوانين الاستثنائية (الانديجينا)[1] المسلطة على الجزائريين كانت تحرم الاجتماعات خلال القرن التاسع عشر تحريما مطلقا ، ولكن منذ حلول القرن العشرين أصبح الشعور قويا بضرورة تأسيس أندية عربية فى البلاد[2] ، وتمثل الأندية المسيرة بقانون 1901 المرحلة الأولى فى خلق الثقافة والمدارس الحرة كما هو الحال فى عهد (جونار)[3] الحاكم العام فى الجزائر الذى شجع النهضة فى البلاد . وبناء على تقرير حاكم فج مزالة سنة 1954 ، فان النوادى كانت تسهل الاتصالات وتحت ستار الشرعية كانت تعقد الاجتماعات ، وتتجلى فيها المساواة ، بل أنها تساعد الشباب على تكوين علاقات جديدة بينهم ، كما تساعد على نشر الوعي والثقافة وتبادل الآراء ، ومناقشة القضايا الاجتماعية والسياسية والدينية[4] .

وكان أول ما استرعى جمهرة الشبان الجزائريين خلال عقد العشرينات هو انشاء النوادى ومن أهم الأندية التى أسست خلال هذا العقد نادى الترقي من طرف أعيان مدينة الجزائر الذين فتحوا له محلا ضخما بساحة الحكومة فى العاصمة . وكان هذا المشروع الهام دليلا على حياة جديدة وطموح الى الرقي بأسباب المدنية والتقدم[5] فى ذلك الوقت ، وأصبح نقطة التقاء المثقفين الذين تسربت الى نفوسهم دعوة القومية العربية الاسلامية ، وأضحى مركزا للاحتفالات والمحاضرات ، وكان ابن باديس يلقي فيه المحاضرات كلما زار العاصمة[6] ، ولعل هذا العمل كان أول نشاط ايجابي لتحقيق

(1) قانون الانديجينا هو مجموعة من النظم والأوامر يطبقها الضباط والحكام العسكريون والمدنيون على الرعايا الجزائريين ، والافارقة الشماليين الذين لم يرتقوا الى مستوى الاستيعاب او الاندماج مع كيان فرنسا ، وكان هؤلاء يحاكمون أمام محاكم ادارية خاصة ، وكانت عقوبات القانون المذكور قاسية ، وغير موجودة في القانون الفرنسي .

(2) احمد توفيق المدني / هذه هي الجزائر : القاهرة 1956 ، ص 165 .

(3) كان جونار حاكما عاما على الجزائر مرتين خلال العقدين الأول والثاني من القرن الحالي ، وكان من المتعاطفين والضاغطين من أجل الاصلاح في الجزائر قبل فوات الاوان وهو الذي اعلن وبارك اصلاحات 1919 ، وطالب بأن تحتل الجزائر مكانا بارزا في مجلس الشيوخ - عندما كان عضوا فيه - وتعهد جونار بأن اللجنة المنبثقة عن مجلس الشيوخ ستبذل جهدها لتحقيق سياسة اكثر تحررا وأكثر ثقة في الجزائر راجع ابو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، ج 2 ، ص 30 ، 305 ، 340 .

(4) l'Algérie du demi-siecle. Op Cit.

(5) جريدة الشهاب / عدد 108 قسنطينة ، 4 أوت 1927 .

(6) محمود قاسم / المرجع السابق ، ص 19 .

وحدة الفكر الجزائرى ففي هذا النادى وضعت البذرة الصالحة للنهضة الجزائرية لكي تخرج الى حيز الوجود[1] وكانت جمعية العلماء تعتبر النوادى العربية الاسلامية همزة وصل بين المدرسة والمسجد ، لأن هناك أعدادا هائلة من الشبان الجزائريين لم تجد الجمعية أية وسيلة لتبليغهم المبادىء الاسلامية والثقافة العربية الا في تلك النوادى[2] ومن هنا كان لها دور هام في تهذيب الشباب وتوجيههم توجيها عربيا اسلاميا ، فكان الشباب يجدون فى هذه النوادى مختلف أنماط الثقافة الدينية والاجتماعية والرياضية عن طريق المحاضرات والدروس ، ومايعقد فيها من ندوات واجتماعات ومؤتمرات .

ولعل اتخاذ جمعية العلماء نادى الترقي مقرا لها حوالي عقد من الزمن لأصدق دليل على ماتقوم به النوادى الوطنية فى نشر رسالة الاصلاح . كما أن وابل القرارات الادارية التى كانت تصبها السلطات الحاكمة فى البلاد على العلماء ومنعهم من القاء الخطب والمحاضرات فى المساجد ، واغلاق المدارس العربية التابعة للجمعية كان له أهميته القصوى فى اتجاه العلماء والمثقفين نحو هذه النوادى لتوجيه الشباب وتثقيفه . واذا كانت المدرسة مخصصة للأطفال ، والمسجد لايقصده فى معظم الأوقات الا المسنون من الرجال والنساء ، والصحف لاتكون الا فى متناول المثقفين والمتعلمين المتعودين على قراءتها ، فان أولئك الشباب الذين لايرتادون المدارس ولا المساجد يكونون محرومين من ثمار الحركة الاصلاحية والنهضة العلمية والأدبية التي عرفتها الجزائر فى غضون العقد الرابع من هذا القرن ، ولذلك باتت النوادى تشكل المحور الرئيسي لتجميع هذه الفئة وتوعيتها دينيا واجتماعيا وثقافيا حتى تؤدى دورها السياسي والوطني فى المستقبل .

وصفوة القول فان جمعية العلماء قد برزت بين الحركات السياسية الجزائرية كقوة وطنية على جميع المستويات الدينية والثقافية والاجتماعية والسياسية .

ففي المجال الأول أسست المساجد وكونت الأئمة والمفتيين الذين حافظوا على شريعة القرآن وأحكامه ، وحاولوا أن يعيدوا الاسلام الى صفائه الأول ، وأن يطبقوا

---

(1) في سنة 1940 اضيف الى اسم نادي الترقي عنوان آخر هو «الجمعيات الفرنسية للوفاق الجزائرى» نص على ذلك : Rapport de Police 1940.

(2) جريدة البصائر / عدد 270 قسنطينة 7 ماي 1954 ، ص 1 .

سلوك السلف الصالح من الصحابة والتابعين وأتباع التابعين بين المسلمين الجزائريين .

وفي الميدان الثاني عملوا على بعث الثقافة العربية وتطويرها ، واحياء اللغة العربية وتجديدها ، وابراز المعالم التاريخية للشعب الجزائري والتأريخ لأبطاله الذين برزوا فى كل عصر من العصور سواء على المستوى المحلي أو على النطاق العالمي ، وبذلك وقفوا فى وجه محاولة التزييف والتحريف وموجة المسخ والتشويه التى عملت بكل الوسائل على اجهاض الشخصية الوطنية للشعب الجزائري ، وكان هذا الجهود الحضارى الذى بذله العلماء يتجلى فى المدرسة والمسجد والصحيفة والنادى والمشاركة فى مختلف المؤتمرات والندوات والتجمعات التى عقدت خلال ثلاثة عقود من هذا القرن بهدف الحفاظ على الشخصية العربية الاسلامية للجزائريين .

وفي الحقل الثالث حارب العلماء كل مظاهر الفساد الاجتماعي كالخمر والميسر والبطالة والفجور ، وجميع الانحرافات الاجتماعية ، والخلقية ، ونادوا بتحرير المرأة المسلمة ، وتعليمها تعليما عربيا اسلاميا يمكنها من معرفة دينها ودنياها حتى تستطيع تربية الأجيال تربية حسنة تحفظ لأمتها عزتها وكرامتها بين شعوب الأرض ، كما حاربوا ظاهرة ارتفاع المهور التي مافتئت تزداد يوما بعد يوم تحت تأثير العائلات الثرية واعتبروا ذلك عقبة كؤودا فى طريق الفتيان والفتيات ، كما حاربوا ظاهرة الزواج بالأجنبيات من قبل المسلمين الجزائريين وعدوا ذلك مساسا بكرامة الفتاة المسلمة ، وقد اعزوا تفشي هذه الظاهرة بين الشباب المثقفين خاصة الى الجهل المطبق على الفتاة الجزائرية التي يأبى الشباب المتعلم الزواج بها ، ويميل الى الفرنسية المتعلقة ، ولذلك فقد فتحوا أمامها أبواب المدارس .

وعلى المستوى السياسي حاربوا الطرقيين وشيوخ الزوايا الجزائريين الذين شوهوا الاسلام ، وخدموا فرنسا بأرواحهم وأبدانهم على حساب الملايين من العامة ، كما هاجموا الادارة الاستعمارية ووصفوها بالوحشية والأعمال اللانسانية التي تقوم بها في الجزائر ، وبالاضافة الى ذلك فقد احبطوا حركة الادماجيين الرامية الى ربط الجزائر بالوطن الفرنسي بواسطة جنسية المستعمر ولغته . ورغم أن العلماء لم يظهروا في قوائم الانتخابات المحلية ، فانهم كانوا ينتخبون لصالح احدى المنظمتين الوطنيتين (حزب الشعب الجزائري ، وحركة اصدقاء البيان والحرية) ويسمى أحد الكتاب حركة

العلماء هذه باسم «يقظة الانفصالية»[1] وهو يعني بذلك الأعمال الوطنية التي يقوم بها العلماء من اجل فصل الجزائر عن فرنسا .

ولم تكن الحركة المضادة للبربرية (السالفة الذكر) الا جزءا من المعركة الكبرى التي خاضها العلماء منذ سنة 1931 حتى 1954 دفاعا عن القضية الاسلامية واللغة العربية والوطن الجزائري .

أما مفهوم الوحدة السياسية عند العلماء فكانت تعني الاتحاد بين الأحزاب الوطنية الشقيقة في المغرب العربي ، ولكن فشلهم في الوصول الى هذه الغاية جعلهم يركزون على العمل من اجل اتحاد الأحزاب الوطنية الجزائرية . وقد دعوا فيما بعد الى عقد مؤتمر وطني جزائري لتحقيق «الاتحاد الشعبي» والتعريف بدور المجتمع الجزائري[2] .

وقد سلك العلماء في حركتهم من البداية مواقف متقلبة حسب مقتضيات الساعة «ووفقا للأوامر التي تأتيهم من القاهرة»[3] كما يدعى ذلك (هنرى بنزات) الذي نفهم من عبارته الأخيرة أنه يعتبر حركة العلماء مسيرة من الخارج . وهذا الرأي في الواقع ماهو الا تلفيق ونسق لفظي لايقوم على ساق ، ذلك أن العلماء أنفسهم كانوا يلومون اخوانهم في الشرق العربي على اهمالهم الشعب الجزائري في كتبهم وصحافتهم الواسعة الانتشار وخاصة في العقد الرابع من هذا القرن ، فما بالك بتلقيهم الأوامر من هذا الصوب ويرى (هنرى بنزات)[4] نفسه : «أن العلماء الذين كانوا محترمين فرضوا فكرا عسكريا ، ولكن الحكومة الحارسة على السيادة الفرنسية في الجزائر قد منعتهم من تحقيق هذا الهدف» .

ومنذ سنة 1931 عمل العلماء بجميع الوسائل من اجل فصل الدين الاسلامي عن الحكومة الفرنسية على غرار الديانتين اليهودية والمسيحية في البلاد ، حيث كانت جمعية العلماء ترى بأن المجتمع الاسلامي هو وحده صاحب الحق في تسيير شؤونه الدينية وان أي تدخل من قبل الحكومة الفرنسية يعتبر اجحافا في حق المسلمين ، ولذلك فقد طالبت باسترجاع الأوقاف الاسلامية التي أغتصبتها الدولة الفرنسية من أصحابها الشرعيين . ومن أجل الدفاع عن الشخصية الوطنية ونشر اللغة العربية عمل

(1) HENRY BENAZET. Op Cit, P. 32.
(2) C.R. AGERON. OP CIT, P. 581.
(3) HENRY BENAZET. Op Cit, P. 31.
(4) IBID, p. 30.

العلماء على تطوير الصحافة العربية ، وساهموا في انشاء وتطوير المطابع (كالنهضة) في الجزائر العاصمة والمطبعة الاسلامية بقسنطينة ، كما عملوا على ترقية مستوى التعليم حتى يؤدي دوره كاملا في تثقيف الشعب وتوعيته .

وهكذا فان مدارس الجمعية قد كونت على الاقل شبابا يجيد القراءة والكتابة والخطاب باللغة العربية الحديثة ، ويؤمن بالمبادىء الوطنية السامية[1] .

لم تقتصر حركة العلماء على سكان المدن والقرى فحسب بل أنها توغلت حتى بين سكان الأرياف لتعليم الناس مبادىء الاسلام الصحيح ، وتلقينهم الثقافة العربية والمبادىء الوطنية ، ومحاربة خرافات الطرقيين وأعمالهم الفاسدة ، كما عملت على نشر التوعية الدينية والسياسية وتطويرهما بين العمال الجزائريين في فرنسا ، وحاولت اقناعهم بضرورة تعليم الدين لابنائهم ، كما حاولت اقناعاهم أيضا بمستقبل الوطنية الجزائرية والنهضة الاسلامية واللغة العربية . وكانت وسائل العلماء في فرنسا تتمثل في انشاء المدارس والمراكز الاسلامية . واذا كان نشاط العلماء في الميدان السياسي لم يكن بارزا مثل نشاط الأحزاب السياسية البحتة ، فانهم استطاعوا بوعظهم المستمر أن يخلقوا رأيا عاما معتبرا دينيا ووطنيا في نفس الوقت لمواجهة الايديولوجيات الأجنبية بل أنهم كانوا جديرين بأن يفخروا بأنهم الوحيدون الذين استطاعوا أن يقدموا للجزائريين بديلا في شكل نظريات عربية اسلامية اصيلة تضع حدا نهائيا للتبعية السياسية والثقافية ، ومع ذلك كله فان حركة العلماء كانت تبدو عشية الثورة التحريرية كحركة محافظة بل ورجعية في نظر الشباب الوطني الثوري[2] .

ان هذا الحكم الأخير يبدو قاسيا جدا على العلماء الذين لم يكونوا يختلفون (سنة 1954) عن غيرهم من الحركات الوطنية الأخرى، حيث كان فيهم الثوريون والمحافظون، كما كان ذلك سمة في كل الأحزاب والحركات الجزائرية في ذلك المنعطف التاريخي . واذا كان بعض زعماء ومناضلي حركة الانتصار قد وقفوا ضد الثورة فان بعض العلماء الذين لم يبادروا بالانضمام الى الثورة في اول الامر بل فإن بعضهم لم يقفوا ضدها .

بادر بالانضمام كالابراهيمي والورتيلاني مثلا من الموجودين في الخارج . والشيخ العربي التبسي وغيره من الموجودين في الداخل .

(1) C.R AGERON, Op. Cit, p. 562.
(2) IBID, p. 583

الفصل الرابع

جهاد الجمعية ضد القوانين الاستعمارية الجائرة

ظل العلماء المسلمون الجزائريون خلال مرحلة الدراسة (1931 - 1945) في صراع دائم مع الادارة الاستعمارية وأعوانها المحليين دفاعا عن مؤسساتهم التعليمية وصحافتهم العربية يحتجون ويستنكرون تارة، ويستنجدون برجال النخبة والنواب أحيانا أخرى لتأييدهم ومساندتهم ضد السلطة الفرنسية مستعملين مرة أخرى أسلوب الليونة، والمجاملة لفرنسا الديمقراطية، فكلما تعرض زملاؤهم أو مؤسساتهم للاجراءات التعسفية من طرف الحكومة العامة أو ولاتها في الاقاليم، يرفعون عقيرتهم بالسخط والاستنكار مستحثين الشعب على الاتحاد والتضامن والوقوف امام كل الاجراءات التعسفية التي تتخذ ضدهم .

الصراع بين الجمعية وادارة الاحتلال

اذا كانت الادارة الفرنسية قد أوقفت جريدة المنتقد سنة 1925، واذا كان الحاكم العام (موريس فيوليت) قد منع ابن باديس من القاء خطبة بمسجد تلمسان يوم 28 أفريل 1927، فان الادارة الاستعمارية نفسها لم تعترض على انشاء الجمعية سنة 1931 ولا على اختيار ابن باديس رئيسا لها، ويعود ذلك الى عدة أسباب أهمها :

أن السلطات الفرنسية كانت تعتقد بأن ابن باديس لم يكن يشكل خطرا على سياستها في الجزائر لأنه كان في نظرها كغيره من الفقهاء الجزائريين الاخرين في ذلك الوقت، وأن حركته لم تخرج عن الاطار النظري . كما أنها كانت ترى بأن ابن باديس لم يكن له اعتبار هام لدى مصالح الشؤون الأهلية، واذا كانت سمعته قد انتشرت في

الجزائر فانها لم تكن الا في بعض النوادي ، كما أن قراء الشهاب البالغ عددهم الفي شخص لم يكونوا يمثلون الا وسطا محدودا معزولا عن الجماهير الشعبية حسب رأي الادارة[1] .

كما أن التقارب الذي حدث بين المصلحين والمرابطين عند تأسيس الجمعية التي ضمت كل الاتجاهات الدينية جعل الادارة تعتقد بأن ذلك التقارب سيوحد كل القوى الدينية في بوتقة واحدة مما يسهل على الحكومة الفرنسية عملية مراقبتها ، والاشراف عليها ، وتسييرها وفقا لسياستها الاستعمارية المتبعة في البلاد ، علاوة على أنها لم تكن ترى خطرا في تأسيسها مادام قانونها الأساسي لايتعارض مع قانون 1881 الذي يحرم النشاط السياسي على كل جمعية أو هيئة ، لأن الحكومة الفرنسية كانت تظن أن شأن هذه الجمعية كشأن مثيلتها من الجمعيات الدينية الأخرى[2] .

ونتيجة لهذه الأسباب كلها سارعت الحكومة العامة الى قبول الجمعية والمصادقة على قانونها الأساسي بعد خمسة عشر يوما فقط[3] من تقديمه لمقر الولاية العامة في الجزائر كما سلف الذكر ، وخاصة وأن فرنسا كانت قد شرعت منذ غداة الحرب العالمية الأولى في تنفيذ سياسة تعليمية استعمارية «تهدف الى تحقيق السلطة والسلطان والسيطرة ، والى خلق رعايا يخدمون فرنسا بأبدانهم وأرواحهم»[4] ولكنها فوجئت حين أدركت أن جمعية العلماء هي أشد خصومها خطرا وأكثرهم تأثيرا في أوساط الجماهير[5] .

ولعل انسحاب العلماء والفقهاء ممن ينتمون الى القطاعات الدينية المحافظة من الجمعية بعد مرور سنة واحدة فقط على الاتحاد الذي تم بينهم وبين العلماء المصلحين ، كان ايذانا بدخول الجمعية في صراع محتوم مع الادارة الاستعمارية ، ذلك الصراع الذي لم ينته الا باعلان الثورة سنة 1954 ، وحل الجمعية بعد ذلك بسنة واحدة .

ذلك أنه منذ سنة 1932 – كما يقول روبير آجرون[6] «انتهى التسامح الساذج من طرف الادارة» عندما تأكد لها أن حركة العلماء بدأت تظهر قوية في الميدان السياسي وبدأت تشع خارج قسنطينة .

---

(1) CHARLES ROBERT AGERON. Op Cit, P.P 342-343.

(2) احمد توفيق المدني/ محادثة شخصية ، الجزائر 2 فيفري 1976 .

(3) المصدر نفسه .

(4) ينضر : محمود قاسم : المرجع السابق ، ص 9 .

وكان الكاتب العام بيرتون (BYROUTON) هو أول من نادى باتخاذ موقف سياسي منه حركة العلماء التي كان يعتبرها «خطيرة نظرا لوطنيتها وحماسها المتدفق وكراهيتها للأجنبي» . ان (بيرتون) – كما ينص روبير آجرون – لم يكن يخشى الوهابية الجديدة للمصلحين ، ولكنه كان يخشى من دعوتهم الوحدوية الاسلامية الأخوية بين كل المسلمين الجزائريين بغض النظر عن مذاهبهم ومطامحهم ومكانتهم الاجتماعية «خاصة وأن التقارب بين العلماء والمزابيين[1] الذين كانوا يعيشون في شبه نظام اداري وتعليمي مستقل عن الادارة العامة قد حير الملاحظين الفرنسيين . ان (بيرتون) كان يعتقد أن أخطر شيء على الوجود الفرنسي هو الدعاية المدرسية التي كان يقوم بها العلماء بهدف الهيمنة على روح الشباب الجزائري وتوجيهه ضد فرنسا .

واذا كانت الجمعية – كما رأينا من قبل – قد بدأت حركتها الاصلاحية ببناء المساجد وانشاء المدارس ، وتنظيم النوادي ، وتأسيس الصحف وتعليم أبناء الجزائريين دينيا واجتماعيا ووطنيا ، فان بيرتون قد اقترح سنة 1932 استعمال قانون 18 اكتوبر 1892[2] القاضي بمنح رخصة للتعليم الحر حتى يعرقل تطور حركة العلماء التعليمية .

وقد وافق الحاكم العام كار (CARDES) على هذا الاقتراح منذ صيف سنة 1932[3] . ولكن بعض الوثائق الرسمية السرية تنص على أن مراقبة جمعية العلماء قد بدأت من طرف عامل عمالة قسنطينة منذ شهر (مارس) 1932 م ففي هذا الشهر وجه قسم الشؤون الأهلية بدار عمالة قسنطينة منشورا سريا[4] الى نواب عامل العمالة جاء فيه على الخصوص : «... انه بناء على المعلومات الواردة أن جمعية العلماء المسلمين تنوي

---

(1) يقصد بالمزابيين سكان وادي ميزاب الذين يقطنون غرداية وأحوازها بالجنوب الجزائري على بعد مائتي كلم من الأغواط وهم فئتان تختلف إحداهما عن الاخرى في المذهب وهما الاباضية والمالكية وقع ممثلوهم مع الحاكم العام الفرنسي راندون معاهدة بالاغواط في شهر أفريل 1953 تنص على ان يدفعوا الضرائب لفرنسا شريطة الا تتدخل في شؤونهم وقد ظهرت فيها خلال النصف الاول من القرن العشرين حركة اصلاحية في تلك الواحات قوامها الصحف والمدارس وجمعيات لمحاربة الجمود

(2) في يوم 18 اكتوبر 1892 اصدرت الحكومة الفرنسية قانونا ينظم التعليم الحر ولا يسمح بفتح مدارس حرة الا باعطاء رخصة من الحكومة ، وهذه الرخصة لاتعطى الا اذا توفرت شروط محددة في القانون مثل المكان وظروف الصحة وتنظيم البرامج واختيار المعلمين ... الخ

(3) CHARLES ROBERT AGERON. Op Cit. P. 342.

(4) سجل هذا المنشور تحت رقم 4278 موضوعه : مراقبة سياسية للأهالي (جمعية العلماء) نشره بنصه الأصلي مع ترجمة الاستاذ محمد الطاهر فضلاء في كتابه ، التحريف والتزييف في حياة كفاح ط 1 قسنطينة الجزائر سنة

توظيف دعاة (مبشرين) من بين (الطلبة) يقوم كل منهم اثناء جولاته بمنطقة محددة بمهمة محاربة البدع والخرافات من جهة ومقابلة النفوذ الفلسفي للمبشرين الفرنسيين والأجانب من جهة أخرى . فنشاط هؤلاء الاخيرين يرمي فعلا الى حمل الأهالي على اعتناق دين مخالف لدين الاسلام . «وقد اختتم المنشور بدعوة نواب عامل العمالة الى مراقبة نشاط العلماء عن كثب وابلاغ الادارة عند اللزوم بكل عمل ينير لها الطريق لمعرفة الاتجاهات الحقيقية للجمعية[1] .

وفي شهر ايار (ماي) من نفس العام تلقى عامل عمالة قسنطينة أمرا من الوالي العام للجزائر يقضي بمراقبة جمعية العلماء وتتبع نشاطها في منطقة الشرق الجزائري .

وفي صيف نفس العام ، وبتاريخ 8 آب (أوت) تلقى عامل عمالة قسنطينة أيضا رسالة أخرى من الكاتب العام (بيروتون) في نفس الموضوع نورد منها مايلي : ان جمعية العلماء «وان كانت حذرة ومعتدلة – على الأقل في الشكل – فان هذه الطرق التي تغطي بها جمعية العلماء المسلمين حاليا نشاطاتها وتظاهراتها ، فانه لا تخف أن أهدافها الحقيقية تظل غامضة وانه يسمح باتهامها باتجاهات ترمي في النهاية من خلال الحضارة الغربية – الى النيل واصابة القضية الفرنسية»[2] .

وقد لاحظت رسالة الوالي العام بأن بعض المسيرين المتعلقين بمثالية اسلامية مختلفة يبحثون عن الوسائل التى «يقاومون بها تطور سيطرتنا على العناصر (الأهلية)» وقد تخوف من أن تسامح الادارة سيجعل الأغلبية الساحقة «الساذجة المنخرطة» تستجيب «للصوت التقليدي الاسلامي» .

وقد حدد الكاتب العام مساهمة جمعية العلماء بثلاثة عوامل تبدو – كما قال – غير خطيرة في مبدئها ، الا انها قد تؤدى فيما بعد الى تطورات تجدر مراقبتها وهذه العوامل هي :

أولا : وطنية اللغة عن طريق نشر واسع للغة العربية التي هي لغة النصوص الدينية والتي تعطى في هذا السبيل على أنها اللغة الأولى التي تفوق بغناها واناقتها كل اللغات .

(1) عن عامل العمالة في اجازة الكاتب العام الامضاء (لانزيل) لنسخة مطابقة المتصرف : ب ، بال .

ثانيا : اتحاد اسلامي واخوة بين كل المسلمين الجزائريين مهما كانت مذاهبهم ومطامحهم وحالاتهم الاجتماعية .

ثالثا : الوهابية الجديدة التى تبدو تحت ستار الرجوع الى الصفاء العقدي ...

فهي غالبا تحريض شديد على كره الأجنبي ، ونقد صلب حاد . للمؤسسات الدينية المحلية كالزوايا التى يدين الكثير من رؤسائها بالولاء لسيطرتنا ونفوذنا «... حقا اننا لن نستطيع عرقلة تعليم اللغة العربية مادام لا يستعمل كذريعة لدسائس ومغامرات غامضة ضد أعمالنا ... الا أنه لايمكن السماح بدعاية مقنعة بالثقافة الاسلامية الكاملة لاتجاهات مضرة يكون رعايانا (الأهالي) أول من يتضرر بها .

«فمن المؤكد انه لايخفى عليكم سيدي العامل بأن هذه الحالة تستدعي كل يقظتنا العاجلة واحتياطنا السريع ، فضلا عن العمل السياسي الذي ينبغي ممارسته طبقا لتعليمات هي بصدد الدراسة حاليا» .

وأضاف الكاتب العام في رسالته الى عامل عمالة قسنطينة،قائلا : يجب مراقبة وتفتيش المدارس ، وقبول وعزل المعلمين ... الخ . واخضاع المدارس التي تم افتتاحها من قبل جمعية العلماء للاجراءات المنصوص عليها في قانون 1892 الخاص بفتح المدارس الحرة ، وقد طلب (بيروتون) الكاتب العام من عامل عمالة قسنطينة أن يطبق هذه التدابير بمنتهى الحكمة لتلافي الانفعال من طرف الجماهير المستعمرة[1] .

وفي 24 آب (أوت) 1932 وجه عامل عمالة قسنطينة أمرا الى كل نوابه والمتصرفين ، ورئيس الأمن باقليم العمالة يأمرهم فيه بمحاربة «مناورات دعاة جمعية العلماء المسلمين محاربة فعالة» كما طلب منهم أن لا يستقبلوا ممثلي العلماء استقبالا رسميا ، وأن لايتسامحوا مع المعلمين المرشحين من طرف الجمعية ، ومراقبة وتفتيش مدارسها بصرامة ، والتحقيق في سيرة المعلمين المرشحين لمدارسها خاصة من ناحية خلقهم وآرائهم السياسية ومواقفهم من حيث وجهة نظرهم الوطنية ، وتعيين المكان الذي زاول فيه المعلم دروسه[2] .

وهناك رسالة أخرى من الحاكم العام الى عاملي قسنطينة ووهران مؤرخة في يوم

(1) عن الوالي الكاتب العام للولاية العامة ، التوقيع بيروتون .
نقلا عن محمد الطاهر فضلاء المرجع السابق ص 435 ، 436 ، 437 .
... في 24 أوت 1932 ص 440 ، 441

1932/08/8 يحثها فيها على مراقبة نشاط ابن باديس في غرب البلاد وشرقها ، وكذلك نشاط الابراهيمي بشرق البلاد أيضا ، ويطلب منها تقصي خطواتها في كل مكان ينزلان به(1) .

وهكذا شرعت الادارة منذ سنة 1932 في تتبع الجمعية وعرقلة نشاطها ، وأصدرت قرارا في السنة التالية يقضي بمراقبتها ومتابعة العلماء على أساس أن هذه المنظمة تشكل خطرا كبيرا على الوجود الفرنسي في الجزائر(2) وأصدرت مراسيم عدة تخول «للموظفين الدينيين» المعينين من طرف الفرنسيين احتكار الوعظ والارشاد في المساجد . وكان أول اجراء ضد العلماء هو منعهم من الوعظ والارشاد في مسجد تلمسان سنة 1933 ، وفي شهر (شباط) فيفري من نفس العام نددت لجنة الشعائر الرسمية المشرفة على الشؤون الدينية في تلمسان بتعليم المدارس الاصلاحية مما أدى الى غلق الكثير من هذه المدارس المنافسة لها في منطقة وهران ، وفي نفس العام أمر الكاتب العام لعمالة الجزائر ، بن صيام رئيس لجنة الشعائر الدينية ان يقوم بمنع الشيخ العقبي من القاء الدروس في المسجد ، وبذلك منع الشيخ من الوعظ والارشاد في المساجد الرسمية .

وفي يوم 27 شباط (فيفري) من نفس العام اصدرت الادارة مرسوما آخر يقضي بالغاء لجنة الشعائر الدينية التي كان يرأسها شخص مسلم ووضع المساجد تحت تصرف «لجنة استشارية للمذاهب» تحت رئاسة الكاتب العام ميشال (MICHEL)(3) وذلك لربط شؤون الدين الاسلامي أكثر بالادارة الفرنسية ، وقد اثارت هذه الاجراءات الادارية التعسفية ردود فعل عنيفة من طرف الاوساط الاسلامية الجزائرية فعباس فرحات الذي لم يكن من الجمعية أعتبر هذه الاجراءات مساسا بحرية الأديان كما كتب في جريدة (La voix des Himbles) (صوت المتواضعين) قائلا :

«S'il ne nous et Plus Possible de choisir nos Directeurs de Conscience, Nous n'avons qu'avons qu'à fèrmer les mosquées».

أي بما معناه اننا «اذا كنا لانستطيع أن نختار مسؤولي الضمير ، فعلينا أن نغلق

(1) ينظر نفس المرجع ، ص 442 .

(2) CHARLES ANDRE JULIEN. Op Cit. P. 105.

(3) CHARLES ROBERT AGERON. Op Cit. P. 343.

المساجد» أما حمودي شكيكن المستشار العام فقد قدم شكاوي المسلمين حول هذا الموضوع الى الكاتب العام ميشال ، وعبر الأمين العمودي الكاتب العام للجمعية كذلك عن سخطه لهذه الوضعية بقوله : «ان دخول المساجد أصبح محرما على المسلمين الاحرار ، وأن الشعائر الدينية أضحت تسير من طرف المسحيين» .

ورغم هذا السخط والاحتجاج من طرف المسلمين عموما والعلماء خصوصا ، فان الادارة قد واصلت سياستها التعسفية ضد الجمعية ، ففي 2 آذار (مارس) 1933 صدر قرار عن عمالة الجزائر يقضي بأن حق الكلمة في المساجد هو وقف على الأعوان الدائمين الرسميين فقط ، وعلى اثر هذا القرار خرج في اليوم التالي 1000 مسلم جزائري ، وتجمعوا في ساحة الحكومة امام الجامع الكبير للاحتجاج على هذا الاجراء التعسفي ولكن السلطات الفرنسية أرسلت عددا كبيرا من الشرطة والرماة السينغاليين و«الصبايحية»(1) لارهاب المتجمعين . وفي يوم 29 حزيران (جوان) 1933 أوقفت الادارة الاستعمارية جريدة السنة المحمدية النبوية ، فتقدم احمد بوشمال مدير الجريدة بمذكرة للطعن في هذا القرار أمام مجلس الدولة ، ولكن هذا الأخير رفض النظر في طعنه ، فكان لهذه الاجراءات اثر بالغ على العلماء ، فناشدوا الرأي العام الفرنسي أن يساعدهم ضد هذه السياسة الاضطهادية ، وقاموا من جهة أخرى بحركة سياسية عنيفة بالتنسيق مع المنتخبين المسلمين الذين دعاهم العلماء للضغط على الادارة (بواسطة الاستقالات) من مناصبهم ، وكانت الفرصة مناسبة لمضاعفة احتجاجات العلماء عندما كشفت جريدة صدى الجزائر في يوم 5 أيار (ماي) 1934 النقاب عن المناقشات التي دارت بين أعضاء اللجنة الوزارية للشؤون الاسلامية حول الخطابة في المساجد ومراقبة الجريدة العربية والمدارس القرآنية ، فانفجرت المظاهرات في كثير من المدن الجزائرية . ففي تلمسان تظاهر 5000 شخص تحت اشراف العلماء وتوجيهاتهم . وفي قسنطينة بلغ عدد المتظاهرين 10000 شخص ، وقد حث كثير من الخطباء هؤلاء المتظاهرين على مضاعفة الاحتجاجات ضد هذه الاستفزازات المتكررة من طرف الحاكم العام خلال سنة كاملة . وقد القيت كثير من الخطب في كل من عنابة وجيجل وبسكرة وسكيكدة ، وقالمة وكانت قسنطينة أكثر هيجانا من غيرها .

أما في باريس فان مصالي الحاج قد صرح في يوم 26 آيار (ماي) 1934 قائلا :

IBID. P.P . 343-344. (1)

... الجزائريين أن يدافعوا عن المساجد والسلاح في أيديهم»(1).

وهكذا أثبت العلماء مكانتهم بين الجماهير الشعبية في كل أنحاء القطر، ولكن بعض الحوادث المفاجئة قد اقلقتهم كثيرا وجعلتهم يعيدون النظر في طرقهم وأساليب نضالهم، مثل حوادث قسنطينة[2] (في آب أوت 1934) بين المسلمين واليهود، والتي كشفت للعلماء سوء فهم الجماهير لدعايتهم، ذلك أن تلك الحوادث الدامية قد استغلت من طرف أعداء العلماء وجعلت الحكومة تتخذ اجراءات تعسفية ضد العلماء تتمثل في مرسوم رينيه (REGNIER) الصادر في (30 آذار مارس 1935) الخانق للحريات. ولكن منذ نهاية 1935 وأوائل سنة 1936 اتبعت الادارة الجديدة في الجزائر سياسة أخرى تجاه جمعية العلماء كانت تقوم فيما يبدو على محاولة اجتذاب العلماء والتصالح معهم، ذلك أن الحاكم العام الجديد لوبو (LE BEAU) الذي جاء من فرنسا كان يختلف في سياسة عن الحاكم العام السابق كارد (CARDES) حيث أصدر تعليمات الى مدير الشؤون الأهلية ميليوت (MILLIOT) تتضمن خلق مناخ سلمي مهدىء بين المجموعتين الاسلاميتين المتصارعتين (العلماء والطرقيين).

وبناء على رأي آجرون فان ميليوت قد حاول ابرام صفقة مع العلماء واتفق مع الشيخ العقبي على خطة تتلخص في وقف الدعاية السياسية التي يقوم بها هذا الاخير مقابل حل جمعية علماء السنة المعادية لجمعية العلماء[3] وقيام الشيخ العقبي باقناع ابن باديس بارغام الأمين العمودي على الاستقالة من منصبه ككاتب عام للجمعية[1] وقد ترك منصبه فعلا في هذه السنة (1935).

واذا كان ابن باديس قد قبل بهذا الاجراء فيبدو أنه كان يهدف الى وضع حد للاجراءات الادارية التي تعرقل تطور الجمعية، وقد تمكن فعلا من الحصول على موافقة الادارة التي سمحت له بانشاء جريدة البصائر لسان حال الجمعية في أواخر سنة 1935 والتي كان الشيخ العقبي أول مدير لها بالجزائر العاصمة.

ولكن الملاحظ أن موقف ابن باديس قد بدأ يتصلب تجاه الادارة منذ شهر آب (أوت) سنة 1936، ويرى الأستاذ آجرون[2] أن سبب موقف ابن باديس هذا له علاقة أساسية بأحداث الشرق الأوسط من جهة، وبتردد الحكومات الفرنسية في انجاز مطالب المسلمين الجزائريين من جهة أخرى.

ومن هنا نلاحظ أن الحكومة العامة قد فكرت في شهر تموز (جويلية) 1937 في حل الجمعية، الا أن عامل عمالة قسنطينة عارض هذه الفكرة واعتبرها عملا عشوائيا، ولكن هذه المحاولة من طرف الادارة الاستعمارية لم تزد العلماء الا تصلبا فمنذ شهر آب (أوت) من نفس العام فكر العلماء في قطع علاقاتهم بالسلطات الفرنسية نهائيا، وطلب ابن باديس من المنتخبين أن يوقفوا كل المساعدات للادارة، وتولى بنفسه الاشراف العام على جريدة البصائر التي نقلت ادارتها الى قسنطينة في يوم 29 تشرين الأول (اكتوبر) 1937.

وفي شهر ايلول (سبتمبر 1937) تقدم أعضاء الجمعية العاملون باقتراحات تستهدف الرفع من شأن الجمعية واختصار الطريق نحو غاياتها، وقد أقر المجلس الاداري هذه الاقتراحات التالية بالاجماع وأهمها:

أولا: انشاء مركز دائم للجمعية.

ثانيا: انشاء مجالس لرؤساء الشعب في العمالات الثلاث.

ويتضمن كل مجلس أربع لجان متخصصة وهي:

1 – اللجنة الاستشارية في ميداني الدين والقانون

---

(1) CHARLES ROBERT AGERON. Op Cit. P.P. 344-345.

(2) في يوم 5 آب 1934 وقعت فتنة بين اليهود والمسلمين في قسنطينة تسبب في اضرام نارها يهودي يدعى (الياهو خليفي) عندما وقف في نافذة ميضة مسجد سيدي الاخضر وانهال على المسلمين المنهمكين في الوضوء بالشتم فيهم وفي صلاتهم ونبيهم (صلعم) وانتشر الخبر بعد ذلك بين المسلمين واليهود انتشار النار في الهشيم، وقعت معركة متقطعة بين الطرفين استمرت اسبوعا او يزيد، وفي حين كان اليهود مسلحين يطلقون النار من النوافذ والشرفات، كان المسلمون يواجهون رصاص خصومهم مجردين من الاسلحة النارية، ولكنهم كانوا مفعمين بالحماس والحمية العربية، والكرامة الاسلامية يذودون عن حياض دينهم وشرفهم بايمان فياض وعقيدة صلبة، وقد كان النصر للمسلمين، رغم تسلح اعدائهم فقتلوا من اليهود ما يزيد عن عشرين شخصا كان معظمهم من الرجال، واضرموا النار في دكاكينهم ومحلاتهم الكبرى المنتشرة في رحبة الصوف بقسنطينة، كما جرحوا منهم أكثر من عشرين شخصا أيضا.
أما المسلمون فلم يفقدوا سوى شخصين كان احدهما طفلا قتله شرطي يهودي في عين البيضاء، وجرح منهم زهاء عشرين شخصا اخرين. هذا وقد لعب كل من الامام عبد الحميد بن باديس، والدكتور محمد الصالح بن جلول دور الابطال في هذه الحادثة التي كانت فيها السلطات الفرنسية – وبدون شك – سببا في تفاقم الوضع، لأنها امتنعت عن تجريد اليهود من السلاح رغم نصيحة ابن باديس لعامل عمالة قسنطينة.
عبد الحميد بن باديس / فاجعة قسنطينة: الشهاب: م 10، ج 10 قسنطينة 1934/12/11، ص461-463.

(3) CH.R. AGERON. Op Cit. P. 345.

---

(1) ولا نعرف حتى الان الأسباب التي جعلت الحاكم العام الجديد للجزائر يسعى الى ابعاد الامين العمودي من الجمعية، ويبدو ان الادارة الفرنسية كانت قلقة من العمودي نظرا للحملات العنيفة التي كان يشنها في صحيفته (الدفاع) الناطقة بالفرنسية على الطرقيين والسلطات الفرنسية.

(2) IBID, P. 346.

...ـة حيث يتولى الشيخ العربي التبسي[1] تـدريسهم ، وهكـذا أصبحت العمالات الثلاث منذ نهاية (1937) تستطيع دراسة مشاكل الاصلاح ومايتطلبه من وسائل ضرورية ومستعجلة ، وبالتالي فقد سهل هذا التنظيم على أعضاء الجمعية الحضور في كل اجتماع يعقد في مركز من المراكز الثلاثة .

ومن هنا يمكن القول أن جمعية العلماء أصبحت تنظم نفسها كدولة داخل دولة في كل المجالات الادارية والثقافية والاجتماعية ، وترسل ممثليها الى الخارج وتنشىء النوادي في كل من باريس ، وليون ، ومارسليا ، وتوجه البعثات العلمية الى المشرق العربي .

أما على الصعيد الداخلي فان العلماء حاولوا تنظيم المجتمع الاسلامي الجزائري خارج القوانين الفرنسية .

ولقد أصدروا فتاوى كثيرة تحرم على المسلم استئناف الحكم اذا صدر من قاض مسلم الى محكمة فرنسية ، وأكدوا على أن كل من يتجنس بالجنسية الفرنسية من المسلمين فهو كافر ومرتد ، فلا يصلى عليه ولايدفن في المقابر الاسلامية[2] .

ولكن موقف العلماء المتشدد من الادارة منذ سنة 1936 وقطع علاقاتهم بالمنتخبين ، فيما بعد ، جعلهم يفقدون بعض مؤيديهم السياسين ، مما جعل الفرصة مناسبة للسلطات الفرنسية لشن حملة تعسفية ضدهم ، فاصدرت سلسلة من الاجراءات الاضطهادية كمنع تدريس الأناشيد الوطنية واعادة الشيخ العقبي الى المحاكمة ، والقيام بتفتيش مقر الشهاب في شهر آذار (مارس) 1938 .

وفي يوم 13 كانون الثاني (جانفي) 1938 أصدر وزير الداخلية الفرنسية أمرا يحظر على النوادي العربية الاسلامية في الجزائر بيع أوتقديم المشروبات المباحة مجانا لروادها[3] .

ولعل أخطر إجراء فرنسي هز مشاعر العلماء والشعب الجزائري قاطبة هزة عنيفة هو ذلك القرار الصادر في 8 آذار (مارس) 1938 القاضي بعرقلة التعليم العربي الحر ، حيث ينص على معاقبة كل المدرسين الذين يفتحون المدارس بدون رخصة .

---

(1) Rapport de Police, Novembre 1940, Archives Historiques. W. de Constantine.

(2) C.R. AGERON, Op Cit. P. 340.

(3) ينظر : جريدة البصائر / عدد 108 قسنطينة 15 أفريل 1938 .

وقد كان يوم صدور هذا المرسوم – كما عبر ابن باديس – يوما مشؤوما في تاريخ الجزائر الاسلامية[1] . وقد رفعت الأمة عقيرتها بالاحتجاج والاستنكار على لسان نوابها وهيئاتها وعلمائها الأحرار .

وقد والت جريدة البصائر لسان حال الجمعية الكتابة في هذه المظلمة ، ولما انتهت المسألة الى النيابة المالية (وهي أعلى نيابة في الوطن) بواسطة النواب المسلمين قدمت لهم الحكومة وعودا لحل هذه المشكلة ، ولكن دون جدوى[2] لأن الادارة الفرنسية في الجزائر حاولت اقتلاع جذور الثقافة العربية والقضاء على الشخصية الوطنية ، حيث عطلت الكثير من المدارس التابعة للجمعية بناء على قانون 8 آذار مارس المشؤوم وادخلت بعض المعلمين السجن ، وحاكمتهم كمجرمين ، ونفت البعض الآخر من الزعماء المعروفين ، فالشيخ البشير الابراهيمي نائب الرئيس والرئيس الثاني لجمعية العلماء حكم عليه بالنفي الى منطقة آفلو بالجنوب الوهراني بسبب امتناعه عن التحدث الى الشعب في الاذاعة الجزائرية بهدف حث الجزائريين على الوقوف باخلاص الى جانب فرنسا في حربها ضد دول المحور ، ولم يسمح له بالدخول الى الجزائر الا بعد دخول الحلفاء شمال افريقيا سنة 1942[3] وكان نفيه قد تم في شهر نيسان أفريل سنة 1940 . هذا من جهة ومن جهة أخرى ، فان ابن باديس قد ظل موقفا عن النشاط في قسنطينة بعد قيام الحرب حتى وفاته في 16 نيسان (أفريل) سنة 1940 ، كما سجن الأمين العمودى وفرحات الدراجي[4] وهما شخصيتان بارزتان في الحركة الاصلاحية وجمعية العلماء[5] وذلك في يوم 16 تشرين الثاني (نوفمبر) 1939 بسبب الدعاية التى روجاها في أوساط الجزائريين بالقاء المحاضرات في نادي الترقي .

---

(1) C.R. AGERON, Op Cit. P. 347.

(2) عبد الحميد بن باديس / البصائر عدد 140 قسنطينة 13 نوفمبر 1938 .

(3) عبد اللطيف بن على السلطاني / مراسلة شخصية بتاريخ 18 ماي 1976 .

(4) ذكر قرار الشرطة السرية الفرنسية في شهر نوفمبر من نفسالعام أن فرحات الدراجي كان محل تعاليق كثيرة من طرف الاصلاحيين اكثر من زميله الأمين العمودى حين اعتقالهما .

(5) كان الامين العمودي كاتبا عاما للجمعية منذ تأسيسها حتى 1935 وترجمانا لأعضائها وهو الذي رافق وفد المؤتمر الاسلامي الى باريس ليكون مترجما للعلماء ، وهو صاحب جريدة الدفاع لسان حال الحركة الاصلاحية باللغة الفرنسية . أما الشيخ فرحات الدراجي فقد عرف بالدعوة الى الاصلاح والتربية بين العمال الجزائريين المهاجرين في فرنسا حيث كان ممثلا للجمعية هناك كما كان كاتبا دائما للجنة المركزية للعلماء .

ولعل أهم حدث يسجل خلال تشرين الثاني (نوفمبر) 1939 في حركة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين هو ايقاف جريدة البصائر ومجلة الشهاب عن الصدور – وهما القطبان الرئيسيان في دعوة الجمعية خلال الثلاثينات – مما أحدث فراغا سياسيا وثقافيا كبيرا في أوساط قرائهما . هذا علاوة على أن ادارة الاحتلال قد شددت الرقابة على كل المطبوعات ، وصادرت خلال شهر نوفمبر أربعة الاف منشور كانت تحمل تهاني ابن باديس لقراء صحف الجمعية بمناسبة عيد الفطر[1] .

وقد أدت احداث الحرب وتطوراتها ، والمراقبة المشددة من طرف الادارة وتدهور حالة ابن باديس الصحية ، وسجن الكثير من العلماء ، ونفي البعض الآخر ، ووضع زعماء آخرين تحت الاقامة الجبرية ، الى ضعف حركة جمعية العلماء الاصلاحية وخاصة في المناطق الداخلية فأغلق (نادي الاصلاح) بالأصنام ، وقدم الشيخ أبو اليقظان مدير المطبعة العربية بالجزائر استقالته من اللجنة المركزية للعلماء ، متذرعا بأن قيامه بهذه النشاطات قد شغله عن مهامه الأساسية الأخرى .

والحق أن أبا اليقظان بناء على أحد التقارير السرية قد تخلى عن عضويته من اللجنة المركزية للعلماء بقصد التهرب من شكوك الادارة الفرنسية[2] . كما أن الشيخ عبد العزيز الهاشمي الذي حوكم أمام المحكمة العسكرية بقسنطينة قد قضي عليه بثمانية عشر شهرا سجنا والفي فرنك غرامة بعد أن أمضى في سجن الكدية حوالي واحد وعشرين شهرا دون أن ينظر في أمره (من 18 أفريل 1938 الى يوم 16 جانفي 1940)[3] .

أهم الاجراءات المتخذة ضد العلماء

يمكن اجمال الاجراءات الاضطهاديةوالقرارات والمراسيم والاتهامات السابقة في النقاط التالية :

أولا : في سنة 1933 منعت الحكومة بقرار عامل عمالة الجزائر مرشدى جمعية العلماء من القاء الدروس والخطب في المساجد وقد «تكرر الاحتجاج على هذا القرار مرارا فلم يسمع للمحتجين المحقين صوت[4] .

---

(1) Rapport de Police, Novembre 1939, Archives Historiques, W. de Constantine.

(2) IBID.

(3) Rapport de Police, Janvier 1940, Archives Historiques, W. de Constantine.

(4) Rapport de Police, Janvier 1940, Archives Historiques, W. de Constantine.

... (MARCEL REGNIER) وزير الداخلية

... على جمعية العلماء ، وكل زعماء الحركة الوطنية

... الى الجزائر العاصمة(1) بهدف الاطلاع على اوضاع الجزائر ، ورغم ما

[ف]رقة من مجاعة وبؤس ، وشقاء ، فقد أصدر ذلك القرار بهدف اضعاف حركة العلماء .

ثالثا : في سنة 1936 سجن من غير جرم أو مبرر الشيخ ناصر المدرس الحر ببلدية قرقور بمنطقة سطيف ، وفي نفس السنة أيضا في عهد الجبهة الشعبية أدخل الشيخ الطيب العقبي – من رجال الحركة الاصلاحية البارزين – سجن بربروس وقضى فيه أسبوعا كاملا . كما أغلقت الادارة مدارس (تابعة لجمعية العلماء) في عمالتي قسنطينة ووهران(2) .

رابعا : وبعد انقضاء اسبوع على هذا الحدث المروع دبرت مؤامرة استعمارية أخرى لاغتيال الأستاذ الحبيباتني بقسنطينة : فبينما كان في طريقه الى منزله فوجىء بأربع طلقات نارية من يد خفية لم يستطع لا العلماء ولا أنصارهم القاء القبض على المجرم(3) .

وقد كان لهذه الأحداث وما سبقها من أحداث أخرى أثر بالغ في محيط الجمعية انشغلت بها اجتماعاتها العامة والخاصة وتناقلتها صحفها بين المسلمين والفرنسيين على السواء .

والواقع أن سنة 1936 كانت سنة حاسمة في حياة العلماء ، ففي هذه السنة دخلت الجمعية في خضم السياسة الوطنية الواضحة وحددت موقفها من كل الأحزاب السياسية ، والجماعات المحلية المختلفة ، وشاركت كعضو بارز في المؤتمر الاسلامي بأشهر قادتها ، فجلبت بهذه المشاركة انتقادات خصومها الذين اتهموها بالانحراف عن مبادئها وأهدافها والانغماس في خضم السياسة التي يحجرها عليها قانونها الأساسي(4) .

ذلك أن مشاركتها في المؤتمر الاسلامي لم تكن ضربة مفاجئة للرجعية وأهل الجمود فحسب ، بل كانت مزعجة للدوائر الفرنسية أيضا . هذا من جهة ومن جهة أخرى

---

(1) ينظر / فرحات عباس : ليل الاستعمار ، المرجع السابق ص 152 .

(2) جريدة البصائر / عدد 98 قسنطينة 4 فيفري 1939 (بيان جمعية تهذيب وتعليم مسلمي شمال افريقيا) .

(3) مجلة الشهاب / م 11 / ج 6 ، قسنطينة 6 أوت 1936 ص 82 .

(4) الشهاب / ج 12 ...

فان فشل المؤتمر الاسلامي كان من العوامل التي دفعت الجمعية الى فقد الثقة بالحكومة الفرنسية في الحصول على الحقوق المدنية والسياسية التي انعقد المؤتمر الاسلامي من أجلها ، وزاد في ايضاح موقف الجمعية من كل الأحزاب والهيئات السياسية والدينية والاجتماعية في البلاد .

خامسا : وفي سنة 1937 أمتهن مسجد قنزات وأهين عمر دردور ، ومنع من التعليم المشائخ : بلقاسم بن رواق ، ويحي بن العوادي ، وفي هذه السنة هدد وضيق كل من المشائخ : الفضيل الورتلاني ، والسعيد الصالحي ، والسعيد البيباني دعاة جمعية العلماء في فرنسا ، وفتشت الشرطة نادي التهذيب بباريس (وهو مكان له حرمة المساجد وهيبة المدارس ، لأنه يقوم بالتعليم وتقام فيه الصلوات(1) .

سادسا : في يوم 5 كانون الثاني (جانفي) 1938 أغلقت سلطات الاحتلال دار الحديث(2) بتلمسان وهي أهم مركز من مراكز الحركة الاصلاحية ، وجمعية العلماء ، كانت منبرا ومدرسة للشيخ البشير الابراهيمي القطب الغربي للجمعية يلقي فيها دروسه العلمية وخطبه التهذيبية .

أما في يوم 8 آذار (مارس) من نفس العام 1938 فقد أصدرت الحكومة الفرنسية قرارا يقضي بتضييق دائرة التعليم العربي الحر ، ومنع العلماء من التدريس الابرخصة من الادارة الاستعمارية في الجزائر ، وهي الرخصة التي تمانع السلطات الفرنسية منحها للمعلمين التابعين لجمعية العلماء(3) .

واذا كانت الحكومة الفرنسية قد منعت التعليم الحر بدعوى المحافظة على الصحة فان هذا الاجراء كان ضربة موجهة لتعليم العربية في المدارس والقرآن في الكتاتيب وهكذا بدأت المعركة غير متكافئة بين الجمعية وادارة الاحتلال ، فالعلماء المصلحون من أعضاء الجمعية لم يكونوا يعتمدون في أول الأمر الا على المثقفين في حين كان للمستعمر أعوانه من أهل الجمود والبدع ، وهم كثيرون ومن ورائهم الملايين من العامة ، ومع ذلك فان ميزان القوى قد تغير وأصبح في الأخير لصالح الجمعية حينما استقطبت 40٪ . من مجموع المسلمين الجزائريين ،وحاصرت الاستعمار في هذه الديار باحياء اللغة

---

(1) جريدة البصائر / عدد 98 قسنطينة 4 فيفري 1938 .

(2) نفس المصدر .

العربية و«تجديد العاطفة الدينية الصادقة» بفضل عبقرية وتضحية رئيسها ومؤسسها الامام عبد الحميد بن باديس وزملائه الآخرين الذين صبروا على المكاره في سبيل دعوتهم ومبادئهم السامية[1] .

وبمناسبة الاحتفالات الفرنسية بمرور مائة عام على احتلال قسنطينة (سنة 1937 وجه ابن باديس[2] الى سكان قسنطينة نداء حارا يدعوهم فيه الى مقاطعة الاحتفالات الفرنسية قائلا : «في مثل هذا اليوم منذ قرن مات أجدادكم المجاهدون ... في ميدان البطولة والشرف ... ومضت مائة سنة كانت كافية لنسيان تلك المأساة ، وتضميد تلك الجروح وتقريب السكان المتجاورين بعضهم من بعض ، لكن قوما من الأنانيين الذين يأبون الا أن يكونوا سادة متفوقين يريدون أن يشعروا المسلمين بسلطة الغالبين على المغلوبين ... أرادوا في هذه الأيام أن يقيموا احتفالات عسكرية بدخلة قسنطينة تثير العواطف وتثير كرامة الأحياء منا والأموات ، وتنافي مبادىء الأخوة والرحمة التي ندعوا اليها يحتفلون احتفالاتهم ومطالب الشعب الجزائري بعرقلتهم معطلة ، وحقوقه بسعيهم مهملة وسوط القوانين الاستثنائية نازل بيدهم على ظهره في كل يوم» .

ومن أجل هذا فقد اجتمعت 14 جمعية اسلامية من جمعيات قسنطينة يوم 18 ايلول (سبتمبر) 1937 استنكرت خلاله هذه الاحتفالات وقررت - بالاجماع - مقاطعتها وقد جاء في بيان هذه الجمعيات : «نحن - الممثلين لجمعياتنا - نرى احتراما لأنفسنا واحتراما لأجدادنا واحتراما للانسانية .

أولا : أن لانشارك في هذه الاحتفالات ولا نحضرها ....

اخواني القسنطينيين

قد فعل المؤتمر الاسلامي الجزائري واجبه فاحتج على هذه الاحتفالات في اجتماعه العام الأخير ، وقدم مكتبه ذلك الاحتجاج الى الوالي العام ، وقدمه مكتب لجنته القسنطينية الى مير قسنطينة ، وفعلت الجمعيات الاسلامية القسنطينية واجبها بما قررته في قرارها المتقدم ، وأخوكم هذا كقسنطيني فعل واجبه بنشر هذا المنشور

---

(1) محمود قاسم / المرجع السابق ، ص 61 .

(2) عبد الحميد بن باديس/ منشور المقاطعة ، على هامش السانطونير ، مجلة الشهاب م 13 ، ج 9 قسنطينة نوفمبر 1937 .

عليكم . فما بقي الا أن تقوموا أنتم بواجبكم ، فقاطعوا هذه الاحتفالات ولا تشاركوا فيها ، كونوا في هدوء وسلام[1] .

وهكذا كان ابن باديس وزملاؤه العلماء يقفون في كل المناسبات الفرنسية التي يكون فيها المسلم الجزائري ، محذرين الشعب من مغبة المشاركة في أي احتفال يقوم به الفرنسيون ويمس كرامة الشعب الجزائري ، وقد أمضى ابن باديس منشور المقاطعة بنفسه دون خوف من الادارة الاستعمارية .

جمعية العلماء من سنة 1939 - 1945 :

تعتبر سنة 1938 البداية الحقيقية لأزمة جمعية العلماء ومحاربتها من طرف الادارة الفرنسية ، ففي هذه السنة أعلن ابن باديس بأن الفرنسيين «قد اضطهدوا العلم وقاوموا الدين ، وأهانوا المساجد ، وأغلقوا المدارس وخنقوا التعليم[2] .

ان هذا التصريح الصادر عن رئيس الجمعية يوضح العقبات التى أصطدم بها العلماء خلال 1938 ، ولذلك حاولوا مرة أخرى أن يستقطبوا رجال السياسة الجزائريين ومساندتهم فدعوا المنتخبين للوقوف بجانبهم ، وأن يقطعوا علاقاتهم مع المجالس المختلفة ، وأن يتجاهلوا السلطات الاستعمارية .

ومن الواضح أن العلماء قد اتخذوا موقفا حياديا منذ شهر ايلول (سبتمبر) 1938 من الحرب المنتظرة ، ومن فرنسا نفسها ، وقد صرح ابن باديس بهذا الصدد قائلا : «ان هذه الحرب لاتهم المسلمين ولا دخل لهم فيها»[3] وهذا الموقف السالف الذكر قد أدى من جهة أخرى الى انقسام أعضاء مجلس ادارة الجمعية ، وخروج أحد أقطابها وهو (الشيخ العقبي) ، وعندما اشتد وطيس الحرب العالمية الثانية اجتمع بابن باديس جماعة من أنصار حركته ومريديه فقال : «عاهدوني ، فلما أعطي له العهد قال : «انّي سأعلن الثورة على فرنسا عندما تشهر عليها ايطاليا الحرب»[4] .

---

(1) عبد الحميد بن باديس/ منشور المقاطعة على هامش السانطونير ، مجلة لشهاب م 13 ، ج 9 قسنطينة نوفمبر 1937 .

(2) C. R. AGERAN, Op Cit. P. 579.

(3) IBID.

(4) مجموعة من الاساتذة والباحثين العرب - نوابغ العرب - الكتاب الرابع عشر عبد الحميدبن باديس ، دار العروبة ، بيروت 1976 ص 100 .

وفي أوائل 1940 قبل وفاته بقليل قال لزملائه : «والله لو وجدت عشرة من عقلاء الأمة الجزائرية يوافقونني على اعلان الثورة لأعلنتها»(1) .

ويقول روبير آجرون(2) أن بعض العلماء قد صرحوا بأن الجزائر ستنال الاستقلال بسبب هذه الحرب ، كما هو الحال بالنسبة لمصر بعد الحرب العالمية الأولى ، وأن أنصارهم (أي العلماء) كانوا متفائلين بأن هذه الحرب ستكون لها نتائج ايجابية بالنسبة لاتحاد الاحزاب الاسلامية الجزائرية .

وبناء على بعض تقارير الشرطة الفرنسية فان العلماء قد حثوا اتباعهم على الاستماع لاذاعة المانيا ، وأن يحاولوا ايصال الأخبار الى مذيعي برلين .

ذلك أن القمع الاداري المسلط على العلماء وأتباعهم لم ينته لا بسقوط حكومة باريس ولا بقيام حكومة فيشي (VICHY) رغم أن ادارة الشؤون الأهلية قد روجت دعاية في حزيران (جوان) 1940 مفادها أن مرسوم آذار (مارس) 1938 الخاص بعرقلة التعليم الحر سيلغى .

ويبدو أن السلطات الفرنسية كانت قلقة من حركة ابن باديس وأنصاره حتى سنة 1940 حيث وصفته خلال نفس الفترة بأنه أكبر عدو للفرنسيين وأعوانهم من الجزائريين ويبدو من الفقرة الأخيرة أن السلطات الاستعمارية في الجزائر كانت حتى قبيل وفاة ابن باديس – وهو على فراش المرض الذي لفظ على اثره أنفاسه الأخيرة – تتوجس خيفة من حركته القوية على نفوذها في البلاد ، على الرغم من أن هذه السلطات نفسها كانت على علم بمرض الشيخ ابن باديس منذ شهور عديدة قبل وفاته حيث جاء في تقرير الشرطة خلال شهر نيسان (أفريل) 1940 مايلي :

«ان الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المصلحين الجزائريين الذي كانت صحته متدهورة وسيئة للغاية منذ شهور قد توفى يوم 16 نيسان (أفريل) في قسنطينة وشيعت جنازته في اليوم التالي (17 أفريل) في وسط جموع غفيرة(3) تقدر

---

(1) نفس المكان .

(2) Op Cit. P. 579.

(3) نظرا للفترة القصيرة بين وفاة ابن باديس وتشييع جنازته ، ونظرا للقوانين الصعبة المتعلقة بالتنقل من مكان لآخر داخل القطر ، وبالرغم من حضور خمسين ألف شخص من الرجال والنساء جنازته فان الملاحظين المعاصرين لوفاته يؤكدون بأنه لولا الاسباب السابقة الذكر لكان قد حضر يوم الدفن مئات الالاف من الجزائريين .

بعشرات الآلاف من سكان المدينة ، ومن الذين جاءوا من مختلف أنحاء القطر .

لقد تركت وفاة ابن باديس أثرا بالغا وحزنا عميقا في نفوس المسلمين ، ولاسيا في عمالة قسنطينة التي كانت فيها حركته قوية الى حد بعيد ، ولكن رغم ما أحدثه رحيل ابن باديس من يأس عميق في نفوس المصلحين ، فان خطة الجمعية وأفكاره لم تتغير بفضل قادتها البارزين مثل الشيخ مبارك الميلي ، والشيخ العربي التبسي والشيخ البشير الابراهيمي الذي خلف الرئيس الراحل في قيادة الجمعية .

وبعد تشييع جنازة ابن باديس كان الجميع يتوقعون تولية المهام الادارية في الجمعية من طرف الكاتب العام (العربي التبسي) أو (الشيخ مبارك الميلي) ، أو من قبل مجلس يتكون من عضوين هما : الشيخان (خيرالدين ، وبوشمال بقسنطينة)(1) وعلى أية حال فمهما كانت التوقعات مختلفة أو متفقة على من سيرأس الجمعية بعد وفاة ابن باديس ، فان حركة العلماء خاصة والحركة الوطنية عامة قد فقدت أكبر زعيم لها .

وبناء على تقرير الشرطة في نيسان (أفريل 1940) فان أعضاء حزب الشعب الذين كانوا يطمحون الى الاتحاد مع جمعية العلماء قد اصطدموا بهذا الحدث المروع وقد صرح (مصالى الحاج) بقوله : ان وفاة هذا الزعيم الروحي تعتبر أكبر كارثة لا على الاسلام وحده بل على الحزب الوطني أيضا(2) . وقد أضاف التقرير بأن حادثة وفاة ابن باديس كارثة على كل المسلمين ، ولاسيا على الأوساط الشعبية التي كانت تعتبر الشيخ ابن باديس الخصم الرئيسي لفرنسا(3) .

ولقد اتهمت اذاعة المانيا السلطات الفرنسية في الجزائر يوم 9 ايار (ماي)1940 على لسان (تقي الدين الهلالي) بأنها المسؤولة عن وفاته ، وقد ذكرت أنه مات مسموما على ايدي الفرنسيين كما فعلوا بمعظم العلماء الذين مايزال بعضهم يعاني من ظلمات السجون ، وأن الطغاة الفرنسيين أرادوا تسميمه وقد قتلوه كما قتلوا جميع الزعماء من قبله «والشعب الجزائري اليوم يطالب بفديته وسينتقم له عاجلا أو آجلا»(4) .

---

(1) Rapport de Police, Avril 1940, Archives Historiques, W. de Constantine.

(2) Rapport de Police, Avril 1940, Archives Historiques, W. de Constantine.

(3) IBID.

(4) Rapport de Police, Avril 1940, Archives Historiques, W. de Constantine.

وجملة القول فإن موت ابن باديس قد ترك فراغا عميقا في صفوف الحركة الوطنية من جهة ، وفي أوساط المصلحين الدّينيين من جهة أخرى ، وبين الجماهير الاسلامية من جهة ثالثة تلك التي كانت تنظر اليه على أنه الزعيم المخلص والوطني الغيور على دينه وشعبه في الجزائر ، ولعل ما سجلته التقارير الفرنسية حول انطباعات الشعب الجزائري بمناسبة وفاته كان أصدق تصوير لتعلق المسلمين الجزائرين بشخصيته الفذة حتى الذين كانوا موظفين لذا الادارة . وموت ابن باديس في ربيع 1940 أزمة أخرى تضاف الى قائمة الأزمات التى هددت الجمعية في العقد الأول من حياتها ، ولكن مع ذلك مكله فان وفاة ابن باديس كما يقول الأستاذ مالك بن نبي قد فوتت على الادارة الاستعمارية المنال من الحركة الاصلاحية ، لأن وفاته كانت حياة لأفكاره ، وذلك أن موت هذا الزعيم قد حرر نهائيا الفكرة الاصلاحية التى كانت تشبه «فكرة متجسدة» فاصبحت بموت صاحبها» فكرة مجردة لايجد الاستعمار اليها سبيلا[1] حيث بقيت وفية لافكار زعيها الأول ومنهجية في العمل.

وفي ايار (ماي) 1940 م نقل تقرير الشرطة برنامج الجمعية الذي كان يتمثل في المطالب التالية :

أولا – حرية تعليم اللغة العربية .

ثانيا – حرية فتح النوادي وبيع المشروبات المباحة لروادها .

ثالثا – حرية فتح المدارس والتعلم بالعربية والفرنسية وادخاله تحت مراقبة الأكاديمية .

رابعا – المحافظة على التعليم الديني في جامع سيدي الأخضر

خامسا – المطالبة والعمل من أجل الحصول على رخصة من الادارة الفرنسية تعترف فيها للشيخ الابراهيمي بخلافة ابن باديس في رئاسة الجمعية[2] .

وقد علق المصدر السابق الذكر بأن حركة زعماء الجمعية في منطقة قسنطينة ستكون قد حققت عاملا قويا في توازن قوى الحياة السياسية الجزائرية .

وبالاضافة الى ما سبق ذكره من تفاصيل عن فترة الثلاثينات وحتى نهاية

---

(1) مالك بن نبي – مشكلة الحضارة –الصراع الفكري في البلاد المستعمرة ، ط 2 دار الفكر ، بيروت 1969 ، ص 63 .

(2) Rapport de Police, Mai 1940, Archives Historiques, W. de Constantine.

1940 ، فان سنوات 1941 – 1945 كانت حافلة هي الأخرى بنشاط العلماء في كل المجالات المختلفة ، فمنذ شهر تموز (يوليو) 1941 استقبلت الأوساط الاصلاحية بجفاوة تعيين الجنرال (ويقاند) (Weygande) والحاكم العام (شطال) (Chatel) لأن هذه الأوساط كانت تعتقد في أن تعيين هاتين الشخصيتين سيؤدي الى اصدار جملة من الاصلاحات التي تفيد الحركة بصورة فعالة ومباشرة . وكان أهم اصلاح عاجل في نظر هذه الأوساط هو : حرية التعليم الاسلامي ، الذي يرون ضرورة ممارسته للشعب الجزائري ، على غرار ما يقوم به المسيحيون في الجزائر . ويبدو أن هذا المطلب في رأي العلماء سيجنبهم شكوك الادارة ، ويبعدهم عن الاتهامات المختلفة من طرف أعدائهم كما لاحظ تقرير فرنسي[1] .

وفي شهر آب (أوت) من نفس العام وجه أعضاء مجلس ادارة جمعية العلماء عريضة الى الجنرال (ويقاند) (Weygande) حددوا فيها من جديد مفهوم الاصلاح ، وطالبوا بايجاد حل لهذه المسألة في نطاق ديني عقلاني عادل ، ووجهوا لومهم الشديد له بسبب أعماله العدوانية ضد جمعية العلماء . وقد استنكر اعضاء المجلس الاداري في هذه العريضة الاتهامات الموجهة اليهم من طرف الادارة ، رغم انهم (أي العلماء) لاينكرون حسب رأي الادارة الفرنسية – النشاط السياسي لجمعيتهم ، ولكنهم كانوا يزعمون بأنهم مجبرين للدفاع عن حركتهم الثقافية والاخلاقية .

وبناء على المصدر السابق ، فان جمعية العلماء في هذه الظروف العصيبة كانت تطالب بما يلي :

1 – اطلاق سراح الشيخ الابراهيمي الرئيس الجديد للجمعية .

2 – اطلاق سراح اعضاء الجمعية المعتقلين منذ 21 ايار (ماي) 1941 .

3 – اعتبار جمعية العلماء كسائر الجمعيات الدينية المسيحية .

4 – اعتبار اعضاء جمعية العلماء كسائر اعضاء الجمعيات المسيحية في : حرية التنقل حرية الوعظ والارشاد ، وتعليم الدين والاداب الاسلامية :

5 – اعتبار القرآن واللغة العربية كباقي الكتب واللغات الأخرى .

6 – حرية تعليم الدين في المساجد .

7 – حرية تعليم اللغة العربية تحت اشراف الاكاديمية .

---

(1) Rappport de Police, Août 1941, Archives Historiques, W. de Constantine.

... 1938 الذي كان يستعمل من طرف أعداء الجمعية

... لتنظيم مؤسساتها(1) ، وقد وجه مجلس ادارة جمعية العلماء نسخة من عريضة هذه المطالب الى الاعضاء المسلمين بالمجلس الوطني رغبة في مساندتهم(2) للجمعية .

وبالاضافة الى هذه النشاطات البارزة في ساحة الجمعية كان هناك الدعاية مستمرة في انحاء القطر كله ، لاسيما في تلمسان ، مع البحث عن حلول لمشاكل الساعة(3) .

وهكذا فان جمعية العلماء بارسالها عريضة المطالب السالفة الذكر في شهر آب (أوت)1941 الى الحاكم العام ، كانت قد مزقت ضباب الصمت الذي خيم عليها منذ شهر أيلول (سبتمبر) 1938 وان كان الصمت – كما أعلن ابن باديس من قبل – هو نوع آخر من المعارضة للوجود الفرنسي في الجزائر ، وهو نفس الموضوع الذي بسببه ساءت العلاقة بينه وبين الشيخ العقبي ، حيث أن هذا الأخير كان قد ألح بدون جدوى على ارسال برقية تأييد الى السلطات الفرنسية واستقال في شهر ايلول (سبتمبر) 1938 من مجلس ادارة الجمعية كما سلف الذكر ، وجاءت الحرب لتزيد شقة الخلاف بين الشيخ ابن باديس والشيخ العقبي ، فعطل الأول مجلته (الشهاب) وأعاد الثاني اصدار جريدة (الاصلاح) لكي يتخذ موقفا آخر حسب تعبير الادارة الفرنسية .

والحق أن قادة العلماء المصلحين الذين كان معظمهم من عمالة قسنطينة كانوا قد اتبعوا منذ شهر أيلول (سبتمبر) 1938 بتوجيه من رئيسهم ابن باديس طريقة احتياطية حكمية لكي يتجنبوا كل اصطدام مع الحكومة .

وبناء على تقرير محافظة الشرطة بالجزائر العاصمة في شهر أيلول (سبتمبر) 1941 فان وفاة ابن باديس في شهر نيسان (أفريل) 1940 لم تغير شيئا في مركز الجمعية ، حيث ظل علماء قسنطينة أوفياء لمذهبه منتظرين – بقلق – من الحكومة ايجاد بعض الحلول للمشاكل التي كانوا يعانون منها باصدار اصلاحات للمسلمين الجزائريين ، ولكن لا أحد منهم تشجع ليكون خليفة لابن باديس بعد وفاته على رئاسة الجمعية ، فوقع اختيارهم على الشيخ البشير الابراهيمي الذي كان نائبا للرئيس الراحل ومديرا

(1) وقع على هذه العريضة : الشيخ العربي التبسي الكاتب العام ، احمد معيزة امين المال العام ، صالحي السعيد امين مال مساعد ، خير الدين مراقب ، مبارك الميلي عضو مساعد بلقاسم اللجاني عضو مساعد ، محمد الطاهر الجيجلي عضو مساعد .

لمدرسة (دار الحديث) بتلمسان كما سلف الذكر ، وان كان هذا الاخير مايزال رهن الرقابة بأفلو . ورغم اختيار الشيخ الابراهيمي رئيسا للجمعية ، فان الحركة الاصلاحية قد بقيت بلا زعيم حتى سنة 1943 نظرا لكون الرئيس الجديد لم يباشر قيادة الجمعية بسبب ابعاده عن الحركة ، ولأن الزعماء الآخرين كانوا متخوفين من شغل منصب ابن باديس في قيادة الجمعية ، ومع ذلك فان علماء قسنطينة قد حطمواجدار صمتهم كما رأينا من قبل بعريضة المطالب التي وجهوها للحاكم العام وكرروا مطالبهم في 19 أيلول (سبتمبر 1941)(1) وهي لاتختلف كثيرا عن المطالب السابقة وأهمها :

- اطلاق سراح العلماء المسجونين والمعتقلين ، وخاصة الشيخ الابراهيمي .
- حرية الوعظ والارشاد في المساجد .
- الغاء الأعتبار ، ووضعه تحت مراقبة القانون المطبق على المدارس الأوروبية الحرة .
- المساواة بين الديانتين الاسلامية المسيحية(2) .

وقد لاحظ تقرير تشرين الأول (أكتوبر) 1941 بأن مطالب جمعية العلماء التي وجهت من المجلس الاداري بقسنطينة يوم 21 أيلول (سبتمبر) الى الحاكم العاّم لم يكن يعلم بها سوى بعض العلماء فقط في عمالة الجزائر ، وبالرغم من أن هذه المطالب كانت قد درست وقدمت من قسنطينة فانها لم ترسل الى الوالي العام الا بعد موافقة الشيخ الابراهيمي على صيغتها النهائية ، مع انه كان مايزال مبعدا عن الحركة(3) .

ولكن تقرير تشرين الثاني (نوفمبر) 1941 قد أشار الى أن أعضاء المجلس الاداري لجمعية العلماء قد اجتمعوا بسقنطينة يوم 22. تشرين الثاني (نوفمبر) ودرسوا جواب الوالي العام الذي رد به على رسالة(4) مطالبهم المذكورة آنفا . ورغم أن جواب الحاكم العام «كان غامضا الى حد ما فان العلماء هذه المرة كانوا مرتاحين لهذه النتائج اذ أن الحاكم العام قد قدم في جوابه للعلماء وعودا مكتوبة تشير الى ان مطالبهم ستوضع

(1) Rapport de Police, Septembre 1941, Archives Historiques, W. de Constantine.

(2) Rapport de Police , Septembre 1941, Archives Historiques, W. de Constantine.

(3) Rapport de Police, Octobre 1941, Archives Historiques, W. de Constantine.

(4) ... أعلاه الى الحاكم العام وعامل عمالة قسنطينة والمثلين المسلمين الأربعة

محل الدراسة وأن تعليم اللغة العربية سيتطور في المدارس الشعبية».

وفي الأخير أشار التقرير الى أن أعضاء الاداري لجمعية العلماء قد توجهوا بالشكر الى الحاكم العام بمناسبة اصدار قانون جديد يمنع المسلمين من تعاطي الخمور منعا باتا[1] .

وهكذا أثبتت جمعية العلماء حركتها المتزايدة رغم قوانين الحرب المشددة على الجزائريين دون أن تتوقف عن العمل حتى أيام الحرب ، الأمر الذي جعل الادارة الفرنسية تؤكد خطورة هذه الحركة على السياسة الاستعمارية في الجزائر وتدعو جميع السلطات الى اتخاذ الحذر الشديد من قوة العلماء المتصاعدة من سنة الى أخرى[2] ان هذه الشهادات المسجلة من طرف المسؤولين الفرنسيين في مختلف أنحاء القطر الجزائري تشكل مادة أساسية لاستخلاص دور جمعية العلماء في تطور الحركة الوطنية – كما مر بنا آنفا – حيث أثبتت التقارير المختلفة عداوة العلماء للسيادة الفرنسية في الجزائر ، وأهمية الدور الذي قامت به مؤسساتهم على جميع الأصعدة في توعية الجماهير الاسلامية وتكوين جيل جديد يؤمن بمبادىء الجمعية وأهدافها الرامية الى فصل الجزائر عن فرنسا في ميدان التحرر الوطني .

ان المتتبع لحركة العلماء خلال العقدين الرابع والخامس يجد العديد منهم قد تعرض الى أنواع كثيرة من الاضطهاد . فاذا كان الشيخ البشير الابراهيمي قد أطلق سراحه يوم 28 كانون الأول (ديسمبر) 1942 بعد نزول الحلفاء في شمال افريقيا فان الشيخ العربي التبسي قد القي عليه القبض في شهر آذار (مارس) 1943 من طرف السلطات الفرنسية بتهمة التعامل مع الألمان ، ولم يطلق سراحه الا بعد أن قضى عدة أشهر في غيابات السجون[3] .

ومنذ سنة 1943 دخل العلماء في حركة أحباب البيان ، كما ساهموا في تأسيس حزب اصدقاء البيان والحرية ، وقد صرح الشيخ البشير الابراهيمي بأنه هو الذي عمل على التقارب بين مصالي الحاج وعباس فرحات .

ويلاحظ أن العلماء قد ساهموا بقسط كبير في الحركة المضادة لأمر 7 آذار (مارس)

(1) Rapport de Police, Décembre 1941, Archives Historiques, W. de Constantine.
(2) L'Algerie du Demi-Siecle, Janvier 1954.
(3) C.R. AGERON, Op Cit, P. 580.

1944 حيث أعلن احدهم وهو الشيخ الهادي السنوسي قائلا : «إن كل من سجل نفسه في القسم الانتخابي الأول يعتبر مرتدا[1] .

أما رئيس الجمعية الشيخ البشير الابراهيمي فقد ندد بهذا الأمر وأعتبره خطوة «نحو ادماج لا يرضى به الشعب الجزائري المسلم بأي ثمن»[2] كما أكد الابراهيمي نفسه بأن اجتماع (سان فرانسيسكو) سيفتح الطريق لاستقلال شمال افريقيا .

وعندما الغيت اللجان الاستشارية الاسلامية في (3 آب أوت 1944) والتي كانت تضم في عضويتها موظفين فرنسيين أعتبر العلماء هذا الاجراء انتصارا لهم ، ولكن الادارة الفرنسية عوضتها بمكاتب الشعائر الدينية التي بقيت تتلقى تعليماتها من الادارة الفرنسية في تعيين رجال الدين المقدمين من طرف تلك المصالح[3] .

وبعد حوادث 8 آيار (ماي) 1945 التي أدت الى اعتقال البشير الابراهيمي وكثير من العلماء ، فان الجمعية قد انفصلت عن الوطنيين (حزب الشعب) بتهمة عدم قيامهم بالمسؤولية ، وأنهم استعملوا من طرف الشرطة كما ترى بعض المراجع ، وهكذا رفضت الجمعية الاتصال معهم وساندت حزب فرحات عباس ، وهذا التغير في موقف العلماء أعتبر من طرف حزب الشعب خيانة[4] .

ولكن ذلك لم يكن في رأي الباحث الا تغييرا في استراتيجية العمل والتكتيك الذي دأب العلماء على اتباعه حسب التغيرات التي تطرأ من حين لآخر على السياسة الفرنسية وظروف الحركة الوطنية بهدف الاستمرارية في النضال وفي الحفاظ على تماسك الجمعية .

(1) C.R. AGERON, OP Cit, P. 580.
(2) شارل اندري جوليان / المرجع السابق ، ص 326 .
(3) C.R. AGERON, Op. Cit, P. 580.
(4) Loc Cit

الفصل الخامس

الجمعية والطرق الصوفية

خاضت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين طيلة ربع قرن من الزمن ، صراعا دينيا وفكريا محتدما ، مع شيوخ الطرق الصوفية وأتباعها نتيجة للتعارض الواضح بين مايسعى اليه رجال الاصلاح وما تمثله بعض مؤسسات الطرقيين من جمود فكري وهيمنة روحية على الجماهير المسلمة في الجزائر ، وهي الهيمنة التي حافظت على مصالح شيوخ المرابطين وخدمت المصالح الاستعمارية على حساب الملايين من أهل البلاد الشرعيين ، بالاضافة الى أنها تمثل حاجزا منيعا في طريق التقدم والاصلاح الاجتماعي الاجتماعي[1] والثقافي ، وهي الأهداف الأساسية في برنامج العلماء .

مدارس الصوفية والجمعيات المتفرعة عنها :

كان يوجد بالجزائر أربع مدارس كبرى تمثل أساسا الفكر الديني والفلسفي للطرق الصوفية ، ولكل مدرسة جمعيات دينية منبثقة عنها تحمل أسماء مختلفة ترجع في الغالب الى مؤسس الطريقة ، أو الى أحد تلاميذه البارزين ، وهذه المدارس هي :

(1) القادرية .

(2) الخلوتية .

(3) الشاذلية .

(4) الخادرية .

أولا : **القادرية :** يتفرع عن هذه المدرسة ثلاث جمعيات رئيسية وهي (الرافعية ، العمارية ، الحمدوية)[2] وتنسب مدرسة القادرية الى الشيخ محي الدين عبد القادر

(1) L'ALGERIE du Demi-Siècle Vue par les Atorités locales en Algérie 1954. P. 117.
Archives Historiques Wilaya de Constantine.

(2) Gouvernement générale d'Algérie services des liaisons nord africaines (les confréries réligieuses en Algérie 1951) P.I. archives historiques. Wilaya de Batna. N° 1462.

الجيلاني إبن أبي صالح موسى الحسني الذي عاش في القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين[1] ، والذي ولد بقرية جيلان ببلاد فارس[2] . وكان الشيخ الجيلاني من أكبر رجالات الاسلام حتى سمي باسم (سلطان الصالحين) و (قطب الأقطاب[3] وغوث الإسلام) ، وقد كان عالما ، وأستاذا ، ترك مؤلفات دينية قيمة[4] ، كما ترك تلاميذ وأتباعا كثيرين في كل من أسيا وافريقيا ، وقد كان للشيخ أفكار عميقة ، وارادة قوية ، وكان متفائلا ، محباللمستقبل ، تجول عبر العالم ، وهو ناسك زاهد عملي متواضع فقير ، كريم ، عفيف ، أمين يمتاز بكل الصفات الحميدة التي يحتوي عليها القرآن الكريم[5] .

وبناء على مخطوط (الجمعيات الدينية في الجزائر) فقد كان لمذهبه أصداء عجيبة في الأوساط المسيحية ، وله ميل خاص الى النبي عيسى عليه السلام ، وقد كان الشيخ في حياته يردد باستمرار عبارة (الصلاة ضرورية لنفسك أولا ثم لمخلوقات الله أمثالنا)[6] .

ومما يروى عنه أنه لم يقف أبدا ضد المسيحيين ، وكان يتأسف عما ارتكبه من اخطاء وسيئات ، وحسب هذه الدراسة المعمقة : (الجمعيات الدينية في الجزائر)[7] ، التي اعتمدت عليها في هذا الموضوع ، فانه لا يوجد أي صُوفي منحه الله فرصة لتحقيق شيء أكثر من الكرامات التي توفرت لهذا الشيخ ، ولذلك كان خلال فترة الدراسة هذه (1931 / 1945) ، وقبلها أكثر صيتاً من غيره في العالم الإسلامي .

واذا كان الشيخ عبد القادر الجيلاني لم يأت الى افريقيا الشمالية فان مذهبه وأفكاره قد انتشرت بسرعة مذهلة ، في هذه البلاد وبواسطة بعض أتباعه المعاصرين له ، أمثال سيدي بومدين من تلمسان ،ومولاي عبد السلام من مشيش بالقرب من

---

(1) (471 / 561 – 1078 / 1166) قبره معروف في بغداد حتى الآن ، وله مزار في فاس يظن الناس أنه مر به ، وتعيد فيه .

(2) محمد فتحي عثمان : مجلة وكلية العلوم الاجتماعية ، عدد سابق ، ص 433 .

(3) معنى القطب هو رأس العارفين ، وتزعم الصوفية أنه لا يساويه أحد في مقامه حتى يموت فيخلفه أخر ، وذلك هو معنى الامام المعصوم عند الرافضة ، ينظر تفصيل هذا الموضوع ، في كتاب مبارك بن محمد الميلي : رسالة الشرك ومظاهره ، ط2 ، مكتبة النهضة الجزائرية ، الجزائر 1966 ، ص 265 .

(4) أهمها في التصوف (الفتح الرباني والفيض الرحماني) الذي طبع في بولاق القاهرة .

(5) Les cinfréries réligieuses en Algérie, Op Cit. P. 2.

(6) Ibid

(7) Ibid

بتيان بالمغرب الأقصى ، وقد كان أتباع القادرية منتشرين في كل العالم الإسلامي ، ويطلق على أتباعها في المشرق اسم الفقراء ، وهو اسم يميزهم عن غيرهم ، ونظامهم تقريبا هو الوحيد (المبني على أسس إنسانية وبشرية) بالمقارنة - طبعا - مع الطرق الأخرى ، ولذلك يعتبر هذا النظام أكثر تسامحا وأكثر تفتحا ، فهو نظام يبحث عن الوضوح والتجلي في عالم التصوف . أن الشيخ الجيلاني يؤمن بفعالية الصلاة وتأثيرها ، وقد فهم (أن الصلاة تعبر عن البؤس البشري)[1] .

وقد كان أتباع القادرية مفعمين بالممارسات الدينية اللانهائية . وكان نظام القادرية مفتوحا على مصراعيه للجميع ، ولم يكن قادته وأتباعه يتهربون من ممثلي السلطة الزمنية ، بل أنهم كانوا يعيشون بكل ذكاء فائق معها ، كما أن نظامهم كان مقبولا حتى في البلاد المسيحية .

ان السمعة التي كان يتمتع بها القادريون جعلت الشخصيات السياسية ترغب في اقامة ركائز دينية منهم ، وقد حاول الأمير عبد القادر الذي كان (مقدما للطريقة القادرية أن يجعل من نظامها أداة لحكمه)[2] .

وقد ظل القائد الأعلى للقادريين دائما ببغداد ، كما أن وحدة العادات والممارسات والأذكار بقيت سارية المفعول الى حد ما في الجزائر حتى اندلاع الثورة التحريرية .

كان نظام القادرية يمتاز بطابع الديمقراطية مثل انتخاب القدمين ، والسماح لهم بالانتماء الى بعض الجمعيات الدينية الأخرى ، الا أن الملاحظ هو أن هذه الديمقراطية ساعدت على خلق نوع من الخلاف بين أعضائها ، حيث أصبح ، خلال مرحلة الدراسة هذه ، عدد من الفروع الخاصة منحدرة من المدرسة القادرية ، ولكنها متميزة عن مثيلاتها بشيوخها ، ولا تخضع لنظام القادرية العام الا في الحفلات الأولية[3] .

وقد كان للمدرسة القادرية جمعيات كثيرة منتشرة عبر العمالات الجزائرية الثلاث أهمها :

(1) جمعية الرافعية التي أسسها سيدي أحمد الكبير الرفاعي[4] .

(2) جمعية العامرية وكانت تحت سيطرة سيدي عمار بوسنة[5] . كما كانت تقبل

---

(1) Les confréries réligieuses en Algérie. Op Cit. P. 3.

(2) Loc Cit.

(3) Les confréries réligieuses en Algérie. Op Cit. P. 3. .

(4) المتوفي عام 1183م .

(5) المولود عام 1123هـ ، 1712م بوادي زناتي (ولاية قالة) .

في عضويتها الأخوان حتى من العسكريين ، ففي غضون الحرب العالمية الأولى[1] سام أعضاؤها في الحركات العسكرية والسياسية .

(3) جمعية الحمادوية : ان أصل هذه الجمعية غير واضح ، ويبدو وأن نظامها كان له ممارسات تصوفية أكثر منها دينية، وكان مقر الزاوية الأم في دوار اعزايل (بلدية سيدي المختلطة) بالغرب الجزائري ، ونظام هذه الجمعية قد بدأ يضعف تدريجيا منذ النصف الأول من القرن الثالث عشر ، وقد فقد نشاطه وحيويته نهائيا منذ سنة 1870 .

ثانيا : المدرسة الخلوتية والجمعيات المنبثقة عنها :

بعد مضي حوالي قرن من الزمن على انتشار مذهب المدرسة القادرية ، ظهرت مدرسة صوفية أخرى نمت وترعرعت ، في المشرق ، وهي المدرسة التي تأسست على يد (محمد الخلوتي الفارسي ، الذي قلد عن غير قصد نظام الرهبنة في المسيحية (الموحدون القدامى) ، واذا كانت أعمال محمد الخلوتي[2] هي أساس المذاهب التي حملت اسمه ، فان تلميذه عمر الخلوتي ، هو المؤسس الحقيقي للطريقة حيث عمل على تنظيم التعليم بطرق مذهلة مستمدة من أستاذه (محمد الخلوتي الفارسي) وأضفى على مذهب المدرسة طابعا خاصا يتميز عن غيره .

أما مبادىء المذهب فتتمثل في النقاط التالية :

أولا : فمن الناحية التصوفية وجوب العزلة مع كل شروطها .

ثانيا : الزهد المرفوق بالذهول والذكر المقدس وفقا للنظرية التي تقول - طبعا - ليس هنالك اله الا الله .

ثالثا : من الناحية الزمنية اليمين المغلظة - الطاعة المقدسة - .

رابعا : العهد بين الشيخ والعضو التابع .

خامسا : معرفة أسماء الله السبعة المعبرة عن الصفات السبعة الخفية للروح - السر المطلق .

سادسا : من الناحية المعنوية والسياسية تهدف الى تجميد الثقافة والى عبودية انسانية في السياسة .

---

(1) IBID. P. 18.

(2) المتوفي في القيصرية سنة 1039 ، وهي مدينة في وسط تركيا الأسيوية ، فتحها المسلمون في القرن السابع الميلادي .

سابعا : تهدف الى خلق معارضة منظمة للتقدم ، وكره ، وحقد ، وانتقام من السلطة الزمنية .

وبعد فترة من الركود ، الناتج عن تفكك نسبي ، ظهر (سيدي مصطفى بن كمال الدين البكري الخلوتي الأزهري) ، الذي عمل على تنظيم الطريقة بواسطة جمعية منظمة عرفت انطلاقة جديدة ، حيث انشأت زاوية لها بالقاهرة . ولم يكن للمدرسة الخلوتية في الجزائر خلال مرحلة الدراسة الا جمعيتان هما الرحمانية والتجانية[1] .

أ) الجمعية الرحمانية :

تنسب هذه الجمعية الى الشيخ محمد بن عبد الرحمن القشتولي الجرجري العنزري أبو قبرين[2] ، الذي بدأ تعليمه في زاوية الشيخ الصديق وعراب قائد آيت اراثن (AIT IRATIEN) ، ثم درس بعض المعارف الإسلامية هنالك ، وذهب الى أداء فريضة الحج بمكة حوالي سنة (1152 هـ / 1739 / 1740م) ولدى عودته توقف في القاهرة ، ومكث هناك مدة من الزمن بالأزهر وانضم الى الخلوتية التي كان شيخها الكبير آنذاك الشيخ محمد بن سالم الحفناوي ، مؤسس جمعية الحفناوية ، وقد كان هذا الأخير مكلفا بمهمة الدعوة في كل من السودان ، والهند ، والحجاز ، وتركيا .

وبعد ذلك وحوالي (1183 هـ / 1770م) عاد الى بلاده التي وجدت فيها دعوته انتشارا كبيرا ، واستقطب حوله حشدا من الأتباع ، ثم زار مدينة الجزائر وضواحيها ، حيث وجدت كراماته ومذهبه اقبالا كبيرا من طرف الفئات الشعبية ، ولم تتمكن لا غيرة طبقة المرابطين ، ولا فتاوى العلماء أن تحرض الأتراك الذين كانوا ينظرون ، بعين الريبة ، الى ظهور هذه القوة التي يصعب مراقبتها ، كما أنه لم يكن في امكان السلطة وقف هذه الاندفاعية ولا وقف جماهير جرجرة التي احتضنت الشيخ وصنعت من انطلاقته وطنيتها المقدسة[3] .

وبعد وفاته[4] ثارت قبائل جرجرة وقامت بمظاهرات صاخبة ، وأصبح ضريحه مزارا للجماهير المحبة للشيخ بالقبائل ، ولكي يتمكن الأتراك من مراقبة الاخوان نقلوا

---

(1) Les confréries réligieuses en Algérie. Op Cit. P. 27.

(2) ولد في الفترة الواقعة مابين 1126هـ / 1133م (1715 / 1722م) وذلك بقرية آيت اسماعيل بالقبائل الكبرى ، واسماعيل هذا من أسرة الأشراف التي نزحت من المغرب في وقت سابق .

(3) Les confréries réligieuses en Algérie. Op Cit. P. 28.

(4) 1208هـ ، 1794م .

جثمانه من قبره الأول الى ضريح آخر أعد له بالحامة ، ضاحية الجزائر العاصمة ، وقد روجت الجماهير الشعبية في منطقة القبائل أسطورة مفادها (أن الله قد خلق معجزة في ثنائية جثمان الشيخ المقدس)[1] ، وقد لقيت هذه الأسطورة نجاحا في تسميته (أبو قبرين) وهو الاسم الذي أصبح منذئذ يطلق على مؤسس الجمعية الرحمانية . وقد عرفت هذه الجمعية بعد وفاة مؤسسها فوضى ومنافسة داخلية طويلة المدى ، ولذلك تأخر تطورها ، ومن أبرز فروعها التي احتفظت بصفة دار الأم حتى قيام الثورة التحريرية هما زاويتا الهامل قرب بوسعادة ولاية الجلفة بالجزائر ، ونفطة بتونس ، أما زاوية الهامل فكان معترفا بها من طرف كل الاخوان في الجزائر تقريبا وكذلك زاوية طولقة . وهكذا فان الجمعية الرحمانية كانت أكثر أهمية من غيرها في الجزائر ، واذا كان مذهب الخلوتية قد عرف تغييرات طفيفة ، فان الجمعية الرحمانية لم تكن تهتم بحياة الزهد والتقشف فقط ، بل إنها عملت على التبشير بالاسلام واعطاء المقدمين صلاحيات الوعظ والارشاد ، وتعليم الناس الطريقة السرية الخاصة بنظام الجمعية .

ثالثا : المدرسة الشاذلية والجمعيات المنبثقة عنها :

يقدر عدد الجمعيات التي تفرعت عن المدرسة الشاذلية في الجزائر بتسع جمعيات أساسية ، وهي : (اليوسفية ، الشيخية ، الطيبية ، الحنصلية ، الزيانية ، القرزازية ، الدرقاوية ، العلياوية ، العيساوية) . وتنسب المدرسة الشاذلية الى الشاذلي طوع الدين أبي الحسن علي بن عطية علاوة بن عبد الجبار الشاذلي[2] ، وهو تلميذ لمولاي عبد السلام[3] بن مشيش الذي نقل مذاهب الصوفية عن أستاذه بومدين[4] ، الذي كان أول مسلم جاء من المغرب ، واشتهر بنقل المذاهب الصوفية الصافية ، فيمكن اعتباره تاريخيا أقدم قائد من الناحية الدينية الصوفية بالجزائر ، فهو أول من نشر في الجزائر مابديء الجنيد[5] ، ومباديء سي عبد القادر الجيلاني ، ليس كتلميذ بسيط

(1) IBID. P. 29.

(2) ولد سنة 593 / وتوفي 656هـ - 1196 / 1258م بقرية غمارة قرب سبتة بالمغرب وتلقى تعليمه على أستاذه عبد السلام المشيش الذي لاحظ فيه النبوغ والذكاء فنصحه بالذهاب الى افريقيا ، حيث يقع جبل زغوان في ملتقى الشذيلة التي اشتق منها اسمه ، قرب تونس العاصمة ، وذلك سنة 625هـ .

(3) المتوفي سنة 625هـ .

(4) سيدي أبومدين شعيب العنكري الأندلسي ، ولد على الأرجح في سقيل بالأندلس سنة 1126م وعاش في فاس وبجاية وكردو ، وتوفي سنة 1198م بالعباد قرب تلمسان .

(5) الجنيد (أبو القاسم - الخزاز أو الزجاج) : زاهد بغدادي عرف بسيد الطريقة الجنيدية و(طاووس العلماء) من أقواله : (التصوف هو صفاء المعاملة مع الله تعالى وأصله العزوف عن الدنيا) و (الغفلة عن الله تعالى أشد من دخول النار) . توفي (910م) .

لهاتين الشخصيتين ، ولكنه كقائد للمدرسة[1] ، أما الشاذلي ، الذي تنسب اليه المدرسة الشاذلية ، فقد تلقى معاناة كثيرة من طرف الحكام التونسيين عندما اتخذ ملتقى الشذيلة بتونس مقرا لنشر المذاهب التي نقلها عن أساتذته . ومع ذلك فان مذهبه قد تطور بسرعة وأحرز نجاحا واسعا بين الناس ، ثم انتقل الى مصر ، وأقام هناك في كهف قريب من الأسكندرية ، واستطاع أن يفرض نفسه بصفة مطلقة على كل علماء العاصمة المصرية ، وكان من بينهم عز الدين بن عبد السلام الذي أصبح من أصدقائه المقربين المخلصين له ، ويلاحظ أن السهولة التي فرض الشاذلي[2] بها نفسه على المثقفين، وزعماء الجماهير الشعبية، كانت تفسر بالمزايا الحقيقية الخارقة للعادة التي كان موهوبا بها، حيث أعطى الحرية للجميع بأن يتبعوا أية طريقة يشاؤون، أو أي شيخ يعترفون به ، لأنه يؤمن بأن المهم هو البحث عن طريق يجمعهم سواسية أمام الله، وحب الخلوة، والصلاة، وقبره لا زال موضع اجلال واكبار من طرف المصريين .

إن الشيخ الشاذلي لم يؤسس جمعية ولم يحرر وصية ، ولم يعين خليفة له ولكن بعد وفاته اجتمع تلاميذه ، تحت اسم الشاذلية ، وأسسوا جمعية ظلت تحمل اسمه في الجزائر حتى قيام الثورة التحريرية .

إن مذهب المدرسة الشاذلية كان يتضمن الروحانية النقية الطاهرة ، وترك الخلق لله وحده ، والصلاة في كل الأوقات ، وفي كل مكان ، وفي أي ظرف (لكي نعيش في نشوة مجتمعين باستمرار أمام الله)[3] ، وفي مذهب الشاذلية لا يوجد مكان للأساليب الصاخبة الضاجة ، ولا مظاهر اللعب ، ولكن الحياة عندهم تتميز بالشرود العجيب الذي يتمثل في الإيمان والجهر بعقيدة التوحيد وتعليمها (أي التسوح) علم الروحانيات .

وكانت وصايا الشاذلية خلال النصف الأول من القرن العشرين ، تتمثل فيما يلي :

(1) الالتزام بقوانين النظام) .

(2) حب الاخوان .

(3) تجنب المحرمات .

(4) انكار الذات .

(1) Les confréries réligieuses en Algérie. Op Cit. P. 72.

(2) توفي في الحيثرة بمصر سنة 656هـ - 1258م .

(3) Les confréries réligieuses en Algérie. Op Cit. P. 73.

هذا فيما يتصل بالحياة الروحية ، أما بخصوص الحياة المادية فتتلخص في النقاط التالية :

(1) عدم الاهتمام بالشتم والبؤس .

(2) تجنب البحث عن الملذات الجسمية .

(3) محاولة التمسك بكل الفضائل[1].

(4) معرفة كل واجبات الله .

(5) القيام بكل واجبات الوضوء والصلوات ، وكل مايتعلق بالفرائض بدقة[2] .

رابعا : المدرسة الخاذرية :

نشأت مدرسة الخادريين على يد الشيخ عبد العزيز الدباغ الذي ولد بالمغرب الأقصى حوالي سنة (1090هـ / 1683م) ، والذي كان يرتقي من أسرة شريفة كانت فيها الصوفية وراثية الى حد ما . ونظرا لورع الشيخ عبد العزيز الدباغ وكثرة صلواته وتعبده فقد استطاع أن يرث العهد من الشيخ الخذير الذي كشف له (عن أسرار الطبيعة ، وسمح له باظهار الكرمات للأتباع) .

ومن بين خلفاء الشيخ عبد العزيز الدباغ أحمد بن إدريس الفاسي ، الذي نال شهرة واسعة في بلاده ، ثم انتقل الى مكة سنة (1212 هـ / 1797م) ، وعلم فيها سنوات طويلة ، وكون هنالك أتباعا كثيرين ، وبعد وفاته سنة (1251 هـ / 1835م) ، اختلف أتباعه في اختيار من يخلفه على رأس الطريقة ، وانقسموا الى فريقين مختلفين ، وبذلك انشطرت المدرسة الخاذرية الى قسمين وخرجت الطريقة من الأسرة المؤسسة لها ، حيث اسندت إدارة أحد الفرعين الى محمد بن علي السنوسي الجزائري[3] ، الذي أسرع بدوره الى تأسيس زاوية له في مكة نفسها بهدف القيام بأعمال البر والإحسان ، باسم الخاذرية التي كان ينتمي إليها – على غرار خصمه صاحب الفرع الثاني ، الذي منح الشرعية في وراثة الطريقة – وقد ساعده أنصاره في

---

(1) Loc Cit.

(2) IBID. P. 130.

(3) ولد في إحدى قرى الجزائر عام 1787م ، تعلم في مستغانم ثم في مازونة وانتقل الى جامع القرويين في فاس ، حيث أقام سبع سنوات (1822 – 1829) طالبا للعلم ومدرسا في فاس انصب أهتمامه على دراسة الصوفية ، وخاصة طرقها ، المنتشرة في المغرب ، ثم أنتقل من فاس الى الأغواط (بالجزائر) ومنها سافر الى الأزهر ولكن إقامته لم تطل به ، بسبب افكاره التي أثارت حافظة علماء الأزهر فبرح القاهرة الى الحجاز سنة 1830 ، على المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798 – 1912 بيروت 1975 ، ص 55 .

بناء زاويته تلك على جبل أبي قبيس[1] ، وسمي أتباعه باسم السنوسية ، وظلوا يعرفون بهذا الإسم ، طوال حياة هذه الطريقة ، في حين أن إسم الخاذرية لم يعد معروفا الا لدى المثقفين .

مما سبق يتضح أن المدرسة الخاذرية لم يتفرع عنها إلا جمعية دينية واحدة باستثناء الفرع الأم– وهي الطريقة السنوسية التي غطت شهرتها إسم المدرسة الأم.

وعاد السنوسي الى مصر عام 1840 في طريقه الى الجزائر . ولكن خوفه من الفرنسين الذين احتلوا الجزائر بعد سفره منها ، جعله يعود من تونس الى ليبيا ، حيث وصل بنغازي عام 1841 وأنشأ عام 1843م «الزاوية البيضاء» في الجبل الأخضر ، فكانت أول زاوية سنوسية في شمال إفريقيا . وفي عام 1856 قرر نقل مركز دعوته من «الزاوية البيضاء» الى واحة الجغبوب[2] البعيدة عن أنظار السلطة الفرنسية في الجزائر والحكومة المصرية والحكومة العثمانية – التي استرجعت نفوذها على ولاية طرابلس الغرب عام 1834 – آخذا بعين الإعتبار توسط الجغبوب وسهولة اتصالها ببرقة وطرابلس والسودان الغربي ، وأقام السنوسي في الجغبوب مدرسة دينية كبيرة ، يتعلم فيها الأتباع أصول الدعوة السنوسية ، لنشرها في البلاد المجاورة[3] .

توفي السنوسي الكبير في الجغبوب عام 1859 ، بعد أن انتشرت دعوته في برقة وطرابلس ووادي ، وخلفه في زعامة الحركة إبنه المهدي (1859 / 1902) وفي عهده بلغت السنوسية ذروة نشاطها وانتشارها ، اذ انتقل مركزها من الجغبوب الى «الكفرة» (600 كلم عن طرابلس) عام 1895 مما ساعد على انتشار الدعوة في معظم القارة الصحراء[4] .

وعند وفاة المهدي عام 1902 كان للسنوسية 146 زاوية موزعة على النحو التالي : برقة 45 ، مصر 21 ، الجزائر 17 ، طرابلس الغرب 28 ، فزان 15 ، الكفرة 6 ، السودان 14[5] . والسنوسية حركة إصلاحية سلفية وطريقة صوفية ،

---

(1) جبل أبي قبيس هو المكان الذي يحتمل أن تكون فيه مقابر آدم وحواء وابنهما الثالث (شيت) .

(2) Les confréries réligieuses en Algérie. Op Cit. P. 131.

(3) علي المحافظة : الاتجاهات الفكرية عند العرب ، في عصر النهضة 1798 – 1914 بيروت سنة 1975 ، ص 56 .

(4) نفس المكان .

(5) علي المحافظة ، المرجع السابق ، ص 57 .

جمعت بين النظرة الوهابية للإصلاح الديني ومحاسن الطرق الصوفية ، وبذلك سلكت السنوسية طريقا وسطا بين الصوفية الإشراقية والصوفية البرهانية . وكان هدفها الاسمى هو تكوين إنسانا مسلما صالحا ، لا صوفيا غيبيا ، وبهذه الطريقة المعتدلة كسبت أتباعا كثيرين وانتشرت بين البدو انتشارا واسعا ، على الرغم من أن معرفتهم بالتعاليم الدينية والطرف الصوفية معرفةبسيطة وبدائية .

وتقوم الطريقة السنوسية على المبادىء التالية :

1 – العودة بالإسلام الى صفائه الأول .

2 – اعتبار الكتاب والسنة المصدرين الوحيدين للشريعة الإسلامية ، وهي في هذا المبدأ متأثرة بآراءابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب ، التي درسها السنوسي الكبير أثناء إقامته في الحجاز .

3 – فتح باب الإجتهاد في الإسلام واعتبار إغلاق هذا الباب سببا في جمود الفكر الإسلامي ودخول البدع اليه[1] .

4 – تطهير الدين الإسلامي مما علق به من بدع وخرافات .

5 – الإيمان بما تدعيه الصوفية من الرؤيا والاتصال والكشف .

6 – حصر الإمامة في قريش .

7 – المهدوية ، ظهرت فكرة الإيمان بالمهدي المنتظر عند السنوسيين في عهد محمد المهدي السنوسي . وقال بها علماؤهم وعامتهم ولم تكن هذه الفكرة معروفة عندهم من قبل[2] .

أما التطبيق العملي لهذه المبادىء فقد مارسته الحركة السنوسية في «الزاوية» التي كانت مركزا للحياة الروحية والإقتصادية والسياسية والعسكرية ، حيث كانت تقوم على قطعة من الأرض وتتكون من مجموعتين من الأبنية ، الأولى مخصصة لشيخ الزاوية وأسرته ، والثانية تظم المسجد والمدرسة والمضافة . ويحيط بالزاوية جدار تعلوه أبراج للدفاع عنها في حالة وقوع الهجوم .

ولهذه الزاوية أراضي زراعية وأبار جوفية وصهاريج للماء ولها مدارسها ومعلموها وقضاتها وأئمتها ومساجدها والمشرفون على اقتصادها . ولها أسواق هامة تقع عادة على

(1) نفس المكان .

(2) على المحافظة : المرجع السابق ، ص 57 ، 58 .

مركز تقاطع طرق القوافل ، كما كان لها حصونها الدفاعية مهمتها دفع خطر الأعداء وصد هجماتهم[1] .

وكان مقر الزاوية هو مركز السلطة الدينية والدنيوية، على رأسها شيخ الطريقة، وخلال مرحلة دراستنا هذه 1931–1945 كان زعيمها هو محمد إدريس السنوسي[2] .

أما السنوسية كطريقة صوفية ، فإنها قد جمعت بين المذهبين البرهاني والاشراقي ، في الوصول الى الكمال الأعلى ، واتخذت من الطريقة البرهانية لاتباع الأوامر واجتناب النواهي واقتباس العلوم الدينية .

أما هدف الطريقة الاشراقية ، فتسعى الى تصفية النفس من الأكدار وتوجيهها نحو الحق لبلوغ المعرفةوالأسرار ، بدون تعليم ولا تعلم ، بل من باب «اتقوا الله ويعلمكم الله»[3] .

وكان السنوسي الكبير يوجه أتباعه لقراءة «صحيح البخاري» و«الموطأ» للإمام مالك بن أنس و«بلوغ المرام» في الحديث و«رسالة إبن أبي زيد القرواني» في الفقه و«الرسائل السبع» في التصوف (لإخوان الصفا) .

أما هدف السنوسية الصوفي فهو إقامة الصلة بين الفرد والرسول ﷺ[4] مباشرة والإتحاد معه . وكان الإخوان يعتقدون بأن السنوسي الكبير متصل بالرسول مباشرة[5] .

وللوصول الى هذا الهدف لابد من قراءة الأوراد وإحياء الا ذكار وأخذ «سلسلات في الأحاديث النبوية . وقد جمع السنوسي الكبير «المسلسلات العشر في الأحاديث النبوية» وقال «ففيها كفاية لمن أراد اتصال الحبل بالنبي ﷺ والانتساب اليه والى أصحابه والسلف الصالح على وجه الخصوص» .

أما الأوراد فهي القرآن الكريم والاستغفار والتهليل والصلاة على النبي»[6] .

وبهذا ابتعدت السنوسية ، عن الطرق الصوفية المتطرفة التي كانت منتشرة في

(1) نفس المرجع ، ص 58 ، 59 .

(2) Les confréries réligieuses en Algérie, Op Cit. P. 131.

(3) على المحافظة : المرجع السابق ، ص 59 .

(4) نفس المرجع ، ص 60 .

(5) نفس المرجع ، ص 60 .

(6) على المحافظة : المرجع السابق ، ص 60 .

المدن الليبية[1] ، والتي استعملت : وخز الوجه وأكل الزجاج والوقوع في الغيبوبة ، كوسائل للإتصال بالذات الإلهية . وبينما مارست الطرق الصوفية الأخرى الموسيقى والحركات الراقصة الإيقاعية ،خلت منها أفكار السنوسيين .

ومن المنجزات التي حققتها الحركة السنوسية :

1 – نجاحها في إصلاح المجتمع البدوي الليبي ، حيث دفعت الناس الى العمل والإنتاج ، وبث في نفوسهم عقيدة دينية نظمت سلوكهم ووجهته الى طريق البناء ، فتكون في الصحراء الليبية مجتمع متعاون تسوده روح الأخوة والسلام .

2 – أقامت سلطة دينية وسياسية تولت الإشراف على الفرد والمجتمع ووجهتها الى الإيمان والعلم والعمل[2] .

3 – عملت على نشر العلم والمعرفة في الصحراء الإفريقية بإنشاء الزوايا المتعددة التي كانت مراكز ثقافية ودينية هامة .

4 – عملت على نشر الإسلام بين القبائل الوثنية في إفريقيا الوسطى . وكان السنوسي الكبير يشتري العبيد الأسرى من أوساط إفريقيا ويعلمهم الدين الإسلامي ويدربهم على طريقته ، ثم يرسلهم الى بلدانهم كمبشرين بدعوته[3] .

مما سبق يتضح أن الجمعية السنوسية ، كانت إصلاحية وطرقية من نوع خاص ، دعت المسلمين الى ترك البدع والخرافات والعودة الى نقاوة الكتاب والسنة . ورغم أنها قد اعترفت بالمذاهب الإسلامية الأربعة ، فإنها دعت الى فتح باب الإجتهاد الذي أغلق منذ نهاية القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي . ويعتقد السنوسيون أن مذهبهم هو خلاصة النظريات الإسلامية السابقة . ولم تكن جمعيتهم متعصبة لمذهبها ، بل أنها أعترفت بالطرق والمذاهب الأخرى وسمحت لأتباع غيرها بالإنتساب إليها . واعتبرت نفسها امتدادا للدولة الإسلامية (الثيوقراطية)[4] .

ومن الوجهة السياسية فقد قاومت الإستعمار الأوروبي دفاعا عن القطرين الليبي والجزائري ، حيث كان عليها أن تواجه النفوذ الفرنسي من الجنوب والنفوذ الإيطالي والإنجليزي من الشمال[5] .

(1) وهي العروسية والعيسوية والرفاعية والسعدية .
(2) نفس المرجع ، ص 61 .
(3) على الحافظة : المرجع السابق ، ص 61 .
(4) Les confréries réligieuses en Algérie. Op Cit. P. 141.
(5) Loc Cit.

وكان زعيم الجمعية السنوسية يتحلى بالأخلاق الحميدة ، وفضائل الدين الإسلامي وكان نظامه يمتاز بالقوة والصرامة وبالإنضباط المحكم ، الذي كان يفرض على أتباعه ، كما كان زعيم السنوسية يتمتع بسلطة فكرية وزمنية والتي كان يمارسها لنشر مذهبه من قابس غربا الى الاسكندرية شرقا ومن شاطىء البحر المتوسط الى إفريقيا الوسطى[1] .

وجملة القول أن الطرق الصوفية كانت محل رضاء المسلمين في أول عهدها ، حيث أعجب الناس بالانتساب اليها ، نظرا لزهد رجالها ، وتقواهم ، أيما اعجاب ، ولكن المبتدعين والمنبوذين قد انضووا تحت لواء هذه الطرق ، فحدث الانحراف وبدأ الجمود[2] . ومع ذلك فان الجمعيات الدينية ، وزوايا المرابطين في الجزائر ، بقيت حتى الربع الأخير من القرن التاسع عشر – باعتراف الادارة الفرنسية نفسها – منبعا للثقافة ، والعلم ، وخلايا للسياسة ، والتوجيه الثوري ، ورباطات للجهاد المستمر ضد أي عدوان خارجي ، حيث كانت تضم في مؤسساتها عناصر وطنية معادية للاحتلال الأجنبي ، رغم غموض بعضها وانغماس البعض الآخر في الجمود والسلبية المجردة ، ومعارضة التقدم الحضاري للمسلمين ، كما هو واضح في مبادىء الخلوتية . ولكن هذه الجمعيات الدينية قد تغيرت ولم تبق ثابتة على مبادئها ، إلا أن هذا التغير ، الذي حدث في مسار الطرق الصوفية ، كان ناتجا عن التأثيرات الاستعمارية ، التي استخدمت كل الوسائل لتسخير هذه المؤسسات الدينية لخدمتها نظرا لما كان لها من هيمنة روحية على الجماهير المسلمة .

– مكانة الطرق الصوفية في الجزائر قبل ظهور الحركة الاصلاحية :

لقد واجهت الادارة الاستعمارية في الجزائر ، خلال القرن التاسع عشر ، صعوبات جمة في السيطرة على المجتمع ، نتيجة لوجود القوى الدينية الفعالة ، ذات النفوذ الروحي المهين على المسلمين الجزائريين[3] .

(1) Les confréries réligieuses en Algérie. Op Cit. P. 141.
(2) مبارك الميلي : رسالة الشرك ومظاهره ، مرجع سابق ، ص 264 .
(3) Charles André Julien. Histoire de L'Algérie contemporaire.
La conquête et les délits de la colonisation (1827 - 1871) Tome presse universitaire de France 2 ème édition. Paris 1979, P.I

وكما اتضح من العرض السابق للمدارس الصوفية الكبرى ، فإن تأثيرها قد وصل الى الجزائر خلال قرون متعاقبة ، اذ ظهرت جمعيات دينية كثيرة ، تفرعت عنها زوايا منتشرة في كل أنحاء القطر الجزائري ، وانتشر معها تقديس الأولياء ، وأضرحتهم ، وظل في تزايد مستمر حتى القرن العشرين ، فبجانب كبار الأولياء المشهورين مثل : سيدي بومدين في تلمسان ، والشيخ محمد بن عبد الرحمن بوقبرين في منطقة جرجرة ، كان ثمة رهط من الأولياء الشعبيين الذين ادعوا نزول بركات الله عليهم من السماء ، والتي يمنحونها بدورهم الى مريديهم ، وقد أصبحت قبورهم مزارات يأتيها المؤمنون بهم من كل صوب ، يحجون اليها ، ويستمدون البركة منها بواسطة الصلوات والنذور والطقوس السحرية .

وكانت الصلة بين الولي ، ومقامه قد تأخذ بعدا غير محدود ، فقد اسة المرابط الذي كان اسمه يعني في الأصل التقي ، المستقر في الرباط ، تتمثل في شخص الولي وهو على قيد الحياة ، أو في قبره بعد وفاته ، وفي من يخلفه في مهامه ، وفي الأمتعة والحيوانات الخاصة به ، وفي الأشجار التي تحيط به على اعتبار أنها مقدسة .

وبالاضافة الى القداسة الموروثة هناك قداسة أخرى يمكن اكتسابها بالمزايا الشخصية.

وهكذا كانت المرابطية في حركة نشوء مستمر[1] . ولكن الأخطر من حركة المرابطين المنعزلين ، وجود الجمعيات الكبرى ، فالى جانب الدين الإسلامي القويم بدأ ظهور اسلام صوفي ، ابتداء من القرن (7 هـ) / (13م) . فقد أنشأ الصوفيون زوايا لهم يمارسون فيها طقوسا عبادية معينة ، متوهمين أنهم بواسطتها يصلون الى سر الوجود ، والى الحقيقة الالهية .

وهكذا تكاثرت الزوايا الكبرى ، واصبحت محلات للعبادة ، ومدارس للتعليم ، ومنازل للضيافة ، وفي الجزائر كانت العبادات تقوم على أساس إنشاء أوراد مستندة على آي الذكر الحكيم ، ومن الزواية ، التي يكون على رأسها شيخ يحتفظ بالبركة ، ينطلق مندوبون (مقدمون عنه) ليبلغوا أوامره ، وتوجيهاته الى مريديه[2] . (الاخوان) المنتشرين في شتى أنحاء البلاد .

Charles André Julien, Histoire de L'Algérie contemporaine. (1)
Op Cit. P. 15.
IBID. P. 17. (2)

والحق أن مهام الطرق الصوفية لم تكن قاصرة على تبليغ التعاليم الدينية لأتباعها ، والتي من شأنها أن تؤمن لهم سعادة الدنيا والآخرة ، بل كانت أيضا حريصة على أن توصل اليهم توجيهات ذات طابع سياسي تتلاءم مع معتقداتهم الدينية .

ولقد كان المقدمون يعينون من قبل أسلافهم ، أو ينتخبون من قبل الاخوان الذين كانوا يتمتعون بروح التعاون والانسجام بينهم ، وكان الاخوان كثيرا ما يحاولون الابتعاد عن السياسة ، اللهم الا اذا تعلق الأمر بمسألة التضامن الإسلامي[1] .

وهكذا يمكن القول أن الطرق الصوفية في الجزائر قد مرت بثلاث مراحل أساسية:

- تميزت الأولى بالنشوء ، والبناء ، وظهور المذاهب المتعددة ، ونشر الفكر الصوفي بين المسلمين ، وبناء الزوايا ، ومحلات العبادة ، والتعليم ، والعمل على تكوين القاعدة الشعبية المتمثلة في الأتباع ، والمريدين الذين يؤمنون بمذاهبها الجديدة ، وبخلق المناخ الملائم لنموها وانتشارها عبر أنحاء الوطن ، والظهور بمظهر الورع والتقوى والتمسك بمباديء الكتاب والسنة .

أما المرحلة الثانية : فقد تميزت بالمحافظة على التراث العربي الإسلامي والرياضة الروحية ، ونشر الدعوة الإسلامية[2] . بين الناس ، حيث كانت هذه الزوايا عبارة عن مؤسسات دينية ، ومراكز ثقافية ، ونوادي اجتماعية ، وخلايا سياسية يتعلم الناس فيها مباديء دينهم ، وتعاليم شريعتهم ، وفيها يتلقون مختلف العلوم والمعارف ، ويقيمون العلاقات الاجتماعية ، والعسكرية ، والسياسية[3] .

وقد بلغ عدد الزوايا في الجزائر (349)، زاوية، وعدد المريدين، والاخوان 285000 مريد[4] . وكانت مؤسساتها التعليمية مقسمة الى قسمين : كل قسم منها يقوم بدوره أحسن قيام .

- **القسم الأول :** يقوم بوظيفة تعليم القرآن الكريم وتحفيظه للصغار ، وتضم كتانيبه غالبا (الغرباء) الذين سبق لهم أن تعلموا الحروف الهجائية ، واستظهروا بعض السور من آي الذكر الحكيم على الأقل[5] .

Charles André Julien, Histoire de L'Algérie Contemporaine. P. 17. (1)

(2) ينظر أحمد توفيق المدني ، كتاب الجزائر ، المرجع السابق ، ص 351 .

(3) ينظر أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 64 .

(4) ينظر عمار طالبي : المرجع السابق ، ج 1 ، ص 18 .

(5) ينظر محمد بن ميمون الجزائري ، التحفة المرضية في الدولة البكداشية ، في بلاد الجزائر المحمية ، تقديم وتحقيق محمد بن عبد الكريم ، ط 1 ، ش ن ت ، الجزائر 1972 ، ص 58 .

النضال ضد المستعمر . رغم التقارب

لأستاذ محمد قنانش[1] وهو عضو من
ـارنة حركة العلماء بحزب الشعب
لمنية سياسية ثورية تستمد أصالتها
الوضع القائم بتحرير الوطن من
اح تعتمد على كافة فيئات الشعب
ـاصة وغايتها محدودة تعتمد على
، الدين واصلاحه حتى يتماشى مع
كم الذي هو الاستعمار .
لتالية على صاحب هذا الرأي :
الشعب امتدادا له جمعية دينية في
ـه قبل أن يتحول الى منظمة

الوطن الجزائري ، بل أنهم اعتبروا
كلمة الوطن والوطنية كلمة
ن يشعر بمعناها ...)[3] .
جهر العلماء بعبارة الاستقلال في
الى صعوبة الاعلان بهذه الكلمة

ـموح بها للجزائريين في كل من
باريس كانت أكثر سهولة من
دعوة في فرنسا الى اضراب عام
ـها في الجزائر حيث تبدو هنا

ـسمبر 1937 . نقلا عن جريدة المنتقد
في سنة 1925 .

- **أما القسم الثاني** : فقد كانت مهمته تتمثل في تدريس بعض فنون العصر وخاصة (الفقهيات) والعقائد ، وقواعد النحو والصرف ، وفنون البلاغة ، والمنطق وبعض المبادىء في علم الفلك[1] . وهذا القسم الأخير لا يستقبل في معظم الأحيان الا المستظهرين لكتاب الله من طلاب العلم والمعرفة .

وكان للزوايا مكتبات عامة تحتوي على أشتات المخطوطات في مختلف فنون وعلوم العصر ، وكانت محط انظار الطلبة ، والأساتذة الذين يرتادونها من كل حدب وصوب للمطالعة والبحث ، وكانت هذه المكتبات موزعة على القطر الجزائري حسب أهمية المناطق التي تتمتع بالثقافة ، وتدريس العلوم ، لا سيا المدن مثل : الجزائر العاصمة ، وقسنطينة ، وتلمسان[2] .

وجملة القول أن الزوايا في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي كانت تحتل مكانة مرموقة بين المدارس الثقافية الإسلامية في البلاد[3] ، وتنتشر في العديد من المناطق داخل حدودالبلاد . اذن فالزوايا الجزائرية ، بالمقارنة مع المؤسسات الدينية والثقافية في الأقطار العربية والإسلامية المعاصرة لها ، كانت تعتبر في غاية الأهمية . بل أنها كانت تفوقها في نشر الثقافة والدعوة الى الإسلام ، ولكن بالنظر الى العصر الإسلامي المزدهر بالعلوم ، والفنون ، والآداب ، تظهر الزاوية الجزائرية خلال القرون المتأخرة في غاية الانحطاط والتدهور ، اذ أصبح العلماء يقتصرون على نقل العلوم ، والمعارف التقليدية نقلا آليا ، وباتوا عاجزين عن الخلق والابداع في مضار العلوم والمعارف الإسلامية . والإجتماعية ، ومع ذلك لم يكن ، قبل ظهور الحركة الإصلاحية في الجزائر ، من يفكر في أن الإسلام هو غير ما كانت تدعو اليه الطرق الصوفية ، بل إن الجميع كان يعتبر أن الممثلين الحقيقيين للإسلام في الجزائر هم رجال الزوايا ، التي كان لها فروع كثيرة في المدن والقرى ، وحتى بين البد والرحل[4] .

والحق أن معظم الثورات خلال القرن التاسع عشر ، ضد الوجود الفرنسي في الجزائر «كانت قد أعدت ، ونظمت ، ونفذت بوحي من بعض هذه الزوايا ، فالأمير

---

(1) ينظر نفس المصدر ، ص 59 .

(2) ينظر نفس المصدر ، ص 58 - 61 .

(3) المراكز الثقافية التي بلغ عدد أصنافها المختلفة سبعة أنواع وهي : كتاتيب القرآن ، الزوايا ، المساجد ، المدارس ، الدكاكين التجارية ، الأندية المنزلية ، المكتبات العامة والخاصة .

(4) Ali MERAD. Op Cit. P.P. 58. 59.

... كان ينتسب لواحدة منها ، وهي الطريقة القادرية»[1] والشيخ ... القادر نفسه كان ... الزعيم الروحي لثورة 1871م كان رئيسا لأكبر طريقة جزائرية ، وهي ... الطريقة الرحمانية .

وهكذا كانت الزوايا الصالحة في الجزائر مصدرا للعلم ، والهداية ، وحامية الدين ... ، ومنبع اليقظة ، والنهضة ، وهي عون للاصلاح ومنبت لثورات عديدة في ... على الاستعمار[2] .

أما المرحلة الثالثة : فهي مرحلة الجمود ، والانحراف في أنظمة بعض الزوايا ... ، وأعمالها تجاه أتباعها ، حيث يلاحظ المرء أن بعض هذه الزوايا قد ... عن مبادئها وأهدافها مع سقوط البلاد تحت وطأة الاستعمار ، واضحت عميلة ... ومعينة له على الجزائريين .

كيف تحولت بعض الطرق الصوفية الى خدمة الاستعمار الفرنسي ؟

مما لا شك فيه أن الادارة الفرنسية في الجزائر ، قد واجهت صعوبات جمة خلال ... عهدها ، في فهم الإسلام ، والسيطرة على أصحابه بهذا القطر . إن المؤرخ ... (شارل روبير آجرون[3] ، يَعْزِي سبب ذلك الى العوامل التالية :

(1) أن المسلمين في الجزائر كانوا يولون اهتماما كبيرا لتقديس المشايخ ، ... ، أو أرواح المشايخ .

(2) أن المؤرخين الجزائريين قد أهملوا دراسة تاريخ الدين الإسلامي في بلادهم ، ... كتابة تاريخ الجزائر ، من قبل المؤرخ غير المسلم ، قد تكون مغشوشة ، أو ... ، مما يزيد في صعوبة دراسةالحياة الدينية في الجزائر ، خلال فترة الإحتلال .

إن هذا الرأي يعالج المشكل الذي عانت منه فرنسا في فهم الحياة الدينية للشعب ... من ثلاث زوايا ، وهي مبالغة الجزائريين في طاعة شيوخ المرابطين ، ... كتابات جزائرية عن الحياة الدينية ، وعدم نزاهة كتابة المؤرخين الأجانب ، ... هذا الموضوع الهام من حياة الشعب الجزائري .

---

(1) ... أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، ج 2 ، ص 46 .

(2) ... محمد علي دبوز ، أعلام الاصلاح في الجزائر ، المرجع السابق ، ج 1 ، ص 19 .

(3) CH.R. AGERON. Histoire de l'Algérie Contemporaine. Op Cit. P. 16...

والواقع أن كتابات الجزائريين قبل الإحتلال ، كما هو معروف كانت مركزة أساسا على الناحية الدينية(1) ، فكيف يمكن القول إن الجزائريين لم يكتبوا تاريخ دينهم في ذلك الوقت ؟ .

كما أن مبادىء الإسلام هي واحدة لاتختلف لدى جميع المسلمين ، سواء في الجزائر ، أو في الأقطار الإسلامية الأخرى ، ومن هنا يمكن للمرء أن يتساءل كيف وجدت فرنسا صعوبة في فهم (الإسلام الجزائري !) ، اللهم الا اذا كانت تعتبره اسلاما خاصا بالجزائريين وحدهم ؟ ولكن يمكن ارجاع ذلك الى العلاقة السياسية المعقدة بين الادارة الفرنسية ، والمجتمع الجزائري ، ورفض الجزائريين للسيطرة الإستعمارية ، لأن بطش العسكريين بالمدنيين الجزائريين ، والوحشية التي انتهجوها في غلق أبواب المساجد ، وفي مصادرة الأوقاف الإسلامية ، وتهديم المقابر ، وغلق الزوايا التي كانت تمثل المصدر الوحيد تقريبا لتثقيف الشعب وتوعيته(2) ، هو الذي جعل الجزائريين يبتعدون عن فرنسا يوما بعد يوم ، ومن هنا كانت الصعوبة في فهم المجتمع الجزائري ، فهما دقيقا ، من طرف المحتلين الذين يرغبون في بسط نفوذهم بسهولة على الجزائر .

وهكذا يتضح أن فرنسا كانت تهدف من وراء تحطيم المؤسسات الدينية وتعيين رئيس للأساقفة الكاثولكيين في الجزائر ، الى خنق الاسلام ، وتسييره حسب مصالحها ومطامحها الإستعمارية .

وجملة القول إن فرنسا قد حاربت الاسلام في الجزائر بشتى الوسائل ، وفي كل الميادين ، حتى جردته من محتواه الحقيقي ، فمنعت الكتاتيب القرآنية التابعة للزوايا من أداء رسالتها ، وقيدت نشاط الفقهاء ، وعزلتهم عن ممارسة الحياة المباشرة مع الشعب ، كما عملت على إضعاف الركن الخامس من أركان الإسلام ، فحددت جوازات السفر الخاصة بالحج ، حتى لا يتأثر المسلمون الجزائريون بما كان يجري ، في المشرق الإسلامي ، من أفكار إصلاحية أيام حركة التجديد الإسلامي . كما أنها لم تسمح للجزائريين الا بممارسة بعض الاحتفالات الدينية من أعيادهم السنوية .

(1) يمكن مراجعة هذا الموضوع في كتاب الدكتور أبو القاسم سعد الله ، تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الأول والثاني .

(2) Charles Robert Ageron, Histoire de L'Algérie contemporaine. Op Cit. P. 168.

هذه هي المبادىء التسامحية التي عاملت بها فرنسا الجزائريين)(1) !

ونتيجة لهذا الضغط أصبحت كل الزوايا الجزائرية خاضعة للنفوذ الفرنسي ، باستثناء بعض الزوايا الجنوبية ، ووادي ميزاب الذي بقي أهله يتمتعون بنوع من الحرية في تسيير شؤون زواياهم ومساجدهم .

وهكذا أصبح المرابطون (تلك الطوائف والجمعيات الدينية) العدو اللدود للادارة الفرنسية حيث عملت هذه الأخيرة على تقليص واجهاض نفوذها (نظرا للدور السياسي والعسكري الذي لعبته في مناهضة الإستعمار منذ سنة 1830) . حيث قامت الادارة الفرنسية بوضعها تحت رقابة الشرطة المباشرة ، كما عملت على سجن رؤسائها ونفي قادتها من أصحاب النفوذ ، والتأثير على الجماهير الشعبية ، ونادى المعمرون من جهتهم بشل حركة هذه الجمعيات . ففي 1870 اتهمت الادارة الفرنسية الطريقة التجانية بالقيام ببعض المساعي المضادة للسيادة الفرنسية ، والقت القبض على شيخ هذه الطريقة (أحمد التيجاني) في نفس السنة وقامت بنفيه الى فرنسا الى أن أطلق سراحه سنة 1881م ، حيث تزوج بفرنسية هنالك ليكفر عن تهمته السابقة ، ويتقرب بذلك الى الفرنسيين ، ولكن هذا الموقف الجديد ، لرئيس الطريقة التجانية ، جلب عليه سخط المسلمين ، وبذلك فقد سمعته ، وتأثيره الروحي على الأتباع والأنصار(2) .

كما القي القبض مرتين على الشيخ طكوك ممثل الطريقة السنوسية في الجزائر ، وهي الطريقة التي قاومت كلا من الفرنسيين والايطاليين في الجزائر وليبيا . حيث كانت المحرك الأول لثورة بوعمامة سنة 1881م .

وفي عام 1893م القي القبض على أحمد بن الشيخ طكوك بتهمة ذهابه الى عاصمة السنوسيين في (الجغبوب) بدون اذن من الادارة الفرنسية ، حيث كانت هذه الأخيرة تعتبر كل مسلم أجنبي ، يجول في الجزائر ، عميلا للسنوسية التي تعمل لصالح الخلافة العثمانية . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان الادارة الإستعمارية قد قمعت بشدة الجمعية الرحمانية فقتلت ، ونفت شيوخها ، وأتباعها نتيجة لدورها الهام في ثورة 1871 م ، وأجبرت على الإنقسام الى عشرين جمعية حتى اعتُقِد أن هذه الطريقة

(1) IBID. P. 169.

(2) Charles Robert Ageron, Histoire de L'Algérie contemporaine. Op Cit. P. 173.

قد أبيدت وأزيلت تماما من الوجود . ومع ذلك فان السلطات الفرنسية كانت متخوفة من هذا الوضع ، لأن هذا الأنقسام قد انبثقت عنه 117 زاوية مما أدى الى تزايد عدد الأتباع الذين أصبحوا في سنة 1895م 295189 بعد أن كانوا في سنة 1882م 168974 ، ورغم التكاثر في عدد الأتباع ، فان الطرقية لم تتطور بصفة عامة منذ 1880م . وما كاد يطل القرن العشرين حتى أجبرت على الانضام الى النظام الاستعماري .

ان النظرة (العلمانية) قد جعلت الفرنسيين يعتقدون أن الطرق الصوفية ... كانت عبارة عن منظمات ذات أهداف سياسية تعمل على خلق أنواع من الهيمنة الطبقية ، والإجتماعية القائمة على استغلال المرابطين لعامة الشعب[1] . ولكي تسيطر ادارة الإحتلال على الجماهير الشعبية أخضعت الطرق الصوفية لنفوذها .

وهكذا تحولت الزوايا الجزائرية الى خدمة الإستعمار من جهة ، والاحتفاظ بامتيازاتها الإجتماعية من جهة أخرى ، ولم تعد لها غاية – كما نص على ذلك قانونها الأساسي – الا الحفاظ على نفوذها ، وشهرتها ، والاهتمام بجيوش الفقراء المنتشرين في المساجد ، والزوايا ، واصلاح حالهم[2] .

هذا وقد أصبحت بعض الزوايا تنشر عقائد مخالفة للدين ، وهي كفر والحاد صريح حتى أصبح الناس يشهدون شهادة الاخلاص ، ولكنهم لا يخلصون لله وحده ، بل إنهم يعتقدون في شيوخ المرابطين على أنهم واسطة تقربهم الى الله ، كما صار الناس يصلون ولا يخشعون الا بين يدي من يتبركون بهم ، ويشحون في اخراج الزكاة ، ويتسابقون الى الوفاء بما ينذرون للمزارات والمقامات ، ويصومون رمضان لا على أساس الحجة الشرعية في ثبوته وانقضائه ، ولكن على أساس أوامر رؤسائهم الروحيين من المرابطين ، والطرقيين . ونتيجة لهذه الخرافات ، والبدع المستحدثة أصبح الإنسان لا يفرق بين عصر الوثنية ، وبين ما صار عليه المجتمع الجزائري في ظل الإحتلال الفرنسي[3] .

ومن المعروف في تاريخ الصوفية أن شيوخها قد ادعوا علم الغيب ، والتصرف في

(1) Charles Robert Ageron, Histoire de L'Algérie contemporaine. Op Cit. P. 174.
(2) القانون الأساسي للزوايا : البصائر ، عدد 148 ، قسنطينة جانفي 1939 ، ص 1 .
(3) ينظر مبارك الميلي : رسالة الشرك ومظاهره ، مصدر سابق ، ص 102 .

الكون ، (والدلال على الله من غير أن يعرفوا بعلم واتقان عمل) بل أن المتأخرين منهم أصبحوا يفضلون الجهل على العلم[1] ، وهذا ما يذكرنا بعصر الاقطاع في العصور الوسطى ، حين كان النبلاء يفخرون بأنهم لا يقرأون .

واذا كانت الصوفية قد ظلت طوال قرون عديدة تبحث عن الاسناد لربط طرقها بالعلماء الزهاد ، لتبرير بدعها ، وخرافاتها ، فان أحمد بن سالم التيجاني السالف الذكر قد اختصر الاسناد ، وادعى أنه تلقى طريقته من الرسول ﷺ من غير واسطة[2] .

هذا وقد روجوا بين الناس فكرة شيطانية لضمان سلطانهم واستمرار نفوذهم وهي قولهم : (من لم يكن له شيخ ، فالشيطان شيخه) .

ويقول الاستاذ مبارك الميلي[3] في هذا الصدد أنه قد قرأ كتابا للتيجانية – وهي فرع من الخلوتية – يحكم فيه مؤلفه بردة كل من فارق طريقته ، وذهب الى طريقة أخرى أو تخلى عنها .

وبهذه الأساليب الملتوية تمكن الطرقيون أو المرابطون من فرض نفوذهم الروحي على عامة الشعب ، وهكذا فباسم الدين استغلوا أموال الناس وعقولهم ، وأنزلوا في قلوبهم الرعب ، والخوف من كل شيخ وطريقة .

ومن المعروف عن الطريقة الحنصالية (وهي شعبة من الشاذلية) أن شيخهم قد أباح لهم اللاهي ، وتمتيع النفس بما تشتهي .

ومما ادعاه الطرقيون أن شيوخهم كانوا يعرجون الى السماء ، وأنهم يجرون الأنس مع الملائكة ، والاجتماع بالرسول ﷺ في كل يقظة ، وأنهم يتصرفون في السماء ويستطيعون سلب العلم من كل من يغضبون عنه ، ويعبرون عن ذلك بقولهم : (العلماء مصابيح ونحن مراويح)[4] ، وهناك دلائل كثيرة فعلية وقولية على ادعاءاتهم بالألوهية أمام أتباعهم ، قال العربي بن حافظ[5] ، وهو أحد مشاهير المرابطين : (يارب أنت تشبح وأنا نشبح وما خايف الا على جهتك)[6] . ومعنى

(1) ينظر مبارك الميلي : رسالة الشرك ومظاهره ، مصدر سابق ، ص 266 .
(2) نفس المصدر ، ص 267 .
(3) نفس المصدر ، ص 273 .
(4) مبارك الميلي : رسالة الشرك ومظاهره ، مصدر سابق ، ص 279 .
(5) كان يقطن بجنوب ميلة بالقرب من العثمانية ولاية قسنطينة .
(6) نفس المصدر ، ص 281 .

اشبح اضغط ، ومراده اظهار قوته مع الله ، والضغط على خلق الله ، ومنازعته الحكم ، ولكنه يخشى على التخفيف من جانب الله على عباده الضعفاء .

ومن تبليه الطرقيين للعامة وتخذيرها وحثها على شد الرحال الى زيارة شيوخها ودَر الأموال عليهم قولهم : (سلم تسلم ، اعتقد ولا تنتقد ، زوروا أتنوروا) .

والحق أنه اذا تمعن المرء في هذه المخازى والسذاجة الفكرية ، وفي الهيمنة الروحية المغشوشة ، والتهافت على الدنيا باسم الدين وعلى حساب الاسلام والمسلمين في الجزائر ، طيلة الوجود الفرنسي ، فيها يدرك وبكل وضوح أن هذه الأزمة الأخلاقية ، وهذا الانحطاط الفكري واهدار الكرامة الإنسانية ، في هذا القطر العربي الإسلامي ، ناتج أساسا عن جشع بشري آخر تميز به حاملوا الحضارة الفرنسية الذين رسموا مصالحهم الاقتصادية ، واهدافهم السياسية ، على جثث شعوب المغرب العربي ، الذي تأخر به قطار الحضارة الإنسانية في احد المنعطفات التاريخية كنتيجة أيضا لاشتداد أعاصير الحروب التى حاولت اجتياح هذه المنطقة العربية في وقت مبكر ، وكانت أوروبا الغربية هي مصدر هذا الاجتياح العسكرى الايديولوجي الفكري والإقتصادي المدفوع بروح صليبية ممقوتة ، وحقد حضارى متأصل في أعماق المجتمعات الغربية منذ بزوغ شمس الإسلام على أديم البسيطة .

وهكذا وقد ظلت الطرق الصوفية في هدوء ظاهرى تام يسيطر على الحياة الدينية والإجتماعية ، وقد ساعد على ذلك «ما للمرابطين من تأثير ذي صبغة سحرية على الفلاحين ليس فقط على انحطاط الدين ... بل على تكاثر الدجالين . ولم يكن للمرابطين ، ومن خلفهم ، سلوك واحد تجاه السلطات الفرنسية ، بل اختلف حسب اعتبارات اجتماعية أكثر منها دينية .

قالمرابطون الصغار الذين كانوا يعيشون في بؤس بالقرب من قبر ولي صالح محلي كونوا طبقة كادحة تميل الى المعارضة وتتأثر بوعظ العلماء .

أما المرابطون الكبار فقد كانوا يشكلون أرستوقراطية عقارية كسبت قوة جديدة على انقاض نبالة السيف المتدهورة»[1] .

وكانت مصالح أصحاب الأملاك الكبيرة قائمة على استغلال الفلاحين ، وقد مكن ولعهم بالأبهة ، وخاصة بالألقاب ، والأوسمة الشرفية مديرى الشؤون الأهلية المحتالين

(1) Charles. André Julien, L'Afrique du nord en marche. Op Cit, P. 93.

من اتخاذهم كمعاونين وممثلين للادارة[1] ، وذلك بواسطة اغرائهم بالحصول على ما يبتغون .

وهكذا أصبح الكثير من الطرق الصوفية أداة طيعة في أيدى الادارة الإستعمارية ، والحارس الأمين على المصالح الفرنسية ، حتى أصبح المعمرون يعتبرون رجالها الممثلين الحقيقيين للإسلام الصحيح المتسامح بالمقارنة مع جماعة العلماء[2] .

وقد كتبت جريدة البصائر - اللسان الرسمي لجمعية العلماء - ذات مرة تقول : «المرابطون هم حيوانات الإستعمار الداجنة ، فهم اليد التي تنفذ الأوامر المشؤومة ، والجسر الذي يفتح له الطريق ، وما انفكوا يناقضون الله في ظهورهم بمظهر الأناقة أمام الشعب ، والعبودية ازاء المستعمرين ، والرؤساء الاداريين الطغاة» . ورغم ما أصاب الطرق الصوفية من تفكك خلال العشرينات من القرن الحالي نتيجة لظهور العلماء المصلحين ، فقد حاول بعض المرابطين وبعض أعضاء من جمعيتي الرحمانية والدرقاوية تجديد نفوذهم باقرار الخرافات ، واحياء مذاهبهم ، لكنهم كانوا يفتقرون الى القادة المقتدرين ، والى الحرية في العمل ، فاقتصر نشاطهم «على مجادلات مع العلماء المصلحين وتأسيس بعض المدارس القرآنية ، والاحتفال بالأعياد تكريما للأولياء الصالحين ، ولما كانوا خالين من الارادة البناءة والإيمان الفعال ، فانهم لم يستطيعوا مواجهة حملات خصومهم الا بالاهتزازات من حين لآخر أو بخنوع محزن»[3] .

ولما كان من أهداف الاستعمار القضاء على الدين والأخلاق ، وكل المقومات الحضارية للشعب الجزائري ، فقد وجد في هذه الزوايا سندا قويا يسخرها لتحقيق أغراضه ، وتنفيذ مشاريعه الاستعمارية في هذه البلاد ، فشجع الناس على عبادة الشيوخ وتقديسهم حتى أصبحت كل المرتفعات مزدانة بالقباب ، والأشجار المتميزة بضخامتها أو بشكلها رمزا مقدسا لهؤلاء المشائخ ؛ والاداريون الفرنسيون يدركون جيدا أن هذه المعتقدات ناتجة عن الخرافات ، وليس لها أي ارتباط بالاسلام[4] .

ان الدراسات التاريخية ، والاجتماعية التي قامت بها الادارة الفرنسية في الجزائر ، خلال السنوات التي سبقت اندلاع الثورة التحريرية ، تعطي للباحث صورة واضحة

(1) Loc Cit.

(2) نقلا عن جريدة البصائر ، قسنطينة 3 ديسمبر 1937 . IBID. P. 94.

(3) Loc Cit.

(4) L'Algérie du demi-siècle, Op Cit, P. 173.

عن الطرق والأساليب التي استعملتها السلطات الاستعمارية في استخدام المرابطين للسيطرة التامة على الجماهير الجزائرية ، كما توضح له بجلاء أهمية هذه الطرق الصوفية في حفظ الهدوء ، والتوازن بين المسلمين الجزائريين ، ويمكننا أن نقتبس من احدى الدراسات المنجزة سنة 1954[1] ، حول هذا الموضوع الفقرات التالية : «إن قادة الزوايا والمرابطين والطلبة (أي حفظة القرآن) وأصحاب البركة كثيرا ما استفادوا من سذاجة الصوفية في استغلال الناس[2] .

«ان زاوية الهامل في بوسعادة تشكل عاملا مهما في التوازن ، كما أن زاوية سيدي علي بن شرقي ومثليها تمثل عاملا هاما يجب استغلاله أحسن استغلال ، لأنها يمكن أن تكون في الظروف الحرجة ذات أهمية ، ولهذا يجب تتبع هذه الزوايا ومراقبتها عن كثب لأنها مهمة بالنسبة الينا ، وأن الزاوية التي يبدو دورها منحصرا في المجال الديني ، والتي اكتسبت قيمة معنوية من قبل السكان المجاورين تمثل عنصرا هاما في حفظ التوازن ، وهو أمر لا جدال فيه . كما أن الطرقيين يمثلون حجر عثرة في طريق كل تغيير اجتماعي مفاجيء ، غير أنهم (أي الطرقيين) في طريق الزوال[3] ، ورغم اختلاف نفوذهم وفقا لاختلاف شخصياتهم المسيرة ، فانهم يمثلون عنصرا ايجابيا بالنسبة للسلطات الفرنسية . فالضربات التي توجه لهم من طرف الأحزاب المعادية للاستعمار دليل قاطع على أنهم يخدمون فرنسا[4] . (وبعد أن كانوا أخطر أعدائنا فقد أصبحوا أحسن مساعدينا . ذلك أن الادارة لا تستطيع التأثير على عقول المسلمين الا عن طريقهم ، وهذا عند ضرورة استعمالهم بطريق غير مباشر)[5] . ان أهم خدمة تستطيع الزوايا تقديمها لنا هي الاحتفاظ بنفوذها ولهذا يجب ابعادها من المسرح السياسي»[6] .

وبناء على هذه التقارير يستخلص المرء أن آراء الاداريين الفرنسيين كانت متفقة

---

(1) هذه الدراسة يحتويها مجلد مرقون ، وغير منشور تحت عنوان (الجزائر في نصف قرن) أعدت وجمعت من قبل السلطات الادارية المتواجدة عبر أنحاء القطر الجزائري كله في شكل تقارير ، ويوجد هذا المجلد في مديرية الوثائق بولاية قسنطينة .

(2) IBID. P. 117.

(3) L'Algérie du demi-siècle, Op Cit. PP. 117. 118.

(4) Loc cit.

(5) Loc Cit.

(6) Loc Cit.

نظمها على أن فرنسا تستطيع الاعتماد على المرابطين في الجزائر ، لحفظ النظام ، لأنهم كانوا يشكلون قاعدة أساسية ترتكز عليها الادارة الاستعمارية لقتل أية [حركة] اصلاحية أو سياسية يقوم بها الوطنيون الجزائريون ، بل أنها قد استعملتها لوقف أي تطور ثقافي أو اجتماعي بين المسلمين ، لما كانت تمثل من جمود ، كنظام متحجر عقيم يسعى الى عرقلة تطور الفكر الإنساني ، وتقدم الحضارة البشرية ، وما يضير هذه الفئة أن تلعب هذا الدور السلبي بالنسبة لمواطنيها ، وقد [طغت] عليها المادة ، وجردت من كل الأحاسيس الوطنية ، والمشاعر الدينية الحقيقية [التي] كانت تحرك العلماء المصلحين الذين تشربوا من منابع الفكر الإسلامي الصحيح فانطلقوا يناضلون باسم الدين والوطن على جميع الجبهات .

ونتيجة لانتشار الخرافات وتشويه الوجه الحقيقي للإسلام الحنيف ، فقد ضعف الوازع الديني في نفوس العامة ، فلم يعد لها رادع روحي يصونها من الانحطاط الخلقي ، فانطلقت في سبيل الفساد لم يعد يهمها شيء من المسائل الدينية ، أو القضايا الاجتماعية حيث لم يعد القرآن الكريم مفهوما حتى لدى حفاظه .

وحول هذا الموضوع يقول أحد التقارير الفرنسية سنة 1954م : (ان المسلمين رغم تعلقهم بالدين حقا فانهم لا يفقهون الا المعلومات المبدئية عن الإسلام ، وهي مزيج من العقائد ، ومبادىء الايمان ، وعندما يقرأون القرآن فانهم لا يفهمون معناه)[1] .

ومن هنا فقد عم الفساد وكثرت السرقة وانتشرت جرائم الضرب ، والقتل ، والاعتداء على الشرف ، وتنادى الناس بالعصبية الجاهلية «المذهبية والجنسية والجهوية والقبلية»[2] نتيجة لأعمال تلك الفئة المتعاونة مع الإستعمار على تمزيق وحدة الأمة وتشتيتها .

وقد نشرت جريدة المنتقد[3] ، التي كانت تصدر بقسنطينة سنة 1925م ، مقالا حول هذا الموضوع ، بقلم محمد الصالح خبشاش قال فيه : (ان أسباب انحطاط المجتمع الجزائري وتأخره يعود في الواقع الى أربعة عوامل هي :

(1) أرباب الطرق الذين وقفوا حجر عثرة «في طريق التقدم» .

L'Algérie du demi-siècle. Op Cit. P. 13.

محمد علي دبوز : اعلام الاصلاح في الجزائر ، مرجع سابق ، ج 1 ، ص 24 ، 25 .

انظر عدد 4 قسنطينة 1925 ...

خضم النضال ضد المستعمر . رغم التقارب

أورده الأستاذ محمد قنانش[1] وهو عضو من
حول مقارنة حركة العلماء بحزب الشعب
حركة وطنية سياسية ثورية تستمد أصالتها
ى لتغيير الوضع القائم بتحرير الوطن من
ظلام وكفاح تعتمد على كافة فيئات الشعب
ح فهي خاصة وغايتها محدودة تعتمد على
ا : تكييف الدين واصلاحه حتى يتماشى مع
لا من الحكم الذي هو الاستعمار) .
ح الأسئلة التالية على صاحب هذا الرأي :
يعتبر حزب الشعب امتدادا له جمعية دينية في
نانش[2] نفسه قبل أن يتحول الى منظمة

جهر باسم الوطن الجزائري ، بل أنهم اعتبروا
. أيام كانت كلمة الوطن والوطنية كلمة
وقليل جدا من يشعر بمعناها ...)[3] .
ى بأن عدم جهر العلماء بعبارة الاستقلال في
، يعود أساسا الى صعوبة الاعلان بهذه الكلمة

بين الحرية المسموح بها للجزائريين في كل من
الانفصالية) في باريس كانت أكثر سهولة من
زائر . وكانت الدعوة في فرنسا الى اضراب عام
ة من الظهور بها في الجزائر حيث تبدو هنا

السابع ، قسنطينة ، سبتمبر 1937 ، نقلا عن جريدة المنتقد
والوطن قبل كل شيء) في سنة 1925

(2) علماء الدين الذين اشتهروا بالركون الى الخمول ، والاستيعاض عن ترقية الفكر بالجمود والاعتقادبأن هذا من الدين .

(3) بخل الأغنياء وهي ظاهرة تعترض الأمة في طريقها وتردها القهقرى .

(4) الشبيبة المتفرنسة التي كانت آمال الأمة وطموحاتها في قيادتها الى المنبع العذب ، والى الحضارة المعاصرة ، فاذا بها قد هجرتها وعاتبتها وغادرت لغتها ، وعارضت عوائدها وعقائدها) .

ويلاحظ المرء أن صاحب هذا المقال قد وضع الطرقيين في المرتبة الأولى بالنسبة لكل الفئات الإجتماعية الأخرى التي كانت تمثل حاجزا منيعا في طريق تقدم الجزائريين في اطارهم الخاص ، رغم ماتمثله تلك الفئات من خطورة على الشخصية الجزائرية وأخلاق الشعب .

واذا تتبع المرء صحافة المصلحين ، منذ نشأتها حتى قيام الثورة التحريرية ، يجدها حافلة بالمقالات التي كشفت فيها أعمال الطرقيين الشنيعة ، ووضعتها أحيانا في صف واحد مع الاستعمار . وقد كتبت جريدة الشهاب[1] سنة 1927م ، عما آل اليه المجتمع الجزائرى ، مقالا بهذا الصدد صنفت فيه أعداء الجزائريين الذين تعاني البلاد من وطأتهم فقالت : ان الجزائريين يعانون من ثلاثة أعداء : العدو الأول ، هم المعمرون الذين اكتسحوا أوطاننا باسم الإستعمار ، وتوصلوا باسم فرنسا الى ما لا يرتضيه أبدا أبناؤها .

الثاني ، هم رجال الزوايا الذين امتصوا أمخاخ العجزة الغفل من الجاهلين .

الثالث ، بعض «القياد» الذين لم يرحموا أهل البدو ، وهم عيال الله من الفقراء والمساكين .

فهذا المقال يوضح أن العدو الأول في الجزائر ، بعد الاستعمار ، هم رجال الطرق الصوفية الذين استنزفوا ، باسم الدين كل الطاقات الفكرية ، والمادية للشعب الجزائري ، الواقع بين مخالب الإستعمار ، ولم يضعهم في المرتبة الثالثة ، ووضع القياد رغم أن هؤلاء أيضا قد اشتهروا بين الفلاحين بالجشع والعنف في فرض الغرامات ، وجباية الضرائب ومعاقبة الناس بأشد العقوبات لأتفه الأسباب .

ان هذا الجمود الفكرى ، والخضوع الأعمى لشيوخ الزوايا وطقوسهم الكهنوتية

(1) ينظر العدد 117 ، قسنطينة 13 أكتوبر 1927 ، ص 13 ، 14 .

المقدة والخرافات ، والبدع التي ألصقت بالدين ، وانتشرت بين معظم أبناء الجزائر المسلمين ، ونتيجة لسكوت العلماء المحافظين عن هذا الانحطاط الاجتماعي ، والخلقي والفكرى الذي لم يكن يختلف بقليل أو كثير عن الحالة العامة في أوروبا خلال العصور الوسطى ، أمام هذا الركود تمادت سلطات الإحتلال في بسط سيطرتها على كل شرايين الحياة في البلاد ، لأن الإستعمار قد وجد ضالته المنشودة في الطرق الصوفية ، وبعض الفئات المحلية التي تجردت من شخصيتها الوطنية .

ولكن نفوذ الزوايا قد اضمحل في نهاية العشرينات وأوائل الثلاثينات نتيجة لعوامل متعددة أهمها :

(1) اشتداد الحركة الاصلاحية ، وبروز الكثير من علماء الاصلاح على رأس الاتجاه العربي الاسلامي .

(2) ان الكثير من اتباع الطرق الصوفية التحقوا بالخدمة العسكرية وتفتحوا على الحياة العصرية التي يحياها الفرنسيون في أوربا ، وبذلك تفسخت الأفكار المترسبة في عقولهم .

(3) ان الكثير من أتباع الطرق قد هاجروا الى المدن وتأثروا بأسباب المدنية المعاصرة فانقطعت الصلة بينهم وبين تعاليم الطرق الصوفية وضغطها[1] .

وقد كان من الممكن ، بل من المؤكد أن يبقى هؤلاء الطرقيون محافظين على قوتهم ونفوذهم في المجتمع ، ولكن افتقارهم الى التماسك الاجتماعي جعلهم يتقهقرون بسرعة أمام ضربات العلماء المصلحين ، ذلك أنهم كانوا يتسابقون على المستوى المحلي من أجل السلطة وتوطيد نفوذهم .

وفي سنة 1937 عمل الطرقيون بتشجيع من مساعدي ادارة الشؤون الاسلامية برئاسة ميلو (Millut) على جمع شتاتهم من جديد ، وتأسيس جمعية رؤساء الطرق الدينية[2] بالجزائر برئاسة الشيخ قاسمي مصطفى الرئيس الديني للطريقة الرحمانية بزاوية الهامل في «بوسعادة» ، والشيخ سي أحمد التيجاني من زاوية تقرت ، كما أنضم أشخاص آخرون في منطقة الشرق الجزائري الى هذه الجمعية ، وأصبحوا من أتباعها

(1) Charles. André Julien, L'Afrique du nord en marche. Op Cit. PP. 93. 94.

(2) Notes du C.I.E au Prefet de Constantine le 4 Décembre 1941 archives historique. Wilaya de Constantine.

المؤيدين أمثال الشيخ باشتارزى ، وابن الحملاوى بقسنطينة . وكان هدف هذه الجمعية هو محاربة جمعية العلماء المصلحين بمساعدة الادارة الفرنسية ، ولكي يظهروا بمظهر الاخلاص لسلطات الاحتلال فقد وعدتهم باصدار اجراءات تسهل لهم القيام بالدعوة وتعليم اللغة العربية ، وفي هاتين النقطتين يلاحظ تقرير ادارة الاحتلال اقتراب الجمعية الطرقية من جمعية العلماء المسلمين في أهدافها ، رغم أن الواقع عكس ذلك ، فهدف الطرقيين كان تجميد الفكر ، واستغلال الشعب . أما هدف الجمعية فقد كان النهضة الشاملة ، وتنوير العقول ، ورفع مستوى الجماهير المحرومة . ولكن هذه الجمعية الطرقية قد أوقفت نشاطها عقب نشوب الحرب العالمية الثانية[1] ، ومن ثم فقد الطرقيون سلطانهم ، ولم يعودوا يمثلون عنصرا ايجابيا للادارة ، بل أصبحوا يشكلون عبئا ثقيلا على الحكومة العامة نفسها . وهكذا فان الأعمال التي كان يمارسها كل من الطرقيين والمرابطين قد أثرت على عقول المسلمين وجعلتهم يعيشون في دوامة فكرية قاتمة ، ولم يعد الاسلام في الجزائر الا ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التقليدية . وأصبحت وظيفة القرآن مقتصرة على آداء فريضة الصلاة والقراءة على الأموات .

وقد نشرت جريدة لورابيل (Le Rappel)[2] سنة 1941 مقالا بامضاء ابن حيلس تحت عنوان «اكثرات المعسكر الآخر» هاجم فيه المرابطين ، وقال إن الجزائر قد بلغت في الانحطاط درجة لم يسبق لها مثيل في الميدانين الفكرى ، والثقافي ، ووصل بها الحال الى الركود التام أو الموت الحتمي ، فالتعليم العالي ، الذي كان متركزا في الزوايا ، لم يتغير منذ قرون من الزمن ، وجهل اللغة العربية قد نمت جذوره ، خاصة في الأرياف ، ولم يسبق للوطن الجزائري أن غاص في ظلام الجهل مثلما وصل اليه في العهد الأخير[3] . حين أصبح المسلم في هذا القطر يرفع يديه ضارعا الى الله بالنصر لأولئك الذين أنتهكوا مقدسات الاسلام ، وحطموا الرموز الوطنية ليقيموا مكانها كنائسهم وتماثيلهم . وقد كتب هذا المقال بمناسبة التجمع الذي تم بين المرابطين واتباعهم ، وبين السلطات المدنية والعسكرية الفرنسية في الجامع الكبير بالعاصمة يوم

---

(1) N0tes du C.I.E au Prefet de Constantine. Op Cit.

(2) Rapport de Police, Mai 1941. archive historique. Wilaya de Constantine.

(3) IBID.

ـ ايار (ماي) 1941 من أجل الدعاء بالنصر للفرنسيين ضد أعدائهم (الألمان) في أوروبا ، وقد حضر هذا الاجتماع الشيخ الطيب العقبي مما أعطى لهذا الاجتماع طابع «الاتحاد المقدس» ، وذلك بعد الاعلان الذي نشره الشيخ قاسمي مصطفى لاتباع الزوايا وأنصارها . كما أقيمت دعوات مماثلة في جميع مساجد العمالات الثلاث في نفس اليوم[1] .

ومن الغريب أن يحضر الشيخ الطيب العقبي في هذا التجمع الذي دعت اليه الطرقية ، وهو المصلح الكبير الذي زعزع أركانها في الجزائر قبل انشقاقه عن الجمعية . ان هزيمة الطرقيين في آخر المطاف بعد أن تشبثوا بأذيال الاستعمار خلال سبعين عاما ، وبعد تعاونهم مع سلطات الاحتلال على تقويض المبادىء الأساسية للاسلام ، واللغة العربية في الجزائر بتجميد الفكر ، ونشر الأكاذيب ، والخرافات الباطلة ، يظهر حقا الدور الهام الذي قامت به جمعية العلماء في استرجاع الشخصية العربية الاسلامية للشعب الجزائري ، ووضع اللبنة الأولى للفكر العربي المعاصر في هذا القطر .

ان ماكتبته الصحافة الوطنية ذات اللسان الفرنسي ، وماسجلته تقارير الشرطة السرية الفرنسية ، في ربيع 1940 ، ليكشف حقا الآثار الايجابية لجمعية العلماء ، في عهد زعيمها الراحل الشيخ إبن باديس ، لتحويل المسلمين الجزائريين من جهلة مستغفلين (بفتح الغين) الى مثقفين مناهضين للاستعمار وأعوانه الذين قدموا ضمائرهم كثمن فداء لدولة الاحتلال من أجل صيانة نفوذهم ، واستغلال مواطنيهم المحرومين .

ان التاريخ لا يحاسب الجماهير الجاهلة على التفافها حول الطرق الصوفية لأن الفرنسيين عرفوا كيف يجردون الأهالي من الروح الوطنية ، والأحاسيس القومية ، والقيم الاخلاقية ، حين بدأوا بتحطيم المقدسات الدينية ، والرموز الوطنية وتخريب المراكز الثقافية ، وتحويلها الى مؤسسات استعمارية ، ولم يتركوا الا من رضي بالانصياع لأوامرهم ، والدخول في فلكهم ، ولذلك فان العلماء المصلحين الذين قضوا فترة شبابهم في الحجاز وسوريا ، وتونس ، ومصر ، وعرفوا فساد الكثير من الطرق الصوفية المنتشرة في العالم الاسلامي ، وسرعة تأثرها بالاحتلال الأجنبي ، عادوا الى أرض الوطن يحملون حقدا شديدا لمثيلاتها في الجزائر ، وأخذوا يعملون على توحيد

---

(1) Rapport de Police, Mai 1941. archive historique. Wilaya de Constantine.

الجمود ، وتكتيل القوى الحرة للقضاء على كل مظهر من مظاهر الانحراف التي تخدم الاستعمار، ويساعده على البقاء والاستمرار في الجزائر على حساب الشخصية الوطنية. لذا كان العلماء هم الذين أحيوا حقيقة الاسلام بالجزائر باثين فيها وعياً دينياً، وقومياً[1].

ان أهل الجمود كانوا يعتقدون أنهم يستطيعون الاعتماد على عامة الشعب . الذي يعد بالملايين ، ولكن المفاجأة كانت مفزعة في أوساطهم حين علموا أن صوت المصلحين بقيادة الجمعية قد سبقهم الى أعماق الجماهير ، وهذا مايفسر فشلهم الحقيقي واعلان ولائهم للسلطات الفرنسية ، لا سيما وأن الجمعية كانت قد أحرزت على ثقة أربعين في المائة[2] من مجموع الشعب الجزائري ، باعتراف الادارة الاستعمارية نفسها سنة 1954 ، حين طلبت من جميع حكامها في أنحاء القطر أن يقدموا تقارير تتعلق بنشاط الأهالي على كل المستويات .

ولكن بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية وانشغال جمعية العلماء بمشاكلها الوطنية والثقافية ، حاول الطرقيون استعادة نفوذهم على الناس من جديد فنفخوا أبواق شيطان الاستعمار في آذان العامة من أجل الالتفاف مرة أخرى[3] حولهم ، واستئناف العادات الفاسدة الموروثة من عهد الجمود قبل الثلاثينات ، ولكنهم باؤوا بالفشل الذريع ، لأن الجماهير الجزائرية قد تفطنت لمكرهم ، فلم تعد تنطلي عليها حيلهم الخبيثة بفضل جهود العلماء الأخلاقية ، والعلمية ، والدينية ، والوطنية التي قاموا بها خلال عقدين من الزمن .

بعد هذا الاسهاب في موضوع الطرق الصوفية وأعمال المرابطين في الجزائر ، منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وحتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين ، التي مارسوها بسخاء لتدعيم الاستعمار ، وحماية صروحهم من جهة أخرى ، يعرف المرء لماذا كان رد فعل العلماء على الطرقيين عنيفا .

محاربة جمعية العلماء للطرق الصوفية وشيوخ المرابطين

من خلال ماتقدم في هذا الفصل يتضح أن الحياة الدينية ، والاجتماعية ، والفكرية قد تدهورت في الجزائر بشكل لم يسبق له مثيل نتيجة للسياسة ... أعمال الطرق الصوفية التي رضيت بالسير في ركاب الاحتلال حتى

أصبحت الحياة الإسلامية مجردة من محتواها الحقيقي ، وقد تجلى هذا التدهور حسب رأي ابن باديس خاصة في مظاهر التدين ، وفي الحياة الاجتماعية المتصلة بحياة الناس من حيث العمل والكسب ، والثقافة ، والاقتصاد ، فالغنى كل الغنى للمستعمرين وأنصارهم ، والفقر كل الفقر للجزائريين . وقد علل ابن باديس هذا الانحطاط بالعوامل التالية :

أولا - ان الطرقيين أصبحوا يأتون بما يتبرأ منه الاسلام ويصرحون بأنه منه[1] .

ثانيا - تفشي الجهل ، وانتشار الفقر ، وتفرق الأمة ، وازدياد الاستعباد ، ومن ثم فليس ثمة مايدعو الى العجب حقيقة من أن ينفر الغربيون من الاسلام ، ويسخرون منه الا من نظر منهم بعين العلم والانصاف ، فانه يدرك أن ما كان عليه المسلمون هو ضد الاسلام[2] .

ان وصف ابن باديس هذا لحالة الجزائر الدينية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، في غضون العقود الثلاثة الأولى من القرن الحالي ، كان صورة واضحة لجمود الطرق الصوفية ، وتلاشي الثقافة العربية ، واستغلال الثروات الوطنية من قبل المعمرين وعملاء الادارة الفرنسية من الطرقيين ، والمرابطين الذين تعاونوا مع سلطات الاحتلال على تجميد الفكر ، وتشويه وجه الاسلام الحقيقي ، واستعباد المسلمين الجزائريين ، وعزلهم عن التطورات الحضارية التي قد عمت العالم المتقدم كله بأنوارها الساطعة .

ان هذه الأسباب كلها هي التي هيأت المناخ لظهور نخبة من العلماء المصلحين الذين ثاروا على الأوضاع الجامدة ومظاهر الانحطاط في المجتمع .

ولعله من الأهمية بمكان أن نسوق ما أورده العلامة الطيب العقبي حول مقاومة المصلحين للطرقيين ، ومؤسساتهم في حديث له مع صحافي فرنسي كبير سنة 1935 حيث قال ردا على سؤال الصحافي المتعلق بهذا الموضوع :

«نحن لا نحارب المرابطين لعداوة شخصية بيننا وبينهم ، أو حسد لهم على ما أوتوا من مرتبة ، وجاه ، ولكننا نحارب الجهل والضلال اللذين تلبسوا بها ، فنشأ

عن ذلك الاضرار المادى ، والأدبي بهذه الأمة حتى بلغت أقصى دركات الانحطاط الفكرى والاجتماعي معا ، كما هو مشاهد ، ومعلوم من رجال الأمة الاسلامية اليوم ، كما أننا نحارب الطرقيين «لأنه لا طرق في الاسلام ، وانما هو دين واحد وطريقة جامعة»[1] .

ومن هذا النص يستخلص المرء أن العلماء لم يعلنوا الحرب على الطرقيين منازعةً لهم في السلطة والجاه ، ولا غيرةً منهم على النفوذ الروحي الذي كانوا يمارسونه على عامة الناس ، وانما حاربوهم بسبب تمزيقهم لوحدة الشعب ، بخلق طرقٍ مختلفةٍ متصارعة باسم الاسلام ، وهو تقويض ، وتحريفٍ لمبدأ الشريعة الاسلامية التي تدعوا الى وحدة المسلمين وتضامنهم في القول والعمل . هذا مايشير اليه ظاهر النص . أما ما يمكن استنتاجه من محتواه الباطني ، فهو أن العلماء قد حاربوا الطرقيين لكونهم قد تعاونوا مع الاستعمار بما كانوا ينشرونه من خرافات وأباطيل بين أفراد المجتمع لكي يعزلوه عن ميدان الصراع الفكرى ، والسياسي مع المستعمرين ، وهي خطة شنيعة قام بتصميمها واخراجها رجال السياسة الفرنسيون بالتنسيق مع رؤساء الطرق ، وشيوخ المرابطين ، لأهداف مصلحية مشتركة بينهم .

ومن هنا ، ولهذه الأسباب كلها ، جند العلماء المصلحون جيوشا مسلحة بالايمان الراسخ والعقيدة الصلبة ، تلقت تدريباتها الأساسيةفي مختلف الكليات الاسلامية (الزيتونة ، والأزهر ، والحجاز ، والقرويين ، وقسنطينة) واستعدت لخوض المعركة على جبهات متعددة ، وأخذت في الدعوة الى الدين الخالص وأسس التوحيد الكامل ، فعلم المعلمون ، ودرس الأساتذة ، وكتب الكتاب ، وأنشد الشعراء ، حتى اعتقد الناس أن ما يدعو اليه العلماء المصلحون (هو خصومة بينهم ، وبين الطرقيين وليس عقيدة اسلامية عامةّ)[2] .

وقد طلب المصلحون من رؤساء الزوايا وأتباعها أن يحولوا بعض محلاتهم الدينية الى مراكز خيرية ومدارس أخلاقية تسعى لا يصال الخير ، ونفع العموم[3] وتكوين رجال مخلصين مؤهلين للدفاع عن الوطن والدين ، والبحث عن المواهب الفكرية

(1) الشهاب / م 11 ، ج 5 ، قسنطينة ، أوت 1935م ، ص 286 .

(2) جريدة البصائر ، عدد 99 قسنطينة 11 فيفري 1938 ، ص 1 .

(3) جريدة الشهاب ، عدد (1) قسنطينة 12 نوفمبر 1925 ، ص 5 .

الخلاقة ، والأدوية الناجعة لمعالجة الأمراض الاجتماعية ، والفساد الخلقي والعقائدي .

ولما كان الاستعمار الفرنسي يسعى الى محاربة الاسلام في شمال افريقيا بالطرق الصوفية وشيوخ المرابطين كما سلف الذكر ، فان من بين الوسائل التي استخدمها العلماء للدفاع عن الاسلام في الجزائر ، هو التحذير من أضرار هذه الطرق المنحرفة التي لم تكن حديثة العهد في المجتمعات الاسلامية[1] .

قال أبو بكر إبن العربي في «العواصم» : (ان غلاة الصوفية ودعاة الباطنية يشبهون بالمبتدعة في تعلقهم بمشتبهات الآيات والاثم على محاكمتها فيخترعون أحاديث أو تخترع لهم على قالب أغراضهم ينسبونها الى النبي ﷺ ويتعلقون بها علينا)[2] .

فالطرق الصوفية لم تقف عند تبْليه الناس ، واستغلالهم بل أنها بلغت بها الوقاحة الى تزييف الأحاديث النبوية أو اختراع بعضها لخدمة أغراضها وصيانة نفوذها .

وقد كتبت احدى المجلات[3] سنة 1933 تقول : (كانت جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، التي وقفت ضد الطرقيين وما تنشره من خرافات وأباطيل ، تتكون من أشخاص عظماء أحرار «عصريين من متنوري المسلمين» ، ومنذ سنة تقريبا والحرب نائمة بين الاصلاحيين ، والطرقيين بعضهم يعلم بواسطة الجرائد والبعض يدرسون لجماعاتهم أفكار التقدم ، والعمل ، ويحاولون هدم البدع التي دنّست وجه الاسلام ، ولا يخفون مقاصدهم ، ومعارضوهم يدافعون بكل شدة عن مصالحهم المادية والأدبية التي أصبحت مهددة من طرف المصلحين ، فالجزائر اليوم منقسمة الى قسمين : مرابطون وأعداء المرابطين ، ففي الداخل فقد كان أتباع الطرق كثيرين أما بالمدن التي أثرت فيها المدارس الفرنسية فان الشعب فيها لا يريد الا التقدم وتحرير الفكر) .

من هذا النص يتضح أن الصراع المحتدم بين المصلحين والطرقيين[4] ، قد بدأ منذ

(1) ان الصوفية ليست حديثة عهد بالانحرافات عن جادة الاسلام وقد قال الامام محمد بن ادريس في مسألة التصوف (ماتصوف رجل في أول النهار وأتى عليه الضحى الا وهو أحمق) ينظر صالح خرفي ، المرجع السابق ، ص 122 ، ص 123 .

(2) مبارك الميلي : رسالة الشرك ومظاهره ، مصدر سابق ، ص 280 .

(3) Revue Bonnoise. N° 12733. 18 Décembre 1933.

(4) والحق أن النزاع بين المصلحين والطرقيين قد بدأ قبل تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين بحوالي عقد من الزمن ، واشتد بعد انشاء جريدتي المنتقد والشهاب سنة 1925 ، والاصلاح سنة 1927 ، وغيرها من جرائد المصلحين الداعية الى نهضة المسلمين وتمزيق شمل الطرق الصوفية المتعاونة مع الاستعمار .

تأسيس جمعية العلماء عن طريق الحرب الصحفية والأفكار الاصلاحية التي يلقنها العلماء للناشئة في مدارس الجمعية ، سيما وأن الجزائر في تلك الفترة كغيرها من أقطار العالم الاسلامي – كانت تضطرم بمختلف النزاعات والعقائد ، والآراء والمذاهب والمبادىء التي قد تكون عند التأمل فيها ليست من الدين في شيء[1] .

يقول الأستاذ مبارك الميلي[2] : كانت جمعية العلماء عند تكوينها تضم في عضويتها عناصر شتى (من هؤلاء الرهاط يحضرون جلساتها لا خدمة لغايتها ولا اعانة لادارتها ، ولكن عينا عليها فاجرة تبلغ وتشي الى «ادارة الأمور الأهلية» وما ان انقضى عام حتى انقضوا على من فيها من المصلحين المرشدين ليستبدوا بادارة الجمعية دونهم . فعاملهم الله بنقيض مقصودهم ، وخرجوا من الجمعية محاربين ولأغراض «ادارة الأمور الأهلية» منفذين ... وقال قائدهم الوقح «نحن فلسناهم عند الحكومة وهم فلسونا عند الأمة) .

فخروج الطرقيين من الجمعية بهذه الطريقة يوضح أن هدفهم كان نقيض هدف المصلحين من أول الأمر ، ولذلك فعندما وجدوا الجمعية تسير في اتجاه يخيفهم ، ولا يخدم أغراضهم ، انحلوا منها وراحوا يؤسسون جمعية أخرى تناقضها .

أما قول قائدهم السالف الذكر فانه يعبر وبكل وضوح على ارتمائهم المطلق في أحضان ادارة الاحتلال كما يبين من جهة أخرى سقوط هيبتهم في أعين الجماهير المسلمة . لأن العلماء المصلحين كانوا يحذرون الناس في كل مناسبة ، وعلى أعمدة صحفهم ، من مغبة الوقوع في حبال الطرقيين ، ويدعونهم للالتفاف حول الجمعية .

فكانوا على سبيل المثال يقولون للناس حين يجتمعون بهم في شتى المناسبات (انظروا أيها الاخوان الى الفرق بين العلماء . والطرقيين ، العلماء أتوكم مجتمعين لتبليغ العظات ، وشيوخ الطرق يأتونكم متفرقين في سباق لأخذ الزيارات ، الطرق شتتكم وأضرت بكم في دينكم ودنياكم ، والعلماء يريدون ارجاعكم الى الكتاب والسنة وتعليمكم العلم الصحيح)[3] .

واذا كان العلماء قد استعملوا كل وسيلة لتهديم صروح الزوايا ، فلأن هذه الأخيرة

---

(1) أحمد بسام . الكاتب العام لجمعية الطرق . جريدة النجاح عدد 1982 قسنطينة 16 أفريل 1937 . ص 3 .
(2) ينظر رسالة الشرك ومظاهره ، مصدر سابق ، ص 268 .
(3) حمزة بوكوشة : العضو الاداري لجمعية العلماء المسلمين – جريدة البصائر عدد 96 ، قسنطينة 21 جانفي 1938 صفحة 3 .

قد أصبحت آلة طيعة في يد الادارة الاستعمارية تسخرها لا بتزاز الشعب وعرقلة جمعية العلماء ، وقد أوحت اليهم ، كما سلف الذكر ، بعد فشلهم في السيطرة على منظمة العلماء سنة 1932 بتأسيس جمعية تحت اسم «جمعية السُنَّة» بهدف تحويل الناس عن جمعية العلماء المصلحين ، ولكنها كانت بناء أسس «على شفا جرف هار فانهار بهم»[1] .

وبناء على رأي أحد مشاهير الطرقيين فان النزاع الذي كان قائما بين جمعية العلماء والطرقيين ، كان نتيجة لخلاف في مسائل دينية جزئية حسب رأي الشيخ الحافظي رئيس جمعية السنة الذي نشر بيانا في سنة 1933 بجريدتي (الاخلاص والنجاح) . تضمن الدعوة الى توقيع الصلح بين جمعيته وجمعية العلماء المصلحين ، حيث ادعى أن الحرب القائمة بين الجمعيتين لم تكن الا بسبب خلافات عقدية طفيفة[2] .

والحق أن جمعية العلماء لم تكن تحارب الطرقيين على أساس الخلاف في المسائل الدينية بل أنها حاربتهم لأنهم قد افسدوا الدين وشتتوا المسلمين ، وباعوا ضمائرهم كبش فداء لادارة الاحتلال ، وكيف يختلفون مع علماء متضلعين في أحكام الشريعة الاسلامية ، وأسرارها وهم جهال يعادون العلم والعلماء ؟

وهكذا تستمر الحرب سجالا بين العلماء المصلحين ، والطرقيين العاندين ، حينا من الدهر ، وبينما حقق الأولون قوة ونجاحا بين الجماهير الاسلامية ازداد الآخرون ضعفا وتقهقرا أمام ضربات خصومهم المصلحين ، وفي ذلك يقول أحد تقارير الشرطة الفرنسية (من سَبْدُو بغَرْب الجزائر) : «لا يوجد أي مثقف تقليدي يستطيع محاربة العالم الذي يستعد العلماء لا رساله الى أقاصي البلاد حاملا معه التعلم الاسلامي من منبعه الأصلي النقي ، والذي ليس له أية صعوبة في أداء مهمته ، مستغلا في دوره الحماس الصوفي الذي هو في حاجة لمن يقوده[3] .

ان هذه الشهادة من المخابرات الفرنسية التي كانت عينا ساهرة على العلماء والطرقيين معا ، تؤكد بوضوح مدى فشل هذه الفئة الاجتماعية أمام حملات المصلحين

---

(1) عبد الحميد بن باديس – البصائر عدد 124 . قسنطينة 22 جويلية 1938 ، ص 4 .
(2) جريدة النجاح . عدد 1455 . قسنطينة 7 ماي 1933 ، ص 1 .
(3) L'Algérie du demi-siècle. Op Cit. P. 116.

رغم الحماية الاستعمارية التي حظيت بها تلك الفئة ، لأن العلماء كانوا يجيدون استخدام الوسائل الحديثة في هذه المعركة الكلامية والفكرية التي خاضوها بكل صرامة وتنظيم دقيق ، فكانوا يهاجمون ويردون على خصومهم بالأدلة القطعية من القرآن والسنة وبالشواهد من الواقع المعيش داخل المجتمع الجزائري وخارجه . ففي سنة 1938 كتبت جريدة طرقية مقالا أكدت فيه استمرار الحرب ضد المصلحين وجمعية العلماء ، فكان رد أحد العلماء في جريدة البصائر[1] على هذا المقال ردا دامغا أقام الطرقيين وأقعدهم ، عندما قال بسخرية ، وتعجب «لتفتخر الجزائر بمثل هذا الكاتب وليفخر (الأميار) رؤساء البلديات وسائر المعاكسين الجزائريين ، أيريد هذا الكاتب عدم الاصلاح في العلوم والفنون والمعارف والدين ؟ ان مدينة الجزائر التي كان بها ستون مسجدا حين كان السكان المسلمون لا يتجاوزون بضعة آلاف أصبحت الآن فيها أربعة مساجد والسكان يناهزون مائة ألف ... أبهذه المخازي يريد هذا الكاتب مقاومة الاصلاح لتزداد الخرافات انتشارا ، وبناء القباب وزيارة النساء للقبور وتجصيصها وتزليجها والجلوس عليها والتمسح بها والتضرع الى الأموات من الأولياء في قبورهم ، ألهذا الغرض يقاوم الاصلاح ؟ ان هذا الرد كما هو واضح في نصه قد ضرب الطرقيين والحضارة الفرنسية ضربة قاصمة ، فبالنسبة للأولين كشف لهم انحطاط الاسلام وحضارته المتمثله في اندثار المساجد من العاصمة التي كان يعلوها ستون مسجدا كانت كلها تهتف وفي وقت واحد بكلمة (الله أكبر) وكيف أصبحت عندئذ تشكو من زوال بيوت الله منها . أما بالنسبة للسلطة الفرنسية فقد طعنها في الصميم عندما أعطى هذه الاحصائيات بالنسبة لسكان العاصمة ، ولعدد مساجدها ، فكأنه يقول للفرنسيين انكم لا تمثلون أية ، حضارة انسانية لأنكم لم تحترموا حضارة الآخرين حتى باسم الآثار وما من مخلوق يقف هذا الموقف المشين من المقدسات الدينية ، والرموز الوطنية ، الا وصف بالوحشية والبدائية والتخلف الفكري .

وفي نفس السنة 1938 كتب إبن باديس مقالا حول هذا الموضوع جاء فيه» ان الذين يعرفون تاريخ النصرانية في القرون الوسطى ، وتاريخ النهضة الأوروبية يشهدون اليوم في أعمال الجمعية الدينية الاصلاحية ، وموقف الادارة الى جانب الزوايا الطرقية ضدها صفحة من ذلك التاريخ الماضي تعاد على أرض الجزائر اليوم ،

(1) البصائر عدد 120 ، قسنطينة 1 جويلية 1938 ، ص 6 ، ص 7 .

فالزوايا والطرقية تمثل الكنيسة ورجال الاكليروس «في ذلك العهد السحيق في افساد النفوس والعقول بالدجل والتحريف ، والادارة تمثل أمراء ذلك العهد في استعمال الكنيسة واستغلالها ، والجمعية الدينية الاصلاحية تمثل رجال الاصلاح على فارق في الوضع والأسلوب»[1] .

وهذه طعنة أخرى في تاريخ الحضارة الأوروبية وضربة قاسية للطرق الصوفية الجزائرية على حد سواء ، فقد ذكر إبن باديس رجال السياسة الفرنسيين بأنهم يعيشون في العصور الوسطى بأعمالهم الشنيعة التي تمثل نقطة سوداء في جبين الحضارة الغربية . وبين للطرقيين بأنهم لا يختلفون في أفعالهم ، وأقوالهم ، وسلوكهم عن الكنيسة المسيحية ، أيام تاريخها المظلم .

واذا كان هذا المقال يتضمن هجوما جريئا على الادارة الاستعمارية ، والطُرقيين معا ، فانه مقارنة تاريخية شيقة تدل على أن رجال الاصلاح في الجزائر لم يكونوا علماء دين فحسب ، بل كانوا علماء اجتماعيين ، وباحثين مؤرخين فلا ينظرون الى الظواهر الاجتماعية والحوادث التاريخية بمنظار المثقفين العاديين ، بل أنهم كانوا واعين سياسيا ، واجتماعيا ، واقتصاديا يحللون الوقائع التاريخية والظواهر الاجتماعية ، والاقتصادية تحليلا علميا ، بالوصف والمقارنة ، حسب مفاهيم العصر ، ويجادلون خصومهم بالأدلة والبراهين القاطعة مما لا يدع مجالا للشك في دعوتهم الرامية الى الاصلاح الشامل ، الذي يبدأ من الأساس وينتهي الى القمة .

وكما انتصر رجال الاصلاح في أوروبا على عهد الظلام وفساد الكنيسة انتصر علماء الاصلاح في الجزائر على جمود الزوايا وطقوسها .

والحق أن علماء الاصلاح في الجزائر كانوا يؤمنون ايمانا راسخا بأن احياء الشخصية الوطنية ، وبعثها الى الوجود من جديد ، يقتضي تطهير العقيدة الاسلامية من الخرافات ، والدروشة التي رانت عليها ردحا من الزمن ، وفي ذلك يقول إبن باديس : «فالايمان والتقوى هما العلاج الوحيد لحالتنا ، فنقطة البدء في أي اصلاح هي تطهير العقائد من الشرك ، والأخلاق من الفساد ، فلا داعي اذن الى تحقير أنفسنا ، ولا موجب للقنوط من رحمة الله . وليس لنا أن نستهين بما نزيله كل يوم

(1) جريدة البصائر ، عدد 127 ، قسنطينة 19 أوت 1938 ، ص 1 .

من فساد ، فبدوام السعي واستمراره يأتي ذلك القليل من الاصلاح على صرح الفساد العظيم من أصله[1] .

وهكذا فان العلماء المصلحين كانوا يعتبرون الطرق الصوفية علة العلل في الفساد ، ومنبع كل الشرور ، حيث اعتبروا كل ماهو متفش بين أفراد (العامة) من ابتداع في الدين ، وتحريف في العقيدة ، والحاد في الناشئة ، ناتجاً عن الطرق الصوفية ومرده اليها ، لذلك فان الجمعية قد اعتبرت محاربة هذه الطرق المنحرفة من أولى واجباتها الاصلاحية .

والحق أن هذه الحرب التي شنها العلماء المصلحون على شيوخ الزوايا وأتباعهم ، لم تكن من قبيل الصدفة ، أو تصفية لحسابات قديمة بينهم – كما هو الحال بين بعض الأحزاب السياسية مثلا – ولكنها كانت فكرة ناضجة وبرنامج عمل محكم توصلوا اليها ، بعد دراسة تحليلية معمقة لأحوال المجتمع ، واكتشاف أسباب مرضه .

وقد أكد الأستاذ الإبراهيمي[2] سنة 1935 بأن العلماء المصلحين تحققوا «بأن هذه الطرق المبتدعة في الاسلام هي سبب تفرق المسلمين» .

وردا على الذين انتقدوا جمعية العلماء على أنها أضاعت الوقت في محاربة الطرقيين ، أجاب الأستاذ الإبراهيمي بقوله : «إن علماء الجمعية يعتبرون القضاء على الطرقية هو قضاء على كل باطل وضلال ، وأنه لا يتم (في الأمة الجزائرية) أي اصلاح في ميادين الحياة مع وجود هذه الطرق ، وما لها من سلطان على الأرواح والأبدان ، وافساد للعقول وقتل للمواهب . والواقع أن محاربة الجمعية لشيوخ المرابطين كانت ضرورة حتمية أوجبها الوضع المتدهور في البلاد ، اذ أن الاصلاح الشامل يتطلب مسحا عاما لكل مظاهر الانحطاط ، والجمود الفكري .

كما أنّ الجمعية لم تنفق كل أوقاتها وامكاناتها في الهجوم على الزوايا الفاسدة ، بل كان لها برنامج اصلاحي علمي حكيم ، وزعت على فصوله كل أعمالها معطية كل فصل مايستحقه من الأولوية ، واقفة عند كل عمل حسب مايتوفر لها من وسائل ، ولولا العقبات التي وضعت في طريقها لسارت في جميع ميادين الاصلاح التي يشملها برنامجها بخطوات متوازية مباركة[3] . والحق أن جوهر الصراع بين الجمعية

(1) ينظر محمود قاسم : المرجع السابق ، ص 50 .
(2) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، مصدر سابق ، ص 54 .
(3) نفس المصدر ، ص 55 ، 56 .

والطرقيين كان يتمثل في البدع العامة والشعائر المستحدثة التي أصبحت دينا مستقرا ، وعقيدة راسخة في نفوس العامة التي خدرها شيوخ المرابطين بالشعوذة والأوهام الباطلة ، حيث كان شعار الجمعية في هذا الباب «أن كل محدثة في الدين بدعة ، وكل بدعة ضلالة»[1] .

وبما أن اصلاح المجتمع يتطلب البدء من الأساس ، فان جمعية العلماء قد بدأت بتطهير العقائد ، فكانت محاربة الجمعية للطرقيين تعني محاربة الاستعمار نفسه بطريق غير مباشر ، لأن الاحتلال الأجنبي لم يكن في استطاعته التوغل في أعماق المجتمع ، لولا اعتماده على بعض الفئات المحلية التي أعلنت ولاءها للسلطات الجديدة من البداية للحفاظ على نفوذها .

من هذه الزاوية وجب على الباحث أن يؤكد على أن نظر جمعية العلماء الى مستقبل البلاد كان أبعد من نظر غيرها من الأحزاب السياسية ، والجمعيات الدينية الأخرى في الجزائر ، لأن آثارها في المجتمع لم يزل بزوال رجالها المؤسسين ولا بزوال تلاميذها اللاحقين ، بل أن تراثها سيبقى خالدا مابقيت الأجيال على هذه الأرض المعطاة . كما أن الهدف المقدس الذي عملت من أجله طيلة نضالها هو التحرر الثقافي والسياسي ، والاقتصادي للشعب الجزائري ، وهو الشيء الذي يصعب تحقيقه الا ببناء فكر عربي اسلامي وطني حديث ، وخلق جيل جديد يؤمن بالمبادئ الوطنية ، والقومية ، يتعارض في أفكاره مع الأوضاع السائدة في ذلك الوقت ، وأن الشعب الجزائري حين أدرك أن أهداف جمعية العلماء هي تحرير البلاد من ثقافة المستعمر وعنصريته التفّ حولها للتخلص من تعاسته والنهوض من كبوته ، لأن الشعب الجزائري كما يقول إبن باديس[2] : «شعب مسلم طبعه الاسلام على تعظيم العلم ، وحب التعلم ، واحترام المتعلمين ، فاندفع للتعلم» اندفاعا ادهش قوما ، وحير آخرين (انتبه الشعب على صدمات الحوادث وقوارع الزمن ...) وعلى صوت الدعاة بالقرآن (الذين قدموا له قبسا من نور الايمان الذي هو في حنايا ضلوعه ينير له الوجود) .

وجمعية العلماء تحارب من حوله الاستعمار بشتى صوره ، وتهاجم الزوايا المتعاونة معه ، وتصف الحفلات والزردات ، التي تقيمها الطرق لأتباعها ، بأعراس الشيطان

(1) سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، مصدر سابق ، ص 55 ، 56 .
(2) ينظر الشيخ عبد الحميد بن باديس ، جريدة البصائر ، عدد 136 ، قسنطينة 1938 ، ص 1 ، ص 2 .

ومواسمه ، وتعلن للعامة أن الداعيين لهذه البدع هم أعوان الشيطان وعملاء الاستعمار ، حيث كان شيوخ الزوايا يقيمون في منتصف كل سنة (الزردة) على أوثان معروفة من أوثانهم ، يقدسون فيها الأولياء ، ويعتبرونهم من الصالحين (بل آلهة متصرفة في الكون)[1] .

إن الاقدام على مثل هذه البدع ماهو في الواقع الاصور من صور أدوات الغزو الفكري والنفسي ، التي استخدمها خبراء الشؤون الاستعمارية ، بهدف الهيمنة المطلقة على الأرض والشعب في الجزائر .

وحتى لا نكون مبالغين فيما قلناه حول هذا الموضوع ، يحسن بنا أن نسوق في نهاية هذا الفصل شهادات لها قيمتها التاريخية ، مما سجلته تقارير السلطات الفرنسية في كل أنحاء القطر الجزائري ، بعد انقضاء النصف الأول من هذا القرن ، دراسة وتقييما للقوى الوطنية وعلاقتها بالادارة المحلية : (ان الكلمات السرية ذات الطابع الديني هي الكلمات المعتبرة والمعمول بها بدون تحفظ)[2] ان هذا الدين (أي الدين الاسلامي) الممتزج بالخرافات الشعبية مفهوم ومطبق فقط من طرف نخبة قليلة ، وهي النخبة المثقفة الوفية للثقافة والحضارة الاسلامية[3] .

(ان تأثر المواطن بالتعصب الشديد يجعل المسلم في استحالة التقدم السريع مع الحضارة العصرية المبنية على مبادىء التفريق بين الدولة والكنائس)[4] . «إن مفاهيم الاعتدال ليس لها وجود في هذه البيئة ، التي تتميز بالتطرف الصوفي ، ومن ثم فان الدين هو مصدر أساسي وعامل مهم لاثارة الشعب الذي يقوم به المحرضون . ان الأحزاب المتطرفة تجهد في استعمال فكرة التضامن الاسلامي بحث الشعب ضدنا ، واذا نجحوا في استعمال هذا السلاح فهذا هو الخطر الأكبر»[5] . «إن النساء أقل ارتباطاً بالدين الاسلامي ، دين الرجال ، والشريعة الاسلامية ترفض للمرأة مساهمتها الكاملة في المجتمع ، انهن يرون في الدين الاسلامي حاجزا منيعا لمساواتهن مع الرجل . إن احترام المرأة ومساواتها مع الرجل مفاهيم مسيحية وغربية تحتاج الى وقت

---

(1) ينظر الشيخ البشير الابراهيمي : عيون البصائر ، مصدر سابق ، ص 355 .

(2) L'Algérie du demi-siècle. Op Cit. P. 113.

(3) Loc Cit.

(4) IBID. P. 114.

(5) L'Algérie du demi-siècle. Op Cit. P. 114.

كاف من أجل إدخالها في العقول . ورغم هذا لاحظنا في بعض الأحيان تطورا لدى بعض المسلمات[1] .

«لابد من القيام بحركات تمكننا من ابعاد كل تأثير اسلامي على أي عقد من عقود الحياة المدنية» .

«ان التمييز الدقيق (PISTINGO) الصادر في عام 1944 أكد أن قانون الأحوال الشخصية للجزائريين هو القرآن وهذا ، مايعرقل أكثر حركاتنا .

«إن الابقاء على قانون الأحوال الشخصية على حاله من حيث الشكل والمضمون - الاسلامي - يسبب في اظهار واحياء مقاومة دينية وفي الأخير عنصرية»[2] . «في كثير من الأحياء والجهات بالمستعمرة ، وبعد تطور السلوك وعدم اهتمام الشباب وأمام الدعوات الاصلاحية ، وصراع القادة فان عدد الاخوان في نقص مستمر»[3] .

«ان الزوايا التي كانت قوتها ترتكز على دعائم متينة أصبح نفوذها الآن ضعيفا»[4] .

«إن الجمعيات الدينية والمرابطين فقدوا نهائيا قيمتهم التي كانوا يتمتعون بها في الماضي ، وهذا ايذان بالتطور الفكري والسلوكي»[5] .

«إن الجمعيات الدينية في طريق الزوال ، نتيجة لضربات المصلحين القوية» .

«إن هذه الجمعيات عجزت منذ زمن طويل عن تلبية مطالب وحماس الروح البربرية . إن مؤسسات المرابطين الأكثر تقليدا ، والتي لاتزال تحتفظ بطابعها الاقطاعي ، صارت تفقد يوما بعد يوم نفوذها على سكان المدن أمام ضربات دعوة المصلحين» .

«إن عدم تشبع الشيوخ بالثقافة الاسلامية ووجود سوء التفاهم بينهم ، وسيرتهم السيئة وطغيانهم الجشع والتهافت على الغناء والكسب ، والنقص في المداخيل ، كل ذلك أدى الى عجزهم عن القيام بدورهم الثقافي والاحسان التقليدي»[6] .

---

(1) Loc Cit.

(2) IBID. P. 113.

(3) Loc Cit.

(4) Loc Cit.

(5) Loc Cit.

(6) L'Algérie du demi-siècle. Op Cit. P. 114.

«لقد ظهرت فكرة مفادها أن المرابطين هم منظمة عقيمة وقديمة لا تصلح الا لاستغلال الناس»[1] .

«إن الاحزاب التقدمية والوطنية تعتبر الجمعيات الدينية المحافظة كحاجز منيع في طريق كل رغبة في التقدم ، وهذه المعركة يقودها العلماء قبل أي أحد آخر»[2] .

«إنه في الوقت الذي يفقد فيه العامل الديني التقليدي الذي ترتكز قوته على قوة العادات ، يحقق العلماء الدينيون الناشطون المنضبطون انتصارا .

«منذ سنوات طويلة والعلماء يعملون على استقطاب الناس الى قضيتهم وقد حققوا ذلك نسبيا . ومن ثم فان النفوذ العائلي والصوفي قد أصبح يتوارى أمام حاملي الشهادات العلمية الفردية»[3] .

«ينبغي ألا نعتمد على تطور نفوذ المرابطين الضعيف ، ولا على الجمعيات الدينية التي لم يعد لها تثيل بارز . كما ينبغي ألا نأمل في احياء اسلام صوفي في الوقت الذي توجه له ضربات قوية من قبل الحركات الاصلاحية»[4] . «في اقليم الواحات مع ان السنوسية فقدت سياستها الخارجية لأنها لاتزال محتفظة بمكانة بارزة بين الجمعيات الدينية . وحركتها الدينية قوية . ومقبولة في جانت التي كانت القلعة الحصينة للسنوسية في صحراء فرنسا .

ومن الملاحظ أن الادارة الفرنسية في الجزائر كانت خشيتها عظيمة من الجمعية السنوسية . وذلك نظرا للدور الفعال الذي قامت به هذه الأخيرة في مناهضة الاستعمار الفرنسي ، والايطالي على حد سواء ، وظلت ثابتة على منهجها في المقاومة[5] .

«ان السنوسيين الكبار ، وخاصة الواعين المقيمين بين الطوارق الرحل ، يرون في أن خروج الكفار هو أملهم الكبير .

«ولكن مادامت فرنسا موجودة وقوية فان السنوسية لاتستطيع خوض الكفاح علنا .

(1) Loc Cit.

(2) IBID. P. 115.

(3) IBID. P. 116.

(4) Loc Cit.

(5) من تعليق الباحث .

«ولكن الطابع العصري سيبقى مستمرا وانها تستطيع الاعتماد على الاخوان اذا ... باسم السنوسية»[1] .

... أما بالصحراء وخاصة في توات فان الجمعية الرقنية (REGNIA) تبقى مرتبطة بالنظام الاقطاعي (الطابع) القديم ، وهي تحاول الوقوف أمام كل محاولة للتجديد ... بالتنظيم الاجتماعي ، كما أنها تقف أمام كل جهد يبذل لرفع مستوى السكان .

... من الأكيد أن المرابطين يمثلون الاسلام الجامد والمنغلق أمام التأثير الغربي ، واذا ... موقفهم هذا قد سمح لهم أن يحفظوا على ثقة اخوانهم في الدين ، فان التيارات ... المعادية لفرنسا والآتية من الشرق تعاكسهم ، وهذا ما يشكل الخطر الدائم»[2] .

«إن الطرقيين فقدوا دورهم الفعلي المباشر على الجماهير ، وان كانوا مايزالون يحتفظون بنفوذهم حول بعض الزوايا الكبرى ، مثل زاوية الهامل وعين ماضي ... ، ولذا فانه لا يمكن الاعتماد عليهم في الأمور القيادية» .

«إن الطرقية تمثل حاجزا أمام التقدمية ، وخاصة أمام تطور المرأة التي تمثل أكبر ... مشكلة»[3] .

«إن السادة الدينيين لايطاعون في أيام الاضطرابات السياسية الا اذا كانوا ضد ... فرنسا ، ولهذا يصعب الاعتماد عليهم في الظروف الحرجة . وكل شيخ يزعم بأن له ... أفكار سياسية ، ويصرح بأنه مع فرنسا وصديق لها ، وله علاقات حسنة مع السلطة ... ، فان مشاعره الداخلية تعبر عن عنصريته ضد فرنسا ، لذلك ينبغي مراقبة ... على أتباعه»[4] .

«يجب ألا نُفْرِط كثيرا في استعمال الطرقيين ، لأن استعمال الانسان بشدة يعني ... وهذا ماصرح به السيد بارك (Monsieur BERQUE) (أحد مدراء الشؤون الأهلية ... في بداية الخمسينات من القرن الحالي)» .

«... وأن شيوخ الزوايا عرفوا كيف يتطورون ويقومون بدورهم المنوط بهم لكانوا ... بعيدين عن الهزيمة» .

«... ان شيوخ الطرقيين ينبغي أن يضمنوا تطور زواياهم لكي تتماشى مع الحياة

(1) L'Algérie du demi-siècle. Op Cit. P. 116.

(2) Loc Cit.

(3) L'Algérie du demi-siècle. Op Cit. PP. 116 118.

(4) IBID. P. 118.

... مر . رغم التقارب

... ن[1] وهو عضو من
... ماء بحزب الشعب
... ية تستمد أصالتها
... بتحرير الوطن من
... افة فيئات الشعب
... محدودة تعتمد على
... حه حتى يتماشى مع
... ستعمارا .
... حب هذا الرأي :
... ما له جمعية دينية في
... يتحول الى منظمة

... ري ، بل أنهم اعتبروا
... ن والوطنية كافة
... مناعا ...)[3] .
... بعبارة الاستقلال في
... ة الاعلان بهذه الكلمة

... للجزائريين في كل من
... كانت أكثر سهولة من
... فرنسا الى احزاب عام
... لجزائر حيث تبدو هنا

... 193 ، نقلا عن جريدة النقد
... 1925 .

العصرية ، ولكن بدون الاقتراب من فكر العلماء الذي يعني زوالهم» .

«إن الخطر لا يكمن في الجماهير التي اتبعت الذين يتظاهرون بالعنف ، ولايكمن في أولائك الذين يعملون بهدوء وتحفظ وخشية ، فهؤلاء هم الذين يستطيعون تحطيم ماأنجزته فرنسا»[1] .

هذا ماسجلته مختلف التقارير الادارية الفرنسية في بداية الخمسينات من هذا القرن .

أما مايستخلصه الباحث من هذا العرض لأراء السلطات المحلية فيمكن ايجازه في النقاط التالية :

(1) أن معظم هذه الشهادات تتفق على هزيمة المرابطين والطرق الصوفية نتيجة لضربات المصلحين القوية الذين كانوا يرتكزون على الثقافة العربية الاسلامية الأصيلة مع مسايرتهم للتطورات الحضارية العالمية واستخدامهم الوسائل العصرية لمقاومة خصومهم .

(2) لقد أكدت هذه النصوص كلها تقريبا على أن الطرق الصوفية وزوايا المرابطين منظمات دينية جامدة لم تستطع أن تصد أمام التيارات الوطنية الاصلاحية الحديثة .

(3) ان هذه التقارير تشير الى أن الجمعيات الدينية تشكل حجر عثرة في طريق تطور المرأة المسلمة ، وتفتح الشعب على الحضارة الغربية . وهذا الانغلاق في الواقع لم يكن يتماشى مع السياسة الفرنسية التي كانت تهدف الى اضعاف العنصر الديني والشعور القومي عند الجزائريين ، ولكنه مادام يحقق لها الهدوء والخنوع فانها قد وافقت على ابقائه ، ولكن عندما ظهرت الجمعيات الدينية هذه في نظر الأهالي منظمات عقيمة وقديمة ، فانه لم يعد في الامكان الاعتماد عليها بالنسبة للادارة الفرنسية .

(4) تتفق جل هذه التقارير على أن عجز المرابطين عن مواجهة خصومهم المصلحين ، هو ايذان بتطور فكري ووطني يصعب كبح جماحه .

(5) تتفق هذه الآراء كلها على أن المرابطين لم يكونوا يمثلون الدين الاسلامي الصحيح ، الذي تسلح به العلماء ، وانما هو دين مزيج بالخرافات والتقاليد الشعبية التي ابتدعوها أو انتحلوها من المجتمع ، وأدخلوها في الدين .

---

(1) Loc Cit.

(6) إن هذه التقارير رغم اعترافها بالدور الهام الذي لعبته هذه الجمعيات الدينية المرابطية في مساعدة فرنسا على تهدئة الرأي العام فانها تنبه السلطات المحلية الى أخذ الحذر منها ، وهذا يؤكد على أن الجزائريين مهما أخلصوا لفرنسا وضحوا من أجلها فانها لم تكن قط تركن اليهم وتثق بهم في ولائهم لها طيلة وجودها في الجزائر .

الفصل السادس

جمعية العلماء ومنظمة نجم شمال افريقيا وحزب الشعب الجزائرى

بعد نفي الأمير خالد من الجزائر سنة 1923 ، وفشل حركته السياسية نهائيا سنة 1925 ، كان على الحركة الوطنية الجزائرية أن تبحث عن مكان لها خارج القوانين الاستثنائية ، واضطهادات المعمرين ، ولم يكن ذلك ممكنا الا في فرنسا التي كانت فيها ظروف المهاجرين الجزائريين أقل قسوة منها في الجزائر . خاصة وأن عدد عمال مسلمي شمال افريقيا كان قد أزداد بشكل ملحوظ في فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى . وكانت هذه الحرب خاصة قد فتحت أبواب الأمل لشعوب المستعمرات المضطهدة في استرجاع سيادتها ، وتقرير مصيرها بنفسها ، ومن ثم فقد فكر مهاجروا المغرب العربي في تنظيم أنفسهم ، والدفاع عن حقوقهم المادية والمعنوية . فكانت الجمعية الدينية التي أسسوها سنة 1925 تحت إسم (الأخوة الاسلامية) نواة للحزب الذي سنتتبع نشأته وتطوره ، ومقارنته مع جمعية العلماء ، في كثير من المواقف والمناسبات الوطنية ، خلال نضالها المستميت لتحقيق الشخصية الوطنية .

منظمة نجم شمال افريقيا :

تعتبر منظمة نجم شمال افريقيا من بنات أفكار الأمير خالد الذي دعا الى انشاء جمعية تكون باسم الشمال الافريقي بين الأوساط العالية في منطقة (لابوش ديرون)[1] (La Bouche du Rhone) بفرنسا .

---

(1) لابوش ديرون هي الولاية الثالث عشرة في أقصى جنوب فرنسا ، تقع عند مصب الرون ، وتضم مدينة مرسيليا ، ومدينة أرل ، واكس بروفونس وغيرهما .

وبناء على رأي بعض المعاصرين فـان نـواة النجم الأولى قـد ظهرت بين العمال المغاربة في فرنسا خلال سنتي 1923 – 1924[1] وقد وضع أسسها جماعة من الجزائريين على رأسهم أحمد بلغول ، وعبد القادر حاج علي[2] ، وعلي الجزائري وهو مناضل تونسي . وقد أعلن عن تأسيس الحركة بعد المؤتمر الذي عقده الأمير خالد في باريس سنة 1924 ، وأطلقت علانية ولأول مرة صرخة المضطهدين المغاربة المنادية بالتحرر الوطني ، والتي (استفادت كثيرا من (سطوة) حفيد الأمير عبد القادر ، كما (استفادت) أيضا من موافقته الشخصية ومساعدته غير المشروطة)[3] .

ولكن الأستاذ محمد قنانش[4] (الذي كان مناضلا بارزا في حزب الشعب) يقول بهذا الصدد : لقد اهتدى البعض من العمال المغاربة الى انشاء حركة دينية في أوائل سنة 1925 (كخطوة أولى تجمعهم وتشد أزرهم ، وتمنعهم من الذوبان ، وبنوا أساسها على المحبة والأخوة التي هي أكبر رابطة للانسانية ، ودعموها بالدين لأن الدين هو أكبر مقوم لحياتهم ، وقد اختاروا لها اسم جمعية الأخوة الاسلامية) .

ويبدو أن هذه الفكرة جديدة في شكلها ومضمونها في تأسيس النجم ، ولا سيما وأنها من مناضل بارز عاصر الأحداث وساهم في صنعها .

وهكذا فقد تأسست حركة نجم افريقيا الشمالية على انقاض جمعية دينية عاشت أكثر من سنة «من أول 1925 الى أوائل 1926»[5] حيث أنعقد أول اجتماع للحركة الجديدة في يوم 15 ماي 1926 ، أعلن فيه عن تأسيس جمعية «باسم نجم الشمال الافريقي» ، وكانت هذه بناء على قانونها الأساسي ، تهدف الى مساعدة مسلمي الشمال الافريقي على الحياة في فرنسا ، ورفع جميع المظالم أمام الرأي العام ، حيث حددت كل المطالب المستعجلة المشتركة بين العمال المغاربة في فرنسا ، وعزمت على تحقيقها بواسطة الصحافة ، والاجتماعات العامة والمناشير والنشاط البرلماني وتقديم العرائض[6] .

ورغم تأسيس هذه الحركة في فرنسا فقد أعلنت على أنها جمعية مستقلة عن كل

(1) زوزو عبد الحميد : دور المهاجرين الجزائريين بفرنسا بين الحربين (1919 – 1939) الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بدون تاريخ ، ص 55 . محادثة شخصية مع مالك بن نبي وبركاني محمد ، وخيضر عمرو .

(2) وهو أول رئيس للنجم كان تاجرا بغليزان وهو شيوعي .

(3) عمار أوزقان / المرجع السابق ، ص 116 .

(4) ينظر الحركة الاستقلالية في الجزائر بين الحربين 1919 – 1939 ، الجزائر 1982 ، ص 28 .

(5) نفس المصدر ، ص 35 .

(6) نفس المكان .

أحزاب السياسية الفرنسية ... وفي يوم 2 جوان من نفس السنة عقد أول اجتماع لها أعلن خلاله عن تأسيس الحركة وعن اسمها[2] .

وفي يوم 2 تموز (جويلية) من نفس العام انعقد الاجتماع الثاني لحركة النجم بعد تأسيسها ووزعت فيه المسؤوليات على روادها السياسيين[3] . ويتضح من البرنامج الأول لمنظمة النجم أن مطالبها كانت في بداية عهدها مطالب اصلاحية محضة لا تتضمن عبارة الاستقلال . ولكن بعد مضي سنة فقط من انشائها احتلت هذه العبارة المرتبة الأولى في برنامجها السياسي بجانب المطالب الاصلاحية المستعجلة[4] .

وكان أول زعيم لحركة النجم هو (الحاج علي عبد القادر) وتذكر المصادر أن (أحمد بلغول) هو الذي أقنع مصالي الحاج[5] بعد سنتين من تأسيس النجم (1927) بأن يصبح رئيس المنظمة الأول[6] . ويرى (ايف لاكوست) الذي كان عضو في الحزب الشيوعي الفرنسي : أن الزعيم الجديد (مصالي الحاج) «وجه النجم باتجاه مفاهيم قابلة للنقاش تقوم جوهريا على أسس دينية . وتنزع نزعة قومية وعمالية لاتخلو من بعض التضليل الديماغوجي . ولذلك أولت اهتمامها الكبير (للعمل المباشر) وأهملت الظهر العقائدي»[7] .

ويبدو أن هذا الحكم غير دقيق ذلك أن وجود الروح الدينية والفكرة القومية والاتجاه العمالي في هذه الحركة تتنافى مع ماوصفه به (ايف لاكوست) وهو الوصف الذي يتمثل في الديماغوجية والتضليل كما ورد في النص .

(1) EL-Ouma, N° 41, Paris, Juillet, Août 1936.

(2) ينظر محمد قنانش : المصدر السابق ، ص 35 .

(3) عبد الحميد زوزو / المرجع السابق ص 57 . وأنظر أيضا محمد قنانش ، مصدر سابق ، ص 35 .

(4) ينظر مطالب النجم الأولى في كتاب محمد قنانش ، ص 37 .

(5) كان مصالي الحاج أول كاتب عام لمنظمة نجم الشمال الافريقي عند ميلادها قبل أن يصبح رئيسا لها سنة 1927 . ولد سنة 1898 ولم تساعده الظروف على التعليم الابصورة محدودة . شارك في الحرب العالمية الأولى في صفوف الجيش الفرنسي . ثم عاد الى الجزائر سنة 1921 . ونتيجة للبطالة المتفشية في الجزائر في ذلك الوقت ... عاد الى فرنسا سنة 1923 حيث عمل في عدد من مصانع باريس ، كما عمل بائعا متجولا في الشوارع . ولكن يحضر باستمرار لتلقي الدروس في معهد الدراسات الشرقية . كما استطاع الحضور في عدة محاضرات في جامعة السوربون ، وعاش كغيره من العمال الجزائريين حياة الكفاف في ظروف شاقة . واتصل بالطبقات العاملة الفرنسية . وسرعان ماانضم الى الحزب الشيوعي . ثم تزوج من شيوعية بارزة ، وقد أفاد من خدمته في الخلايا الشيوعية التدريبية التي اكسبته مرانا وتجربة في التنظيم ساعداه فيما بعد عندما شرع في تنظيم الحركة الوطنية الجزائرية .

جوان غيلسبي / الجزائر الثائرة . تعريب خيري حماد / ط 1 بيروت 1961 ص 56 – 57 .

(6) عمار أوزقان / المرجع السابق ، ص 146 – 147 .

(7) عمار أوزقان / المرجع السابق ، ص 147 نقلا عن ايف لاكوست افريقيا الشمالية ص 65 .

...عمر . رغم التقارب

...نش[1] وهو عضو من
...علماء بحزب الشعب
...رية تستمد أصالتها
... بتحرير الوطن من
... كافة فيئات الشعب
...ا محدودة تعتمد على
...لاحه حتى يتماشى مع
...لاستعمار .
...احب هذا الرأي :
...ادا له جمعية دينية في
... يتحول الى منظمة

...زائري ، بل أنهم اعتبروا
...طن والوطنية كلمة
...معناها ...)[3] .
...ء بعبارة الاستقلال في
...ية الاعلان بهذه الكلمة

...ا للجزائريين في كل من
... كانت أكثر سهولة من
...ي فرنسا الى اضراب عام
...الجزائر حيث تبدو هنا

... 1937 . نقلا عن جريدة النقد
... 1925 .

ولقد عرف عمار أوزقان[1] حركة النجم بقوله : «ان منظمة نجم افريقيا الشمالية المنظمة الأم للحركة القومية المغربية ، كانت في أصلها تجمعا جماهيريا مناهضا للاستعمار وذا اتجاه ثورى ، وكانت بتكوينها واتجاهها الصورة الأولى ، النظرية والعملية ، لجبهة التحرير الوطني ، والأعضاء القدامى في الحركة القومية ذات الاتجاه الثورى ، يرون أن جبهة التحرير الوطني هي التفتح شبه المثالي لمنظمة «النجمة» ،

ويضيف عمار أوزقان رأيا آخر عن حزب النجم فيقول : «لم يكن ممكنا ولاجائزا أن يكون (نجم افريقيا الشمالية) حزبا (عماليا) ، ذلك أن الشيوعية العالمية كانت تمانع في تأسيس حزبين أو عدة أحزاب (عمالية) في بلد واحد ، من غير المعقول إذًا أن نتصور الحزب الشيوعي الفرنسي يبادر على مسؤوليته بتكليف جزائرى عضو في لجنته المركزية ، بتأسيس حزب (عمالي) للافريقيين الشماليين ... لماذا اذن انشئت في باريس منظمة نجم الشمال الافريقي ، مادامت المنظمات الشيوعية الموجودة هناك مفتوحة للجميع إن ذلك كان أمرا ضروريا لجمع المهاجرين المغاربة في فرنسا ، وحشد جميع المضطهدين المصممين على استرجاع الاستقلال الوطني لكل أقطار المغرب العربي » .

ومن الواضح أن صاحب هذا الرأي قد استند في تدعيم فكرته على المعطيات التالية :

أولا – ان الضغط السياسي ، والاقتصادي ، والثقافي ، والديني الذي ناء بكلكله على شعوب المغرب العربي ، كان يلهب الشعور القومي ضد الهيمنة الأجنبية ويهيب بجماهير الشعب أن تولي هذا الشعور الأولوية على الشعور الطبقي .

ثانيا – كان التخلف الاقتصادي في المستعمرة المحرومة من الصناعة يتضح في طبقة عمالية ضئيلة العدد ، وفي تمايز اجتماعي غير واضح المعالم .

ثالثا – ان البورجوازية الوطنية «والانتليجنسيا» ذات الثقافة العربية أو الفرنسية كانت تهتم اهتماما حقيقيا بزوال السيطرة الاستعمارية .

رابعا – «ينبغي تقدير الصفة التقدمية في القوى الاجتماعية أو الفردية بالنسبة الى وضعها ازاء الاستعمار وردة الفعل الاستعمارية الاقطاعية»[2] .

(1) نفس المرجع / ص 144 .
(2) عمار أوزقان / المرجع السابق ، ص 145 .

وكان من المتوقع أن يعمل نجم شمال افريقيا في المغرب العربي على الوحدة القومية والوطنية والشعبية ، ولكنه لسوء حظ الجماهير المغربية لم يتمكن هذا الحزب من تحقيق آمال ومطامح الذين كانوا يتطلعون الى الوسائل الفعالة من أجل التحرر الوطني ، ذلك أن هذا الحزب قد انسحب منه أعضاؤه المغاربة والتونسيون الذين وجهوا اهتمامهم نحو الأحداث الداخلية في بلديهما ، وبذلك أضحى منظمة جزائرية خالصة . وباستثناء الهدف العام المتمثل في الحصول على الاستقلال حسب رأي بعض المؤرخين[1] فقد كانت للمناضلين الأوائل في النجم عقائد يشوبها الغموض وصفت بأنها تجمع بين الشعارات الماركسية والوطنية الجزائرية العاطفية والتمسك بفكرة التضامن الاسلامي .

كما أن حركة النجم كانت تحمل في طياتها منذ البداية بذور الخلاف بين مؤسسيها الأوائل ، فبينما كان بعضهم متأثرا بالأفكار الشيوعية كان البعض الآخر من ذوى الاتجاه الوطني الذي ينزع نحو فصل الحركة عن الحزب الشيوعي الفرنسي ، وقد برز هذا الخلاف جليا بين الأعضاء سنة 1927 خلال المؤتمر المنعقد في بروكسل الذي تغيرت فيه اللهجة والأسلوب ، وظهرت فيه كلمة الاستقلال لأول مرة في برنامج النجم ، وذلك في شهر شباط (فيفري) من نفس العام ، فمنذ هذا التاريخ بدأ النفُوذ الشيوعي في منظمة النجم يضعف ويتقلص تدريجيا «ومعه تأثير الأمير خالد» وأصبح الاتجاه الوطني الثوري يتأصل يوما بعد يوم[2] .

ويعتبر اجتماع النجم المنعقد في يوم 5 شباط (فيفري) 1928 حدا فاصلا بين الوطنية والشيوعية في منظمة النجم ، ذلك أن هذا الاجتماع قد أدى الى خروج الحاج علي عبدالقادر من النجم ، ولم يعد يكترث به ، كما أخذ رفاقه من ذوى الاتجاهات الشيوعية ينسحبون منه واحدا تلو الآخر ، حيث خرج آخر واحد منهم سنة 1932 بأمر من الحزب الشيوعي الفرنسي)[3] .

وهكذا نلاحظ أن سنتي 1927 – 1928 كانتا حاسمتين في تاريخ النجم ، فاذا كانت سنة 1927 كما يقول الأستاذ قنانش : «قد أقرت مبدأ الاستقلال الوطني عمليا ،

(1) د / صلاح العقاد / المغرب العربي ، الجزائر ، تونس ، المغرب الأقصى ، ط 3 القاهرة 1969 ، ص 323 .
(2) محمد قنانش / المصدر السابق ، ص 41 .
(3) عبد الحميد زوزو / المرجع السابق ، ص 63 .

عمر . رغم التقارب

ش[1] وهو عضو من
ملماء بحزب الشعب
رية تستمد أصالتها
بتحرير الوطن من
كافة فيئات الشعب
ا محدودة تعتمد على
لاحه حتى يتماشى مع
لاستعمار) .
احب هذا الرأي :
ادا له جمعية دينية في
، يتحول الى منظمة

زائري ، بل أنهم اعتبروا
طن والوطنية كلمة
بمعناها ...)[3] .
ء بعبارة الاستقلال في
ية الاعلان بهذه الكلمة

ا للجزائريين في كل من
، كانت أكثر سهولة من
في فرنسا الى اضراب عام
الجزائر حيث تبدو هنا

1937 ، نقلا عن جريدة المنتقد
1925 .

وأقرت مبدأ الثورة فكريا ، ومبدأ وحدة الشمال الافريقي استراتجيا»[1] فان سنة 1928 قد عرفت تغيرات جديدة أهمها : تصحيح قوانين المنظمة وخروج بعض الشيوعيين منها ، واتساع نشاطها على صعيد المغرب العربي خاصة في موقفها من حرب الريف .

ومن الجدير بالذكر أن الحكومة الفرنسية قد بدأت في محاربة النجم منذ سنة 1927 بعد أن شعرت بخطورته على نفوذها مستخدمة في ذلك وسيلتين هامتين :

أولهما ، العمل على نشر دعاية واسعة ضده في كل من الجزائر وتونس بدعوى أنه فرع من الحزب الشيوعي ، وأنه متطرف في مطالبه ، ويعمل لصالح موسكو .

وثانيهما ، اصدار حكم قضائي من محكمة السين الباريسية بحله في 20 تشرين الثاني (نوفمبر) 1929[2] .

والواقع أن قرار الحل كان نتيجة لضغط رؤساء البلديات في الجزائر على الحكومة الفرنسية نظرا لمطالبته بالاستقلال ودعوته الأهالي للقيام بالثورة[3] .

وهكذا وبعد خروج الشيوعيين الذين رفضوا فكرة الاستقلال ، ونتيجة لاجراء الحكومة الفرنسية المتعلق بحل النجم ، وبعد ابتعاد المذبذبين والخائفين ، وبعد عودة المهاجرين الى أرض الوطن بسبب الأزمة الاقتصادية العالمية[4] التي بدأت منذ سنة 1929 ،لم يبق في المنظمة الافئة قليلة صمدت في وجه السياسة الأمبريالية بقوة ايمانها وعزيمتها الصادقة ، وهم (بانون أكلي)[5] و (مصالي) و (سي الجيلاني محمد السعيد)[6] وكان على هؤلاء الأعضاء أن يعملوا جاهدين للمحافظة على هذه الجمعية بتنظيم جديد وتطهيرها من العناصر الشيوعية وتدعيها بعناصر وطنية مخلصة[7] .

ولعل من حسن حظ هذه المنظمة أن قرار الحل لم ينفذ بصفة رسمية ، وهو الأمر

---

(1) نفس المكان .
(2) محمد قنانش / المصدر السابق ، ص 50 .
(3) علال الفاسي / الحركات الاستقلالية في المغرب / لجنة الثقافة الوطنية لحزب الاستقلال ، ط 1 مراكش 1948 ، ص 14 .
(4) Charles André Julien, L'Afrique du Nord en Marche, OP CIT. P. 102.
(5) بانون أكلي ، كان من الأعضاء الأوائل في منظمة النجم ، عامل خضرى ، من سيدي عيش دائر أقبو ولاية بجاية .
(6) الجيلاني محمد السعيد ، كان من الأعضاء المؤسسين للنجم ، وهو عامل من دائرة الأربعاء نايت ايراثن ، ولاية تيزى وزو .
(7) عبد الحميد زوزو / المرجع السابق ، ص 63 .

الذي سمح لرجالها بمواصلة نشاطهم في صمت وحذر ملحوظين لصرف نظر السلطة القضائية عنهم ، ولعل أول عمل قاموا به في هذه الفترة هو ارسال مذكرة احتجاج الى عصبة الأمم المتحدة بجنيف عن الوضعية المرة التي يعيش فيها الشعب الجزائري بعد قرن من الاحتلال[1] ، وأسسوا جريدة «الأمة» سنة 1930 لنشر أخبار حركتهم ، والإتصال بالعمال في مختلف المناطق بفرنسا قصد توسيع نطاق العمل .

والحق أن هذا الأسلوب يعتبر نقطة تحول واضح في تكتيك جديد لمواجهة السلطة القضائية ، وفي سنة 1933 عقد النجم مؤتمرا «عاما وهاما» في فرنسا وانتهى الى اصدار برنامج مطول يتضمن الاجراءات والتدابير التي ينبغي اتخاذها خلال مرحلة النضال ، وبعد استرجاع السيادة الوطنية[2] .

وقد جاء في مقدمة البرنامج الجديد مايلي : «اننا نعتبره كميثاق وطني (أي البرنامج) يربط كافة المسلمين الجزائريين المكافحين بنزاهة واخلاص من أجل الدفاع عن مصالحنا ، ومطالبنا المستعجلة ، واستقلال بلادنا لصيانة سلامتنا ، وحفظ مستقبلنا ، ولتتبوأ أمتنا المكان اللائق بها في العالم ، علينا أن نقسم بالقرآن وبالاسلام على العمل المتواصل لتحقيق هذا البرنامج ونجاحه النهائي»[3] .

ولقد حدد مؤتمر النجم المنعقد في شهر ايار (ماي) 1933 «الخطوط العريضة للبرنامج السياسي والثقافي ، والاقتصادي ، والاجتماعي ، وحدد وسائل العمل ، كما حدد القوانين الداخلية ، باعتبار حركة النجم حزبا سياسيا وطنيا له إيديولوجيته النابعة من أصالته ، والمتفتحة على عصره ، وله أيضا استراتيجيته الخاصة التي تتماشى ومبادئه الثورية»[4] .

هذا وقد اسفر المؤتمر عن تنظيم جديد ، وذلك باعادة توزيع المسؤوليات على الأعضاء حيث ضم المكتب الاداري أبرز العناصر في القوى العمالية الجديدة ، كما اشتمل هذا التنظيم على تعيين المشرفين على دوائر باريس وضواحيها[5] بتأسيس الخلايا ، كما تقرر توسيع نطاق العمل الى مناطق أخرى في فرنسا بتنظيم حملات شرح وتوضيح ،

---

(1) محمد قنانش / المصدر السابق ، ص 52 .
(2) جوان غليسي / المرجع السابق ، ص 57 .
(3) محمد قنانش / المصدر السابق ، ص 55 .
(4) نفس المصدر / ص 59 .
(5) عبد الحميد زوزو / المرجع السابق ، ص 67 . نقلا عن بانون أكلي (حديث شخصي) .

عمر . رغم التقارب

ش[1] وهو عضو من
ملماء بحزب الشعب
رية تستمد أصالتها
بتحرير الوطن من
كافة فيئات الشعب
ا محدودة تعتمد على
لاحه حتى يتماشى مع
لاستعمار)
حاب هذا الرأي :
ادا له جمعية دينية في
، يتحول الى منظمة

زائري ، بل أنهم اعتبروا
طن والوطنية كلمة
بمعناها ...)[2] .
ا بعبارة الاستقلال في
بة الاعلان بهذه الكلمة

ا للجزائريين في كل من
كانت أكثر سهولة من
في فرنسا الى اضراب عام
الجزائر حيث تبدو هنا

1917 ، نقلا عن جريدة المنتقد
1925

وقد اتخذت إجراءات وقائية أخرى تحسبا للضغط سواء من قبل الكونفدرالية العامة للعمال (C.G.T) أو غيرها.

وقد أصبحت جريدة الأمة بمثابة العامل في نشر إيديولوجية الحزب، والتعريف بالحركة وأهدافها. ويبدو أن الحزب قد اختار أسلوبا جديدا للتعريف بنفسه ونشر عقيدته في السنوات التالية (1930) فاتبع منهجا عمليا في تنظيم التجمعات مستغلا بعض المناسبات. ومتخذا من الاحتفالات التي أصبحت عددا من أعضائه وسيلة لكسب تأييد العمال، وتوطيد تفكيرهم وحملهم على قبول وهضم الفكرة الوطنية[1] وقد تعرض أعضاء النجم خلال الثلاثينيات إلى عقوبات صارمة تمثلت في الاعتقال والسجن، والغرامات المالية، والنفي إلى آخره. وكانت القاعدة الأساسية للنجم هي الفروع سواء في فرنسا أو في الجزائر بعد سنة 1936. وكانت الفروع تخضع لأوامر المكتب السياسي، وتقوم بنشاطها في أوساط العمال، وتوزيع جريدة (الأمة) والمناشير التي تصدرها المنظمة، وجمع التبرعات، وعقد الاجتماعات الدورية، والدفاع عن حقوق العمال.

ومنذ سنة 1934 بدأ نشاط الحزب يتسرب إلى الجزائر، وأخذت أفكاره تنتشر تدريجيا بين السكان الوطنيين. ولم تكد تحل سنة 1936 سنة (الجبهة الشعبية) حتى أخذ نشاط النجم منعطفا جديدا في الجزائر، ولاسيما بعد الخطاب الذي ألقاه مصالي الحاج في الملعب البلدي على عشرة آلاف جزائري بمناسبة عودة وفد المؤتمر الإسلامي[2] من باريس، فمنذ هذا التاريخ بدىء في إنشاء الفروع وإلقاء الخطب في الجزائر، ولكن رفض النجم لمشروع فيوليت، ومطالبته باستقلال الجزائر، وازدياد نشاطه على الصعيد الوطني، ودفاعه عن الطبقات الكادحة، وتعرضه لمخططات الحزب الشيوعي الفرنسي، قد أدى إلى حله من طرف (الجبهة الشعبية) في يوم 27 كانون الثاني (جانفي) 1937[3]. ذلك أنه - كما يقول السيد قنانش -[4] لم يكن من

(1) نفس المرجع / ص 68.

(2) في الاجتماع العام الذي عقده وفد المؤتمر الإسلامي العائد من باريس يوم 2 آب أوت 1936 في الجزائر العاصمة، حضر مصالي الحاج الذي جاء مع الوفد وألقى خطابا في ظرف عشر دقائق على عشرة آلاف جزائري، استعمل فيه أسلوبا حماسيا حرك عاطفة الجماهير الوطنية فحمل على الأكتاف وطيف به في شوارع العاصمة، فكان ذلك فاتحة عهد لانتشار حركة النجم في الجزائر.

(3) Charles André Julien, OP CIT, P. 170.

(4) المصدر السابق / ص 76.

...ياسي ولا من العقيل على حكومة الاستعمارية حتى فيما كانت سياسية أرتجي ... مستعمرات أن تقيم حركة أو منظمة تسعى ... الاستعمار ... الشعب كرامته، وتبعث فيه روح النضال.

حزب الشعب الجزائري:

بعد حل حزب النجم الذي حل عدة مرات ... سنة 1929[1] ... حزب الشعب الجزائري في يوم 11 آذار (مارس) سنة 1937، ذلك أن حل النجم ... عامل إضعاف للمناضلين، وتشتيت لهم أو بعثهم على اليأس على الرغم من ... بل كان امتحانا قاسيا، ولكن مفيدا لأن الخشية والتعذيب ... مرة أخرى، وكان ذلك بمثابة عملية فرز للعناصر الضعيفة ... قوية الذين تجاوزوا في الميدان متمسكين بعقيدتهم الوطنية، وبإيمانهم العميق بأن ... قوة لا يسترد إلا بمثلها.

وإذا كانت فرنسا قد قضت على النجم كحزب، فإن مبادئه وفلسفته بقيت حية ... بين المناضلين بحيث لم تتغير الخطة والهدف، بل تغير الاسم فقط.

ومن هنا كان رد فعل المناضلين على إجراء حل النجم فوريا إذ عملوا على تحويل ... النجم إلى مجموعات عرفت باسم (أحباب الأمة)[2] واستمرت تحت هذه التسمية حوالي ... شهر ونصف[3] ثم تحولت إلى (حزب الشعب الجزائري)، وكان ميلاد هذا الحزب في ... نانتير (NANTERRE) بفرنسا قرب باريس أثناء مؤتمر عام ثلاث مائة مشارك، ... أسندت فيه رئاسة الحزب إلى (مصالي الحاج)[4]، وكان برنامجه السياسي هو نفس برنامج النجم تقريبا، ويطالب بدستور وبرلمان جزائري منتخب بطريقة الاقتراع ... من جميع فئات الشعب، وفكرة البرنامج العامة تتمثل في إنشاء وطن جزائري في شمال إفريقيا واحترام (الأمة الجزائرية) واحترام اللغة العربية والإسلام[5].

(1) نجم شمال إفريقيا 1926، النجم المجيد 1934، الاتحاد الوطني لمسلمي شمال إفريقيا سنة 1935.

(2) جريدة النجاح / عدد 2039، قسنطينة 4 ديسمبر 1937، ص 1.

(3) عبد الحميد زوزو / المرجع السابق، ص 70.

(4) ... الرئيس محمد السعيد سي الجيلاني، الكاتب العام، أيت سعلات، نائبه، السيد جيلالي ... أمين المال ... كحال، نائبه عمار خيضر محمد قنانش / المصدر السابق، ص 89.

(5) Note centre d'information et d'études N° 1016 au prefet de Constantine, 4 Décembre 1941, archives historiques, Wilaya de Constantine

وبعد ميلاد حزب الشعب في فرنسا نقل (مصالي الحاج) نشاطه الى عمالة الجزائر العاصمة التي تطورت فيها الحركة بصورة مدهشة . حيث كانت الأحداث الجارية بالجزائر فرصة لامعة لنقل النضال الوطني الى مجاله الحقيقي ، لذلك تميزت هذه المرحلة بالتحول التدريجي الى الميدان الوطني الأم ، كما ظلت فرنسا بسبب ظروفها ميدانا لعقد مؤتمرات الحزب ودعمه معنويا وماديا(1) .

وهكذا كانت الفرصة مواتية لانتشار فروع الحزب في الجزائر . فقام (مصالي الحاج) بتأسيس فروع له في عمالتي وهران وقسنطينة ، رغم أن قوة الحركة ظلت مقصورة على عمالة الجزائر ، ولم تستطع أن تتوغل بعمق في عمالة قسنطينة بسبب قوة حركة العلماء المصلحين في المنطقة . واندلاع الحرب العالمية الثانية . هذا وباندلاع هذه الأخيرة توقفت حركة الحزب نظرا لكون معظم اعضائه من الشباب الذين التحقوا بالخدمة العسكرية . حسب قانون التجنيد الاجباري ، ولم يبق الا القليل الذين استمروا في نضالهم لصالح الحزب ، وبتصاعد الحرب العالمية الثانية ووقف نشاط المنظمات السياسية الأهلية جرى حل حزب الشعب الجزائري ، فبات الكثير من مناضليه تحت الاقامة الجبرية . واعتقل رئيس الحزب (مصالي الحاج) وحكم عليه بالأشغال الشاقة وست عشرة سنة سجنا ، كما حكم على رفاقه ومساعديه بعقوبات صارمة ووضعوا جميعا في سجن لامباز (تازولت) دائرة باتنة في ذلك الوقت .

ورغم مالحق بأعضاء الحزب من نفي وسجن وتغريم ، فقد ظل بعض مناضليه يعملون على مستوى الأفراد دون أن يكون لهم أي تنظيم سياسي معترف به حتى نهاية الحرب العالمية الثانية . وقد عرفت الفترة الممتدة مابين 1937 – 1939 نشاطا بارزا في الجزائر وفي فرنسا نفسها من قبل حزب الشعب الجزائري ، فجريدة (الأمة) كانت تتابع باهتمام الأحداث الجارية في الجزائر ، وتركز هجومها على الاتجاهات المضادة ، وتفضح أساليب القمع . وطرق الانتخابات المزيفة التي كانت تلجأ اليها الادارة الفرنسية . كما استخدم (حزب الشعب) وسيلة دفاع أخرى . وهي مضاعفة التجمعات الاحتجاجية ضد عمليات القمع . وحملات الأعتقال والسجن .

أما الدعم المادي . فكان عن طريق الاكتتاب . حيث تجمع الأموال في فرنسا . وترسل الى الجزائر . وقد استمر هذا الدعم المادي والمعنوي باسم (حزب الشعب الجزائري) الى بداية الحرب العالمية الثانية .

(1) عبد الحميد زوزو / المرجع السابق . ص 70 نقلا عن جريدة الأمة . عدد 66 أب (أوت) 1938 .

ـ تحليل مطالب النجم وحزب الشعب الجزائري :

واذا تتبعنا مطالب (النجم) (وحزب الشعب) من بعده منذ النشأة حتى سنة 1939 فقد نجدها ثورية متطرفة أحيانا . واصلاحية معتدلة تارة أخرى . فمنذ سنة 1927 طالب النجم في برنامجه «بالاستقلال الكامل للجزائر» و«جلاء الجيش الفرنسي» وتعويضه «بجيش وطني» وكذلك بـ «احلال مجلس جزائري منتخب بطريقة التصويت العام محل المجلس المالي»(1) .

ان هذه المطالب هي مطالب ثورية لاتحتمل أي تفسير أو تأويل سوى استرجاع السيادة الوطنية للشعب الجزائري . ولكن برنامج النجم كان غامضا الى حد ما . ذلك أنه في الوقت الذي طالب فيه بالاستقلال الكامل للبلاد ينص على استرجاع الأراضي والغابات التي أخذتها الدولة الفرنسية الى الجزائر «وهذه في الواقع تكون نتيجة حتمية للمطلب الأول . لأن استقلال البلاد الكامل يتضمن تلقائيا تخلي الدولة الفرنسية عن كل الممتلكات التي اغتصبتها من الجزائريين . كما يتضمن الالغاء الحتمي لكل القوانين الاستثنائية والاجراءات التعسفية التي كانت تطبقها فرنسا على السكان المحليين . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان البرنامج ينص على ضرورة «اصدار العفو العام عن الجزائريين الذين كانوا قد سجنوا أو نفوا أو يعيشون تحت الرقابة الفرنسية»(2) وهذا البند أيضا يعتبر حشوا في البرنامج . لأن ذلك يكون نتيجة للنقطة الأولى . ويزداد الخلط في هذا البرنامج كلما تتبع المرء بنوده . ففي المادة التاسعة وردت جملة تحتوي على حرية الصحافة . وحق الاجتماع ، والتجمع ، والحقوق السياسية والنقابية على غرار الفرنسيين في الجزائر . وهذا المطلب في الواقع وبهذا المفهوم يعتبر اصلاحيا ليس له أية علاقة بمطلب الاستقلال .

ولعل مايزيد برنامج النجم التباسا النقطة الرابع عشرة التي تتضمن المطالبة بتطبيق جميع القوانين الاجتماعية الفرنسية على الجزائر(3) . بل أن هذا المطلب يتعارض أساسا مع مبدأ الاستقلال الذي دعا اليه النجم نفسه في بداية مطالبه . الخ وهو من التناقضات الواردة في برنامج الحزب . ولكن اذا أردنا أن نسلك تحليلا

(1) أبو القاسم سعد الله / المرجع السابق . ج 3 . ص 432 .
(2) نفس المكان .
(3) أبو القاسم سعد الله / المرجع السابق . ج 2 . ص 432 .

آخر لمحتوى البرنامج يمكن اعتبار النقطة الأولى تمثل ايديولوجية النجم على المدى البعيد ، في حين اعتبار القسم الثاني من البرنامج يشكل المطالب الفورية للشعب الذي كان يعيش في حياة متدهورة ومنحطة على جميع المستويات ، وقد يكون هذا الرأي متفقا أو متقاربا مع رأي زعماء النجم الذين كانوا يدركون - وبدون شك - واقع المجتمع الجزائري الأليم في وقت بلغ فيه الاستعمار ذروته في البلاد .

ويبدو أن برنامج الحزب الذي سطره سنة 1933 كان أكثر وضوحا بالنسبة لبرنامج 1927 . ذلك أن هذا الأخير لم يفرق بين مطلب الاستقلال التام ، والمطالب الاجتماعية والاقتصادية التي يتوجب على فرنسا تحقيقها لصالح المسلمين الجزائريين ، بينما نلاحظ أن برنامج سنة 1933 قد وضح المطالب الاصلاحية الفورية في القسم الأول و «استقلال الجزائر» و «انشاء جيش وطني» و «انشاء حكومة وطنية ثورية» و «انشاء جمعية تأسيسية تنتخب بالاقتراع العام»[1] في القسم الثاني .

ويبدو أن قادة النجم حاولوا هذه المرة تحديد وتوضيح ايديولوجية الحزب على المدى البعيد أي بعد استرجاع الاستقلال الوطني في كل الميادين السياسية ، والاقتصادية والاجتماعية . كما أن مطالب 1933 توضح بجلاء مدى تطور الحزب في الميدان الايديولوجي ، وفي معرفة واقع الشعب الجزائري الذي يعيش تحت كابوس الاستعمار . كما أن الحزب أصبح مقتنعا بضرورة تعليم اللغة العربية للشعب الجزائري تعليما اجباريا مع «اباحة جميع أنواع التعليم للجميع»[2] ، وذلك قبل الاستقلال التام وانشاء الحكومة الوطنية ، وهنا يلتقي النجم مع العلماء في الدعوة الى التعليم ، ومحو الأمية قبل الوصول الى مرحلة الاستقلال ، رغم أن النجم وحزب الشعب بعده لم يتبعا سياسة العلماء في البدء بالمدرسة الا في السنوات الأخيرة التي سبقت اعلان الثورة ، بل أن لجوء حزب الشعب الى التعليم لم يكن الا على نطاق ضيق .

واذا تتبع المرء مراحل النجم ، وحزب الشعب خلال الثلاثينات ، فسيلاحظ باستمرار اعتدال مطالبها حتى سنة الحل الأخيرة عشية الحرب العالمية الثانية ، ففي سنة 1935 أكتفى القانون الأساسي لجمعية «الاتحاد الوطني لمسلمي شمال افريقيا»[3] في

(1) عبد الحميد زوزو / المرجع السابق ، اللحق رقم 1 ، ص 188 .
(2) نفس المكان .
(3) بعد حل نجم الشمال الافريقي سنة 1934 من طرف الحكومة الفرنسية ، تأسست جمعية «الاتحاد الوطني لمسلمي شمال افريقيا» تضم مسلمين من شمال افريقيا وذلك بتاريخ 28 شباط (فيفري) 1935 مقرها في باريس لتواصل مسيرة النجم وبرنامجه تحت اسم جديد. ينظر عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، اللحق رقم 3، ص 193.

مادته الثانية بالاشارة الى «تحرير مسلمي شمال افريقيا ماديا وروحيا»[1] وهذه الجملة في حد ذاتها تعني حرية سكان الشمال الافريقي اقتصاديا ومعنويا ، ولكنها لا تتضمن معنى الاستقلال التام عن قبضة الاستعمار .

أما في برنامج المطالب الفورية التي تقدم بها (النجم) الى (الجبهة الشعبية) في سنة 1936 بالاشتراك مع «لجنة الدفاع عن الحريات بتونس» و «لجنة الدفاع عن مصالح مراكش» ، فان الباحث يلاحظ اختفاء عبارة الاستقلال اختفاء مطلقا في هذا البرنامج ، ولكنه يلاحظ التقاء النجم مع العلماء في بعض المطالب الاصلاحية : أهمها الدعوة الى اعطاء الحق في التعليم العام للجميع في كل المراحل الثانوية ، والعالية ، واجبارية تعليم اللغة العربية في جميع المستويات ، و «الغاء التبشير في شمال افريقيا ، والكف عن دعم المذهبين الكاثوليكي والبروتيستانتي» وحماية الأوقاف الاسلامية ، وعدم استخدامها في تعزيز الاستيطان الرسمي أو لغايات أخرى[2] .

ان كل هذه النقاط الواردة ضمن مطالب النجم سنة 1936 هي مبادىء أساسية في برنامج العلماء منذ ميلاد الجمعية حتى قيام الثورة التحريرية .

وخلال سنة 1936 أيضا تقدم النجم بمطالب خاصة بالعمال الجزائريين للحكومة الفرنسية اقتصرت على بعض الحقوق السياسية ، والاجتماعية فقط[3] ولم تشر الى مطلب الاستقلال ولو بكلمةواحدة . واذا وقفنا برهة من الزمن مع التوصيات الصادرة عن مؤتمر (حزب الشعب الجزائري) في شهر آب (أوت) 1938 نلاحظ غياب المناداة بالاستقلال الوطني في تلك التوصيات ، ولعل حزب الشعب الذي يعتبر استمرارية للنجم قد أصبح واقعيا بعد مرور اثنتي عشرة سنة من النضال على الصعيدين الخارجي والوطني ، ذلك أن قادة حزب الشعب بناء على توصيات 1938 قد أدركوا بتجربتهم الطويلة أن المناداة بالاستقلال التام - قبل تهيئة الجماهير الجزائرية تهيئة ثقافية وسياسية - أمر صعب المنال ، وخاصة في ظل الاستعمار الاستيطاني الذي يضحي بكل القيم الانسانية من أجل الحفاظ على مصالحه في المستعمرات .

(1) ينظر نفس اللحق .
(2) ينظر نفس المرجع / ملحق رقم 2 ، ص 191 .
(3) عبد الحميد زوزو / المرجع السابق ، ملحق رقم 4 ، ص 196 .

ولكن الأستاذ محمد قنانش يقول بهذا الصدد : «ان حزب الشعب الجزائري (لم يستعمل) كلمة الاستقلال بلفظها كما هي في نجم الشمال الافريقي ، ولهذا يظهر لبعض المؤرخين تراجع ، والحقيقة أن الظروف العالمية في سنة 1937 من تكالب النازية والفاشيستية على أقطار المغرب العربي ، والبحر الأبيض المتوسط قد أعطى لكلمة الاستقلال معنى الارتماء في أحضان الفاشيستية ، ولهذا أختير تعبير آخر ، وهو انشاء مجلس تأسيسي جزائري صاحب سيادة»[1] .

ويرى الباحث أن هذه الظروف لاتعتبر مبررا لهذا الأسلوب ، لأن كلمة الاستقلال لاتعني الارتماء في أحضان مستعمر جديد ، وانما يمكن القول أن حزب الشعب قد اتبع استراتيجية جديدة تحفظه من الحل والملاحقة حتى يستطيع أداء رسالته تحت شعارات جديدة يكون وقعها على المستعمر أخف من كلمة الاستقلال ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، فان الباحث يلاحظ تقارب وجهات النظر بين (حزب الشعب) و (جمعية العلماء) في المناداة بالتعليم مثل «الشروع الفوري في انجاز برنامج واسع لبناء المؤسسات التعليمية . . .» و «تحديد قسم هام من الميزانية العامة المخصصة للجزائر لتحقيق مخطط تعليمي على مستوى الولايات الثلاث» . وكما دعت جمعية العلماء الى تأسيس كلية للتعليم الديني لتخريج فقهاء يعلمون (الأمة) أمر دينها[2] دعا حزب الشعب الى «تأسيس كلية للاداب العربية بجامعة الجزائر تدرس فيها اللغة والاداب العربيان الى جانب التاريخ ، وعلم الاجتماع ، والفلسفة الاسلامية ...»[3] وكما مارست جمعية العلماء التعليم الحر على مدى ربع قرن من الزمن دعا حزب الشعب أيضا الى اعطاء الحرية المطلقة للتعليم الحر[4] .

وبعد نجاح (حزب الشعب) في انتخابات 23 نيسان (أفريل) سنة 1939 نشر جملة من المطالب في جريدة (البرلمان الجزائري)[5] كرر فيها نفس المطالب التي دعا الى تحقيقها منذ سنة 1933 (باستثناء الدعوة الى الاستقلال) وهي مطالب سياسية

---

(1) محمد قنانش / المصدر السابق ، ص 10 .

(2) عبد الحميد بن باديس : سجل مؤتمر جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، مرجع سابق ، ص 106 .

(3) عبد الحميد زوزو ، المرجع السابق / ملحق رقم 6 ، ص 198 .

(4) ينظر التوصيات المصادق عليها من طرف المؤتمر العام لحزب الشعب الجزائري المنعقد بتاريخ 23 و 24 أوت 1938 .

(5) جريدة البرلمان الجزائري ، كانت تصدر بالفرنسية أنشأها حزب الشعب في الجزائر وظهر العدد الأول منها يوم 18 ماي 1939 .

واقتصادية ، واجتماعية ، وثقافية ، ولكنه اضاف عبارة فصل الدين عن الدولة ، وهذا المطلب كذلك لا يعتبر جديدا ، لأن النجم دعا اليه في سنة 1934 وهنا يلتقي مع جمعية العلماء في هذا الميدان .

المقارنة الثقافية والاجتماعية والايديولوجية بين العلماء ومنظمتي نجم افريقيا الشمالية وحزب الشعب الجزائري .

ان المقارنة التاريخية بين جمعية العلماء ، ونجم افريقيا الشمالية ، وحزب الشعب الجزائري بعده خلال الثلاثينات ، والأربعينات ، توضح وجود علاقة قوية بين هذه الحركات الثلاث في المبادىء والأهداف رغم اختلافها في بعض القضايا المتعلقة بأساليب الكفاح ، ويعود ذلك الى أسباب عدة أهمها :

أ) ان جمعية العلماء قد انطلقت في حركتها الوطنية من واقع المجتمع الجزائري الذي فقد كل منابع المعرفة نتيجة لسياسة التجهيل التي اتبعتها السلطات الاستعمارية في الجزائر ، ولما كان قادة ، الجمعية يدركون أن الشعب الجاهل لا يمكنه الحصول على استقلاله من أعدائه ، كما أنه عاجز عمليا عن المحافظة عليه بعد تحقيقه ، لأنه لا يستطيع أن يقدر الاستقلال حق قدره[1] . فقد اتخذوا من المدرسة أداة رئيسة لمحاربة الاستعمار ، وهذا الاختيار الذي انتهجته الجمعية لمكافحة الجهل ، كان نقطة خلاف حاد في الحركة الوطنية بين قادة الجمعية ، وزعماء حزب النجم .

فبينما كان يري (ابن باديس) وزملاؤه أن التعليم أهم سلاح للوقوف في وجه المستعمر ، كان (مصالي الحاج) ورفقاؤه يعتقدون أن النضال السياسي هو أقرب طريق لاسترجاع الوطن من قبضة المغتصب[2] ، والواقع أن كلا الرأيين له مايبرره ، فالعلماء الذين اعتبروا التعليم اللبنة الأولى في يقظة الشعب كانوا ينظرون الى المجتمع نظرة واقعية ، حيث أن الثقافة العربية ، في الجزائر ، والتي تربط الفرد بماضيه وحاضره ، قد أوشكت على الاندثار ، وكاد المسلم الجزائري أن يفقد شخصيته العربية التي تميزه عن شخصية الأوروبيين ، الذين يستهدفون ادماجه في كيان المجتمع الفرنسي . لذلك كانت حملتهم على الجهل عنيفة فاستحقت بذلك الأولوية في برنامج العلماء ، وأجلوا السياسة أو تركوها لفئات أخرى خارجة عن اطار الجمعية .

---

(1) ينظر ، رابح التركي ، المرجع السابق ، ص 199 ، نقلا عن الدكتور طه حسن جريدة السياسة ، عدد 190 القاهرة ، 7 جوان 1923 .

(2) الصادق حماني ، محادثة شخصية بتاريخ 25 فيفري 1976 .

مر . رغم التقارب

ى[1] وهو عضو من
ماء بحزب الشعب
ية تستمد أصالتها
بتحرير الوطن من
افة فيئات الشعب
محدودة تعتمد على
حه حتى يتماشى مع
ستعمار) .
حب هذا الرأي :
نا له جمعية دينية في
يتحول الى منظمة

ري ، بل أنهم اعتبروا
ن والوطنية كلمة
ناها ...)[3] .
بعبارة الاستقلال في
ة الاعلان بهذه الكلمة

للجزائريين في كل من
كانت أكثر سهولة من
فرنسا الى اضراب عام
لجزائر حيث تبدو هنا

19، نقلا عن جريدة المتقد
. 192

أما الوطنيون الآخرون الذين اعتقدوا أن أقرب طريق لحل المشكلة الجزائرية هو الكفاح السياسي ، فهؤلاء اقتنعوا بأنه من الممكن جدا توعية الجماهير الجزائرية توعية سياسية واجتماعية ، حتى ولو كانت هذه الأخيرة تتصارع مع ضباب الجهل ، وقد نجحوا فعلا - كما نجح العلماء في برنامجهم - في تكوين حركة سياسية وطنية منظمة استطاعت أن تلقى بثقلها على كاهل العمال الجزائريين في المهجر وتجعلهم أكثر وعيا بدورهم السياسي والوطني ، قبل أن تعود الى أرض الوطن ، ومن هذا يمكن الجزم بأن حركتي العلماء والنجم كانتا مكملتين لبعضها البعض ، أرادوا ذلك أم لم يريدوا .

ب) التباين الثقافي بين مؤسسي الجمعية والنجم : فاذا كان قادة الجمعية الكبار قد تكون معظمهم في البلاد العربية ، وأصبحوا يتمتعون بحظ موفور من الثقافة العربية الاسلامية[1] ، بل أنهم كانوا من أبرز أرباب القلم في هذا القرن ، ومن أصحاب الكلمة والقول الفصل في القضايا الدينية والاجتماعية ، والسياسية ، حيث تجلى ذلك كله في الآثار التي تركوها في المجتمع الجزائري وأهمها : الأجيال التي رفعت لواء العلم والثقافة العربية حتى اليوم .

اذا كان هذا هو وضع العلماء الثقافي ، فان قادة النجم وحزب الشعب بعده ، لم يكونوا سوى متعلمين بسطاء لاتتجاوز مستوياتهم الثقافية الشهادة الابتدائية[2] في غالب الأحيان[3] ، كما أنهم لم يكونوا سوى عمال في فرنسا تكون بعضهم سياسيا في خلايا الحزب الشيوعي الفرنسي ، وتكون البعض الآخر في النقابات العالية في الخارج[4] . وبينما كانت لغة العلماء هي اللغة العربية ، كانت لغة زعماء النجم هي اللغة الفرنسية في غالب الأمر ، بحكم وجودهم في فرنسا .

واذا كان بعض زعماء جمعية العلماء من العائلات الثرية صاحبة الجاه ، مثل الشيخ (محمد خير الدين)[5] ، والشيخ (عبد الحميد بن باديس) الذي كان من أسرة عريقة ولها مكانتها في الادارة الفرنسية[6] ، فان أعضاء حزب النجم وقادته كانوا

---

(1) العربي التبسي (الشيخ) ، جريدة الأسبوع التونسي (الحياة الدينية بالجزائر) عدد 141 ، 12 ديسمبر 1948 ، ص 2 .

(2) MAHFOUD KADDACHE, Op Cit, P. 388.

(3) عبد الحميد زوزو ، المرجع السابق ، ص 62 .

(4) جوان غليسي ، المرجع السابق ، ص 56 .

(5) عبد اللطيف السلطاني : مراسلة خاصة ، بتاريخ 18 ماي 1976 .

(6) العربي التبسي (الشيخ) جريدة الأسبوع التونسية (الحياة الدينية بالجزائر) عدد 141 ، 12 ديسمبر 1948 ، ص 2 .

من أوساط اجتماعية متواضعة ، ولا أدل على ذلك من أنهم كانوا عمالا مغتربين في فرنسا بحثا عن رمق العيش .

واذا كان مبدأ الجمعية في اصلاح المجتمع الجزائري مبنيا على الآية الكريمة ﴿ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1] ، حيث بدءوا باصلاح شؤون الفرد في المعتقد والسلوك من جهة ، واصلاح الأسرة والمجتمع من جهة أخرى عملا بالمبدأ القرآني والسنة الالهية العمرانية[2] ، فان زعماء النجم انطلقوا من فكرة اقتصادية وسياسية تتمثل في الدفاع عن الحقوق المادية والأدبية[3] ، لعمال الشمال الافريقي في فرنسا ، والعمل على التوعية السياسية للعمال المغاربة بما في ذلك الجزائريون . واذا كان قادة النجم وحزب الشعب قد اتبعوا منذ البداية في حركتهم مبدأ العنف والتطرف لاسترجاع الاستقلال الوطني ، فان ايديولوجية العلماء كانت تتميز (بارادة الوصول الى الاستقلال بسير متبصر بالسياسة اللاعنفية)[4] .

ومع هذا كله ، فقد كانت الروابط الايديولوجية بين العلماء ، والحزب الوطني أكثر تقاربا مما هي بينهما ، وبين الحزب الشيوعي الجزائري .

حيث يلاحظ المرء ، (بعد 1937) أن حزب الشعب يعرض على جمعية العلماء ، وشبيبة المؤتمر الإسلامي ، القيام بعمل موحد يقوم على الأسس الايديولوجية المشتركة . ولاسيما فيما يتصل ، بوقف هذه الحركات من حملة التنصير التي يقوم بها المبشرون المسيحيون في الجزائر .

وقد كان لكل من العلماء ، «وحزب الشعب مواقف تاريخية» ، مشرفة في هذا المجال . فالعلماء أصدروا فتاوى يصفون فيها المتجنسين بالكفر والارتداد عن الاسلام ، وعدم دفنهم في مقابر المسلمين[5] .

أما حزب الشعب، فقد ربط بين الامبريالية الفرنسية، وحركة التنصير المسيحية في البلاد ، وأوضح بأنها صنوان متلازمان أو هما وجهان لعملة واحدة لأن هدفها واحد ، بالرغم من اختلافهما في طريقة العمل والوسائل المؤدية الى الغاية المرجوة .

---

(1) سورة الرعد ، آية 11 .

(2) مالك بن نبي ، جريدة البصائر ، عدد 172 قسنطينة 2 مارس 1948 .

(3) Charles André Julien, Op Cit, P. 170.

(4) عمار أوزقان : المرجع السابق ، ص 18 .

(5) العربي التبسي ، جريدة البصائر ، عدد 194 قسنطينة 7 جانفي 1938 ، ص 2 .

ان كل واحد منها يكمل الآخر ، أو يعمل من أجله «لابقائنا نحن الجزائريين في وضعية الاستعباد ، التي أصبحت لاتطاق» .

وهذا التقارب بين العلماء ، وحزب الشعب هو بصورة غير مباشرة استبعادا للشيوعية .

غير أن إبن باديس كان يؤمن ، ويدعو الى قبول الاختلاف في وجهات النظر اذا تعلق الأمر بطرائق العمل التي ينتهجها كل واحد ، اذا كانت الأهداف التي نعمل لها جميعا واحدة وكان يعتبر الاتحاد بين العلماء وحزب الشعب ، وشبيبة المؤتمر هدفا من الأهداف السياسية اذا خلصت له النوايا ، الطيبة الا أن الأهم من هذا كله عند بن باديس ، هو الاسلام ، واللغة العربية ، والطابع الوطني للجزائر ، حيث يعتبر أن المشكلة الجزائرية مشكلة وطنية ، وليست مشكلة إصلاحات . كما هو الحال عند الحزب الوطني الذي تقوم مبادؤه الأساسية على أن الهدف الذي يعمل من أجله قائم على حقوق شعب بأكمله في إطار وطني .

أما العلماء فإن من أهم المباديء التي دافعت عنها صحافتهم هي : فكرة أن الجزائر أمة . ومن ثم أخذوا يهاجمون فكرة التجنيس ، بكل شدة ، ويرفضونها رفضا باتا ، ويقاومون كل الاجراءات المناهضة للغة العربية ، كما يهاجمون المؤتمر الافخاريستي المسيحي المنعقد في الجزائر . ويبرزون للسلطة الفرنسية مميزات الأمة الجزائرية ، وشخصيتها ووحدتها الوطنية .

ومع مرور الزمن ازداد زعيم العلماء الإمام عبد الحميد بن باديس تعلقا بفكرة الوطن الجزائري ، والأمة الجزائرية ، وإن كانت في نظره أمة صغيرة الا أنها أمة ذات انتماءات تتسع حلقاتها أكثر فأكثر : الحلقة الأولى المغرب العربي . الحلقة الأوسع منها هي حلقة الأمة العربية . ثم الأمة الاسلامية ، ثم الانسانية عامة .

أما تنظيم الأمة في إطار الدولة الإسلامية . فان الشعب عند ابن باديس هو صاحب الحق في تنصيب الحاكم ، وفي عزله عن الحكم . وفي مراقبة حكامه ، ومسؤوليه ، والشعب لايخضع الا للقانون[1] .

ولعل الفروق الثقافية والاجتماعية والمكانية هي التي أوجدت الخلاف بين العلماء

---

(1) عبد الله شريط : مع الفكر السياسي الحديث والمجهود الايديولوجي في الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر 1986 ، ص 134 ، ص 135 .

والنجميين في التكتيك ووسائل العمل في خضم النضال ضد المستعمر . رغم التقارب الذي حدث بينهما .

ولعله من الأهمية بمكان أن نسوق ما أورده الأستاذ محمد قنانش[1] وهو عضو من أعضاء حزب الشعب منذ تأسيسه ، حول مقارنة حركة العلماء بحزب الشعب الجزائري الذي قال : (ان حزب الشعب حركة وطنية سياسية ثورية تستمد أصالتها من التراث الحضاري الاسلامي ، وتسعى لتغيير الوضع القائم بتحرير الوطن من الاحتلال ، وذلك بتربية سياسية ، ونظام وكفاح تعتمد على كافة فيئات الشعب للوصول الى غايتها . أما حركة الاصلاح فهي خاصة وغايتها محدودة تعتمد على المثقفين والشخصيات والتجار ، ومهمتها : تكييف الدين واصلاحه حتى يتماشى مع الوضع القائم ، والتغيير يكون من الدين لا من الحكم الذي هو الاستعمار) .

ان الباحث بناء على هذا الحكم يطرح الأسئلة التالية على صاحب هذا الرأي :

أولا : ألم يكن حزب النجم الذي يعتبر حزب الشعب امتدادا له جمعية دينية في أول الأمر ، كما يعترف بذلك السيد قنانش[2] نفسه قبل أن يتحول الى منظمة سياسية ثورية ؟

ثانيا : ألم يكن العلماء هم أول من جهر باسم الوطن الجزائري ، بل أنهم اعتبروا (الوطن قبل كل شيء في حركتهم) (... أيام كانت كلمة الوطن والوطنية كلمة اجرامية لايستطيع أحد أن يتفوه بها ، وقليل جدا من يشعر بمعناها ...)[3] .

ثالثا : وهل للاستاذ قنانش أن ينسى بأن عدم جهر العلماء بعبارة الاستقلال في أول الأمر ، كما فعل النجميون في فرنسا ، يعود أساسا الى صعوبة الاعلان بهذه الكلمة في الجزائر ؟

اننا اذا أخذنا بعين الاعتبار الفرق بين الحرية المسموح بها للجزائريين في كل من فرنسا والجزائر نرى أن المطالبة (بالانفصالية) في باريس كانت أكثر سهولة من المطالبة حتى بالحقوق (أو الدمج) في الجزائر . وكانت الدعوة في فرنسا الى اضراب عام ضد الحرب المراكشية مثلا ، أكثر سهولة من الظهور بها في الجزائر حيث تبدو هنا

---

(1) المصدر السابق ، ص 86 .
(2) نفس المكان .
(3) انظر مجلة الشهاب ، المجلد الثالث عشر ، الجزء السابع ، قسنطينة ، سبتمبر 1937 ، نقلا عن جريدة المنقذ التي كانت تصدر تحت شعار (الحق فوق كل أحد ، والوطن قبل كل شيء) في سنة 1925 .

بمظهر المتمرد على السلام الذي يطالب به كل جندي فرنسي ، لأن هذا التمرد كان يعني خرقا لمقدسات ، (السياسة الفرنسية)[1] .

أما وأن حركة حزب الشعب (حركة ثورية تستمد أصالتها من التراث الحضاري الاسلامي ...) . فان هذا حق بالنسبة (لحزب الشعب) الذي نشأ في أوج قوة الحركة الوطنية الجزائرية ، ولكن ذلك لم يكن واضحا في برنامج النجم عند ميلاده ، بل أنه نشأ في أحضان الحزب الشيوعي الفرنسي في المهجر بدليل أن رئيسه الأول كان شيوعيا ، ولم يرتبط بالتراث العربي الاسلامي ، الا بعد تطوره وتطهيره من العناصر الشيوعية .

أما حركة العلماء التي يعتبرها هذا الكاتب المناضل حركة اصلاحية خاصة ، فقد انبثقت من أعماق الحضارة العربية الاسلامية التي مسخها المستعمر خلال قرن من الزمن ، وكانت تعمل باسم أربعين في المائة من مجموع الشعب الجزائري[2] .

وقد كتب متصرف فج مزالة الى الادارة الفرنسية العامة في الجزائر سنة 1954 بهذا الصدد يقول : ان جمعية العلماء تحفر هوة بين الحضارتين (العربية والفرنسية) نظرا لما تقوم به من تعميق للثقافة الاسلامية (التعصبية) وعلى الرغم من أنها تدعي بأنها لاسياسية ، فانها نواة للاحزاب الوطنية ، وقاعدة ثابتة ينمو فوقها الشعور الوطني الاسلامي[3] .

ويؤكد ذلك ماكتبه محافظ الشرطة ببرج بوعريريج (في نفس الفترة) الذي قال : (ان ازدياد العلماء هو الخطر الحقيقي على السياسة الفرنسية في الجزائر) (لأن هدفهم هو تكوين الانسان المسلم الحقيقي ، والذي يحتم عليه أن يجهل ويحتقر كل ماهو غير اسلامي[4] .

ويضيف السيد قنانش[5] ، فيقول : (مبدأ الاصلاح محاربة الطرق والزوايا مع مسالمة الحكومة الاستعمارية ، أما المبدأ الوطني فهو محاربة الاستعمار بالاعتماد على كافة أفراد الشعب من غير تميز بين اصلاحي وطرقي) .

---

(1) عمار أوزقان ، المرجع السابق ، ص 101 .
(2) L'Algérie du demi-siècle, Op Cit.
(3) L'Algérie du demi-siècle, Op Cit.
(4) IBID.
(5) محمد قنانش ، المصدر السابق ، ص 86 .

ان هذا الحكم مجحف في شكله ومضمونه ، لأن العلماء اعتبروا محاربة الطرق الفاسدة أمرا ضروريا ، لأنها كانت عميلة للاستعمار ، ومفسدة للعقائد والأخلاق ، وبما أن الاستعمار اعتمد عليها في استغلال الشعب وتخديره ، فان محاربتها تعتبر محاربة للاستعمار نفسه .

واليك ما قاله إبن باديس[1] ، في هذا الموضوع سنة 1925 ، اننا (... نحب من يحب وطننا ويخدمه ، ونبغض من يبغضه ويظلمه ، فلهذا نبذل غاية الجهد في خدمة وطننا الجزائري ، وتحبيب بنيه فيه ، ونخلص لكل من يخلص له ، ونناوىء كل من يناوئه من بنيه وغير بنيه) .

أما وأن حركة العلماء كانت تقوم على مبدأ مسالمة الاستعمار ، فان هذا الأمر غير وارد البتة ، والاكيف تفسر محاربة الاستعمار للعلماء ، ومنعهم من الوعظ والارشاد في المساجد الرسمية ، وغلقه لمدارسهم الحرة ، ومنع صحفهم من الصدور ، وسجن بعضهم ، وقتل ، ونفي البعض الآخر الى المناطق النائية ؟

وحول هذا الموضوع كتبت احدى جرائد الجمعية (الصراط) سنة 1933 ، تقول : (تظاهر بتظاهر) ان الحكومة الفرنسية تظاهرت بأنها ستشارك (الأمة) في جني ثمرة الجهود التي تبذلها جمعية العلماء ، كما أن هذه الجمعية تظاهرت هي الأخرى بأنها تعاون فرنسا على تهذيب الشعب الجزائري وترقيته ، ورفع مستواه (الى الوضع اللائق باسم فرنسا وسمعتها)[2] .

والواقع أن كلا من الادارة والجمعية كان يخادع الطرف الآخر فالادارة اعترفت بالجمعية من أول الأمر ، والأمل يحدوها في أن هذه الجمعية ستكون عونا للاستعمار في الجزائر مثل غيرها من الجمعيات الدينية الأخرى ، ولكنها بمجرد أن فقدت هذا الأمل أخذت في وضع العراقيل والعقبات في طريقها ، فبدأت في تعطيل صحفها ، وغلق المساجد في وجوه علمائها .

أما الجمعية فبعد أن حصلت على موافقة الادارة بالتصديق على قانونها الأساسي ، راحت تكيل الضربات المباشرة والخفية ضد أعوان سلطات الاحتلال وأنصاره ، وكانت أولى هذه الضربات موجهة ضد شيوخ الزوايا ، ورجال الطرق الصوفية

---

(1) جريدة المنتقد ، العدد الأول ، قسنطينة 2 جويلية 1925 ، ص 1 . 5 .
(2) محمود قاسم : المرجع السابق ، ص 56 و57 ، نقلا عن جريدة الصراط عدد 1 ، 11 ديسمبر 1933 .

المنحرفين الذين انسحبوا من عضويتها بعد سنة واحدة من انشائها . فتظاهر الجمعية اذن لم يكن في أول الأمر سوى ستار رقيق لأهدافها الحقيقية .

ويتابع السيد قنانش[1] مقارنته بين العلماء وحزب الشعب فيقول : (الاعتماد على الاحساس القومي لانهاض الشعب مبدأ وطني . أما الاصلاح فاعتماده على العقلانية المستمدة من الغرب . وهذا الرأي لم يكن صحيحا أيضا لأن العلماء قد بدأوا حركتهم بالاعتماد على احياء مقومات الشخصية الوطنية للجزائريين المتمثلة في اللغة العربية ، والدين الاسلامي ، والتاريخ المشترك والثقافة المشتركة والوطن الجزائري[2] بل أن حركتهم كانت حركة سلفية اسلامية .

وهنالك نصوص كثيرة للامام عبد الحميد بن باديس في هذا الموضوع تعبر بوضوح عن الاحساس القومي للشعب الجزائري ، وهو مبدأ من مبادىء نهضات الأمم الحديثة ودعوة جلية للاتحاد والتماسك الوطني للوقوف في وجه الاستعمار الذي مزق وحدة الشعب الجزائري باتباعه سياسة فرق تسد .

أما قول الأستاذ قنانش : ان حركة العلماء الاصلاحية تقوم على العقلانية المستمدة من الغرب . فهذا حكم لا يقوم على ساق . ذلك أن ثقافة العلماء هي الثقافة العربية الاسلامية المستمدة من القرآن والسنة ، وأن دعوتهم سلفية أخذت أفكارها من مبادىء المصلحين الأوائل الذين برزوا عبر التاريخ الاسلامي . كما أن تكوينهم لم يكن لا في فرنسا مثل تكوين قادة النجم وحزب الشعب ، ولا حتى في الجزائر بالنسبة لقادة العلماء الأوائل ، بل كان في المشرق العربي .

وأخيرا يقول الأستاذ قنانش[3] : «فالمصلح يعيش في الحاضر بعقلية الماضي البعيد ، ويتناسى التطور الزمني ، وما كان صالحا في العصور الخالية لم يعد حتما صالحا في عصرنا الحاضر . أما الوطني السياسي فعيش في حاضره بالتفكير في المستقبل والتهيء له ... ان هذا الحكم قد ينطبق على المصلحين الاخرين من غير جمعية العلماء ، لأن هذه الأخيرة قد أحدثت تغييرا ملموسا في الحياة الجزائرية وجعلت الفرد الجزائري يفكر بعقلية العصر ، بعد أن شنت حربا عوانا على الخرافات والبدع

---

(1) المصدر السابق ، ص 67 .

(2) ينظر ، الفصل الثالث من هذا البحث .

(3) المصدر السابق ، ص 67 .

الفاسدة ، والعقلية المتحجرة التي صاغها المستعمر في قالب يتفق مع سياسته الرامية الى مسخ الشخصية الوطنية وازالتها من الوجود . وحول هذا الموضوع نسوق ما قاله ابن باديس[1] سنة 1936 .

«ان الاستقلال حق طبيعي لكل أمة من أمم الدنيا . وقد استقلت أمم كانت دوننا في القوة ، والعلم ، والمنعة ، والحضارة . ولسنا من الذين يدعون علم الغيب مع الله ويقولون أن حالة الجزائر الحاضرة ستدوم الى الأبد . فكما تقلبت الجزائر مع التاريخ فمن الممكن أنها تزداد تقلبا مع التاريخ . وليس من العسير بل من الممكن أن يأتي يوم تبلغ فيه الجزائر درجة عالية من الرقي خاصة ، وتصبح البلاد الجزائرية مستقلة استقلالا واسعا ، تعتمد عليها فرنسا اعتماد الحر على الحر» .

أما بالنسبة لحزب الشعب فقد حاول مثل العلماء أن يصل الى الاستقلال الوطني بالطرق السلمية قبل سنة 1945 . وفي ذلك يقول السيد فرحات عباس[2] «فمن الكذب أن يقال بأن قادة حزب الشعب لم يكونوا مقتنعين بوسيلة تسوية الاستعمار بصفة سلمية ، وباستطاعتي أن أدلي بشهادتي في هذا الموضوع» .

وعلى أية حال فمهما يكن رأي السيد قنانش . فان العلماء والنجم ، وحزب الشعب الجزائري بعده كانوا يعملون لهدف واحد ، وهو الاستقلال الوطني مهما اختلفت الوسائل والأساليب . وفي ذلك يقول الدكتور أبو القاسم سعد الله[3] «ورغم أن النجم والعلماء لم ينسقوا سياستهم رسميا ، فانهم كانوا فعليا يعملون لغاية واحدة ...» فكلاهما كان يعتمد على الجماهير الشعبية وكلاهما كان يمثل العمال والفلاحين والمثقفين الفقراء . فالنجم كان بالفعل يمثل صوت الطبقات العاملة سواء بعد ميلاده في فرنسا أو بعد نقل نشاطه الى الجزائر نفسها[4] .

أما جمعية العلماء فقد كانت تمثل جماعة المثقفين الفقراء حقا من أبناء الريف والمدينة على السواء ، لأن مدارسها وفروعها كانت منتشرة في كل المدن والقرى الجزائرية تقريبا ، وتستقبل هذه المدارس أبناء الشعب بدون تمييز طبقي ولعل الأغلبية كانت من أبناء الفقراء . لأن الطبقات الثرية صاحبة الجاه كانت تبعث

---

(1) مجلة الشهاب ، م 12 ، ج 3 ، قسنطينة جوان 1936 ، ص 145 ، 146 .

(2) ينظر المرجع السابق ، ص 249 .

(3) الحركة الوطنية الجزائرية ، المرجع السابق ، ج 3 ، ص 152 .

(4) نفس المرجع ، ص 124 .

أبناءها في غالب الأحيان الى المدارس الفرنسية ، ذلك أن المتعلمين بالعربية غداة الاستقلال – ومعظمهم من تلامذة العلماء – كانوا في الغالب من الطبقات الفقيرة ومتوسطي الحال . أما المتعلمون بالفرنسية فكان معظمهم من الطبقة الغنية وأصحاب الجاه[1] .

وهناك مناسبات عديدة يلتقي عندها العلماء والنجم ، ففي سنة 1933 – عندما منع مرشدو جمعية العلماء من الوعظ والارشاد في المساجد الرسمية – قام حزب النجم باحتجاج ضد منشور المنع الصادر عن السلطات الفرنسية سنة 1933 ، وقد تمثل هذا الاحتجاج في تجمع سبعة آلاف عامل جزائري في فرنسا ، حيث عبر هؤلاء العمال عن استنكارهم لهذا المنشور الذي عرف بمنشور (ميشال)[2] ، وقد ترتب على هذا التأييد للعلماء أن تعرض كثير من العمال الجزائريين بفرنسا الى ملاحقات حيث حكم على مسؤوليهم بسنوات سجنا[3] .

ولعل أول لقاء مباشر تم بين العلماء والنجم كان سنة 1936 ، عندما سافر وفد المؤتمر الاسلامي الجزائري الى باريس بهدف تقديم مطالب المؤتمر[4] ، الى الحكومة الفرنسية ، فنظم له أعضاء النجم استقبالا حضره مصالي الحاج نفسه ، وكان إبن باديس والابراهيمي والعقبي والأمين العمودي ، من بين أعضاء الوفد . وقد كتبت جريدة الأمة بخصوص لقاء باريس تعليقا بعنوان : (نجم شمال افريقيا وجمعية العلماء) أوردت فيه أن جمعية نجم شمال افريقيا قد استقبلت وفد المؤتمر الاسلامي الذي كان بين أعضائه قادة جمعية العلماء بالتحية ، وأن العلماء قاموا بزيارة بعض شخصيات النجم (لا سيا في النزل الكبير بباريس) .

وفي هذا الموضوع يقول الأستاذ قنانش[5] ، إن الشيخ إبن باديس قد اقتنع بفكرة النجميين المعارضة لمطالب المؤتمر الاسلامي ، وأعتذر أمامهم (بأنه أتى للمطالب الدينية فقط ، وحين أفهم أن المطالب الدينية في اطار الاندماج لا قيمة لها وأنكم

(1) رأي شخصي بالباحث .

(2) Circulaire Michel, 19 Février 1933. Michel secrétaire général de la prefecture d'Alger, chargé des affaires indigènes.

(3) عبد الحميد زوزو ، المرجع السابق ص 133 ، نقلا عن جريدة الأمة عدد 44 ديسمبر 1936 .

(4) ينظر الفصل الخاص بجمعية العلماء والمؤتمر الاسلامي .

(5) المصدر السابق ، ص 71 .

تتحملون مسؤولية الأجيال المقبلة ، أجاب بأنكم تتكلمون هكذا هنا في فرنسا لأنكم في أرض الحرية ، أما في الجزائر فلا يمكنكم أن تقولوا مثل هذا الكلام ، فرد عليه مصالي بأني سأكون بجانبكم في الجزائر وسأقول هذا الكلام) .

ولنا أن نتساءل هل أن إبن باديس كان يجهل حقا نتائج مطالب المؤتمر ، ولم يفهم ذلك الا بعدحواره مع قادة النجم في فرنسا ؟ أم أنه كان يدرك فعلا النتائج البعيدة لتلك المطالب ويفسرها عكس مفاهيم زعماء النجم ؟

أعتقد أن إبن باديس لم يكن يخفى عليه بعد مطالب المؤتمر الاسلامي ولكنه كان يرى فيها خطوة أولى ستتلوها خطوات في طريق التحرير الشامل للشعب الجزائري ، وفي هذا الاطار يقول الأستاذ أجرون[1] : (أن ممثل العلماء في باريس (الشيخ الفضيل الورتلاني) قد صرح للعمال الجزائريين في يوم 31 تموز (جويلية) 1936 بأن (الحديث على التحرر السياسي يجب أن يسبقه الحصول على الاستقلال المعنوي ، وذلك بواسطة التكوين الديني) وهذا يعني أن مسألة الاستقلال لم تكن غائبة عن فكر العلماء ، ولكنهم أرادوا أن يمهدوا للاستقلال بنشر الوعي ، وتكوين الاطارات الوطنية لتحمل عبء الدولة المستقلة .

وحين اعتقل العقبي بعد رجوع الوفد الى الجزائر ، قام زعماء النجم في 8 آب (أوت) بساحة (أوجين) في فرنسا ، بتجميع العرب المقيمين هناك وتوزيع المنشورات عليهم للقيام بمظاهرة احتجاج ضد عملية اعتقال العقبي وغلق نادي الترقي[2] .

وبناء على رأي أحد الباحثين الجزائريين في حركة النجم[3] ، فان العلماء كانوا يهاجمون النجميين وأعضاء حزب الشعب ، وأنهم قد انحازوا الى جانب القائلين بأن حزب الشعب الجزائري حركة فاشيستية[4] ، وأن النجميين كانوا يكتفون بالرد على هجمات العلماء كأفراد فقط لكي يتجنبوا الدخول في حلبة الصراع مع الجمعية .

ويبدو أن هذا الحكم غير دقيق ، فاذا كان هذا الباحث قد بنى حكمه على ماكتبته صحافة النجم ، فان صحافة العلماء كانت على النقيض من صحافة النجم باستثناء

(1) Charles Robert Ageron, L'Algérie Algérienne de Napoléon III à de GAULE, imprimerie Tardy Quercy Bourges, Paris, 1980. P. 154.

(2) El-Oumma, Paris : Sept, Oct 1936. P. 8.

(3) عبد الحميد زوزو ، المرجع السابق ، ص 134 .

(4) نفس المرجع ، ص 136 .

جريدة (الدفاع) الاصلاحية[1] ، فالشهاب والبصائر كانتا حريصتين على عدم الدخول في الخلافات التي توسع الهوة بين الأحزاب الوطنية ، بل أنهما كانتا تنشران تعاليق العلماء المؤيدة للنجم وحزب الشعب ، واحتجاجاتهم على اجراءات الحكومة التي تصدرها ضد مناضلي الحزبين المذكورين .

ففي شهر تموز (جويلية) 1937 أعلن إبن باديس[2] ، تأييده الصريح لرأي النجم حول مشروع (بلوم فيوليت) فقال : (... أما الأقلية فقد أبت قبوله تماما (يعني مشروع بلوم فيوليت) لأنها تخشى بعض الألاعيب التي لاتدري متى تكون ، ونحن نحترم رأي هذه الأقلية ، ونأمل بقاءها على رأيها ، وهي تطالب بالاستقلال ، وأي انسان لا يحب الاستقلال الذي هو أمر طبيعي في وضعية الأمم) .

وكان إبن باديس يقصد بهذه الأقلية حزب النجم الذي كان ضد مشروع (فيوليت) ومطالب المؤتمر الاسلامي ، رغم أن إبن باديس وزعماءه العلماء كانوا مقتنعين برأيهم الخاص ، المتعلق بالمؤتمر الاسلامي ، لأنهم كانوا يرون فيه الخطوة الأولى لتحرر الشعب الجزائري ، وهذا خلافا لرأي النجميين ، الذين اعتبروا ذلك المشروع حلقة متينة لربط الجزائر بفرنسا .

وفي نفس العام 1937 ، عندما حكمت الادارة الفرنسية على مصالي الحاج ، ورفاقه الأربعة[3] بسنتين سجنا والحرمان من كل الحقوق المدنية تطبيقا لقرار رينيه (REGNIER)[4] الصادر في سنة 1935 ، أثار هذا القرار في أوساط العلماء موجة من السخط والاستياء ، فكتبت الشهاب[5] ، بهذا الصدد تقول : (لماذا حكم على قادة حزب الشعب ؟ لأن هذا الحزب قد أعلن الحرب الشعواء على الشيوعية ، وأنه لا يريد نيابة برلمانية عند فرنسا ، انما يريد تأسيس برلمان جزائري ، يشمل المسلمين والفرنسيين على السواء ، ويشرع القوانين للجزائر ويغدو القطر الجزائري بذلك مستقلا في ادارته عن فرنسا) .

---

(1) التي كان يصدرها الأمين العمودي بالجزائر العاصمة باللغة الفرنسية منذ سنة 1934 .
(2) مجلة الشهاب ، م 5 ، ج 13 قسنطينة 10 جويلية 1937 ، من ص 235 الى 236 .
(3) مفدي زكريا ، خليفة بن عمار ، عراقة ابراهيم ، مسطول محمد .
(4) في يوم 5 نيسان (أفريل) 1935 اصدر وزير الداخلية مارسيل رينيه بعد زيارة قام بها الى الجزائر في نفس العام قرارا ضيق به الخناق على الحركة الوطنية وصحفها ونشاطها المختلف .
(5) ينظر المجلد 13 ، ج 9 ، قسنطينة نوفمبر 1937 ، ص 420 .

ورغم أن برنامج حزب الشعب يختلف عن برنامج النجم الذي يطالب بالاستقلال في رأي الجلة ، فان الادارة الاستعمارية ، رأت في البرنامج الجديد تهديدا لسلطتها في الجزائر ، فأمرت بالقاء القبض على مصالي ورفاقه ، رغم أن حزب الشعب ، في رأي الشهاب[1] ، لم يطالب سوى بالغاء مشروع (فيوليت) ، وبتوسيع المجالس الجزائرية والاستقلال الإداري .

وهكذا فان العلماء كانوا يتعاطفون باستمرار مع مناضلي النجم وحزب الشعب ويؤيدونه في مواقفه الوطنية ، ويسخطون على الادارة الفرنسية التي كانت بالمرصاد لزعماء الحزب الوطني .

هذا عن بعض مواقف العلماء تجاه النجم وحزب الشعب في الثلاثينات ، أما عن مواقف النجميين أنفسهم من جمعية العلماء ، فقد كانت تختلف باختلاف الظروف ، والمناسبات ، فمرة يؤيدون العلماء ، ويتعاطفون معهم ، وتارة يهاجمونهم وينتقدون مواقفهم الاصلاحية . ففي يوم 28 كانون الأول (ديسمبر) 1936 كتب أحد المنخرطين في النجم من باريس رسالة الى جريدة الكفاح الاجتماعي (لسان حال الحركة الشيوعية الجزائرية) انتقد فيها موقف النجميين الساخر من جمعية العلماء ، حيث ذكر بأن النجم قد عرض تمثيلية في تفالو (TAFALLOU) بباريس كان موضوعها حول الحركات التي شاركت في المؤتمر الاسلامي ، فقال بكل امتعاض : لقد ظهر على خشبة المسرح شخص في هيئة رجل ساذج حقير يرتدي جلباب (لاتشبه جلابيب الوطنيين) يرمز بذلك الى جمعية العلماء التي شاركت في المؤتمر الاسلامي ، ومن خلال حركاته الساخرة ، تبدو اهاناته الواضحة لشرف الاسلام . وفي حواره كان يهاجم (الوطنية العالمية) . مشيرا بذلك الى حركة العلماء التي تقوم (على الدين والتربية قبل الاستقلال)[2] . ورغم هذه الاهانة المباشرة للعلماء فاننا لانكاد نعثر لهم على رد فعل مضاد في هذه الفترة على النجم ، وبالعكس نجد المواقف المؤيدة له من طرف العلماء .

ففي أواخر أيلول (سبتمبر) 1937 ، صرح إبن باديس أمام عضوين من حزب الشعب[3] ، في نزل (قصر الشتاء) بالجزائر (بأنه يتوق الى استقلال الجزائر ، وأن تجربة

---

(1) ينظر المجلد 14 ، ج 2 ، قسنطينة نوفمبر 1937 ، ص 418 ، 419 .
(2) La lutte sociale N° 78, Alger, 2 Janvier 1937.
(3) هما : أرزقي كمال ، وقنانش محمد .

الجبهة الشعبية كانت أحسن درس)[1] للجزائريين . وهناك تم الاتفاق بينه وبين ممثلي حزب الشعب على وقف الهجات ، والعمل على التقارب بين المنظمتين .

وبعد نجاح حزب الشعب في انتخابات نواب مجلس العمالات في 23 نيسان (أفريل) 1939 ، نرى العلماء يشيدون بمناضلي الحزب ، ويفتخرون بفوزهم على الحركات الأخرى ، ويعزون ذلك الفوز الى كون حزب الشعب قد تقدم الى الانتخابات باسم أولئك المضطهدين المسجونين ، والى كونه (ممثلا لفكرة جديدة في العالم السياسي هي فكرة الوطنية الجزائرية)[2] .

وبناء على رأي الشهاب الناطقة بلسان العلماء ، فان الشعب قد نفض يديه من دعاة الاصلاح (كالنخبة والنواب) وحتى من أصحاب الفكرة الوطنية المعتدلة التي تقوم على التعاون مع فرنسا في تحقيقها ، واتجهت نحو الوطنيين (الذين أخذتهم الادارة الاستعمارية أخذ منتقم جبار)[3] .

ويمكننا أن نستخلص من تعليق الشهاب السالف الذكر ، فكرتين :

أولهما : أن العلماء كانوا يؤيدون حزب الشعب تأييدا واضحا في حركته السياسية ، بل أنهم كانوا فخورين بنجاح مرشح الحزب الوطني في الانتخابات .

وثانيهما : أن العلماء أصبحوا لايكترثون بدعاة الاصلاح مهما كان اتجاههم حتى من دعاة الاصلاح الاسلامي ، مثل (الأمين العمودي) الذي كان هو الكاتب العام للجمعية منذ تأسيسها حتى سنة 1935 .

وهناك أمثلة كثيرة عن مواقف العلماء المؤيدة لحزب الشعب الجزائري ، ففي شهر أيلول (سبتمبر) 1937 على المثال نجد مجلة الشهاب[4] ترفع عقيرتها بالاحتجاج والاستنكار ضد الادارة الفرنسية التي منعت جريدة حزب الشعب[5] من الصدور حيث قالت : (في الوقت الذي تتمتع فيه الصحافة الفرنسية بالجزائر على اختلاف أغراضها ومناحيها بكل حرية رغم مايكون فيها ... يضيق على الصحافة العربية الخناق وتضرب بالتعطيل ... وقد نفذ هذا أخيرا على جريدة (الشعب) فعطل عددها

---

(1) قنانش محمد : المصدر السابق ، 96 .

(2) في الشمال الافريقي (حارس شعبي في الانتخابات) الشهاب ، المجلد 15 الجزء 4 ، قسنطينة ماي 1939 ، ص 188 وما بعدها .

(3) نفس المصدر .

(4) الجزء 8 ، المجلد 13 قسنطينة ، سبتمبر 1937 ، ص 397 .

(5) جريدة حزب الشعب ، صدر العدد الأول منها يوم 27 أوت 1937 ولم يخرج الا في يوم 30 من نفس الشهر ، والعدد الثاني منع وهو تحت السحب في شهر سبتمبر من نفس العام ، وكان رئيسها الأول مفدي زكرياء .

الثاني وهو تحت الطبع ، فنحن نتألم مع الزميلة في مصابها ونحتج باستنكار تام على هذه المعاملة الاستثنائية الجائرة) .

وفي سنة 1937 كتبت جريدة (الدفاع)[1] ، الناطقة باللغة الفرنسية تعليقا بعنوان : (نحن ونجم شمال افريقيا) اعترفت فيه بوجود خلافات بين المصلحين وبين النجميين ، ولكنها قالت : (فعلى الرغم من تشعب وجهات النظر التي تفرق بيننا ، سواء من حيث المذهب أو التصور لامكانات الحركة)[2] فاننا لم نبخل على النجم أبدا سواء بتعاطفنا أو بتأييدنا .

(وفي المرحلة العصيبة التي مر بها النجم حين كان مضطهدا وملاحقا من قبل السلطات البارسية – التي كانت تحاول ارغامه على تغيير منهجه وأسلوبه السياسي ، وجدنا بجانبه مصممين على السير معه الى آخر التضحيات ، لأننا كنا نشعر بوجودنا معه في أرضية واحدة مع اختلاف اتجاهاتنا ، وهي أرضية الكفاح ضد الاضطهاد والتعسف من أجل تحرير الفكر . وبذلك كنا ندافع عن مبدأ عزيز علينا يعتبر في مقدمة قائمة مطالبنا الأكثر أهمية ، وهي المطالب المختارة في برنامج نجم شمال افريقيا نفسه)[3] .

وأضافت الجريدة في تعليق لها ما معناه أن النجميين لم يعترفوا لنا بالجميل ، ونحن لانريد منهم جزاء ولا شكورا ، (ولكننا كنا نأمل على الأقل أن يظلوا أوفياء لمبادئهم وبرنامج حركتهم) .

ولكن منذ انعقاد المؤتمر الاسلامي الجزائري سنة 1936 ، اتسعت الهوة التي كانت تفصل بين المصلحين والنجم ، ذلك أن النجم لم ينضم الى المؤتمر الاسلامي الذي مثلت فيه كل الفئات الاجتماعية الجزائرية ، ولم يوافق على مشروع (بلوم فيوليت) ، والعلماء لم (يحاكوه على موقفه هذا)[4] بل أنهم اعترفوا بأن للنجم الحق في البقاء خارج المؤتمر ، وعدم الاعتراف بمشروع (بلوم فيوليت) وقد أضافت الجريدة قائلة :

(اننا نحترم امتناع النجم عن الانضمام الى المؤتمر لأنه (امتناع يقوم على تشككات شريفة) ، ولكن الامتناع والبقاء خارج المؤتمر لايعني محاربتنا . واذا كان الشعور

---

(1) لسان حال الحركة الاصلاحية التي كان يصدرها الأمين العمودي الكاتب العام لجمعية العلماء .

(2) La défense N° 158, Alger 16 Juillet 1937, P. 1.

(3) La défense N° 158, Alger, 16 Juillet 1937, P. 1.

(4) Loc Cit.

بكرامتنا ، واتساع فكرنا يمنعاننا من معارضة الذين يبقون خارج حركتنا ، والذين لايشاركون أفكارنا وتصوراتنا ، وهم يناضلون في دائرة عملهم ، ويعملون من أجل هدف نزيه ، فاننا لن نرضى بأن يحاربوننا ويعملوا على عرقلة سير حركتنا بوسائل تتنافى مع مبادئهم الخاصة) ومن الصعب علينا أن ندخل في حرب مع أشقائنا الذين يناضلون مثلنا من أجل تقدم شعبنا وتحسين وضعيته ، وعلينا أن نوجه نداء عاجلا الى اخواننا في حزب الشعب الجزائري كي يكفوا عن كل ما من شأنه أن يثير الخلافات والحروب الداخلية)[1] .

اننا أمام عدو مصمم ، يمتلك الوسائل الفتاكة التي لانستطيع التصدي لها الاباتحادنا ووفاقنا ، إن مجرد صدمة بسيطة تقع بيننا تعتبر جريمة نظرا للانعكاسات التي تنجم عنها ، لنكون اذا جبهة اسلامية ولم لا ؟ اذ يمكن لكل واحد أن يحافظ على آرائه (وميوله) ، ولنندمج في كتلة واحدة ضد الامبريالية والتعسف[2] .

ويتضح لنا من هذا التعليق أن العلماء كانوا يحاولون التقرب من النجم وحزب الشعب بعده ، ويبحثون عن أساليب موحدة بين الحركتين للوقوف أمام العدو ، المشترك الذي لايفرق بين الحركات الوطنية المناهضة للاستعمار والامبريالية التي كانت تمتلك الاسلحة الجهنمية ، ورؤوس الأموال الضخمة لقمع أية معارضة وطنية .

ويبدو أن هذا التعليق جاء في الوقت المناسب لكسب الحركة الجديدة بعد حل النجم ، وتجميع أعضائه في حزب جديد يحمل اسما جذابا ، وهو حزب (الشعب الجزائري) ، الذي نقل نضاله من الخارج الى أرض الوطن حيث الميدان الحقيقي للمعركة الطويلة المدى .

وفي تعليق لاحق لجريدة (الدفاع) نلاحظ الأمين العمودي يتأسف على فشل محاولات العلماء الهادفة الى الاتحاد مع النجم وحزب الشعب ، حيث كتب في مقال له تحت عنوان : (آخر انذار للوطني مصالي) ونداء حزب الشعب الجزائري قال فيه : (ان كل تسامحنا وتضحياتنا التي بذلناها من أجل الهدنة ، والوفاق اعتبرت من طرف وطنيين كاذبين ... دليلا على ضعفنا وخيانتنا)[3] .

---

(1) La défense N° 158, 16 Juillet 1937. P. 1.

(2) Loc Cit.

(3) Loc Cit.

وقد اتهم العمودي ، مصالي الحاج بالوقوف بجانب المعمرين والرجعيين والادارة الاستعمارية ، مستدلا في ذلك بموقف النجم المعارض للمؤتمر الاسلامي[1] وهو الموقف الذي وقفه كل من المعمرين والادارة الاستعمارية ، مع اختلاف الدوافع والأهداف بطبيعة الحال ، فالنجم يعتبر مطالب المؤتمر الاسلامي ومشروع بلوم فيوليت تمهيدا لدمج المجتمع الجزائري في كيان الدولة المستعمرة ، في حين يعتبرها الكولون خطوة في طريق تحرير الجزائريين ، وفقد المعمرين لامتيازاتهم التي يتمتعون بها في الجزائر ، لأن ذلك التجمع الاسلامي الكبير قد أقلق كل من المعمرين والدوائر الحكومية بتلك اليقظة المفاجئة التي قرر خلالها استرجاع حق الشعب الجزائري في الحياة فحاولوا ضرب هذه اليقظة بكل الوسائل ، بما في ذلك الاستعانة بالمرابطين (وبني ، وي ، وي) ، ومن ثم فان الأمين العمودي قد وصف النجميين بأنهم عناصر مخربة تعيش في باريس ، وأن زعيمهم مصالي الحاج كان خادما مطيعا للامبريالية ، وأنه لم يكن على قدر كبير من الثقافة والذكاء حتى يفهم مطالب المؤتمر الهادفة الى ازالة القانون الأهلي ، والحالة الاستثنائية التي يعيشها الشعب الجزائري[2] .

واذا كان بعض المصلحين مثل الأمين العمودي والشيخ السعيد الزاهري يهاجمون النجم وحزب الشعب الجزائري ، فان ذلك لم يكن باسم جمعية العلماء ، بل كان باسمهم الخاص وفي صحفهم الحرة غير الناطقة باسم جمعية العلماء ، في حين أن جرائد النجم وحزب الشعب لم تكن تفرق أحيانا بين هؤلاء المصلحين ، وبين جمعية العلماء ، فجريدة الشعب السالفة الذكر ، التي احتج على تعطيلها العلماء في مجلة الشهاب ، وصفت كلا من جريدة البصائر لسان حال الجمعية ومجلة الشهاب نفسها وصفا دنيئا حين كتبت تقول في سياق حديثها عن المؤتمر الاسلامي : (ولم تنقطع الصحافة المفاخرة (الدفاع) و (لاليت سوسيال) عن الاشادة به (أي بالمؤتمر الاسلامي ولا صحافة الدلال والميوعة مثل البصائر والشهاب)[3] . وهذا الهجوم في الواقع كان هجوما مباشرا على الجمعية وزعمائها من قبل جريدة الحزب الوطني ، التي كانت تصدر باسمه وليست باسم شخصية معينة خارجة عن ادارة الحزب ، كما هو الحال بالنسبة للسعيد

---

(1) جوليان ، المرجع السابق ، ص 139 .

(2) La défense N° 158, 16 Juillet 1937.

(3) جريدة الشعب ، ع 1 ، الجزائر 27 أوت 1937 ، ينظر ملحق كتاب محمد قنانش السابق الذكر . ص 123 .

الزاهري والأمين العمودي اللذين لم يكونا في ذلك الوقت يشغلان أي منصب في ادارة الجمعية .

ومهما يكن الخلاف أو التقارب الذي حدث بين العلماء والحزب الوطني ، فان جمعية العلماء والنجم خصائص تميزهما عن الحركات الوطنية الأخرى . فاذا كان ميلاد جمعية العلماء وازدهارها خلال عقد الثلاثينات مرتبطا بشخصية قوية لها نفوذها وفلسفتها الخاصة في محاربة الاستعمار ، وهي شخصية إبن باديس ، فان النجم قد استمد قوته من شخصية مصالي الحاج الصلبة التي لم تكن تخضع للظروف القاسية[1] .

وبينما كانت جمعية العلماء تعمل بكل الوسائل على نشر التوعية الدينية والثقافية ، كان النجم وحزب الشعب يعملان على نشر التوعية السياسية في أوساط الجماهير الشعبية ، وكل منهما كان مرتبطا ارتباطا وثيقا بالجماهير الشعبية ، سواء هاجم النجميون العلماء أو العكس ، فان الحركتين كانتا على خط واحد ، رغم اختلافها في الوسائل – والايديولوجية السياسية – في الدفاع عن الوطن ، ومحاربة العدو المشترك ، وكما تأثر العلماء بالقومية العربية ، تأثر النجميون كذلك بنفس الصور ، والمشاعر ، اذ لم يكن في استطاعة كل منها أن يسير في طريقه دون المرور بتأثيرات القومية العربية ، الناهضة عندئذ ، والتي كانت تختلف اختلافا بينا عن القومية الغربية ، ذلك أن القومية الشرقية لم تكن هدفا لذاتها ، بل كانت تسعى الى حرية الشعوب التي تتألم من الهيمنة الخارجية ، بينما ظلت القومية الغربية تتميز بالطابع القتالي ، والتنافس على الثراء والسيطرة ، متعطشة الى النصر ، والكبرياء ، على حساب شعوب العالم كله ومن ثمة فان القومية الشرقية هي عامل للتقدم لاتكن العداء الا للهيمنة الأجنبية ، ...... وللمحافظين المتعصبين الذين يمثلون مخلفات العصور الوسطى ، فهي تسعى في حركتها الى تحطيم القيود ، والقضاء على عبودية الغرب المستبد وذلك باصلاح أسس كيانها الوطني وايقاض مجتمعها المتخلف ، ومن هنا كانت القومية الشرقية شبحا مخيفا بالنسبة للقومية الغربية لأنها تهدد نفوذها الخارجي[2] .

(1) جوليان ، المرجع السابق ، ص 139 .

(2) Mahfoud KADDACHE, Op Cit P. 343

والحق أن مفهوم القومية في الجزائر كان يختلف عنه في المشرق العربي نظرا لاختلاف الظروف التاريخية ، والسياسية ، في كل من المشرق والمغرب ، ففي الجزائر كان مفهوم القومية يعني ، الدين ، والوطن ، والعروبة ، والاصلاح ، فهذه التعابير كلها كانت تعني مفهوما واحدا ، تستعمل للتعبير عن الكيان الجزائري المتميز عن الأمة المستعمرة ، التي تحاول دمج الشعب الجزائري في مجتمعها الأصلي ، وهي مفاهيم استعملها كل من العلماء والنجميين ، لمقاومة الهيمنة الأجنبية ، وبناء على رأي الأستاذ قداش[1] ، فان العلماء الذين رفعوا شعار القومية ، ظلوا – أو على الأقل قادتهم – على اتصال بالمنتخبين والعائلات الكبيرة ، الذين كانوا يشجعونهم ، ويساعدونهم ماديا ،أما قادة نجم شمال افريقيا ، الذين نشروا حركتهم بقوة بين الأوساط العمالية في فرنسا ، فقد كانوا يبحثون عن كيفية تنظيم حزبهم في الجزائر ، وكانت كلمة السر عندهم تعكس المشاعر العميقة للطبقات الشعبية ، حيث كان العمال ، والفلاحون ، والبطالون يشكلون القاعدة التي يرتكزون عليها ، وكان الكفاح بالنسبة للفلاحين ، والطبقة البروليتاريا يعني استرجاع أراضيهم المغتصبة .

وهكذا فان الاسلام ، واللغة العربية ، والوطن الجزائري ، والوحدة الوطنية ، وكثير من هذه المسائل التي كان يعلمها العلماء ، والنجميون ، قد بعثت الشعور عند التلاميذ ، والأتباع ، والأنصار بانتماء الجزائر الى الوطن العربي بعد أن كانت منفصلة عن الأمة العربية ، فكريا ، ولغويا ، بل انها كانت لاتعد الا كولاية من الولايات الفرنسية ، ولا تذكر عند الأشقاء في المشرق العربي ، الا كما تذكر قطعة من مجاهل افريقيا ، ولكن بفضل جهود العلماء ومناضلي الحزب الوطني ، بعثت الجزائر من عالم النسيان ، واسترجعت الروابط الثقافية ، والصلات الدينية ، مع اخواتها الشارقة ، وبذلك سارت في طريقها الصحيح ، واستعادت سيادتها وكرامتها ، بين شعوب الأرض ، بعد أن محيت من الخريطة العربية قرنا وثلث القرن .

(1) Ibid. P. 389

الفصل السابع

جمعية العلماء واتحادية المنتخبين المسلمين الجزائريين

منذ فاتحة القرن العشرين ظهر الى الوجود تيار سياسي اصلاحي عرف اصحابه باسماء عديدة منها : «الشبان الجزائريون» «المتطورون» «جماعة النخبة» وكان اتجاههم السياسي يتمثل في دمج المجتمع الجزائري في كيان الدولة المستعمرة ، بغية اخراج المسلمين الاهالى من حالة التخلف ، واحكام القوانين الاستثنائية (الانديجينا) . وقد كان لهم دور بارز في نشر الوعي السياسي والاجتماعي بين الفيئات الجزائرية المثقفة . هذا وقد انتعشت هذه النخبة اثناء مناقشة قانون التجنيد الاجباري في البرلمان الفرنسي خلال سنوات 1906 - 1912 ، ولكنها اختفت من المسرح السياسي ابان الحرب العالمية الاولى لتبرز من جديد مع صدور اصلاحات 4 شباط (فيفري) 1919 ، الا أنهابقيت منذئذ تيارا عاما غير متماسك البنيان ، الى أن تم تكوين منظمة لها في أواخر العقد الثالث من هذا القرن .

ميلاد الاتحادية وتطورها :

خلال سنة 1927 بدا للشبان الجزائريين أن عقارب الساعة قد دقت لتجميع كل المنتخبين ضمن اتحادية واحدة على غرار (فيدرالية رؤساء البلديات الأوروبية في الجزائر) . وكانت تلك المبادرة من قبل مجموعة من شبان الجزائر العاصمة . وقد تحققت أمالهم يوم 11 ايلول (سبتمبر) 1927 عندما اسسوا (اتحادية المنتخبين المسلمين الجزائريين) بمدينة الجزائر تحت رئاسة الدكتور إبن تامي[1] الذي عبر بكلمات عامة

---

1) الذي كان مستشارا بلديا منذ شهر أفريل 1927 .

عن مطالب 150 منتخبا جزائريا ، الذين حضروا في المؤتمر التأسيسي[1] ، وهي نفس المطالب التي نادى بها الشبان الجزائريون قبل انشاء الاتحادية .

ولقد كان على هذه المنظمة - التي بدأت تتدعم منذ تأسيسها باقبال الشبان عليها - أن تلاقى امتحانات عسيرة بعد ذهاب فيوليت[2] ومجيء الحاكم العام (بورد) الذي كان يعارض تأسيس الفدرالية .

أما في وهران وقسنطينة ، فقد ظهرت اتحاديتان اخريان على غرار العاصمة ففي قسنطينة قامت جماعة من المنتخبين حوالي سنة 1930 بانشاء اتحادية هدفها التعاون والتنسيق في أيام الانتخابات ، وكان اعضاؤها في أول عهدها - كما تشير مذكرة مركز الدراسات والاستعلامات بقسنطينة سنة 1941 - من الموظفين الجزائريين في الادارة الفرنسية المعروفين بـ (بني وي وي) برئاسة شريف سيسبان[3] . وكانت في أول الأمر تابعت لاتحادية العاصمة اما اتحادية وهران فلم يكن لها نشاط بارز مثل اتحادية الجزائر وقسنطينة ، ولذلك أهمل الكتاب تفاصيل تاريخها في مؤلفاتهم ، كما أن التقارير الفرنسية كانت تركز خاصة على اتحادية قسنطينة .

وبينما استمرت اتحادية قسنطينة قوية بعض الوقت ، فان اتحادية العاصمة قد انقسمت الى جناحين احدهما بزعامة الدكتور (إبن التامى) ، والثاني بقيادة المندوب المالى الدكتور (سياح سي هني) ويرجع هذا الانقسام الى الخلاف الذي وقع بين العناصر النشيطة للمجموعتين ، وهو الأمر الذي ادي الى ضعف نشاطها ، واصبح رئيسها الدكتور (إبن التامى) محل انتقادات شديدة من طرف الجماعة[4] .

---

(1) C.R.AGERON, Op Cit, p. 394.

(2) كان موريس فيوليت حاكما عاما على الجزائر 1925 - 1927 وكانت سياسته شبيهة بسياسة المنتخبين . عمل على تحسين ظروف معيشة الأهالي الجزائريين تمديدا في عمر المستعمرة «الجزائر الفرنسية» ، عاداة المعمرون المعمرون ، وكان شديد القسوة على من نزعوا نزعة وطنية وكتاباتهم ومواقفهم . ينتمي الى الحزب الاشتراكي الفرنسي ، وأصبح فيما بعد عضوا في مجلس الشيوخ الفرنسي ، وساهم في الحياة السياسية الفرنسية ولا سيما فيما يتعلق بالمستعمرات ، وخاصة في الجزائر ، وهذه التجربة في الجزائر ، ومعاصرته لذكرى الاحتلال وخشيته من أن تفلت الجزائر من قبضة فرنسا جعلت منه خبيرا بالشؤون الأهلية ، ولما جاءت حكومة الجبهة الشعبية سنة 1936 عينته عضوا في حكومتها مختصا بالشؤون الأهلية .

(3) رئيس القسم العربي في المجالس المالية ، أصبح سنة 1941 مستشارا وطنيا .
Note Centre d'information et d'études
N° 1016 C.I.E. au prefet de Constantine 4 Décembre 1941, Archives Historique Wilaya de Constantine.

(4) C.R. AGERON, Histoire de L'Algérie Contemporaine, Op. Cit, p. 398.

ومنذ 1930 حدث تغيير في الاتحاديات بالعمالات الثلاث ، ففي وهران اصبحت تحت زعامة (باشترزي) وفي الجزائر صارت تحت قيادة (محى الدين وبوضربة وشكيكن) . اما في قسنطينة فقد بقيت تحت اشراف (سيسبان بالاضافة الى عناصر جديدة وهي : إبن باديس الأب وإبن يعقوب وإبن جلول ، والقلاتى) . ولكنها أستقلت عن اتحادية العاصمة في شهر حزيران (جوان) سنة 1930 .

واذا كان بعض زعماء الاتحاديات قد تغيروا ، فان برنامجهم قد بقى على نغمته الأولى والتي تتضمن مطالب سياسية واجتماعية واقتصادية .

ويبدو ان الاتحاديات الثلاث كانت تعلق آمالا عريضة على سنة الاحتفالات الفرنسية بمرور مئة عام على احتلال الجزائر[1] . ولكن السياسة الاستعمارية قد خيبت آمالها في الحصول على المساواة بين المجموعتين الجزائرية والاوروبية .

واذا كان الدكتور إبن جلول قد انضم الى اتحادية قسنطينة سنة 1930 ، فان وصوله قد أدي الى تنافس حاد بين عائلته وعائلة محمد إبن باديس في ميدان الانتخابات والمجالس العامة ، والنيابات المالية[2] وكان إبن جلول واصدقاؤه من المنتخبين ينعتون محمد بن باديس والشريف سيسبان واصدقائهما بعبارة (بني وي وي) (نعم نعم) وعملوا سنة 1931 على عزل الشريف سيسبان من رئاسة الاتحادية . وقد رافق هذا التغيير في المنظمة دخول شخصيات مثقفة اليها ، من الأطباء والمحامين ، والأساتذة ، والصحافيين والقضاة ، والصيادلة الجزائريين[3] وغيرهم . وقد وصفهم جوليان[4] بقوله «فمنهم من كانوا (من اتباع الايجابية) مثل زرقين في قسنطينة ، ومنهم من كانت تحدوهم روحانية غامضة وحماس حائر مثل فرحات عباس من سطيف ، ومنهم من كانوا ملحدين ماسونيين مثل الدكتور الاخضرى من قالمة ، ومنهم من كان يستهويهم الحماس الثورى لحزب الشعب الجزائري مثل (بومنجل) (فيما بعد) ومنهم من لايكترثون بالعقيدة الاسلامية ، بل كانت عقيدتهم اشتراكية مثل المعلمين (ليشاني وطهرات) .

ومن خلال هذا النص يتضح أن أفراد هذه الجماعة لم يكونوا منسجمين لا في

---

(1) C.R. AGERON, Histoire de L'Algérie Contemporaine, Op Cit, pp. 398-399.

(2) Notes Centre d'informations et d'études, Op Cit.

(3) Loc Cit.

(4) المرجع السابق ص 150 .

العقيدة الدينية ، ولا في الايديولوجية السياسية ، ولا حتى في النظرة الى مستقبل البلاد رغم انهم كانوا متثقفين بالثقافة الفرنسية ، بل أن بعضهم كان يجهل اللغة العربية تماما ، رغم انهم ظلوا يحافظون على بعض العادات والتقاليد الجزائرية التي كانت تؤثر على سلوكهم الاجتماعي بحكم وجودهم ضمن مجتمعهم الأصلي[1] . هذا في عمالة قسنطينة .

أما في عمالتي الجزائر ووهران فقد تغير زعيما الحركتين ، ففي الأولى أصبحت تحت زعامة الدكتور (بشير) أما في الثانية فقد أصبحت تحت قيادة (مكي) .

وعلى الرغم من أن النواب الماليين والمستشارين العامين في الجزائر ووهران لم يستطيعوا أن يحققوا الشهرة التي وصلت اليها اتحادية قسنطينة من تأثير في الحياة السياسية الجزائرية ، فقد قامت الاتحاديات الثلاث منذ 17 كانون الأول 1930 - بمحاولات عديدة ، لتوحيد الصفوف وتنسيق العمل بين اعضائها الا انها فشلت في كل ذلك[2] .

واذا كان الحديث مركزا في هذا الفصل على اتحادية قسنطينة فان ذلك يرجع الى أن هذه الأخيرة كانت اكثر نشاطا من الاتحاديتين الاخريين ، بل انها ظلت هي القائدة للمنتخبين في العمالات الثلاث[3] ، كما أن زعماءها قد برزوا بوضوح على مسرح السياسة الجزائرية خلال الثلاثينات .

والحق أن أعضاء هذه الاتحاديات ، ومن ينتمي اليها من النخبة والنواب كانوا ينادون بالاندماج مع فرنسا بدعوى انها مرحلة اولى في طريق استقلال الجزائر في نهاية المطاف حسب مفهومهم السياسي .

ويقول الزعيم المغربي (علال الفاسي) : لقد فهمت من حديث عباس فرحات خلال لقائي معه في باريس 1933 ، بعد حوار دار بيننا «ان المطالبة بالحقوق الفرنسية ليست الا مرحلة يجب أن تجتازها الجزائر ، وأن استقلال الأمة الجزائرية يجب أن يكون الغاية البعيدة التي نعمل لها»[4] .

بناء على هذا الرأي ، فان هذه الجماعة كانت خلال فترة الثلاثينات تهدف الى نيل الحقوق الفرنسية ، لالترتبط بالوطن الفرنسي .

(1) نفس المكان .
(2) Notes du C.I.e. du prefet de Constantine, Op Cit.
(3) ينظر شارل اندرى جوليان : المرجع السابق ، ص151 .
(4) ينظر : المصدر السابق ، ص 20 .

بل أن مطالبهم كانت تنصب في مجموعها على المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في الحقوق السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية .

وقد كان نشاطهم السياسي يتمثل في محاربة الجهل والفقر ، وانقاذ الشعب الجزائري بكل الوسائل «من الاضمحلال المادى والانحطاط المعنوي «وتوفير العمل والتعليم لكل الجزائريين ، ومحاربة القوانين الاستثنائية ونظام الاستعمار المقيت وتحسين العلاقات الانسانية ، وكانوا يعتقدون بناء على رأي عباس أن المساواة بين المستعمِرين والمستعمَرين[1] ستؤدي حتما الى استلام الجزائريين زمام الحكم في بلادهم ، وان سياسة المساواة في الحقوق السياسية ، والاجتماعية ، والثقافية ، وتقدم الجماهير الشعبية في الميدان الاجتماعي لابد أن يفتحا الطريق نحو استقلال الجزائر[2] .

وقد حاول اعضاء اتحادية قسنطينة - منذ (سنة 1934) - تكوين حزب سياسي ، مسلم للمعارضة ، وعملت جماعة من الشباب[3] في مدينة سطيف ، على تحضير القوانين الاساسية لهذا الحزب ، وكانت صحيفة (Lavoix-des Humbles) تقوم بالدعاية والاشهار له ولكن هذه الفكرة لم تخرج لحيز الوجود لا في سنة 1934 ولا في سنة 1935 رغم أن بعض الصحف قد تبنت المشروع ، ودعت اليه منذ سنة 1935 مثل جريدة (الدفاع) التي كان يصدرها الأمين العمودى ، والذي كان يرى في أن انشاء حزب سياسي اسلامي هو العلاج الوحيد لأوضاع الجزائريين البائسة خاصة بعد صدور قرار (رينيه) (REGNIER) الخانق للحريات ، ورفض مشروع فيوليت في مجلس الشيوخ الفرنسي[4] . وقد رحبت جماعة النخبة بمشروع موريس فيوليت الذي يستهدف اذابة الطبقة الجزائرية المثقفة في كيان الدولة المستعمرة ، لأن جماعة هذه الحركة كانوا يعتبرونه اداة فعالة لاخراج الشعب الجزائري من حالته التعيسة التي يتخبط فيها منذ مايزيد عن قرن من الزمن .

وقد أصبح الدكتور بن جلول منذ سنة 1933 رئيسا لوحدة النواب الجزائريين ، التي احرزت على اغلبية المقاعد في الانتخابات البلدية سنة 1934 وقد لعب كل من

(1) فرحات عباس : المصدر السابق ، ص 154 .
(2) نفس المصدر ص 154 و 156 .
(3) وهم : طهرات ، الدكتور عواش ، عباس ، ومصطفاي .
(4) C.R.AGERON, Histoire de L'Algérie Contemporaine, Op Cit pp. 433-434.

فرحات عباس[1] السياسي الصيدلي الطموح الى الزعامة والمجد والدكتور إبن جلول[2] دورا هاما في حركة الاتحادية خلال الثلاثينات ، ولا سيما هذا الأخير الذي أصبح في مواجهة الأحداث منذ شهر آب (أوت) سنة 1934 وسلطت عليه الأضواء كثيرا حتى قيام الحرب العالمية الثانية[3] .

ورغم ذلك كله ، فان هذه النخبة «ومعها بعض النواب لم تستطع أن تكون حزبا سياسيا أو حتى جمعية في مستوى العلماء»[4] بل أنها ظلت خلال الثلاثينات - رغم اتساع نشاطها - «عبارة عن تيار عام ليس له تنظيم قوي يعتمد عليه ...»[5] في مواجهة الادارة الفرنسية أو بعض الاتجاهات المعارضة لسياستهم .

ومهما كانت ميول هذه النخبة واتجاهاتها السياسية ، فقد جعلت من المساواة مع الفرنسيين أساسا لبرنامجها ، ومن ثم فقد تشبثت بمطلب التمثيل النيابي في البرلمان الفرنسي في اطار نظام الانتخابات الفرنسية ، وبتمثيل عادل في المجالس الجزائرية المنتخبة .

---

(1) ولد فرحات عباس سنة 1899 بدوار غالمة ببلدية الطاهير المختلطة (ولاية جيجل) حاليا من أسرة عريقة تؤكد على انتمائها الى العباسيين . كان أبوه / آغا يحمل وسام جوقة الشرف من الصنف الثانس ، وقد جمع عباس منذ شبابه بين السياسة وعلم الصيدلية ، وكان يشعر أثناء دراسته بأن أساتذته يماطلون في منحة الشهادة العلمية . حصل على رتبة رقيب في الجيش الفرنسي خلال سنتين من الخدمة العسكرية . استقر في مدينة سطيف حيث أصبح على التوالى : رئيسا لجمعية الطلبة المسلمين ونائب رئيس جمعية الطلبة الفرنسيين ، ومستشارا بلديا ، وعضوا بمجلس المقاطعة ، ونائبا ماليا ، كان طموحا للزعامة مع اهتمامه بالصيدلة ويروى عنه أنه قال : «سأصبح رئيسا للجمهورية الجزائرية اللهم الا اذا مت بـاثنى عشرة رصاصة في جسدى» وقد صدق الواقع أمنيته حيث أصبح رئيسا للحكومة الجزائرية المؤقتة في 19 ايلول (سبتمبر) 1958 .

وخلال سنوات 1921 - 1929 كتب مقالات في صحيفة الأقدام وجمعها في كتاب سماه (الشباب الجزائري) سنة 1931 . تأثر بالمذهب الانساني الاشتراكي من خلال قراءته (لحديقة ايقور) وفوق الحجرة البيضاء ، وبحث عن الحضارة العربية الاسلامية في كتب الغربيين امثال (غوستاف لوبون ، وفيليكس قوتى) كما تأثر بحركة (كمال اتاتورك في الشرق) . دافع عن مشروع فيوليت في جريدة الوفاق التي كان رئيس تحريرها . كتب مقالا في عام 1936 انكر فيه وجود وطن جزائري ودفع ثمنه غاليا من طرف العلماء . وظل نقطة سوداء في تاريخه حتى الآن . انشاء سنة 1938 حزبا سماه (الاتحاد الشعبي الجزائري) ، شارك في الحرب العالمية الثانية كصيدلى في الجيش الفرنسي رغم أنه كان معفى من الخدمة العسكرية .

ينظر : شارل أندري جوليان / المرجع السابق ، ص 308 ، 309 وكذلك .

HENRY BENAZET, Op Cit, pp. 39-40.

(2) ظهر إبن جلول كشخصية اسلامية بارزة في حوادث قسنطينة سنة 1934 بين المسلمين واليهود حتى أن بعضهم قد عزا سبب المظاهرات التي جرت عندئذ الى الاشاعات التي راجت حول قتله من طرف اليهود .

ينظر أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص 72 .

(3) نفس المرجع ، ص 72 .

(4) نفس المرجع ، ص 62 .

(5) نفس المرجع .

وهكذا فقد قام أعضاء اتحادية المنتخبين بدور سياسي واسع النطاق خلال الثلاثينات والأربعينات ، نظرا لتكوينهم الثقافي ولغتهم الفرنسية ، ومشاركتهم في المجالس المحلية ، وبفضل الوظائف الاجتماعية والادارية التي كانوا يشغلونها لدى الحكومة الفرنسية .

ومنذ سنة 1936 ضاعفت اتحادية المنتخبين نشاطها في الجزائر بواسطة الصحافة والاجتماعات العمومية ، والتدخلات في المجالس والمؤتمرات ، وكانت أكثر المنظمات الجزائرية تعلقا بمشروع «بلوم - فيوليت»[1] ولكن فشل المؤتمر الاسلامي ومشروع بلوم - فيوليت جعل المنتخبين يغيرون مسارهم .

ففي شهر تموز (جويلية) سنة 1938 أنشأ إبن جلول حزبا اسماه «التجمع الفرنسي الاسلامي الجزائري» هدفه العمل على تحقيق برنامج المساواة مع الفرنسيين وكانت نقطة الانطلاق في سياسته الجديدة هي مشاريع المؤتمر الاسلامي «فجمع عددا من العلماء ، وبالخصوص الشيخ عبد الحميد بن باديس ، ومن النقابيين وقدماء المحاربين ، وقسما من حزب الشعب الجزائري ، بالاضافة الى بعض النواب النقابيين الأوروبيين ، والحزبين الاشتراكي والشيوعي[2] في حين أسس عباس فرحات في شهر نيسان (أفريل) 1938 شبه حزب سماه «الاتحاد الشعبي الجزائري» «لنيل حقوق الرجل والمواطن»[3] منفصلا عن حزب إبن جلول ، وفي حين انتهى هذا الأخير بسياسته الى طريق مسدود[4] أقترب عباس فرحات من الجماهير الشعبية وأعلن بأن الانتصار لايكون الا بالعمل الجماهيري ، وأن العمل الحقيقي لهذه الجماهير يجب أن يكون في الأسواق والمقاهي ، وأبسط الأكواخ ، وأكد على أن الجزائر يجب أن تحافظ «على مظهرها الخاص ، وعلى لغتها وأخلاقها ، وتقاليدها ، والالحاق لايعني الادماج»[5] .

وهكذا غير فرحات عباس سياسته من الأعتماد على النخبة الى الأعتماد على الجماهير . ولكنه ظل يعتقد بأن تحرير الجزائر لايتحقق الا بالحاقها سياسيا بفرنسا «مع الاحتفاظ بحضارتها الخاصة» وهذا ان دل على شيء فانما يدل على مدى تمزق هذه النخبة وعدم انسجامها أو اتفاقها على مبادىء مشتركة[6] .

---

(1) شارل اندرى جوليان : افريقيا الشمالية تسير ، المرجع السابق ، ص 151 .

(2) شارل اندرى جوليان : افريقيا الشمالية تسير ، المرجع السابق ، ص 152 .

(3) نفس المكان .

(4) أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص 79 .

(5) شارل اندرى جوليان : افريقيا الشمالية تسير : المرجع السابق ، ص 152 .

(6) نفس المرجع ، ص 153 .

وعندما دقت اجراس الحرب العالمية الثانية تطوع أبرز زعماء النخبة والنواب أمثال : الدكتور محمد الصالح بن جلول ، والدكتور الأخضرى دفاعا عن الوطن المهدد ، «وأعطوا بذلك المثل لأنصارهم ، وعبروا عن ولائهم لفرنسا أم الوطن»[1] معتقدين أن مشاركتهم في الحرب الى جانبها علامة انتصار للسلام والحرية والديمقراطية وخدمة للانسانية[2] . وبعد هزيمة فرنسا أمام ضربات النازيين عاد زعماء النخبة الى المطالبة بالاصلاحات الأهلية من جديد ، ذلك أنهم أصطدموا بالواقع المر وهو أن الجزائريين - رغم ماقدموه من خدمة للعلم الفرنسي - ظلوا يعانون من التميز العنصرى والحرمان السياسي والاقتصادى والاجتماعي في بلادهم .

والى جانب زعماء النخبة الآخرين استجاب عباس فرحات لنداء العلم الفرنسي ، رغم انه كان معفيا من الخدمة العسكرية وتطوع في الحرب دفاعا عن الأم (الحنون) حيث التحق كصيدلي باحدى الوحدات المقاتلة . وقبل أن يغادر أرض افريقيا كتب الى اصدقائه رسالة باسلوب راق جدا جاء فيها : «في هذا اليوم ، وفي هذه الساعات الخطيرة بالذات ، التي أصبحت فيها حرية الأمم الديمقراطية مهددة فان حزبنا قد أوقف جميع أنشطته السياسية لكي يتفرغ نهائيا للدفاع عن سلامة الأمة التي إرتبط بها مستقبلنا ، ذلك أنه اذا أنهارت قوة فرنسا الديمقراطية فان أملنا في الحرية سيقبر الى الأبد . اننا نؤكد بالأدلة على ايماننا بانتصار فرنسا واستقلالها عندنا ، وفي العالم كله ... تحيا الجزائر تحيا فرنسا»[3] وبعد انتهائه من الخدمة العسكرية عاد عباس صاغرا الى بلاده كغيره من المحاربين الجزائريين الذين لبوا نداء الواجب الفرنسي ، كما عاد خائبا متأثرا بشكل نفسي يتمثل في رفض السلطات العسكرية منحه رتبة ضابط ، مثل زملائه الفرنسيين الذين كانوا يحملون نفس الشهادات العلمية . وبالاضافة الى ذلك فهناك سبب آخر أثر في نفسه وجعله ساخطا ، وهو أن الحاكم العام الجنرال أبريال (G. ABRIAL) رفض طلبه[4] المتعلق بالدخول في اللجنة المالية الجزائرية[5] .

---

(1) أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق ، ج 3 ، ص 85 .

(2) نفس المكان .

(3) HENRY BENAZET, Op Cit, p. 42.

(4) في 16 كانون الأول (ديسمبر) 1940 وجه عباس رسالة الى الوالي العام يطلب فيها الدخول في اللجنة المالية وقد استقبله عندئذ الأميرال (أبريال) ثم قطع المقابلة وطرده بعد أن وجه له توبيخا شديدا ، ولم يحتفظ الا بمهامه كمستشار بلدى ، ينظر شال أندرى جوليان افريقيا الشمالية تسير / مرجع سابق ، ص 309 .

(5) HENRY BENAZET, Op Cit, p. 42.

ان هذه العوامل الثلاثة قد أثرت تأثيرا واضحا في نفسية عباس ، وجعلته مقتنعا بأن فرنسا (الاستعمارية) لن تتخلى عن سياستها العنصرية في كل الحالات والظروف مهما بلغ حجم التضحيات التي يبذلها الشعب الجزائري للدفاع عن سيادتها ، ومن ثمة فقد وجه عباس فرحات - باسم الشبان الجزائريين والعمال والفلاحين والمناضلين - في شهر نيسان (أفريل) سنة 1941 رسالة في شكل برنامج الى الماريشال (بيتان) (MARECHAL PETAIN)[1] حول المطالب الجزائرية اقترح فيها مجموعة من الاصلاحات كانت أكثر حدة من مطالب العقود الماضية[2] تضمنت هذه الرسالة اصلاحات سياسية ، واقتصادية ، وثقافية ، واجتماعية .

ويتضح من نص هذه المطالب أنها قد درست بطريقة حكيمة ، وكانت هذه الرسالة بداية لظهور فرحات عباس على المسرح السياسي من جديد ، رغم أنها لم تؤخذ بعين الأعتبار من طرف السلطات الفرنسية . ومنذئذ حدث تطور جديد في فكرة فرحات عباس الذي أدرك أهمية التكتلات الاسلامية التي فقدت الثقة في الحكومة الفرنسية بعد هزيمتها في الحرب ، وعدم وفائها للوعود الاصلاحية التي قطعتها على نفسها للمسلمين الجزائريين . ذلك أن تلك الفئات الاسلامية قد سمعت منذ سنة 1940 بالفضيحة التي لحقت بالجمهورية الثالثة على يد جيوش المحور ، ومن ثم فقد علقت تلك الفئات آمالها على حكومة (فيشي) وأشادت بها ، ولكن هذه الأخيرة أيضا لم تحقق لها المطالب التي طالما رفعت عقيرتها منادية بها ، كما أن توزيع مناشير ميثاق الأطلنطي من طرف المثل الاميركي في الجزائر ، والتي كانت تتضمن مبادىء حرية الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها قد أدى الى تشبث تلك الفئات الاسلامية بمطالبها[3] .

وهكذا حان الوقت ليستنكر عباس فرحات فكرة (فرنسا هي أنا) اذ أصبح يرى في التغيرات التي طرأت على العالم منذ سنة 1939 ضرورة حتمية للتخلي عن سياسته السابقة حتى يكون في مستوي ارادة الجماهير التي كان يشعر بأنه يدافع عنها ، وبذلك

---

(1) Notes Centre d'information et d'étude n° 11 C.I.E. du prefet de Constantine. 4 décembre 1941.

(2) HENRY BENAZET, Op Cit, p.42.

وينظر شارل أندرى جوليان : افريقيا الشمالية تسير / المرجع السابق ، ص 309 .

(3) HENRY BENAZET, Op Cit, pp 42-43.

قضى على «سياسة الادماج»[1] لأنه أصبح مقتنعا بأن : «السياسة الرامية الى المساواة في الحقوق ليست كافية في حد ذاتها ، بل يجب تكلتها بالفكرة الوطنية المدرجة في نطاق الوطنية الجزائرية والجنسية الجزائرية»[2] . وكان نزول الحلفاء في 8 تشرين الثاني (نوفمبر) 1942 بشمال افريقيا فرصة لامعة لعباس فرحات . ذلك أنه بعد ستة أسابيع من نزول الأنجلو أمريكان أصبح في الطليعة ، حيث نصب نفسه اللسان الناطق باسم الشعب ، وبعث برسالة للسلطات الفرنسية المسؤولة باسم الممثلين المسلمين الجزائريين ، والى الأنجلو أمريكان ، ولكن أمام رفض السلطات الفرنسية لهذه المطالب توجه عباس الى الحلفاء ، وكانت وثيقة هذه المطالب التي وضعت يوم 22 كانون الأول (ديسمبر) 1942 بمقر الأمانة العامة للحكومة تتضمن الاشارة الى تصريحات روزفلت الداعية الى تحرير الشعوب والأفراد . كما تضمنت التعبير عن ارادة المسلمين الجزائريين عن عدم مشاركتهم في الحرب الجماعية بجانب فرنسا الا بعد اجتماعهم بممثليهم في مؤتمر خاص يعقد لسن قانون سياسي واقتصادي واجتماعي .

ولكن السلطات الفرنسية التي كانت مشغولة بمشاكل الحرب كانت عاجزة عن التفكير في مطالب الجزائريين .

وهكذا فبعد أن خابت امال عباس وزملائه في السلطات الفرنسية والحلفاء كلف عباس من قبل ممثلي الشعب الجزائري بتحرير وثيقة أكثر وضوحا ووقعها من طرف المنتخبين المسلمين والعلماء[3] فكانت تلك الوثيقة بداية واضحة للقطيعة بين عباس والاستعمار الفرنسي ، وذلك في 1 شباط (فيفري) 1943 ومما جاء فيها .

1 – ادانة الاستعمار والقضاء عليه .

2 – تطبيق تقرير المصير لجميع الشعوب الصغيرة منها والكبيرة .

3 – منح الجزائر دستورا خاصا بها[4] .

وهكذا ظهر في يوم 10 شباط (فيفري) 1943 التظاهر الشعبي الذي بدأ بمواقف

---

(1) فرحات عباس : المصدر السابق ، ص 248 .

(2) نفس المصدر / ص 281 ، 244 .

(3) HENRY BENAZET, Op Cit pp. 43–44 et JEAN CLADE VATIN l'Algérie politique histoire et pressers de la fondation nationale des sciences politique. Septembre 1974, p. 182.

(4) فرحات عباس : المصدر السابق ، ص 169 .

تهجمية ضد الفرنسيين ، في الوقت الذي أنفجر فيه الصراع بين الفرنسيين على الحكم في الجزائر الجمهوريون . الديغوليون ، الملكيون واليهود ، ولكن هذه الفئات المتطاحنة لم تكن تكترث بمصالح الأهالي المسلمين . ومن هنا نسمع عباس يقول : ان الاستعمار الفرنسي لا يقبل المساواة مع الجزائر الاسلامية الا في حالة واحدة ، وهي التضحيات في ميادين الحرب وفي هذا المجال أيضا فان الأهلي يجب أن يحارب ويموت مع منحة كمرتزق حتى ولو كان يحمل شهادة علمية[1] .

وهكذا نرى عباس يتخلى عن التمثيل النيابي ، ويتجه نحو الاتحاد الوطني معتمدا على تصريح روزفلت المتعلق باحترام شعوب العالم صغيرة وكبيرة[2] ، وقد اضاف عباس الى بيان المطالب الموجهة الى الحكومة الفرنسية ملحقا خاصا لمشروع الاصلاحات الفورية ، مؤجلا انشاء الحكومة الجزائرية الى ما بعد الحرب حيث يمكن القيام باستفتاء عام . ولقد كان للبيان الذي وجهه عباس ونخبة من الجزائريين اثر كبير على الأوروبيين . ذلك أن هذا البيان قد تجاهل السيادة الفرنسية عندما وجه الى الحلفاء ، حيث شعر الفرنسيون بمرارة لما قرؤوا هذا البيان الذي ينتقد «وطنية بعضهم بشدة» وبذلك استقبل البيان استقبالا سيئا في الأوساط الرسمية ، وفي المقابل فقد اثار هذا البيان حماسا كبيرا في العالم الاسلامي ، وعلى المستوي الداخلي فان المتحمسين قد روجوا هذا البيان في كل مكان ، وقد ضاعف من الهيجان ، القلق الاقتصادي الذي تعاني منه البلاد ، حيث تجلى السخط والاستياء منذ 23 ايلول (سبتمبر) 1943 بمناسبة افتتاح دورة النيابات المالية ، ذلك أن النواب المسلمين قد امتنعوا عن الحضور أثناء خطاب الحاكم العام (الجنرال كاترو Catroux) فقرر هذا الأخير وضع كلا من السائح عبد القادر ، وفرحات عباس تحت المراقبة وتحت هذه الظروف فان النخبة الجزائرية كانت تواجه موقفا صعبا ، فاللجنة الفرنسية للتحرير الوطني كانت مشغولة بالسيادة الوطنية ، وليس لها الوقت للتفكير في القضية الجزائرية .

أما الحكومة المؤقتة فلم يكن لها الحق في وضع الحلول للمستعمرات الا بعودة الجمهورية ، وهذا بالطبع لايتأتى الا بانتهاء الحرب[3] .

---

(1) HENRY BENAZET, Op Cit, pp. 43-44.

(2) شارل اندري جوليان : افريقيا الشمالية تسير / المرجع السابق ، ص 307 .

(3) HENRY BENAZET, Op Cit, pp. 48-49.

ولكن في يوم 12 كانون الأول (ديسمبر) 1943 القى الجنرال ديغول خطابا في قسنطينة لم يخرج في مضمونه عن سياسة الالحاق وأصدر في يوم 7 آذار (مارس) 1944 مرسوما يتضمن المساواة في الحقوق والواجبات بين الفرنسيين المسلمين وغير المسلمين في الجزائر ، فزاد في التمثيل النيابي وفي الانتخابات للجزائريين وأصبح بمقتضى هذا التشريع حوالي 62 ألف مسلم جزائري مواطنين فرنسيين كانت الأغلبية منهم موظفين أو متقاعدين مع احتفاظهم بأحوالهم الشخصية الاسلامية ، ولم يخرج هذا المرسوم في مضمونه عن مشروع بلوم فيوليت الا أنه جاء في وقت متأخر عن الأول بل أنه جاء في وقت تجاوزته الأحداث ، فعباس فرحات الذي كان يطالب بمثل هذا المرسوم في الثلاثينات أصبح غير مقتنع به في سنة 1944 ، وراح يؤسس حركة (اصدقاء البيان والحرية) التي ضمت كل القوى الوطنية في البلاد ، ونادى بانشاء «جمهورية جزائرية مستقلة متحالفة مع جمهورية فرنسية جديدة غير استعمارية ولا استبدادية»[1] وهكذا تحول فرحات عباس الى الوطنية والتحق بمحتشد الرافضين لسياسة الالحاق ، وأقام علاقات مع العلماء ومع مصالي الحاج الذي زاره في مقر اقامته الجبرية بوزريعة ، وبذلك تكونت شبه جبهة جماعية سطرت برنامج عمل بينها[2] .

والحق أن فرحات عباس ورفاقه حاولوا منذ سنة 1938 اقناع فرنسا بالاعتراف لهم بالحقوق السياسية والمدنية ، واقامة المساواة بين الجزائريين والفرنسيين ولكن تلك المحاولات المبذولة حتى سنة 1941 قد باءت بالفشل جميعا ، فاستقال فرحات عباس والدكتور سعدان من منصبيهما وبعد محاولة أخيرة مع حكومة (فيشي) قرر عباس سلوك طريق آخر غير الادماج .

أما الدكتور إبن جلول وانصاره فقد اقتربوا من ادارة (فيشي) (YHCIV) بواسطة الحاكم العام (شطال) (LATAHC) ولكن في سنة 1943 اداروا وجوههم نحو الحلفاء ، وساندوا البيان الذي حرره فرحات عباس باسم الشعب الجزائري .

وفي سنة 1945 لم يبق من جماعة المنتخبين إلا أقلية قليلة . وهكذا فان بعض أعضاء اتحادية المنتخبين ومن ينتمي اليها من النواب الذين صنعهم الاستعمار وجعل

(1) اجرون : فرحات عباس والتطور السياسي للجزائر المسلمة أثناء الحرب العالمية الثانية ، مقال نشر معربا في مجلة المعرفة الجزائرية سنة 1964 ، ص 188 .
بدون ذكر اسم المترجم .
(2) HENRY BENAZET, Op Cit, pp. 48-49.

منهم عبيدا طائعين وعملاء خاضعين تحولوا بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية الى وطنيين متحمسين يدافعون عن قضية بلادهم ، ويطالبون بالحرية الاقتصادية والسياسية لشعبهم .

وبناء على رأي عباس[1] فان تضامن البورجوازية الجزائرية المسلمة مع مطامح الشعب الجزائري الحقيقية لم يكن أمرا غريبا ، بل أنه كان متوقعا في تلك الظروف التي تداعت فيها القوى الاستعمارية .

تحليل برنامج وأهداف اتحادية النخبة والنواب :

ان المتتبع لحركة هذه الاتحادية منذ نشأتها حتى سنة 1941 يجد أن أهدافها لا تخرج عن اطار المطالبة بالجنسية الفرنسية ، والمساواة في الحقوق السياسية والاجتماعية والاقتصادية مع الفرنسيين . فبعد تأسيسها أعلن رئيسها (الدكتور إبن التامي) – أمام 150 منتخب – عن أهدافها المتمثلة في المطالب التالية :

1 – تمثيل الجزائريين في البرلمان الفرنسي .
2 – مساواة الأهالي في الخدمة العسكرية[2] مع الفرنسيين .
3 – المساواة في مرتبات الموظفين وتطبيق القوانين الاجتماعية الفرنسية على الجزائريين .
4 – حق التعليم للأهالي المسلمين .
5 – حرية السفر للعمال الجزائريين الى فرنسا .
6 – الغاء القوانين الاستثنائية وعقوبات قانون الأهالي[3] .

ان هذه المطالب السياسية والاقتصادية والاجتماعية لاتحتاج الى تحليل أو تعليق فهي مطالب اصلاحية معتدلة تدعو الى مساواة الجزائريين بالمعمرين الفرنسيين في البلاد .

في سنة 1930 كرر أعضاء الاتحادية نفس البرنامج الذي أعلنوه سنة 1927 واضافوا الى ذلك مطالب أخرى مثل مشاركة المنتخبين المسلمين في انتخاب رئيس

(1) HENRY BENAZET, Op Cit, p. 182.
(2) كانت مدة الخدمة العسكرية سنتين للجزائريين وسنة ونصف بالنسبة للفرنسيين .
(3) JEAN CLAUDE VATIN, Op Cit, p. 176.

التبادلات المالية ، واعادة النظر في قانون الغابات بالغاء المسؤولية الجماعية في حالة الحرائق ، وانشاء قرض فلاحي خاص بالمسلمين ، اعطاء الموظفين الجزائريين المنحة الجزائرية 25 % وكذلك نشر التعليم الفرنسي بين الجزائريين حتى في الدواوير.[1] دعا بعضهم الى ضرورة تعليم مزدوج اللغة .

وهذه المطالب في الواقع كانت في مجملها تنصب نحو الادماج الكامل في كيان المجتمع الفرنسي ، ويبدو أن ابعاد الدكتور (ابن التامي) المتجنس بالجنسية الفرنسية سنة 1930 من الاتحادية كان عقابا غير مباشر له نتيجة لبحثه عن الاندماج الكامل في الاطار الفرنسي[2] .

أما عباس الذي كان من اعضاء الاتحادية البارزين فقد قال عن أهداف الحركة مايلي :

1 – احترام الاسلام واللغة العربية والمدنية الاسلامية .

2 – تخلي الفرنسيين عن خرافة التفوق الجنسي .

3 – العمل على تحقيق المساواة في الحقوق بين الجزائريين والمعمرين .

4 – ان هذه المجموعة كانت تعلق أمالها على الشباب في النهوض بالمجتمع الاسلامي الجزائري ، وجعله مجتمعا عصريا مسلما سليما تقنيا حتى يستطع منافسة المجتمع الأوروبي .

5 – تريد هذه الفئة أن تستفيد من الحضارة الأوروبية دون أن تفقد حضارتها العربية الاسلامية[3] .

ان هذا البرنامج الذي كتبه عباس خلال العشرينات لم يكن يعبر عن ارادة كل أعضاء الاتحادية ، بدليل أن بعضهم كان متجنسا بالجنسية الفرنسية مثل «ابن التامي» وآخرون (ملحدون ماسونيون) مثل الدكتور الأخضري ، ومنهم من كانت عقيدتهم اشتراكية لا يكترثون بالعقيدة الاسلامية مثل (ليشاني وطهرات)[4] – كما يقول جوليان –

---

(1) تعني المنحة الجزائرية أن الحكومة الفرنسية كانت تعطي لكل الفرنسيين الذين يعملون بالجزائر منحة تقدر بنسبة 25 % من مرتباتهم كعلاوة اضافية ، فطالب بها الجزائريون على أساس أنهم يعملون في الجزائر أيضا .

(2) JEAN CLAUDE VATIN, Op Cit. p. 176.

(3) ينظر فرحات عباس / مصدر سابق ، ص 144 ، 145 .

(4) ينظر شارل أندري جوليان / افريقيا الشمالية تسير ، المرجع السابق ، ص 150 .

ومن هنا يمكن القول أن برنامج عباس لم يكن يعبر الا عن رأيه الشخصي أو عن بعض الذين نحوا نحوه ، ولما ظهرت الاتحادية الى الوجود من جديد في صيف سنة 1935 بعد ركود دام حوالي سنتين (1933 – 1935) وأنشأت جريدة (الوفاق) وجعلتها لسان حالها نشرت في عددها الأول برنامجها السياسي ، والاقتصادي والاجتماعي نورد منه الفقرات التالية :

1 – تحسين الأجور وتحديد العمل اليومي بثماني ساعات .

2 – تطبيق قانون الضمان الاجتماعي .

3 – تخصيص جزء من الميزانية كمنحة للبطالين .

4 – تنمية وترقية التجارة الصغيرة ، والصناعات التقليدية ، وتخفيض الضرائب الباهظة المفروضة عليها[1] .

5 – توفير المساعدة الطبية بكل أشكالها .

6 – تحسين أوضاع الأهالي السكنية ، وذلك بشق الطرق ، ومد قنوات الصرف ، واقامة حنفيات ، وحدائق عامة .

7 – زيادة المدارس الابتدائية في المدن والقرى ، وكذلك في الأرياف حتى يتحقق لكل دوار مدرسة ، وأضاف البرنامج قائلا ، وبعد تحقيق مرحلة التعليم الابتدائي تنتقل مباشرة الى التكوين الثانوي والعالي ، وخاصة التكوين التقني والمهني ، وبجانب اللغة الفرنسية نطالب بتحسين وتطوير ، وتعميم اللغة العربية .

8 – اعادة النظر في البرامج المدرسية وزيادة عدد المعلمين ، وفتح المدارس القرآنية ، والمدارس الحرة ، وزيادة منح التعليم للتلاميذ .

9 – مشاركة المرأة المسلمة في بعض الخدمات الاجتماعية وتعليمها بعض المهن مثل فن الطبخ والنظافة . . الخ .

10 – وضع قانون عام للجميع مع الغاء كل الأنظمة الخاصة والتخفيف من عقوبات قانون الغابات .

وباختصار ، فان هذا البرنامج كان ينصب حول تحسين الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ، والثقافية[2] للمسلمين الجزائريين مع الفرنسيين[3] ورغم هذه المطالب

---

(1) L'ENTENTE FRANCO-MUSULMANE «Notre Mouvement et notre Programme» N° 1. 29. AOUT 1935, p. 1.

(2) L'ENTENTE FRANCO-MUSULMANE, Op Cit, p. 1.

(3) HENRY BENAZET, Op Cit, p. 40.

فإن اتحادية المنتخبين كانت تفتقر الى برنامج واضح ومحدد ، لأنها كانت تطا[لب]
بالاصلاحات في اطار الاندماج .

ونلاحظ أن الاتحادية تلتقي مع جمعية العلماء في الدعوة الى زيادة المدار[س]
القرآنية والتعليم الحر ، والعناية بالمرأة المسلمة ، وتعليمها بعض التقنيات العصرية و[في]
الشؤون المنزلية . والاتحادية بذلك تريد أن تجعل من الشعب الجزائري شعبا متق[دما]
ومتحضرا في مستوى الفرنسيين .

ولكن أصحاب هذا البرنامج كانوا متأكدين من عدم تطبيقه لكونهم لا يتمت[عون]
بالحقوق السياسية – لأنها في رأيهم – هي الأداة الفعالة لتحقيق آمال الجزائري[ين]
ورغباتهم ، ولكنهم أعلنوا عزمهم على مواصلة المطالبة بالتمثيل النيابي في اطار القانو[ن]
الأساسي للعامل ، لأنهم على يقين بقدرتهم على شغل نفس المناصب التي شغلها متعم[رو]
الأمس ، والذين جاؤوا من مختلف أنحاء البحر المتوسط . وقد اعتبروا مشاركتهم في
مختلف الحروب الى جانب فرنسا كفيلة باعطائهم الحقوق السياسية والمدنية مث[ل]
السينغاليين الذين يتمتعون بالحقوق التي لا يتمتع بها الجزائريون في ظل الح[كم]
الفرنسي[1] .

وفي أواخر العقد الرابع (1939) أصبحت مطالب اتحادية المنتخبين تتمثل في النقا[ط]
التالية :

الغاء قرار رينيه (RENE) الذي خنق الحريات سنة 1935 ، واصدار العفو العام ع[ن]
المحكومين بمقتضى ذلك القرار ، والغاء قراري 13 كانون الثاني (جانفي) و 8 آذ[ار]
(مارس) 1938[2] اللذين استهدف أولهما وضع حد لنشاط النوادي العربية ، وثانيه[ما]
استهدف محاربة التعليم العربي الحر ، كما طالبوا برفع عدد النواب المسلمين في المجال[س]
المحلية المنتخبة بنسبة 2 الى 5 ، وتطبيق مشروع فيوليت بقرار حكومي مادامت
الحكومة متمتعة بالسلطة المطلقة ، بدلا من مناقشته في البرلمان[3] ولكن هذه الجماعة
كانت في نظر الجزائريين ، من ذوي الاتجاه العربي الاسلامي ، تشكل خطرا على
مقومات الشخصية الوطنية رغم أنهم يساندون العلماء في محاربة قرار (رينيه) (RENE)

---

(1) Loc Cit.

(2) ينظر مجلة الشهاب ، وقد جديد / م 15 ، ج 4 ، قسنطينة ماي 1939 ، ص 191 – 192 .

(3) نفس المكان .

وكل الاجراءات الادارية التي تعرقل نشاط النوادي الاسلامية والتعليم العربي الحر ،
ذلك أن العلماء وحزب الشعب الجزائري عند قيام الحرب كانوا ينادون بالاستقلال
رغم أنهم لم يوحدوا برنامج عملهم ، ولكن جماعة النخبة والنواب ، الذين كانوا لا
يرون النور خارج الاطار الفرنسي ، عادوا بعد خيبة آمالهم أثناء الحرب العالمية
الثانية الى الطريق الصحيح ، وبدأوا سنة 1943 يجنحون الى الوطنية الجزائرية
ويقتربون أكثر من القوى الوطنية الأخرى ، ويعبرون عن الآمال الحقيقية للشعب في
المطالبة بدستور جزائري وبحكومة وطنية .

هذا عن تطور المنتخبين المسلمين ، ومبادئهم ، وأهدافهم ، ومواقفهم ، من
الاستعمار ، والوطنية الجزائرية .

المقارنة الاجتماعية والسياسية بين جمعية العلماء واتحادية المنتخبين :

يمكن تحديد العلاقة بين جمعية العلماء وجماعة النخبة والنواب في عدة مراحل
مختلفة ابتداء من تأسيس الجمعية حتى سنة 1945 ، وذلك حسب التقلبات السياسية
والتكتلات المحلية ، وردود الفعل الادارية .

واذا كان احد الباحثين[1] يرى أن أكبر عامل في التقارب بين العلماء ، والنخبة
يعود الى متلاقي طبائع أعضائها ، وتقارب طبقتيها الاجتماعية ، وتشابه ميزانهم
الخاص للأشياء ، وتقديرهم لها . فان ذلك قد يكون صحيحا من الوجهة الطبقية اذا
سلمنا بأن بعض قادة الجمعية كانوا يعيشون في وضعية اقتصادية حسنة مثل بعض
زعماء اتحادية المنتخبين .

أما عن تشابه طبائعهما فانه لم يكن صحيحا ، ذلك أن رجالات جمعية العلماء قد
نشأوا وترعرعوا في وسط عربي ، اسلامي أصيل أثناء دراستهم في مختلف المدارس ،
والمعاهد العربية ، كالزيتونة ، والأزهر والمدينة المنورة على يد علماء مسلمين
تقليديين مرتبطين أوثق الارتباط بطبائعهم العربية الأصيلة . أما أعضاء النخبة
فكانوا على النقيض من ذلك حيث نشأوا في المدارس الفرنسية ، وعاشوا مع المجموعة
الأوروبية وتطبعوا بطباع الفرنسيين ، وقلدوهم في كثير من مظاهر الحياة اليومية
كالأكل والمشرب والملبس ، بل أن بعضهم قد تزوجوا في كثير من الأحيان بنساء

---

(1) عبد الحميد زوزو / مرجع سابق ، ص 136 .

فرنسيات ، وانجبوا ذرية مختلطة الدماء العربية والأوروبية ، وفي ذلك يقول الصحفي الشاعر الأمين العمودي في ولد للدكتور سعدان - وهو من النخبة - من زوجته الفرنسية :

حي الطبيب ولاتنس قرينتـــــه   فهــو سليمـــان والمـــدام بلقيس
لها غــلام أطـــال الله مــدتـــه   تنـــازع فيـــه العرب والفرنسيس
لا تعـذلـوه اذا مـــا خـــان ملتـــه   فنصفــه صـالـح ونصفـه مـوريس

فهذه الأبيات الشعرية توضح بجلاء مدى تمزق شخصية هذه النخبة ، وتخليها في كثير من الحالات عن عادات ، وقيم مجتمعها الأصيل .

اذن فطبائع العلماء وتكوينهم الشخصي كان عربيا أصيلا بالمعنى الدقيق للكلمة في حين أن طبائع وأخلاق جماعة النخبة والنواب كانت شبيهة الى حد مابطبائع واخلاق الفرنسيين ، أو على الأقل كانت متميزة عن العلماء بحكم التباين الثقافي الصارخ بين المجموعتين ، وما التقارب الذي حدث بينهما الاتكتيكا ظاهريا اقتضتـه ظروف الكفاح ضد العدو المشترك .

ان التتبع المرحلي للأحداث والعلاقات المختلفة الجوهرى بين الحركتين .

ولعل أول مسألة أدت الى الاصطدام بين جمعية العلماء ، وجماعة النخبة والنواب - بعد ميلاد الجمعية - هي : «الوطنية الدينية ، والجامعة الاسلامية ، والجنسية الفرنسية»[1] . فبينما كان زعماء النخبة ينادون با لاتحاد والتآخي مع الفرنسيين ، ويطالبون الحكومة بمنح الجنسية الفرنسية لبعض المسلمين الجزائريين ، محاولين دمج الجزائر في المجتمع الفرنسي ، وأعلنوا سنة 1931 بأن الجزائر ستبقى فرنسية الى الأبد بارادة سكانها الذين ينتظرون من حكومتهم ادخال اصلاحات مرضية على القطر الجزائري[2] فان العلماء المصلحين كانوا على النقيض من ذلك ، حيث وقفوا بصلابة أمام موجة الادماج ومحاولة الحاق الجزائر بفرنسا وتغريبها . ويتضح اتجاه الجماعتين في مناسبات متعددة : فمنذ سنة 1931 أعلنت «جمعية قدماء

(1) ينظر / أبو القاسم سعد الله : مرجع سابق ، الجزء الثالث ، ص 64 .

(2) CHERIF SISBANE, Note sur les réformes désirées par la fédération des élus des indigènes département de Constantine, Imprimée p. BRAHAM, 1931, présentée par la Commission Sénatoriale de L'Algérie présidée par M. MAURICE VIOLETTE lors de son passage à Constantine le 17 Avril 1931 par le Buréau de la Fédération.

التلاميذ» في جريدة (الابريس ليبر La Presse Libre) (الصحافة الحرة) «أن إبن باديس يشكل خطرا ، وأن العلماء رجعيون يفتخرون بالجامعات القديمة ، ويعلمون التعصب والافتخار بالنسب ... وأن قدماء التلاميذ سيحاربون بكل الوسائل التعصب وجميع النظريات التخريبية التي تقف في طريق تطورنا الفكري والمادي على أساس الطريقة الفرنسية»[1] .

وفي سنة 1933 صرح السيد إبن الحاج - أحد أعضاء النخبة التي لم تكن ترى النور خارج الاطار الفرنسي - أمام حوالي 750 من رجال الدين الموظفين الرسميين لدى الحكومة قائلا : «إن الجزائريين فرنسيون سواء كانوا يتمتعون بالحقوق المدنية أم لا ، وسواء كانوا متعلمين أم أميين ... فديننا لادخل له في جنسيتنا التي لا يمكن أن تكون سوى فرنسية»[2] ، وحذر الحاضرين من الاستماع للدعاية الشفوية أو المكتوبة التي يروجها الاصلاحيون من ذوى الاتجاه العربي الاسلامي ودعاهم الى العمل «بتضامن وتآخي مع الذين يعيشون معهم (مثل المعمرين) وأن لايعملوا للعيش مع أولئك المسلمين البعيدين عنهم ، وانتهى الى القول بضرورة التعلم بالفرنسية لأنه الاداة الوحيدة للحياة العصرية[3] .

أما جمعية العلماء فكانت تتدرج في حركتها الاصلاحية والوطنية تحت شعارها المعروف «الاسلام ديننا والعربية لغتنا والجزائر وطننا» وكانت ترد على أنصار الادماج ، بألسنة قادتها ، بأن الشعب الجزائري شعب عربي مسلم يأبى أن يكون فرنسيا لأنه بعيد عن الأمة الفرنسية تاريخيا وجغرافيا ولغويا ، وليست بينهما روابط ثقافية أو دينية ، وكان الأطفال في مدارس العلماء يفتتحون يومهم بالشعار المذكور آنفا ، ويتعلمون الأناشيد الوطنية التى تثير الحماس الوطني في النفوس ، وتميز الشعب الجزائري عن المعمرين الفرنسيين ، وقد كتب أحد العلماء سنة 1931 في مجلة الشهاب مقالا توجه فيه باللائمة على النواب الجزائريين ، سواء المثقفين منهم أو الجهلة ، ووصفهم بالجبن والفوضى ، متسائلا عن عجز النواب الجزائريين عن تأسيس حزب سياسي مثل الأحزاب الفرنسية ، له برنامج محكم ، ومبدأ لايحيد عنه ، وقال

(1) ينظر أبو القاسم سعد الله ، مرجع سابق / الجزء الثالث ، ص 70 . وكذلك
C.R. AGERON, Histoire de L'Algérie Contemporaine, Op Cit, p. 330.

(2) ينظر نفس المرجع ، ص 64 .

(3) نفس المرجع ، ص 64 - 65 .

إن في الجزائر من تتوفر فيهم هذه الشروط ، ولكن تنقصه الشجاعة الأدبية[1] .

وإذا كان المصلحون قد هاجموا النواب بقسميهم ، فإن هؤلاء الأخيرين كانوا غ
منسجمين فيما بينهم[2] ورغم هجوم النخبة على العلماء ، فإنها ظلت تعمل وتفكر
إطار الاسلام .

وهناك أحداث عدة تثبت أن النخبة «قد عادت الى نفس الطريق الذي سار
عليه العلماء سواء عن اقتناع شخصي أو عن تحالف مصلحي» . ذلك أن إبن الحا
نفسه قد شارك في المؤتمر الاسلامي بجانب الدكتور إبن جلول ، وعباس فرحا
وغيرهما من زعماء النخبة ، وقد اقترب إبن جلول من العلماء باعتناقه الفكر
الاصلاحية . وقد اتهم إبن جلول السلطات الفرنسية المحلية أيضا بتدبير اضطرابا
قسنطينة في شهر آب (أوت) 1934 عندما أغلقت المساجد صبيحة الخامس من الشه
المذكور «وهو يوم الاضطراب» .

ومن هنا يمكن القول إن الجمعية كانت تمثل العقبة الكؤود في طريق الاندماجيين
الذين كانوا يحاولون اقناع الجماهير بأن فرنسا هي الوطن الأم ، وأن الجزائر فرنسية
لا يمكن فصم الروابط بينها وبين الوطن الأم .

وإذا تتبعنا أصول الخصومة بين العلماء والنخبة والنواب ، نجدها ترجع أساسا الى
عقد العشرينات (كما سلف الذكر في الفصل الأول) من هذا البحث .

فمنذ شهر تشرين الأول (أكتوبر) سنة 1932 طلب (سي علي مبارك بن
علال)[3] . باعتباره مندوبا ماليا عن القليعة ، بمنع كل دعاة العلماء من الدخول الى
المساجد الا في الاطار الرسمي ، وبناء على رأيه يجب القضاء على كل هذه الفتن ،
والمحاولات السياسية ، التي يقوم بها المصلحون ، والتي توسع شقة الخلاف بين زعماء
الدين في الجزائر . وقد كان العلماء يشتكون بمرارة من مثل هذا النائب الذي وقف
أمام تطور حركتهم وانتشارها بين الجماهير ، ولكن ميزان القوة سيرجح في نهاية
المطاف لصالح العلماء .

وإذا كان رجال النخبة والنواب قد اتبعوا في حركتهم الأسلوب السياسي

(1) ينظر أبو القاسم سعد الله / المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص 68 .
(2) نفس المرجع ، س 69 .
(3) C.R. AGERON, Histoire de L'Algérie Contemporaine, Op Cit, p. 330.

التقليدي ، الذي يتجلى خاصة في ميدان الانتخابات ، فان حركة العلماء قد جمعت
بين الدين والسياسة في أن واحد ، فكما هو معروف في الاسلام فان العامل السياسي
يندمج في اطار العامل الديني .

ان تطهير وتنقية الاسلام ومذاهبه ، وبعث الثقافة العربية هو في الواقع لا يخرج
عن المنظور السياسي في خدمة العروبة والوطنية الجزائرية ، وهذه الأسس لايمكن
فصمها عن بعضها البعض .

ومن المواقف الدفاعية الواضحة عن العروبة هي انتقال الاصلاح بطريقة غير
محسوسة الى الدعوة من أجل الوحدة العربية السياسية .

ان هذا الاتجاه السياسي لدى العلماء قد تأكد منذ الاحتفالات الفرنسية بمرور
مائة عام على احتلال الجزائر ، وبصورة واضحة منذ انعقاد المؤتمر الاسلامي بالقدس
في شهر كانون الأول (ديسمبر) 1931 ، والذي طرحت فيه بعض القضايا الوطنية
المتعلقة بالعروبة . ولكن الوطنية السياسية الجزائرية لدى العلماء يمكن القول إنها
خرجت للوجود بعد دعاية وتقييم العلماء لها منذ سنة 1936 .

فإبن باديس وأصدقاؤه لم يتوقفوا منذ سنة 1925 عن التأكيد على الأيمان
بالعروبة والشخصية العربية الاسلامية الجزائرية . هذا هو أساس المذهب السياسي
للعلماء الذي يتلخص في العبارات الأساسية التالية : «الأمة ، الشعب ، الوطن ،
والقومية»[1] .

ويلاحظ المؤرخ الفرنسي (روبير آجيرون) أن هذه الكلمات السالفة الذكر ، التي
أقتبستها الصحف العربية الشرقية عن الشبان الأتراك قبل الحرب العالمية الأولى ،
هي التي ساعدت على نشر فكرة القومية العربية في الأقطار المغربية .

ان هذه القومية التي تعني الانتساب الى الأمة العربية الاسلامية ، ووحدة العالم
العربي ، منبثقة أساسا من الاسلام ، وهي وحدة وطن كل المسلمين بما في ذلك
الجزائريون ، وهذا الشعور كان موجودا منذ بداية الاحتلال واستمر في أعماق
الجزائريين ، ولكن ظهور سياسة الادماج التى دعت اليها النخبة الجزائرية المثقفة
بالثقافة الفرنسية كانت تهدد بزوال هذا الشعور من نفوس الجزائريين ، وهذه
الحركة هي التي جعلت العلماء يشعرون بالخوف من تخلي الشعب الجزائري عن

(1) C.R. AGERON, Histoire de L'Algérie Contemporaine, Op Cit, p. 332.

مقومـاتـه الاسـلاميـة[1] بتـأثير من النخبـة الجـزائريـة المتفرنسة.

وهكـذا فـان جمعيـة العلمـاء أمـام تطور الأفكار الغربيـة وتـأثيرها على الشباب النـاشيء ، وأمـام المطـالب الادمـاجيـة الراميـة الى اذابـة المجتمع الجزائري في الكيان الفرنسي ، وقفت مـوقفـا متصلبـا من التـأكيـد على الشخصيـة العربيـة الاسلامية للجزائر .

ومن هنـا فقد أكـد العلمـاء بـأنهم وطنيون جزائريون دون أن يتخلوا عن مبدأ الوحدة العربيـة قـائلين : «عنـدمـا نتكلم عن الوطنيـة الجزائريـة نريـد أن نقول إن الاسـلام هـو قبـل كل شيء ، لأن الاسـلام هــو العنصر الأسـاسي في قـوميـة هذا الشعب»[2] ، وان القوميـة العربيـة والقوميـة الجزائريـة يشكـلان مفهومـا واحـدا . وقد أكد العلمـاء مذهبهم الوطني بوضوح ، لاسيما عندما رفضوا اقتراحات التجنيس الجماعي للمسلمين الجزائريين ، واعطاء الحقوق السيـاسيـة للمتجنسين ، وقـد كان رأي الشهاب واضحـا في هـذا المـوضوع عنـدمـا كتبت سنـة 1935 تقـول : «إن خمسة ملايين من الجزائريين المسلمين لايريدون التجنيس ، ولا حقوقا اذا كانت مرتبطـة بهذا الشرط ، ويفضلـون المـوت فقراء جهلـة ، معـدومين من كل شيء ، صم ، بكم ، عمي ، انهم يفضلون أن يعيشوا في هذه الحـالـة على أن يتخلوا عن دينهم ، إن التخلي عن قوانين الله من أجل الرفـاهيـة المترتبـة على التمتع بـالحقوق بـواسطـة الجنسيـة يعتبر جريمة شنعاء»[3] .

ان هـذا التصريح يؤكـد مـوقف العلمـاء الثـابت للـدفـاع عن الشخصيـة العربية الاسلامية للشعب الجزائري ، فهم يفضلون العيش في البؤس والشقـاء على أن يصبحوا مـواطنين فرنسيين يتمتعون بكل الحقـوق السيـاسيـة ، والمـدنيـة التي يتمتـع بها أبناء فرنسـا .

ان العلمـاء قـد اعترفوا حقـا بأن الشعب الجزائري مرتبط بفرنسـا ووفي لهـا ، ولكن ذلك لم يكن سوى عمليـة تكتيكيـة تهدف الى جعل فرنسـا تعترف بـالقوميـة الجزائرية وألا تحتوي فرنسة الجزائريين بواسطة التجنيس .

---

(1) Loc Cit.

(2) IBID, p. 333.

(3) C.R. AGERON, Histoire de L'Algérie Contemporaine, Op Cit, p 333.

واذا كان العلمـاء قـد أيـدوا المنتخبين خـلال سنتي (1933 – 1935)[1] في بعض المطالب فانهم قد رفضوا محتوى مشروع فيوليت ورفضوا الـدخول في القسم الانتخـابي المشروط بـالجنسيـة الفرنسيـة ، رغم أن مشروع فيـوليت ينص على ابقـاء المسلمين محتفظين بقانون الأحوال الشخصية قائلين «اننا نريـد من الفرنسيين أن يحترموا ديننـا ولغتنـا ويحترمـوا شرفنـا ويـوجهـونـا نحـو التقـدم السيـاسي ، والاجتماعي والاقتصادي»[2] .

واذا كان العلماء قد انضموا الى انصار مشروع فيوليت الذي تشبث به المنتخبون ، فان ذلك لم يكن الا موقفا تكتيكيا مؤقتا ، ومن الخطأ أن نقول إن العلماء لم ينـادوا بالاستقلال ، فـاذا كانوا يتوددون الى فرنسـا أحيـانـا فـان ذلـك لم يكن الا من أجل جعل فرنسا تنافس الدول التي أعطت الحرية لمستعمراتها في هذا الميدان . ولقـد أعلن إبن بـاديس رفضه لمشروع فيوليت عنـدمـا زار تونس يوم 25 كانـون الأول (ديسمبر) 1936 ، وفي 29 ايار (ماي) 1937 حـذر الحكومـة الشعبيـة من قيـام ثورة شعبيـة في المغرب العربي اذا تخلت عن وعودها ، وختم خطابه بنشيـد الاستقلال ، وذلـك أثنـاء زيارته لتونس[3] .

واذا كانت بعض النصوص تشير الى التقـارب بين العلمـاء والمنتخبين خلال سنوات (1933 – 1935) فان سنة 1936 قد وسعت هوة الخلاف من جديد بين جمعيـة العلماء والنخبة ، فبعد اغتيال المفتي كحول في يوم 2 آب (أوت) من نفس العام عاد الدكتور إبن جلول على التوالي الى فرنسـا ، حيث وجه اتهامـا من هنـاك الى جمعيـة العلمـاء بـارتكاب الجريمـة ، وأعلن ذلـك في جريـدة (مرسيليـا الصبـاح) (Le matin Marseille) وأعـاد اتهامـه ضـد العلمـاء ، ولمـا طلب منـه أن يكـذب التصريـح رفض واعتصم بالصمت[4] .

ورغم اتهام إبن جلول للعلماء ، فان العلاقة عادت من جديـد بينهما سنة 1937 ، ولا سيا بمناسبة الاحتفـالات القرنيـة لإحتلال قسنطينـة ، وانتخـاب العلمـاء لمرشحي النخبة ، وقد ذكرت الشرطـة الفرنسيـة في أحد تقـاريرهـا ظهور بعض التصريحات

---

(1) ينظر : محمد ناصر / المرجع السـابق ، ص 65 .

(2) C.R. AGERON, Histoire de L'Algérie Contemporaine Op Cit, p. 334.

(3) C.R. AGERON, Histoire de L'Algérie Contemporaine Op Cit, p. 335.

(4) ينظر : محمد قنانش / المصدر السابق ، ص 72 ، 73 .

التي تشير الى توحيد الجبهة بين العلماء ، والنخبة من أجل الوقوف ضد شيوخ الزوايا والطرقيين[1] .

ويلاحظ تقرير الشرطة في تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1937 أن الوفاق كان قائما بين إبن باديس وإبن جلول ، رغم أن أنصار هذا الأخير (طهرات وإبن اعبيد وإبن الموفق) - وهي شخصيات من النخبة - قد وقفوا ضد هذا الوفاق[2] ، ولكن الصورة قد انعكست سنة 1938 حيث ذكر تقرير آخر : ان العلماء قد اتخذوا موقفا معاديا ضد المنتخبين ، وذلك بتأثير من إبن باديس[3] ومع ذلك فان اجتماع العلماء في آذار (مارس) سنة 1939 قد اتخذ طابعا خاصا ، وذلك بضمه شخصيات بارزة من (اتحادية المنتخبين) بهدف محاربة قرار 8 مارس 1938[4] .

ولعل أهم ما يوضح الاحتكاك بين الجمعية والنواب بجلاء مقال السيد فرحات عباس الذي كتبه سنة 1936 بعنوان (فرنسا هي أنا) والذي نفى فيه وجود الوطن الجزائري حيث قال : «... أما رأيي فمعروف تماما ، فالاحساس القومي هو ذلك الشعور الذي خلق هذا العدد من الأمم . ولو كنت قد أكتشفت الأمة الجزائرية لغدوت انسانا قوميا ، ولن أخجل أنذاك من الجريمة ، فالرجال الذين يموتون دفاعا عن فكرة وطنية يجلون ويحترمون أبلغ الاحترام ، وليست حياتي بأغلى وأثمن من حياتهم ، ولكنني مع ذلك لن أموت دفاعا عن الوطن الجزائري ، لأن هذا الوطن غير موجود ، ولم استطع أن أكتشفه ... أما مانريد أن نحارب من أجله ، فهو تحررنا السياسي ، والاقتصادي ... فبدون هذا التحرر للمواطن الجزائري لن يكون هناك جزائر فرنسية تبقى الى الأبد ...»[5] .

وقد رد إبن باديس[6] في الشهاب على تصريح عباس هذا بمقال أكد فيه وجود

---

(1) Rapport de Police Novembre 1937, Archives Historiques W. de Constantine.

(2) Rapport de Police, Novembre 1937, Archives Historiques W. de Constantine.

(3) Rapport de Police, Alger Fevrier 1938, Archives Historiques W. de Constantine.

(4) Rapport de Police, Alger Mars 1939, Archives Historiques W. de Constantine.

(5) ينظر : حوان علبسي ، المرجع السابق ، ص 65 .

(6) من الشائع أن المؤرخين والكتاب المعاصرين للحركة الوطنية قد نسبوا رد العلماء على عباس فرحات للشيخ عبد الحميد بن باديس ، ولكن الأستاذ أحمد توفيق المدني فاجاء المؤرخين والكتاب سنة 1977 بأن هذا المقال هو الذي كتبه وليس إبن باديس .

ينظر : حياة كفاح - مذكرات القسم الثاني ، مرجع سابق ، ص 61 .

الأمة الجزائرية منذ أقدم العصور موضحا تلاحمها عبر التاريخ ومبينا العناصر الأساسية التي يشترك فيها الشعب الجزائري بقوله : «لا ياسادتي . . . نحن فتشنا في صحف التاريخ ، وفتشنا في الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية المسلمة متكونة وموجودة كما تكونت ووجدت كل أمم الدنيا ، ولهذه الأمة تاريخها الحافل بجلائل الأعمال ، ولها وحدتها الدينية ، واللغوية ، ولها ثقافتها الخاصة ، وعوائدها وأخلاقها بما فيها من حسن وقبيح شأن كل أمة في الدنيا ، ثم ان هذه الأمة الجزائرية الاسلامية ليست هي فرنسا ، ولاتريد أن تصير فرنسا ، ولاتستطيع أن تصير فرنسا ولو أرادت . بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد ، ولاتريد أن تندمج بها ، لها اقليم محدد وهو الجزائر بحدودها الحالية»[1] .

ان هذين النصين السابقين ، المتناقضين يوضحان الخلاف الجوهري بين العلماء والنخبة ، فالنخبة كما هو في صريح النص تسعى الى تحقيق الرفاهية الاقتصادية ، والحقوق السياسية التي لاتأتي الا بالارتباط بما تحققه فرنسا في الجزائر ، وذلك على حساب الوطنية الجزائرية ، والروابط القومية التي تجمع بين أفراد الشعب الجزائري . أما العلماء ، فكما هو جلي في النص أيضا ، فقد كانوا يدافعون عن الكيان الجزائري ويؤكدون على عروبة الشعب ، واسلامه ، ويرفضون الاندماج ، والارتباط مع فرنسا بواسطة لغة المستعمر وجنسيته .

وهكذا يتبين أن الخلاف بين النخبة العربية ، والنخبة المستغربة لم يكن خلافا في اللغة ، والثقافة فحسب ، بل أنه كان يتمثل في مفاهيم أساسية تتعلق بالشخصية الجزائرية ، وتاريخها العريق .

هذا ولم يحد الحكيم (إبن جلول) عن الطريق الذي سار فيه صديقه الصيدلي عباس في موقفه من الوطن الجزائري ، حيث نسمعه يقول في شهر شباط (فيفري) 1936 عندما كتب في جريدة الوفاق (الانتانت) قائلا : «انه من الخرافة الحديث عن الشعب ، وعن الجامعة الاسلامية في الجزائر ، لأن كل الأعمال والكتابات التي تصدر عن الشبان الجزائريين هي أعمال وكتابات فرنسية «الشيوعية ، الجامعة الاسلامية ، ألم نرفض ألف مرة هاتين الفكرتين المتناقضتين ... واذا كان لدينا وطنية أفليست هي فرنسية لحما ودما ؟ »[2] .

---

(1) مجلة الشهاب : م 12 ، ج 1 ، كلمة صريحة ، قسنطينة أفريل 1936 ، ص 44 ، 43 .

(2) ينظر : أبو القاسم سعد الله / المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص 76 .

اذن فهذا التصريح يأتي مطابقا لما أعلنه عباس فرحات في نفس الفترة ، وكلام
ينفي الوطنية الجزائرية ، بل أن قول إبن جلول ينكر تماما وجود جيل عربي في د
وأفكاره بالجزائر ، كما يستنكر كل الأفكار السياسية والقومية التي اختمرت في أذه
الشعب الجزائري المسلم ، ويعتبرها من قبيل الشغب والفوضى ، ولا يعترف
بالأفكار ، والكتابات الصادرة عن جماعته المتشبثة بالحضارة الأوروبية .

وهكذا اتبع أعضاء النخبة ادعاء (ايديولوجي) الاستعمار الفرنسي في القول بـ
الجزائر على النقيض من تونس والمغرب ، فهي لم تكن وطنا ، ولا حتى دولة
الاحتلال ، ولكن هذا الرأي لم يبرز الى الوجود الا بعد أن تحطم العمود الفقري
للشعب الجزائري ، وقطع روابط السكان المدنيين بماضيهم المجيد وثقافتهم الأصلية
وبذلك استطاعوا أن يقنعوا خريجي المدارس الفرنسية من الجزائريين[1] بأن وطن
الأم هو فرنسا التي يجب أن يدافعوا عنها ، ويموتوا من أجلها .

واذا كان الأنبعاث الديني الذي ظهر قبل الحرب العالمية الأولى ظل خجولا
يجرأ على الظهور ، فان جمعية العلماء بقيادة إبن باديس قد تخطت الاطار الس
البحث الى الميدان السياسي ، حيث كان شعارها «تعلموا» أي اللغة العربية ،
الرفض الجازم لنزع الثقافة العربية[2] .

وهكذا كان الاحتكاك بين الجمعية والنواب ذاوجهين ، فالعلماء كانوا يهاجمو
النخبة أحيانا ، ويستنجدون بزعمائها أحيانا أخرى للدفاع عن مؤسساتهم التعليمية
وصحافتهم العربية ، وإن كان الواقع هو أن العلماء كانوا ينظرون الى النواب
على أنهم يؤتمرون بأوامر الادارة ، ويتحركون باشارتها .

ولعل تركيز جمعية العلماء على اللغة العربية ، والدين الاسلامي هو الذي أ
عداوة النخبة وخريجي المدارس الفرنسية في الجملة ، وكذلك بعض النواب الساخ
عليها خاصة بسبب موقفها من التجنيس[3] .

ذلك أن النخبة الجزائرية – كما يرى عمار أوزقان ليس لها أي تشابه مع
البلدان الأخرى التي تقود الحركات الوطنية ، وتبقي للبلد وسكانه مشاعر
والكرامة الوطنية ، فالنخبة الجزائرية قد أهملت الجماهير ، وتركتها تحت

---

(1) سمير أمين : المغرب العربي الحديث / ترجمة كميل ق داغر ، ط 3 بيروت 1981 ، ص 129 ، 130 .
(2) نفس المرجع ، ص 133 .
(3) ينظر : أبو القاسم سعد الله / المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص 101 .

الكولون وقانون الاندجينا[1] . في الوقت الذي كان فيه «الثوريون أشبه بديوك الليل التي تبشر بالصباح ، والليل أسود كثيف»[2] .

وكان برنامج النخبة مركزا حول المساواة في الحقوق مع الأوروبيين والحصول على المدارس ، والمحاريث ، والطرق والمستشفيات ، واختيار طريق «الانعتاق بالتطور» وكانت وسائل عملهم هي الشكاوى التي كانوا يرفعونها «الى الفرنسيين الطيبين في فرنسا»[3] .

وهكذا فبينما كان المثقفون الجزائريون بالثقافة الفرنسية ممن عرفوا بنزعتهم الغربية يتدحون التشبه بالأوروبيين ويعجبون بالحضارة الغربية اندماجا وتجنسا ، كان المصلحون ومن يعاضدهم في أفكارهم من الوطنيين المخلصين – كالمنتمين لحزب الشعب – مجندين جسدا ، وروحا لمقاومة هذه الانحرافات الايديولوجية المختلفة[4] . في حين كانت النخبة تعيش بمعزل عن الجماهير الشعبية وتتمتع بوضعية اجتماعية حسنة نسبيا .

والحق أن مواقف الجمعية المعادية للهيئات ، والجمعيات الدينية ، والسياسية الأخرى لم تكن دائمة ، بل أن العلاقة بينها وبين المنظمات الأخرى تتوقف على المصلحة العامة التي ترى فيها الجمعية ضرورة تحسين العلاقة ، أو قطعها مع هذه المنظمة أو تلك ، فمن جهة النواب فقد كانت تدعوهم للدفاع عن حقوق الأمة المشروعة وللوقوف في وجه جميع القرارات المضادة للحريات العامة ، كما لاجتماعات والتعليم ، واقامة الشعائر الدينية ... الخ . وكانت تحملهم عبء مسؤولية الشعب الذي منحهم حق الدفاع عن حقوق الأمة ومطامحها ، وقد كتب إبن باديس في 1938 بهذا الصدد يقول : «إن أهم ما أفرغت الأمة ثقتها عليكم (أي النواب) لأجله ... هو دينها ، ولغتها ... وقد كانت للحكومة الفرنسية سوابق عهود قانونية مسجلة مؤكدة بالشرف الفرنسي في المحافظة لهذه (الأمة) على دينها ولغتها ... ولكنها سلكت مع الدين ولغته سياسة تناقض تلك العهود والمواثيق[5] . وقد كان موقف الجمعية من رجال القضاء هو نفس الموقف مع النواب[6] .

---

(1) ينظر : عبد الحميد زوزو / المرجع السابق ، ص 143 .
(2) ينظر : عمار أوزقان / المرجع السابق ، ص 27 ، 28 .
(3) نفس المكان .
(4) ينظر : محمد ناصر / المرجع السابق ، ص 16 .
(5) عبد الحميد إبن باديس – كتاب مفتوح الى النواب الجزائريين – جريدة البصائر عدد 110 . 22 أفريل 1938 ، ص 3 .
(6) نفس المصدر .

وجملة القول فان الاصطدام الذي وقع بين العلماء وبين خريجي المدارس الفرنسية عموما لم يصل الى الحد الذي حدث بين الطرقيين والمصلحين ، لأن هناك أرضية تجمع بين هؤلاء والنخبة ، ولا سيا فكرة التجديد والانفتاح على المدنية الحديثة رغم أن العلماء كانوا بالنسبة للنخبة محافظين تقليديين . وقد كان إبن جلول في أحيان كثيرة على سبيل المثال : يتكلم باسم جمعية العلماء بحكم مبادئها التي تقضي ببقائها خارج الميدان السياسي ، ومن جهة أخرى فان إبن باديس كان يحضر بجانب الدكتور إبن جلول في التجمعات الشعبية واستطاع أن يؤثر على أبرز زعماء النخبة مثل عباس وإبن جلول نفسه وجعلهما يؤيدان الحركة الاصلاحية ويتبنيان مطالبها ، ويتحالفان معها ضد المرابطين والنواب الرجعيين وغيرهم من خصوم الجمعية ، بل أن العلماء قد جعلوا الزعيمين المذكورين يعتنقان مبدأ العروبة ، والاسلام .

ويتضح هذا التأثير في مطالبة النخبة بفصل الدين عن الدولة كما نادى بذلك عباس فرحات وزملاؤه سنة 1941 ، وهذا المطلب طالما ظل يشكل العمود الفقري في حركة العلماء المسلمين[1] .

وفي سنة 1943 نشاهد العلماء والنواب الجزائريين وبعض مناضلي حزب الشعب يتحدون حول مطالب واحدة ، ويرسلون بيانا الى الحكومة الفرنسية يطالبونها ب بحرية جميع السكان المسلمين الجزائريين ، وبالقضاء على الاقطاعية الزراعية ، والقيام باصلاح زراعي واسع النطاق لصالح الفلاحين الجزائريين ، والاعتراف برسمية اللغة العربية باعتبارها لغة الشعب ، وبحرية الصحافة والحق في الاجتماع بالاضافة الى المطالبة بحق الجزائر في دستور خاص بها يضمن للشعب حريته وتقرير مصيره بنفسه[2] . وأهمية هذا البيان ليست في مضمونه كما يقول جوليان[3] بل في قوته العاطفية ، وتأكيداته على المطالب ولا سيا في تناوله لمبدأ «الأمة الرئيسي المتين الذي أضطلع به بعض العلماء وحزب الشعب الجزائري» وبثه في عدد وفير من عقول الجزائريين . كما أن الأهمية تتمثل خاصة في الاجماع الذي حدث بين العلماء والنخبة ومناضلي حزب الشعب المنحل ، وهي خطوة هامة في طريق الوحدة بين المجموعات الاسلامية على اختلاف اتجاهاتها ، ومذاهبها السياسية وهو لقاء لم يحدث من قبل بهذا

---

(1) ينظر : جوليان / افريقيا الشمالية تسير ، المرجع السابق ، ص 311 .
(2) فرحات عباس / المصدر السابق ، ص 169 .
(3) جوليان / افريقيا الشمالية تسير ، 320 .

الشكل الذي حدث به هذه المرة ، وهذا التضامن لايفسر بتراجع العلماء عن مبدئهم ، ولا بتخلي مناضلي حزب الشعب عن أهدافهم ، وانما يفسر بتطور أعضاء النخبة وخروجهم من سياسة البحث عن وطن لهم في فرنسا .

وعندما أنشأ فرحات عباس حركة أصدقاء البيان والحرية في آذار (مارس) 1944 للدفاع عن المطالب التي قدمت الى الحكومة الفرنسية في سنة 1943 أنضم اليها كل من العلماء ومناضلي حزب الشعب ، وتكونت جبهة جماعية سطرت برنامج عمل مشترك بين جميع القوى الوطنية .

وبانضمام العلماء لحركة أصدقاء البيان والحرية أزدادت قوتها وعقدت مؤتمرا في شهر آذار (مارس) 1945 صوت فيه المؤتمرون على عريضة تطالب باطلاق سراح مصالي الحاج ، كما صوتوا على لائحة تطالب بانشاء جمهورية جزائرية مستقلة ضد الاستعمار والامبريالية ، وبانشاء حكومة ، وبرلمان جزائريين . وكانت الآراء ، والمواقف قد توحدت في سنة 1944 لمجابهة أمر 7 مارس الذي أعطى لحوالي 60 آلف جزائري حقوق المواطنة الفرنسية مع احتفاظهم بأحوالهم الشخصية كمسلمين ، فقد هوجم هذا التشريع الفرنسي هجوما شديدا من طرف العلماء وحزب الشعب وبعض النواب . فالابراهيمي الذي كان رئيسا لجمعية العلماء قد أعتبره خطوة عملية لادماج المسلمين الجزائريين في المجتمع الفرنسي ، كما عبر عن ذلك كل من مصالي الحاج ، وعباس فرحات[1] وكونوا جميعا جبهة متحدة لمعارضة هذا الأجراء الجديد لأنه يقف حجر عثرة في طريق استقلال الجزائر . هذا وكانت نتيجة لقاء الزعماء الثلاثة انشاء حركة أحباب البيان والحرية بمدينة سطيف في يوم 14 آذار (مارس) سنة 1944 كما سلف الذكر ، واتفقت الحركات الثلاث على مقاومة الاستعمار وفضح مناورات الامبريالية وأعمال الرجعية الاقطاعية من أوروبين وجزائريين ، والعمل على تقريب فكرة الأمة الجزائرية والتحضير لإنشاء جمهورية مستقلة بالجزائر تدرج ضمن نظام فيدرالي مع جمهورية فرنسية جديدة مناهضة للاستعمار والامبريالية[2] وكما أتهم حزب الشعب الجزائري وأصدقاء البيان والحرية بالتخطيط لانتفاضة 8 آيار (ماي) 1945 وتهييج الجماهير المسلمة أتهم العلماء أيضا[3] بنفس الموضوع . وكمازج بمناضلي

---

(1) ينظر : جوليان / افريقيا الشمالية تسير ، مرجع سابق ص 329 – 362 .
وكذلك HENRY BENAZET, Op Cit, p. 48.
(2) HENRY BENAZET, Op Cit, p. 54.
(3) وكذلك جوليان / افريقيا الشمالية تسير ، مرجع سابق ، ص 336 ، 362 .

حزب الشعب وأصدقاء البيان والحرية في غيابات السجون زج كذلك بالعلماء وأعضا النخبة بعد القمع الوحشي الذي سلطته القوات الفرنسية على الشعب الجزائري عقر الاحتفالات بعيد النصر.

وهكذا فمنذ قيام الحرب العالمية الثانية يلاحظ المرء تقارب وجهاة النظر وتنسيق العمل ليس فقط بين العلماء والنخبة، بل بين هؤلاء والحزب الوطني الذي كان خلا الثلاثينات يقوم بحملات صحفية مكثفة ضد المنتخبين، والنواب، وحتى ضد العلما أحيانا، ذلك أن مواقف الذين كانوا يطالبون خلال العقد الرابع بسياسة ادماجية، وبالمساواة في الحقوق مع الفرنسيين، والذين كانوا يسلكون سياسة معتدلة نحا الفرنسيين أحيانا، ويعلقون الآمال على الحكومات اليسارية الفرنسية في منح الجزائريين حريتهم بلاعنف، قد تحولوا بعد أن تأكدوا من تصلب الحكومة، وتعنت المستوطنين ازاء الجزائريين المسلمين، الى وطنيين ثوريين يؤمنون بضرورة الكفاح المسلح كوسيلة فعالة لاسترجاع حرية الشعب وكرامته وباتوا يجمعون على رفض الاصلاحات الجزئية، والشاملة في اطار السيادة الفرنسية.

ومن هنا نستخلص نتيجتين هامتين في تاريخ العلاقة بين العلماء والنخبة. الأول تميز بالعداء أحيانا وبالتقارب الوقتي أحيانا أخرى، وذلك حسب مقتضيات الظروف السياسية، والمواقف الاستعمارية من الحركة الوطنية عموما، والعلماء بصفة خاصة فعندما تتعرض مؤسسات وصحف هؤلاء ورجالهم للوقف، والتعطيل، والسجن، والتغريم تستغيث الجمعية بأعضاء النخبة والنواب ضد هذا التعسف، والقهر نظرا لوظائفهم الرسمية، ونفوذهم في المجالس المحلية.

أما الثانية فتمتاز بالتقارب، والاتحاد بين العلماء والنخبة في كثير من المواقف الوطنية كما سلف الذكر في بيان 1943 ومرسوم 1944، وأصدقاء البيان والحرية وانتفاضة ماي 1945.

وهذا التقارب الأخير كان ناتجا أساسا عن تطور النخبة، ويأسها من الديمقراطية الفرنسية التي طالما تعلق بها خريجو المدارس الفرنسية الذين أصبحوا يحاربون الاستعمار بالمبادىء التي تلقنوها من أفكار الغرب نفسه.

أما قبول العلماء التعاون مع هؤلاء فقد كان ناتجا عن قناعتهم بالمواقف الجديدة التي أثبتت منذ سنة 1943 قطيعة رجال النخبة نهائيا مع المستعمر من جهة، وللامكانيات السياسية التي كان يتمتع بها أعضاء هذه النخبة من جهة أخرى.

الفصل الثامن

الجمعية والحزب الشيوعي الجزائري

بعد نجاح الثورة البولشفية في روسيا سنة 1917، بدأت الأفكار الشيوعية المعادية للاستعمار والهيمنة الامبريالية تنتشر في المستعمرات يوما بعد يوم، فظهرت أحزاب يسارية تحت اسماء مختلفة، ولا سيا بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى، ومع ذلك، فان الجزائر لم تعرف نشوء حزب شيوعي أو اشتراكي من الأهالي المسلمين الا منذ سنة 1936، وقد يعود ذلك الى عاملين اثنين: أولهما، تمسك الجزائريين بدينهم كمسلمين، ورفضهم للمبادىء الشيوعية التي تتعارض مع الدين من الأساس، وجهل الأغلبية الساحقة بالثقافة العالمية، والتيارات الفكرية الحديثة التي ظهرت في تلك الحقبة، وذلك نتيجة لسياسة التجهيل التي انتهجها الاستعمار الفرنسي في الجزائر منذ سنة 1830.

أما العامل الثاني: فقد يعود الى سيطرة الحزب الشيوعي الفرنسي على الحركات اليسارية في الجزائر عند نشأتها، وخوفه من خلق حزب شيوعي جزائري مستقل قد يتحول في النهاية الى الوطنية الجزائرية، كما وقع له مع حزب نجم شمال افريقيا. وهو الشيء الذي ترفضه النظرية الماركسية التي ترى أن انتصار الحركة الشيوعية في العالم لا يكون الا على انقاض القومية والوطنية الضيقة.

وسيتناول هذا الفصل نشأة الحزب الشيوعي الجزائري، وتاريخ تطوره حتى نهاية الحرب العالمية الثانية، والمقارنة بينه وبين جمعية العلماء في كثير من المواقف والمسائل الوطنية والسياسية.

نشأة الحزب الشيوعي الجزائري ومراحله السياسية:

يقول عمار أوزقان[1] (الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري) خلال الثلاثينات والأربعينات: «كانت المجموعة الشيوعية مجموعة فوضوية لايتجاوز عدد أعضائها الخمسة

(1) ينظر / المصدر السابق، ص 24.

عشر فردا ، ولم يكن ...

اذن لم يكن للشيوعيين في أول الأمر أي اتصال بالجماهير الشعبية في الجزائر ... هذا الرأي ، بل أن نشاطهم لم يكن معروفا لدى غيرهم من الناس ، ولكن أوزقان ... يحدد الفترة التاريخية التي كان فيها عدد أعضاء هذه المجموعة الشيوعية لا يتجاوز خمسة عشر شخصا .

أما منهجهم في العمل فيبدو أنه كان فوضويا ، لا يقوم على أساس علمي ، ولا على ايديولوجية واضحة – كما يستنتج من كلام أوزقان – حيث «كانوا يتسللون ... الحطابين في الغابة أو للمتحممين المستلقين على الرمل في الشاطيء ، ولم يكن حديثهم مع الناس يهدف اطلاقا الى توضيح أصل العالم ، والانسان ، أو الظواهر الطبيعية أو الاجتماعية ، بل أنهم كانوا يسخرون من المذاهب والأفكار المسبقة ويدعون بأن العقيدة هي نقيض الأخلاق»[1] ، وهذه الدعوة السافرة الى الكفر والالحاد واضحة تمام الوضوح ، بل أنها لا تمت بأية صلة الى الأفكار الثورية ، أو محاربة الاستعمار والاستغلال .

ولكن الأفكار الشيوعية لم تبق محصورة بين مجموعة الخمسة عشر ، بل أنها بدأت في الانتشار منذ 1920 بين أوساط أوروبية في عمالة قسنطينة (الشرق الجزائري) وبعد فترة وجيزة تسربت هذه الأفكار الى بعض الأهالي الجزائريين ، ولا سيما بعد سنة 1936[2] .

ولا شك ان مسألة تحديد مواقف الحركة الشيوعية من الوطنية الجزائرية ، ومن جمعية العلماء التي تمثل الاسلام والعروبة والوطن في هذا القطر مسألة شائكة يتعذر على الباحث تحديدها تحديدا دقيقا خلال مرحلة الدراسة نظرا للتقلبات التي عرفها الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان واقعا بين تعاليم موسكو ، ومصالح باريس الاستعمارية من جهة ، وللتناقض الصارخ بينه وبين فروعه المشكلة من أوروبيي الجزائر الاستعماريين من جهة أخرى ، ومع ذلك كله فأحاول بقدر الامكان تحديد مواقف هذه الحركة تحديدا نسبيا على الأقل .

يمكن تقسيم مواقف الحركة الشيوعية من الوطنية الجزائرية واستقلال البلاد الى مرحلتين : المرحلة الأولى ، وتنقسم الى اتجاهين متناقضين ، الاتجاه الأول ، وتمثله فروع الحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر المناوئة لجميع أشكال الوطنية الجزائرية ، ويبدأ منذ سنة 1920 ، ويمتد حتى سنة 1936 على الصعيد المحلي .

(1) ينظر / عمار أوزقان : المصدر السابق ، ص 24 .

Centre d'Information C.I.E au prefet de Constantine Op Cit (2)

أما الاتجاه الثاني : فيمثله الحزب الشيوعي الفرنسي على المستوى الخارجي ، ويتضمن الدعوة الى استقلال الجزائر من هيمنة الامبريالية الفرنسية ، وقد كان هذا الاتجاه موازيا للأول .

أما المرحلة الثانية ، فتبدأ من سنة 1936 حيث أصبح فيها الشيوعيون من دعاة الوحدة بين الجزائريين والأوروبيين في الجزائر ، وبيان ذلك كله فيما يلي :

في سنة 1921 يلاحظ المرء أن كل فروع الحزب الشيوعي الفرنسي في الجزائر قد ركبت هواها ، حيث وقفت موقفا مناوئا لجميع «أشكال الوطنية الأهلية»[1] .

وعندما وجه الاتحاد السوفياتي «نداء الأممية الشيوعية من أجل تحرير الجزائر وتونس» يوم 20 ايار (ماي) 1922 ، نجد أن فرع سيدي بلعباس للحزب الشيوعي – الذي كان أول فرع أنخرط في الأممية الثالثة – «يندد بمشروع ثورة الجماهير الجزائرية» على أنه «حماقة خطرة ، لا تريد الجامعات الجزائرية للحزب الشيوعي – وهي التي لها قبل كل شيء ادراك ماركسي للأوضاع – أن تتحمل مسؤوليتها أمام حكم التاريخ»[2] .

وهكذا فقد ظلت الفروع الشيوعية على موقفها المعادي للوطنية الجزائرية .

ولكن الحزب الشيوعي الفرنسي الذي كان يأتمر بأوامر موسكو دعا الأوروبيين من باريس الى تكوين «جبهة موحدة مع زملائهم العرب في سبيل تحريرهم من الاحتلال الفرنسي»[3] كما دعاهم الى الرد على التحديات الوقحة التي تمثلها الاحتفالات بالذكرى المئوية بتنظيم «مظاهرات ثورية لفائدة استقلال الجزائر التام وجلاء الامبريالية الكامل عنها»[4] .

وفي عام 1934 قدم الحزب الشيوعي – أثناء الانتخابات الجهوية – برنامجا طويلا عرض فيه الفوائد التي ينالها الشعب من «النظام السوفياتي ، نظام العملة

(1) شارل أندري جوليان / افريقيا الشمالية تسير ، مرجع سابق ، ص 155 .
(2) نفس المكان .
(3) نفس المكان نقلا عن جريدة (لومانتي) 30 جانفي 1930 .
(4) شارل أندري جوليان / افريقيا الشمالية تسير : المرجع السابق ، نقلا عن جريدة (لومانتي) 30 أفريل 1930 .

والفلاحين» لو طبق مثله في الجزائر ، ولا سيما بانتزاع أملاك المعمرين والاقطاعيين الأهليين ، واعطاء الأرض الى الفلاحين العاملين .

مما سبق نستخلص النتيجتين التاليتين ، أولهما : وجود خلاف واضح بين القيادة المركزية للحزب الشيوعي في فرنسا ، وبين فروعه المتكونة من الأوروبيين في الجزائر حول مسألة استقلال الجزائر ، ذلك أن قيادة الحزب التي تأتمر بأوامر موسكو تميل إلى تأييد الوطنيين الجزائريين الذين يعملون على تحرير البلاد من براثن الإستعمار ، في حين أن الفروع الأوروبية السالفة الذكر تعارض هذا الإتجاه الصادر عن قيادة الحزب .

أما النتيجة الثانية فتتجلى في أن هدف الزعماء الشيوعيين في فرنسا كان يتمثل في جمع شتات الطبقة الشغيلة من العمال والفلاحين وتوحيدها ودمج العناصر الأوروبية والعربية ادماجا كليا قصد وضع حد للتنافس التقليدى بين الكتلتين[1] .

ومن الجدير بالذكر في هذه المرحلة أن نشير الى نتائج الاستفتاء السرى الذي أجراه ممثل الحزب الدائم للدعاية مع الفروع الشيوعية في الجزائر سنة 1920 حول موقفها من القضية الوطنية والاسلام في الجزائر ، وذلك بعد تكوين الحزب الشيوعي الفرنسي في نهاية كانون الأول (ديسمبر) 1920 ، وتحضيرا للمؤتمر الثالث للدولية الشيوعية . وقد كانت الأسئلة المطروحة على المنخرطين في فروع الحزب تتعلق بمصير الشيوعية في الجزائر ، ومن بين هذه الأسئلة : كيف يمكن التعامل مع هذه التيارات الوطنية التي يذكرها لينين ، وكأنها موجودة عند بعض الأهالي المثقفين على الخصوص ، وماهو الموقف الذي يجب على الحزب أن يتخذه تجاه هذه التيارات ؟ هل يوجد مثل هذا الشعور لدى المنخرطين في الحزب ؟ وفي حالة الايجاب ، هل أن انخراطهم كان نتيجة لرضاهم عن النظريات ؟ أم بسبب شعورهم بالمعارضة للامبريالية الاستعمارية ؟ وكان الفرع الوحيد الذي أجاب بعدم جدية هذه التيارات هو فرع حسين داي ، الذي قال : إن هذه التيارات الوطنية لا تبدو جدية . ولكن يجب على الحزب أن يقاومها اذا برزت في اتجاه اصلاحي أو في محاولة اعادة الأمبراطورية الاسلامية ، على كل حال يجب الحذر من النخبة المثقفة المتعفنة في ثلاثة أرباعها[2] .

(1) (النسخة الفرنسية) Ibid P. 120.

(2) Charles Robert Ageron: politique coloniale au maghreb, presse universitaire de FRANCE, collection hier, Paris 1972. P. 189.

أما تقرير فرع الجزائر ، فقد جاء مترددا بقلم فكتور سبيلمان (F. SPIELMANN) الحرج ، حيث يعرف الوطنيين ، أو أشباه الوطنيين بأنهم أولئك الذين تفرض عليهم وضعيتهم الشخصية ، ووظائفهم ، ومهنهم أن يسيروا في اتجاه محافظ .

ومن خلال الاجابتين السابقتين نلاحظ أن الفرع الأول قد اعترف بوجود وطنية لدى الجزائريين ، ولكنه اعتبرها غير ناضجة ، بل أنه قد دعا الى مقاومة أي تيار وطني يبرز في الساحة الجزائرية . في حين أن الفرع الثاني قد حصر الوطنية في جماعة المحافظين . ويبدو أن المتكلم باسم هذا الفرع كان «يفكر في ذوي العمائم والتقليديين» الذين يقول عنهم أن وطنيتهم مقنعة ... «فهؤلاء الوطنيون يجب ألا يواجهوا علنا لأنهم يقودون الرأي العام لدى بروليتارية الأهالي ، ولكن هذا لايعني الأعتماد عليهم ، بل يجب الأعتماد على الأقلية المثقفة» فئة المتطورين « لأنهم أقرب فئة الينا ، ولو كانت متباينة سياسيا . علينا أن نساعدهم بكل قوانا ، بكل أرواحنا اذا كنا نريد حقيقة تحررهم (EMANCIPATION) .

أما مناضلوا البليدة فقد نادوا من جهتهم بمحاربة التيارات الوطنية لدى الأقلية الأهلية المثقفة ، «وتحقيرها بكل الوسائل في أعين مواطنيهم المسلمين ، في انتظار تربية الجماهير»[1] .

وقد شاطرهم في هذا الرأي فرع العفرون ، ولكن بعبارات أعنف من سابقيه حيث قال : «على الحزب ألا يعامل الوطنيين القوميين المسلمين الا كما يعامل كل الوطنيين الآخرين ، لأنهم جميعا أعداء للأخوة بين الرجال ، ومن ينادى بالحرب يجد الحرب ، فالشيوعية لا يمكنها أن تقوم الا على جثة القومية .

أما فيدرالية الجزائر فكانت أكثر لباقة ، وان كانت سريعة الحكم ، حيث أكدت في تقريرها عدم وجود حركة ثورية وطنية في الجزائر ، ولكنها ذكرت بأنه يوجد على أكثر تقدير بعض البقايا من الشعور الوطني ، في شكل عادات دينية ، ومدنية ، وعائلية متخلفة ، ومن ايديولوجية تقليدية قديمة . ومما جاء في التقرير أيضا :

«وبما أن الجزائر بلد تنتشر فيه الاقطاعية ، وتسود فيه السلطة الأبوية ، فان واجبنا فيه هو مكافحة كل العناصر الرجعية التي تعتبر من مخلفات العصور الوسطى»

ويرى هذا الفرع أولا وقبل كل شيء ضرورة التعاون بحذر واهتمام بالغ تجاه هذه

(1) Ibid, P. P. 189-190.

البقايا من الشعور الوطني في الجزائر . «لا يجب الا بتشجيع في الوقت الراهن
حركة وطنية أهلية»[1] .

ذلك أن فرع سيدى بلعباس قد أكد ، على أن البورجوازيين العرب ، ينا
بالمباديء الوطنية ، والاقطاعية ، وأنهم سيغتنمون فرصة استقلالهم ليمارسوا سيا
اضطهادية ، اقطاعية .

أما فرع وهران ، فقد كان يرى أن الشعور الوطني موجود لدى بعض القا
بينما لدى الجماهير الجاهلة ، والساذجة ليس ثمة سوى عقلية الجنس (العنصر) وعقل
خاصة ممزوجة بالعقلية الدينية . ومما جاء في تقريره :

«اذا كان هذا الشعور موجودا لدى (المسلمين) المنخرطين في الحزب وانا ك
انخراطهم ناتجا عن شعورهم بالمعارضة للامبريالية الاستعمارية ، ولم يكن بسبب تقبل
للنظرية الشيوعية ، فانه لا يمكن تشجيع أية حركة وطنية» .

أما سكرتير فيدرالية قسنطينة ، الدكتور لوى لورانس (LOUIS LAURENES
المحررالرئيسي لجريدة «الكفاح الاجتماعي» ، فقد كان أكثر حدة ، حيث أجا
بقوله : «على الحزب أن يكشف ، ويندد بقوة ، بهؤلاء الوطنيين ، وأن يشعر الأه
بكثير من القوة ويعطي للاستعمار شيئا من الاطمئنان ، والهدوء» . ويتساءل الكا
(آجرون) الذي نقلنا عنه معظم هذه الأجوبة - بقوله : كيف توصل لوران
(LAURENS) الى هذه الاستنتاجات ؟ ثم يعلق على التحقيق السرى بقوله : لا أ
كان يتبنى ماكانت تكتبه جريدة الحزب (الكفاح الاجتماعي) في نفس الفترة[2] .

ان التحرر الوطني الذي هو خطوة نحو التحرر الانساني حقيقة بالنسبة للاستع
الاستعماري ، وعليه يجب علينا أن ننظر الى طموحات الاستقلال من الاستع
كمرحلة أقل تطورا من الاشتراكية ، ولكن من نفس الطبيعة ، وكان من المفرو
اذن أن نمنح الأهالي دعمنا المعنوى . أما المؤتمر الاتحادى بقسنطينة فقد ندد بالقو
حيث جاء في التصريح الافتتاحي : «ان كل اضطراب أو تهريج وطني من هدف
استبدال مجتمع تتهالك فيه الأجناس المتعادية تقوده الطبقات المالكة للشهرة والسلط
بمجتمع يتراكم فيه الرأسمال المتقدم ، يتميز بوعي الطبقات المعارضة[3] .

Charles Robert Ageron: politique coloniale au maghreb, Op Cit, P. 190. (1)

Charles Robert Ageron. politique coloniale au maghreb, Op Cit P. P. 191. 192. (2)

Loc Cit. (3)

هذا عن موقف الفروع الشيوعية من الشعور الوطني لدى الأهالي الجزائريين ، فما هو موقفها اذن من الاسلام أيضا في هذه المستعمرة ؟

ان السؤال المطروح في هذا الموضوع هو : «هل الاسلام عائق ؟ وهل يمكن للمسلمين قبول النظرية الشيوعية ؟» .

ان فرع وهران قد أجاب عن هذا السؤال هكذا : «ان التقارب الغريزى مع هذه الاستعدادات لا يجعل المسلمين الجزائريين مستعدين لفهم الماركسية . فالأهالي لا يمكنهم فهم واستيعاب النظرية الشيوعية بسبب افتقارهم الى التعليم والتوجيه ، لأن هذه النظرية معقدة ، تستدعي خصوبة الاستعدادات في الطبيعة الانسانية[1] .

أما فرع العفرون ، فقد أجاب عن هذا السؤال قائلا : «ان التعصب لايزال مستحكما بين الأهالي مثلما كان الحال في العهد الاسلامي الأول ، ذلك أن أصغر مرابط لو نادى بالجهاد لوجد من يلتف حوله من الناس . في حين كان فرع حسين داي - الغير ملتزم - يعتقد بأن الشيوعية يمكن أن تفهم من طرف المسلمين شريطة أن يدعو اليها مرابطون باسم (محمد) أو يقوم بشرحها (علميا) معلمون من الأهالي .

أما فرع البليدة فقد أجاب بقوله : «لو حاول الأهالي نشر نظرياتنا لسجنوا على الفور بمقتضى اجراء ادارى»[2] .

ولكن بعض الردود ترى بأن العائق الحقيقي أمام الدعاية الشيوعية في الجزائر يتمثل في (القرآن) ، وقد أكد هذا الرأي سكرتير الفيدراليات بقوله : «يجب أن لانتوهم في هذا الموضوع بأن التقاليد ، والدين ، لا يشكلان عوائق بالغة الجدية ، تعرقل عملنا ، ومن ثم فلا يمكن أن نكون شيوعيين الا اذا كنا متحررين من كل مبدأ ديني» . وقد تأسف صاحب هذا الرأي عندما أدرك بأن عدد الأهالي الذين يتوفر فيهم هذا الشرط قليل جدا ، ومن ثم فقد رأى بأن أنجع حل لمشكل الشيوعية في الجزائر ، هو التعليم الفرنسي للأهالي المسلمين .

ذلك أن التطور نحو الشيوعية في رأيه «لا يتم الا عن طريق التعليم المدرسي والتربية الاجتماعية»[3] .

Ibid. P. 194. (1)

Charles Robert Ageron: politique coloniale au maghreb, Op Cit P. 185. (2)

Loc Cit. (3)

هذا ويرى فرع العفرون بأنه من الضروري تربية الشعب الجزائري تربية خا
وانتشاله من نفوذ قادته ، ومن التعصب .

أما فرع حسين داي ، فقد كان يرى أن التعليم بأهدافه الحالية يكون كثيرا
العاملين المتكبرين ، المسيطرين ، في حين كان المعلم (الفاسي) يقف على النقيض
ذلك ، ويستنكر التعصب المعرقل للادماج ، ويدعو بقوة الى المدرسة الفرنسية ، لأ
من المستحيل في رأيه التفكير في أية حركة نحو التقدم الاجتماعي مع جماعيت
أمة خاصة ، وتعيش في جهل قاتم ، وبأفكار قديمة عقيمة .

ويرى بأن الوسائل الكفيلة بتحقيق تطور الأهالي هو التعليم الفرنسي للذ
والاناث في المدن والأرياف على السواء ، مثل التعليم المهني ، ومساهمة الأهالي
تسيير الشؤون العامة ، ومادام كل هذا لم يتحقق فان تقدم الأهالي نحو الرق
النقابية ، والاشتراكية لن يكون سوى وهم خطير[1] .

من خلال هذه الأجوبة المتعلقة بمصير الشيوعية في الجزائر بين الوطنية والاسلا
يتضح أن الفروع الشيوعية التي تحولت في مطلع سنة (1936) الى حزب شيو
جزائري ، كانت معادية للوطنية والاسلام معا ، بل أنها كانت ترى أن هذ
التيارين المتأصلين في أعماق المجتمع الجزائري يشكلان أمام تطور الشيوعية في الجز
حاجزا منيعا يجب استئصاله من الأساس ، لأن الشيوعية كما عبرت مختلف تل
الفروع (السالفة الذكر) تتعارض مع الاسلام والقومية والوطنية الجزائرية ، حي
تعتبر هذه الأمور الثلاثة مفاهيم قديمة لا يمكن بأية حال أن تتقبل الشيوعية .

ومن هنا يمكن للمرء أن يفسر تقارب الشيوعيين مع العلماء على أنه تكتيك سيا
تفسره قوة العلماء التي استقطبت نسبة عالية من المسلمين الجزائريين بالمقارنة
الحركات السياسية والدينية الأخرى. هذا عن المرحلة الأولى وما تخللها من ترسيخ الأف
الشيوعية في الجزائر ومارافقها من محاولات لا بعاد الجزائريين عن الدين والوطنية.

أما المرحلة الثانية ، فتبدأ منذ سنة 1936[2] حين قرر مؤتمر فيلارب
(Congrès Villeurbanne)[3] في شهر كانون الثاني (جانفي) 1936 تحويل الفرو

(1) Charles Robert Ageron, politique coloniale au maghreb, Op Cit P. 195.

(2) تشكل الحزب الشيوعي الجزائري رسميا في شهر تشرين الأول أكتوبر سنة 1936 .

الشيوعية الجزائرية الى حزب مستقل عن الحزب الفرنسي ، وكان هذا الانفصال نقطة تحول في تطور الحزب الشيوعي ، لأن هذا القرار مكنه من نشر الدعاية بين الأحزاب الوطنية ، ولكن القيادة المركزية ظلت تصطدم بمقاومة الأعضاء الأوروبيين الشديدة[1] ومع ذلك فان موقف الحزب الشيوعي الجزائري قد تعدل تحت ضغط المناضلين النقابيين المرتبطين بالشعب ، ويرى عمار أوزقان[2] أن هذا التغيير في مسار الحزب الشيوعي الجزائري أدى الى نتيجتين هامتين هما :

أولا – الانفصال عن مجموعة لم يكن لعملها «أية علاقة بالرأي اللينيني في الدين ، الذي كان يقبل انضمام المؤمنين – وحتى الكهنة – الى حزب ثوري يؤمن بفلسفة مادية ، يعني أنه يقوم على التفسير العلمي لظواهر الطبيعة ، وهو تفسير عقلاني تؤكده الكشوف الانسانية عند الاميريكيين والروس» .

ثانيا – ان ذلك التغيير في الحزب الشيوعي الجزائري أدى الى تنظيم حركة شعبية بالتعاون مع الحزب الثوري لتأييد العلماء الذين منعتهم السلطات الاستعمارية من القاء الخطب في المساجد الرسمية ، وخاصة الشيخ الطيب العقبي[3] . ومن هنا يتضح أن الحزب الشيوعي الجزائري قد تخلص من الفئة الملحدة التى لم تفهم رأي لينين في الدين ، أصبح يقبل في عضويته المؤمنين من المسلمين والمسيحيين حسب رأي أوزقان ، ومع ذلك فان القيادة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري لم تدرك «... أن بامكان الثوري الحديث أن يدرس في آن واحد القرآن والماركسية ونزعة النقد التجريبي»[4] . ولنا أن نتساءل عن القيادة البيروقراطية التي يقصدها عمار أوزقان ، وفي أي مرحلة من مراحل الحزب التي يصفه فيها بهذا الوصف . وقد كان هو نفسه أمينا عاما للحزب – من سنة 1936 الى نهاية 1947 – وهو مسلم درس القرآن والماركسية معا ، كما يتجلى ذلك في كتابه الجهاد الأفضل .

وعلى أية حال فمها يكن موقفه من قيادة هذا الحزب ، فان الدين في رأيه لا يتعارض مع الأنضواء تحت لواء الحزب الشيوعي الذي يؤمن بالفلسفة المادية ، التي تقوم على التفسير العلمي لظواهر الطبيعة ، ولكن هذا الرأي يبدو أنه يتناقض مع

(1) جوليان / افريقيا الشمالية تسير ؛ مرجع سابق ، ص 196 .

(2) عمار أوزقان / المصدر السابق ، ص 24 .

هذا ويرى فرع العفرون بأنه من الضروري تربية الشعب الجزائري تربية خاصة وانتشاله من نفوذ قادته ، ومن التعصب .

أما فرع حسين داي ، فقد كان يرى أن التعليم بأهدافه الحالية يكون كثيرا من الفاشلين المتكبرين ، المسيطرين ، في حين كان المعلم (الفاسي) يقف على النقيض من ذلك ، ويستنكر التعصب المعرقل للادماج ، ويدعو بقوة الى المدرسة الفرنسية ، لأنه من المستحيل في رأيه التفكير في أية حركة نحو التقدم الاجتماعي مع جماهير تتكلم لغة خاصة ، وتعيش في جهل قاتم ، وبأفكار قديمة عقيمة .

ويرى بأن الوسائل الكفيلة بتحقيق تطور الأهالي هو التعليم الفرنسي للذكور والاناث في المدن والأرياف على السواء ، مثل التعليم المهني ، ومساهمة الأهالي في تسيير الشؤون العامة ، ومادام كل هذا لم يتحقق فان تقدم الأهالي نحو الحركة النقابية ، والاشتراكية لن يكون سوى وهم خطير[1] .

من خلال هذه الأجوبة المتعلقة بمصير الشيوعية في الجزائر بين الوطنية والاسلام ، يتضح أن الفروع الشيوعية التي تحولت في مطلع سنة (1936) الى حزب شيوعي جزائري ، كانت معادية للوطنية والاسلام معا ، بل أنها كانت ترى أن هذين التيارين المتأصلين في أعماق المجتمع الجزائري يشكلان أمام تطور الشيوعية في الجزائر حاجزا منيعا يجب استئصاله من الأساس ، لأن الشيوعية كما عبرت مختلف تقارير الفروع (السالفة الذكر) تتعارض مع الاسلام والقومية والوطنية الجزائرية ، حيث تعتبر هذه الأمور الثلاثة مفاهيم قديمة لا يمكن بأية حال أن تتقبل الشيوعية .

ومن هنا يمكن للمرء أن يفسر تقارب الشيوعيين مع العلماء على أنه تكتيك سياسي اقتضته قوة العلماء التي استقطبت نسبة عالية من المسلمين الجزائريين بالمقارنة مع الحركات السياسية والدينية الأخرى. هذا عن المرحلة الأولى وما تخللها من ترسيخ لاقدام الشيوعية في الجزائر ومارافقها من محاولات لا بعاد الجزائريين عن الدين والوطنية.

أما المرحلة الثانية ، فتبدأ منذ سنة 1936[2] حين قرر مؤتمر فيلاربان (Congré Villeurbane)[3] في شهر كانون الثاني (جانفي) 1936 تحويل الفروع

(1) Charles Robert Ageron, politique coloniale au maghreb, Op Cit P. 195.

(2) شكل الحزب الشيوعي الجزائري رسميا في شهر تشرين الأول أكتوبر سنة 1936 .

(3) EMANUEL SIVAN: Communisme et Nationalisme en Algérie, (1920-1962) presse de la fondation des Sciences politiques (Paris: 1976) P. 89.

الشيوعية الجزائرية الى حزب مستقل عن الحزب الفرنسي ، وكان هذا الانفصال نقطة تحول في تطور الحزب الشيوعي ، لأن هذا القرار مكنه من نشر الدعاية بين الأحزاب الوطنية ، ولكن القيادة المركزية ظلت تصطدم بمقاومة الأعضاء الأوروبيين الشديدة[1] ومع ذلك فان موقف الحزب الشيوعي الجزائري قد تعدل تحت ضغط المناضلين النقابيين المرتبطين بالشعب ، ويرى عمار أوزقان[2] أن هذا التغيير في مسار الحزب الشيوعي الجزائري أدى الى نتيجتين هامتين هما :

أولا – الانفصال عن مجموعة لم يكن لعملها «أية علاقة بالرأي اللينيني في الدين ، الذي كان يقبل انضام المؤمنين – وحتى الكهنة – الى حزب ثوري يؤمن بفلسفة مادية ، يعني أنه يقوم على التفسير العلمي لظواهر الطبيعة ، وهو تفسير عقلاني تؤكده الكشوف الانسانية عند الاميريكيين والروس» .

ثانيا – ان ذلك التغيير في الحزب الشيوعي الجزائري أدى الى تنظيم حركة شعبية بالتعاون مع الحزب الثوري لتأييد العلماء الذين منعتهم السلطات الاستعمارية من القاء الخطب في المساجد الرسمية ، وخاصة الشيخ الطيب العقبي[3] . ومن هنا يتضح أن الحزب الشيوعي الجزائري قد تخلص من الفئة الملحدة التي لم تفهم رأي لينين في الدين ، أصبح يقبل في عضويته المؤمنين من المسلمين والمسيحيين حسب رأي أوزقان ، ومع ذلك فان القيادة البيروقراطية للحزب الشيوعي الجزائري لم تدرك «... أن بامكان الثوري الحديث أن يدرس في آن واحد القرآن والماركسية ونزعة النقد التجريبي»[4] . ولنا أن نتساءل عن القيادة البيروقراطية التي يقصدها عمار أوزقان ، وفي أي مرحلة من مراحل الحزب التي يصفه فيها بهذا الوصف . وقد كان هو نفسه أمينا عاما للحزب – من سنة 1936 الى نهاية 1947 – وهو مسلم درس القرآن والماركسية معا ، كما يتجلى ذلك في كتابه الجهاد الأفضل .

وعلى أية حال فمها يكن موقفه من قيادة هذا الحزب ، فان الدين في رأيه لا يتعارض مع الأنضواء تحت لواء الحزب الشيوعي الذي يؤمن بالفلسفة المادية ، التي تقوم على التفسير العلمي لظواهر الطبيعة ، ولكن هذا الرأي يبدو أنه يتناقض مع

(1) جوليان / افريقيا الشمالية تسير : مرجع سابق ، ص 156 .

(2) عمار أوزقان / المصدر السابق ، ص 24 .

(3) نفس المصدر / ص 25 .

(4) نفس المصدر / ص 34 .

والقصد من ذكر الدكتور إبن جلول ، وفرحات عباس ، والأمين العمودى يعني الاشارة الى اتحادية المنتخبين وجمعية العلماء ، ولم يكن الهدف من موافقة الشيوعيين على مطالب المؤتمر الاسلامي هو حل المشكل الجزائري حلا نهائيا ، وانما الهدف منه هو تحقيق بعض المطالب السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وقد قالت صحيفة الشيوعيين في هذا الموضوع : «ان الحزب الشيوعي المنضم الى الجبهة الشعبية ضد الفاشية يؤيد كل مطالب المؤتمر الاسلامي الجزائري»[1] . ولكن الشيوعيين أعتبروا هذه المطالب كخطوة أولى نحو تحقيق بعض المكاسب الاقتصادية ، ورفع مستوى معيشة الفلاح ، والعامل واقرار الحريات في المستقبل .

ولعل الأهم من هذا كله هو أنهم أعتبروه انتصارا للوحدة التي ينشدونها وهي وحدة التكاتف والتصدى ضد الفاشية التي تهدد الجزائر .

واذا كان الفضل في ظهور أول فكرة لعقد المؤتمر الاسلامي يعود الى الشيخ عبد الحميد بن باديس ، واذا كانت جمعية العلماء قد ساهمت في هذا المؤتمر بنصيب وافر - كما سيأتي في حينه - فان نشاط الحزب الشيوعي الجزائري كان واضحا منذ انعقاد المؤتمر حتى فشله ، حيث شاهدت الفترة التي أعقبت انعقاده حركة واسعة النطاق ، قام بها في مختلف المدن الجزائرية[2] وعلى أعمدة جريدة (الكفاح الاجتماعي) . ويذكر أحد التقارير الفرنسية أنه من أجل الوصول الى غاية هذه المجهودات المبذولة من طرف الشيوعيين سعت جمعية العلماء كذلك . وتتمثل هذه الغاية في نجاح المؤتمر الاسلامي الذي يعتبره الشيوعيون خير وسيلة للدفاع عن حقوق الجزائريين في ظل مبادىء الجبهة الشعبية ، ويعتبره العلماء خطوة أولى في سبيل التحرر الوطني ، كما أكد ذلك إبن باديس بعد رجوعه مع وفد المؤتمر من باريس[3] .

وبناء على ما جاء في تقرير عامل عمالة قسنطينة السابق الذكر فان العلماء والشيوعيين الجزائريين قد نسقوا عملهم خلال تلك الفترة (1936 - 1937) في اطار المؤتمر الاسلامي للدفاع عن حقوق الجزائريين السياسية والاجتماعية ، حتى أن جوليان يقول : « لقد ابعد تأثير الشيوعيين والعلماء المتضافر مصالي الحاج وأنصاره من المؤتمر الثاني في تموز (جويلية) سنة 1937[4] .

(1) La lutte sociale, N° 83. 6 Février 1937.

(2) La lutte sociale, N° 83. 6 Février 1937.

(3) مجلة الشهاب / ثلاثة أشهر في شهر واحد ، م 2 ، جـ 6 ، أوت ، سبتمبر 1936 ص 168 . 278 .

(4) Charles (A) Julien : L'Afrique du Nord en Marche, Op Cit, P. 118.

واذا كان الشيوعيون الجزائريون قد اقتربوا من العلماء خلال فترة المؤتمر أكثر من أي وقت مضى ، فانهم قد تسربوا بين الأهالي المسلمين واجتذبوا الى صفوفهم أنصارا عديدين منهم ، وذلك نظرا لمشاركتهم الواسعة في الجبهة الشعبية ودورهم الواضح في المؤتمر الاسلامي ، وهذا قد أفزع الأحزاب اليمينية والفاشية حسب تعبيرهم ، ولكن هذا لا يعني أن الشيوعية الفرنسية قد تمكنت من التغلغل في الأوساط الشعبية الجزائرية ، مادامت هذه تعلم أن المبادىء الاساسية للشيوعية لا يتفق كثير منها مع تعاليم الاسلام ، وقد علقت الشهاب على هذا الموضوع بقولها : ان رجال الشيوعية الفرنسية يستحقون الشكر والتقدير على مايبذلونه من عطف «على ضعفنا ومقاومة الظالمين لنا ، لكن الشكر والاعتراف بالجميل شيء والتأثير بالمبادىء والانقياد للحزب شيء آخر»[1] .

وقد جاء في تقرير عن الحزب الشيوعي الجزائري مايلي : (انه يثير في الجزائر وفي الوقت المناسب ، اضطرابات ، المقصود منها اثارة فرنسا وحرمانها من جزء هام من سلطانها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى اعطاء ثورة الجماعات المعادية ماتحتاجه في القارة ...)[2] ولكن التحالف بين العلماء والشيوعيين لم يدم طويلا خلال الثلاثينات ، نتيجة لازدياد نفوذ العلماء من جهة ، وبسبب تحول الشيوعيين عن فكرة الدفاع عن الجزائر الى محاربة الفاشية من جهة أخرى ، ومن ثم فقد ابتعد العلماء عن الشيوعيين والجبهة الشعبية معا .

وبناء على رأي جريدة البرلمان الجزائري ، فان الحزب الشيوعي قد بدأ يتدهور ويفقد سمعته بين المسلمين الجزائريين منذ 1938 رغم الجهود التي بذلها توباز بوكور (TOUPASE BAUCOURT) وأتباعه ... من زعماء الحزب ، وقد اتضح فشله في انتخابات المجلس العام لمدينة الجزائر العاصمة في شهر أفريل 1939 رغم المساعي التي قام بها موريس توريز ، الذي فشل هو الآخر في التأثير على المسلمين الجزائريين ، ولعل ماجعل الهزيمة ثقيلة على الشيوعيين في انتخابات 23 أفريل 1939 ، هو النجاح الذي أحرزه حزب الشعب على حساب الشيوعيين ، الذين كانوا في حرب

(1) ينظر المجلد 13 الجزء 9 قسنطينة ، نوفبر 1937 ، ص 399 .

(2) 19 éme Corps d'Armée, etat-major, 2 éme bureau: bulletin des reseignements concernant l'etat d'esprit des indigènes Nord-Africains au cours des années 1936-1938.

وإذا كان الشيوعيون الجزائريون قد اقتربوا من العلماء خلال فترة المؤتمر أكثر من أي وقت مضى ، فانهم قد تسربوا بين الأهالي المسلمين واجتذبوا الى صفوفهم أنصارا عديدين منهم ، وذلك نظرا لمشاركتهم الواسعة في الجبهة الشعبية ودورهم الواضح في المؤتمر الاسلامي ، وهذا قد أفزع الأحزاب اليمينية والفاشية حسب تعبيرهم ، ولكن هذا لا يعني أن الشيوعية الفرنسية قد تمكنت من التغلغل في الأوساط الشعبية الجزائرية ، مادامت هذه تعلم أن المبادىء الاساسية للشيوعية لا يتفق كثير منها مع تعاليم الاسلام ، وقد علقت الشهاب على هذا الموضوع بقولها : ان رجال الشيوعية الفرنسية يستحقون الشكر والتقدير على مايبذلونه من عطف «على ضعفنا ومقاومة الظالمين لنا ، لكن الشكر والاعتراف بالجميل شيء والتأثير بالمبادىء والانقياد للحزب شيء آخر»[1] .

وقد جاء في تقرير عن الحزب الشيوعي الجزائري مايلي : (إنه يثير في الجزائر وفي الوقت المناسب ، اضطرابات ، المقصود منها اثارة فرنسا وحرمانها من جزء هام من سلطانها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى اعطاء ثورة الجماعات المعادية ماتحتاجه في القارة ...)[2] ولكن التحالف بين العلماء والشيوعيين لم يدم طويلا خلال الثلاثينات ، نتيجة لازدياد نفوذ العلماء من جهة ، وبسبب تحول الشيوعيين عن فكرة الدفاع عن الجزائر الى محاربة الفاشية من جهة أخرى ، ومن ثم فقد ابتعد العلماء عن الشيوعيين والجبهة الشعبية معا .

وبناء على رأي جريدة البرلمان الجزائري ، فان الحزب الشيوعي قد بدأ يتدهور ويفقد سمعته بين المسلمين الجزائريين منذ 1938 رغم الجهود التي بذلها توباز بوكور (TOUPASE BAUCOURT) وأتباعه ... من زعماء الحزب ، وقد اتضح فشله في انتخابات المجلس العام لمدينة الجزائر العاصمة في شهر أفريل 1939 رغم المساعي التي قام بها موريس توريز ، الذي فشل هو الآخر في التأثير على المسلمين الجزائريين ، ولعل ماجعل الهزيمة ثقيلة على الشيوعيين في انتخابات 23 أفريل 1939 ، هو النجاح الذي أحرزه حزب الشعب على حساب الشيوعيين ، الذين كانوا في حرب

---

(1) ينظر المجلد 13 الجزء 9 قسنطينة ، نوفمبر 1937 ، ص 399 .

19 ème Corps d'Armée ...

مستمرة معه ، مما جعل حزبهم (يلعب دور المستعمر) ، على حد تعبير الجريدة ، التي ذكرت بأن سكان مدينة الجزائر اتهموا الحزب الشيوعي بأنه هو معرقل اتحاد الشعب الجزائري ولتحقيق مطالبه ، وقد أضافت الجريدة بأن جماهير العاصمة قد نادت الشيوعيين وطالبتهم بالخروج من المجلس العام (... أيها الأعضاء الستالينيون اخرجوا) . هذا مانادت به جماهير العاصمة سنة 1939 ، ورفضت انتخابهم ، وأعطت أصواتها لأعضاء حزب الشعب ، لأنها سحبت ثقتها من الشيوعيين ، وهكذا جاءت انتخابات سنة 1939 لتبرهن على مدى سخط السكان المسلمين على الحزب الشيوعي وتأييدهم لحزب الشعب ، وقد هاجمت الجريدة الحزب الشيوعي وقالت : (ان سكان مدينة الجزائر المسلمين لايريدون أن يسمعوكم تتكلمون باسمهم لأنهم سحبوا ثقتهم منكم)[1] .

وقد ظل حزب الشعب يتغنى بانتصاره على الشيوعيين وقد قالت جريدة الأمة سخرية بالشيوعيين : (ان السلسلة المتواصلة لهزائمه اللامعة تعطي للحزب الشيوعي الجزائري الفتي والكبير الحق الأكيد في استعمال شعار الهزيمة في كل مكان) بدلا من شعار (السوفيات في كل مكان) .

لقد قرر الشعب الجزائري هكذا لكي يبين بأنه لايجهل الألاعيب الخبيثة لأمثال بوقرط وخيانة الحزب الشيوعي الذي تنكر لبرنامجه الاستعماري[2] .

أما جمعية العلماء فانها اذا كانت بحكم قانونها الأساسي جمعية دينية تهذيبية ، فانها كانت الوحيدة التي لها نظريات سياسية بجانب اتحادية المنتخبين المسلمين خلال فترة هدوء الحركة الوطنية ، بيد أن سنة 1941 قد شاهدت الجمعية وحدها محتفظة بمكانتها الأدبية في الأوساط الأهلية ، ذلك أن اتحادية المنتخبين المسلمين قد أفل نجمها كمنظمة سياسية ، وزالت نظريا وعمليا من الوجود ، اللهم الا بعض النشاطات التي كان يمارسها زعماؤها على مستوى الأفراد .

أما الطرقيون فقد ظلوا محتفظين بنفوذهم على المستوى المحلي ، ولكنهم لم يكونوا يمثلون أية قوة اجتماعية ، بينما كان حزب الشعب الجزائري ، والمؤتمر الاسلامي والحزب الشيوعي الجزائري - بالرغم من أهميتهم في الماضي - فإنهم كانوا بالمقارنة مع

(1) Le Parlement Algerien. N° I du 18 Mai 1939.

(2) Ibid.

جمعية العلماء واتحادية المنتخبين ، قد فقدوا أهميتهم ، لا بل لم تعد لهم أية أهمية في ميدان السياسة سنة 1941 على الصعيد الوطني[1] .

على أن نشاط الجمعية كان يختلط في كثير من الأحيان مع نشاط الأحزاب السياسية الأخرى سواء خلال الثلاثينات أو الأربعينات[2] .

كما كان زعماؤها يتأثرون ويؤثرون على قادة الحركة الوطنية الأخرى وأن بعض المصادر تذكر أن الإسلام قد تغلغل في قلوب الشيوعيين رغم جهلهم بمحتواه ، وأنه في سنة 1943 شوهد رئيسهم (عمار أوزقان) يؤدي فريضة الصوم[3] وهذا في رأي الباحث يعود الى الجهود التي بذلها العلماء في إحياء الاسلام ومبادئه السامية ، ذلك ان إبن باديس وهو الشخصية الدينية المحترمة كان يجلس حتى بجانب الرفيق استورج زعيم الحزب الشيوعي في التجمعات الشعبية[4] .

المقارنة الايديولوجية والسياسية بين جمعية العلماء والحزب الشيوعي

اذا عقدنا مقارنة بين جمعية العلماء والحزب الشيوعي الجزائري ، نلاحظ أنهما كانا على طرفي نقيض تجاه الوطنية الجزائرية ، بالرغم مما وثقه الشيوعيون من صلات بالعلماء في إطار الدعوة الى المؤتمر الاسلامي الجزائري سنة 1936 - 1937 . ذلك أنه في الوقت الذي كان الشيوعيون يطالبون باستقلال الجزائر عن فرنسا . - كما سلف الذكر - بدأ العلماء حركتهم الوطنية باصلاح المجتمع الجزائري ، واحياء اللغة العربية ، وتطهير الاسلام من الشوائب التي علقت به خلال الحقب الأخيرة . كمرحلة أولى للنهوض بالشعب الجزائري ، ولعل ما يؤكد هذا الرأي قول إبن باديس[5] في افتتاحية العدد الأول من جريدة البصائر في أواخر شهر ديسمبر 1935 - وهو الرئيس والمؤسس لجمعية العلماء المسلمين - : (أفظننتم أن الأمة الجزائرية ذات التاريخ العظيم تقضي قرنا كاملا في حجر فرنسا المتدنة ثم لاتنهض بجانب فرنسا تحت كفها ، يدها في يدها . فتاة لها من الجمال والحيوية ما لكل فتاة أنجبتها أو ربتها مثل تلك

(1) note du C.I.E du préfet de constantine du 4 décembre 1941.

(2) ينظر أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص 71 .

(3) ينظر أبو القاسم سعد الله ، المرجع السابق ، الجزء الثالث ، ص 71 .

(4) note: centred d'informations N°1016 au préfet de Constantine Archives Historiques Wilaya de Constantine.

(5) جريدة البصائر ، عدد 1 الجزائر ، 27 ديسمبر 1935 .

الأم ، أخطأتم يا هؤلاء التقدير وأسأتم الظن بالمربي والمربى ، وبعدتم عن العلم بسنن الكون في نهضات الأمم بعضها ببعض عند الاختلاط والتجاور أو الترابط بشيء من روابط الاجتماع) . ثم أضاف إبن باديس قائلا : (... نبشركم أنه سيكون للجزائر الفرنسية جمعيات وصحف وسيكون لها وسيكون حتى يقف المسلم مع أخيه من بقية أبناء فرنسا على قدم المساواة الحقة التي يكون من أول ثمراتها الاتحاد الصحيح المنشود للجميع..) .

ان هذا التصريح في رأي الباحث من رجل كالشيخ عبد الحميد بن باديس ، وهو القطب الرئيسي في حركة الجمعية يؤكد في ظاهر النص على الاتجاه الاصلاحي المحض للعلماء في المرحلة الأولى .

لأن تتبع النصوص وليس الأحداث يضطر الباحث الى تقسيم نشاط العلماء واتجاهاتهم الى قسمين أساسيين الأول : يبدأ منذ تأسيس الجمعية وينتهي بسنة 1936 ، والقسم الثاني منذ ئذ حتى نهاية الجمعية .

وبناء على النص السابق يمكن اعتبار اتجاه الجمعية في المرحلة الأولى اصلاحيا خالصا ، في الظاهر على الأقل وفي اعتقادنا أن هذا أمر طبيعي اذ لا يمكن البدء بالدعوة الى الاستقلال، والشعب جاهل، والأمراض الاجتماعية متفشية في حنايا المجتمع .

أما المرحلة الثانية : فيمكن النظر اليها على أنها العهد الجديد في دعوة العلماء الصريحة الى الاستقلال الوطني ، حيث أن النصوص التي صدرت عن العلماء ابتداء من ربيع 1936 كانت تبشر في مجملها بالاستقلال التام عن فرنسا ، وفي اعتقادنا أن الباحث لا ينظر لبداية أية حركة على أنها المعيار الحقيقي لاتجاهها بقدر ماينظر الى ماتحققه في نهاية المطاف ، كما أن تصريحات العلماء لم تكن تعبر في غالب الأحيان ، عما تقوم به الجمعية في الميدان العملي . والنص السابق الذي ذكرناه من بين التصريحات التي يقصد بها ايهام فرنسا بأن العلماء من أنصار سياستها الاندماجية ، وذلك من أجل حماية الجمعية ومؤسساتها .

أما بالنسبة للشيوعيين فان النصوص المتوفرة لدينا تؤكد تطورهم السلبي ، فقبل تكوين الحزب الشيوعي الجزائري المستقل سنة 1936 ، كان الحزب الفرنسي الشيوعي يطالب باستقلال الجزائر بناء على رأي جوليان[1] ، ويعتبر جمعية العلماء حسب

(1) جوليان / افريقيا الشمالية تسير ، مراجع سابق ، ص 155 .

بعض الآراء (منظمة بورجوازية) تحارب الشيوعية ، وتعمل على معاكسة العمل الثوري (منظمة الجماهير) التي تضم جميع المطالبين باستقلال الجزائر)[1] . وعلى اثر زيارة رينيه وزير الداخلية الفرنسية للجزائر سنة 1935 نشرت جريدة البرقية الاستعمارية منشورا للحزب الشيوعي بتوقيع بارتيل سنة 1935 يوضح (بأن الجزائر ليست فرنسا)[2] . ولكن الأعضاء الأوربيين في الفروع الجزائرية كانوا أعداء للوطنية الجزائرية ، ولفكرة الاستقلال ، وهذان الموقفان المتناقضان يمثلان علامة واضحة على غموض التيار الشيوعي اتجاه الوطنية الجزائرية .

وعندما تحولت فروع الجزائر الى حزب مستقل عن الحزب الشيوعي الفرنسي ودخله كثير من المناضلين الجزائريين ، تخلى هذا الحزب عن مطلب الاستقلال ، وأضاف الى الوطنية الجزائرية الوطنية الفرنسية ، نتيجة لتطور الحزب الشيوعي الفرنسي ، الذي أصبح يضع المسائل القومية الفرنسية في المرتبة الأولى ، بالنسبة للمستعمرات ، وقد طلب إبن على بوقرط وهو مسؤول جزائري في الحزب الشيوعي : (بالحق في تقرير جميع القيم التاريخية والروحية والفنية والانسانية الفرنسية)[3] .

أما الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي موريس توريز فقد أراد أن يزيف حقيقة تاريخية ناصعة في مسار الشعب الجزائري عندما شرح نظرية (البوتقة الجزائرية) يوم 11 شباط (فيفري) 1939 أثناء مهرجان أقيم في الجزائر ، فقال : (نحن الشيوعيين ، لانقر بوجود العروق العنصرية ، نحن لانريد أن نعترف بغير الشعوب ... فأين يكون في بلادنا (العرق المختار) الذي يستطيع أن يطمح الى السيطرة بمفرده ، العرق الذي يستطيع أن يقول : هذه الأرض كانت أرض أسلافي وأجدادي وحدهم ، وعليه أن تكون أرضي أنا وحدي ؟ ....

أليس ثمة بينكم هنا الأبناء المنحدرون من تلك العشائر النوميدية القديمة ... أليس بينكم أحفاد أولئك البربر الذين أعطوا الكنيسة الكاثوليكية القديس أوغسطين ، (Saint augustin) مطران هيبون ، أليس بينكم أولئك القرطاجيون والرومان ، وكذلك فبينكم الآن أبناء أولئك العرب ، الذين جاؤوا الى هذه البلاد

(1) عمار أوزقان ، المصدر السابق ، ص 23 ، 24 .

(2) نفس المصدر ، ص 103 .

(3) Charles (A) Julien L'Afrique du Nord en Marche, Op Cit, P. 103.

وراء راية النبي ، كذلك أبناء الأتراك الذين اعتنقوا الاسلام والذين ظهروا بعد ثم بشابة فاتحين جدد ، ان جميع هؤلاء انصهروا على أرضكم الجزائرية ، وانضم اليهم اليونانيون والمالطيون ، والأسبانيون ، والفرنسيون ... ان ثمة أمة جزائرية آخذة في التكون وهي أيضا في انصهار أجناس مختلفة)[1] .

ان هذا التعريف للأمة الجزائرية من طرف موريس توريز يعتبره ليون فيكس وهو شيوعي اسهاما حاسما من الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي في قضية تحرر الشعب الجزائري حيث يقول : (والواقع أننا وجدنا القضية الجزائرية في هذا التعريف توضع على القاعدة الصحيحة الوحيدة ، وهي قاعدة النظرية الماركسية اللينينية في الأمة)[2] . ولكن ليون فيكس الذي يؤيد موريس توريز في وجهة نظره المتعلقة بالأمة الجزائرية يتناقض مع نفسه ، ذلك أنه عندما أراد أن يدافع عن رأي توريز جاء بما يناقضه فقال : (لقد وضع ستالين للأمة التعريف التالي : (الأمة هي جماعة انسانية ثابتة ، تكونت تاريخيا ، ونشأت على أساس وحدة اللغة والأرض والحياة الاقتصادية ، والتكوين النفسي الذي يعبر عن ذاته في وحدة الثقافة . . . وفقدان عنصر واحد من هذه العناصر يكفي لكي تكف الأمة عن أن تكون أمة)[3] .

ان هذا التعريف يتناقض تماما مع رأي توريز في الأمة ، كما يتعارض أيضا مع رأي ليون فيكس ، ذلك أن ماأراده توريز للأمة الجزائرية لا يحتوي على أي عنصر من العناصر التي ذكرها ستالين في تعريفه . فأين عنصر التاريخ ، وأين عنصر اللغة ، وأين عنصر التكوين النفسي ياترى ؟ هل الأمة الجزائرية لم تتكون الا منذ بداية سنة 1939 ، بعد الاحتلال الفرنسي لها بقرن وتسع سنوات ؟ بل انها كانت موجودة منذ أربعة عشر قرنا بخصائصها ومقوماتها الحالية ، وهي جزء لايتجزأ من الأمة العربية ، الوطن العربي[4] . بل فإن الجزائر كانت لها سيادتها الوطنية حتى سنة 1830 ، ولكن ليون فيكس يريد أن ينفي هذه الحقيقة الثابتة ، كما نفاها موريس توريز ، اذ يقول : (لقد كان السكان الجزائريون المنقسمون الى قبائل يعيشون من الزراعة وتربية المواشي ، وكانت المبادلات تجري من ناحية رئيسية على

(1) ينظر ليون فيكس ، الجزائر صنف الاستعمار ، منشورات مكتبة دار المعارف بيروت 1958 ، ص 13 .
(2) ليون فيكس / المصدر السابق ، ص 13 .
(3) نفس المصدر، ص 27 ؛ اقتباسا عن ستالين - الماركسية والمسألة الوطنية - المؤلفات - المجلد الثاني، ص 26.
(4) جبهة التحرير الوطني ؛ الميثاق الوطني 1976 ، ص 23 .

الأسواق الريفية والاقليمية ، ولم تكن توجد ثمة علاقات اقتصادية ، وبشرية حقيقية بين مختلف أجزاء البلاد . لقد كانت اللغة وأسلوب المعيشة والتقاليد تختلف باختلاف الجماعة العنصرية أو الاقليم .... ومن ثمة يتضح بأن الجزائر كانت عام 1830 بعيدة عن أن تملك صفة الأمة)[1] .

ان ما يريده ليون فيكس وأمثاله بهذا الأسلوب الملتوي هو انكار كيان الجزائر كشعب وكدولة قبل المد الاستعماري .

اذن ماهو الفرق بين ماكتبه ليون فيكس وما يقوله غلاة المستعمرين ؟ في نظر الحزب الشيوعي الفرنسي - وهو طبعا الوجه الأساسي للحزب الشيوعي الجزائري : (لا أمة عربية ، ولا شعب جزائري جزء من الأمة العربية) ، وانما توجد أمة جزائرية آخذة في النشوء والتكون ، وهذه الأمة في رأي هؤلاء الشيوعيين تتكون من مجموعتين رئيسيتين : (المسلمون :(عرب وبربر) ، والسكان الأوربيون الذين تدفقوا على الجزائر منذ سنة 1930 على اختلاف أعراقهم وجنسياتهم والوانهم[2] . (ان الأمم في نظر هؤلاء الماركسيين لا تتألف من طبقات اجتماعية فقط ، بل تتألف أيضا من جماعات من نوع آخر ، جماعات لها لغات ... مختلفة ...) وتكوين نفسي متباين ، وبذلك أهملوا المقومات الأساسية في تكوين الأمة وهي المقومات التي اعترف بها زعماء الشيوعيين أنفسهم ، ذلك أن موريس توريز لم يحدد اللغة التي تكون لسان هذه الأمة التي يقول عنها أنها في مرحلة النشوء ، وان كان لم يخف نيته في أن اللغة المنتظرة لهذه الأمة هي اللغة الفرنسية ، لأنه كثيرا ما كان يشير الى عبارة (بمساعدة الجمهورية الفرنسية)[3] ، وهو بذلك يريد أن يفرض على شعب عريق - له مميزاته ولغته الخاصة - لغة الدولة المستعمرة ، ومن هنا نلاحظ أن توريز لا يختلف عن غلاة المعمرين الا بنقطة واحدة ، وهي أن هؤلاء الآخرين يريدون ابقاء الجزائريين مستعبدين ، في حين يريد هو تحريرهم بادماجهم كليا في البوتقة الفرنسية الجديدة التي يرى صورتها تتكون تدريجيا في الجزائر .

والحق أن توريز أثر بفكرته هذه على الشيوعيين العرب في المشرق والمغرب على

(1) ليون فيكس ، المصدر السابق ، ص 27 - 28 .
(2) ليون فيكس ، المصدر السابق ، ص 32 .
(3) عثمان سعدي ، عروبة الجزائر عبر التاريخ ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر ، 1982 ، ص 70 .

ينسخون رأي جريدة لومانيتي المعادية دائما لرجال الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا وفي الديمقراطيات الشعبية)[1] . معنى ذلك أن الحزب الشيوعي الجزائري ليس له رأي مستقل عن الحزب الشيوعي الفرنسي لذلك نراه يتقلب وفقا لمواقف الحزب الشيوعي الفرنسي من قضايا الاستعمار ومطالب شعوب المستعمرات .

هذا عن موقف الشيوعيين من قضية الاستقلال الوطني ومسألة مفهوم الأمة الجزائرية أما عن مواقف جمعية العلماء من هاتين المسألتين فيمكن تتبعها فيما يلي : عندما زار موريس توريز الجزائر في مطلع شهر شباط (فيفري) سنة 1939 ، وأعلن فكرة البوتقة التي تنصهر فيها كل الشعوب المتواجدة في الجزائر بدعوى أنه لا أحد يستطيع أن يدعي أن الجزائر هي أرض أجداده (كما سلف الذكر) لم تكن هذه الفكرة مقبولة البتة لدى علماء الجمعية الذين كانوا يجتهدون منذ خمسة عشر عاما لتدعيم الشخصية العربية الاسلامية للجزائر ، رغم أنهم لم يعطوها تعبيرا سياسيا واضحا في تلك الفترة ، الا أن رد العلماء الصريح على فكرة توريز لم يكن بارزا لا في صحفهم ولا في خطبهم ، ولعل ذلك يرجع الى أحد الأمرين وهما : اما أنهم لم يفهموا معناها ، أم أنهم احتقروها ورأوا بأنها لاتستحق المناقشة[2] .

وقد كان منهج جمعية العلماء منذ نشأتها يتمثل في هذه الصيغة الأخاذة : (الاسلام ديننا ، والعربية لغتنا ، والجزائر وطننا) ...... كيف كان العلماء إذن يطبقون منهجهم هذا ؟ كان عمل العلماء بادىء ذي بدء عملا أخلاقيا خالصا ، ولا سيما في كبريات المدن ، يتمثل في محاربة الكحول وخرافة الدروشة ، وغيرهما من الأمراض الاجتماعية ، ومطالبة الحكومة الفرنسية بفصل الدين عن الدولة ، واعادة أملاك الأوقاف الى وضعها السابق[3] ، الذي كانت عليه قبل سنة 1830 ، والعمل على انشاء المدارس والمساجد ، والصحف ونشر التعليم العربي بين الناشئة من أبناء المسلمين الجزائريين ، ولم يخف عن قادة الجمعية أثناء عملهم افهام الجزائريين الجديرين بالثقة ، أن الهدف من حركة العلماء (هو تحرير الوطن تحريرا قوميا) . ولكن كان ذلك يتطلب قبل كل شيء النجاح الكامل في خلق (المناخ الايديولوجي وتهيئة العقول

---

(1) عمار أوزفان ، المصدر السابق ، ص 39 .

(2) Mahfoud Caddache: La vie politique à Alger, de 1919 à 1939. Ed S.N.E.D (Alger: 1970) P. 364.

(3) عمار أوزفان ، المصدر السابق ، ص 23 .

والنفوس) هذا هو المعنى الموضوعي الذي يجب أن يعطى لكلمة الشعار الأول (الاسلام ديننا) أما المرحلة الثانية فهي معركة اللغة العربية (اللغة القومية) التي هي عنصر أساسي في أحياء الشخصية الوطنية ، ولذلك جندوا كل طاقاتهم لنشر التعليم العربي (وقد ارتفع عدد المدارس العربية بين سنوات 1943 - 1954 على وجه الخصوص من بضع عشرات الى مئة وخمسين مدرسة) وهذا هو التفسير الذي يمكن أن يعطى لمفهوم الشعار الثاني «العربية لغتنا» . أما المرحلة الثالثة فتتمثل في الكفاح من أجل الاستقلال[1] الوطني ، وتكوين دولة عربية ، اسلامية وقد اتضح هذا الموقف في مناسبات متعددة برز فيها قادة الجمعية ، بتفكير بعيد النظر الى المستقبل . فابن باديس الذي كان رئيسا للجمعية أعلن سنة 1936 - وهو مايزال عضوا ، في المؤتمر الاسلامي - أن الهدف من وجوده فيه هو ضمان الشخصية الجزائرية ، وأن المطالبة ببرنامج بلوم - فيوليت - (BLUM, VIOLLETTE) يجب ألا يتحول الى مشروع يهدر مقومات الشخصية الوطنية[2] . ولما رجع وفد المؤتمر من باريس كان الشيخ عبد الحميد بن باديس على العكس من زملائه ، فبينما ركز الأعضاء الأخرون على الجانب السياسي من زيارة الوفد وقدموا مساعيه كعمل بطولي للجماهير المتعطشة للحرية ، والتي كانت تنتظر بفارغ الصبر نتائج الوفد ، وقالوا ما معناه : (النتيجة آتية ولا ريب ، ولم يبق الا أن يقولوا انتهت المعركة)[3] ، لكن الشيخ إبن باديس قال : (للشعب شيئا أخر ولم يحاول التهوين من المسعى ، لكنه لم يعمل على تضليل الشعب ، بل دعاه الى الاستعداد لمعركة أشق وأشد ضراوة من المعارك السابقة ، وقال بالحرف الواحد : (أيها الشعب أنك بعملك العظيم الشريف برهنت على أنك شعب متمشق للحرية ، هائم بها ، تلك الحرية التي ما فارقت قلوبنا منذ كنا الحاملين للوائها ، وسنعرف في المستقبل كيف نعمل لها ، وكيف نحيا لأجلها . أننا مددنا الى الحكومة الفرنسية أيدينا ، وفتحنا قلوبنا ، فان مدت الينا يدها ، وملأت بالحب قلوبنا فهو المراد ، وان ضيعت فرنسا فرصتها هذه فاننا نقبض أيدينا ، ونغلق قلوبنا فلا نفتحها الى الأبد .

(1) عمار أوزقان ، المصدر السابق ، ص 28 .
(2) محمد الميلي ، إبن باديس وعروبة الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1973 ، ص 28 .
(3) محمد الميلي ، المرجع السابق ، ص 28 .

أيها الشعب لقد عملت ، وأنت في أول عملك ، فاعمل ودم على العمل وحافظ على النظام ، وأعلم أن عملك هذا على جلاله ماهو الا خطوة ووثبة وراءها خطوات ووثبات وبعدها إما الحياة وإما المات)[1] .

ذلك ماقاله إبن باديس في صيف 1936 حقا . ولنا أن نتساءل هل كان إبن باديس سيكتفي بما كانت الجمعية قد شاركت من أجله في المؤتمر الاسلامي ، وهو اصلاح التعليم ، وادخال العربية في المدارس الرسمية ... الخ . أم كان يعتبر ذلك مرحلة أولية لتحقيق الهدف البعيد المدى الذي كانت الجمعية تسعى الى تحقيقه في المستقبل ؟ .

إن إبن باديس في الواقع - وهو رأس الجمعية المفكر - لم يكن يخفي غايته المثلى ، التي ضحى هو وزملاؤه العلماء من أجل الوصول اليها ، حسب ماتقتضيه الظروف والامكانيات فقوله : (أيها الشعب لقد عملت ، وأنت في أول عملك ، فاعمل ودم على العمل ... وأعلم أن عملك هذا ... ماهو الاخطوة ووثبة وراءها خطوات ووثبات وبعدها إما الحياة ، وإما المات) ، كان في حقيقة الأمر تعبيرا معناه : (لنعتمد على أنفسنا ولنتكل على الله) ، لأن المرحلة الماضية ، كانت مرحلة أمل في تحقيق مطالب الشعب بطريق سامي بواسطة (تفهم) فرنسا (واعطائها جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات) .

أما المرحلة الجديدة ، فهي مرحلة الكفاح والاعتماد على النفس ، وغلق القلوب على فرنسا الى الأبد ، والاستعداد لمعركة خطيرة بعدها إما الحياة ، وإما المات ، والتعبير هنا ليس مجرد نسق لفظي اقتضاه مقام الحماس ، ولكنه تجسيم لحقيقة عميقة ، وتعبير عن فهم دقيق لظروف المعركة ، وأبعادها .

وقد عبر إبن باديس عن هذه الحقيقة في مقال أخر كتبه عام 1937 ، أشار فيه الى أن اليأس من فرنسا يهدم خط السير في طريق الثورة طريق المغامرة والتضحية[2] .

(1) ينظر الشهاب ، ثلاثة أيام في شهر واحد ، المجلد الثاني عشر ، الجزء السادس قسنطينة ، أوت / سبتمبر 1936 ، ص 268 ، 274 .
(2) محمد الميلي ، المرجع السابق ، ص 27 .

أما في فرنسا ، فالحريات الديمقراطية ناقصة لأنها ليست مصحوبة بما يسهل الانتفاع بها ، لأن البورجوازية لازالت قوية نوعا ما ، وهي تحاول حرمان الشعب من تلك الحريات . كما أن الدستور الفرنسي لا يتمتع به الا أبناء فرنسا وحدهم أما الجزائريون والمغاربة[1] ، وغيرهم ممن يعيشون تحت استبداد واضطهاد المعمرين ، فانهم محرومون من كل حرية ديمقراطية ، وقد علقت الجريدة آما لا عريضة على المؤتمر الاسلامي ، والجبهة الشعبية لخلاص الجزائريين من استغلال واضطهاد المعمرين الفاشست ، وتطبيق الحريات الديمقراطية في الجزائر ، اذن فالدستور السوفياتي ، كما تقول الصحيفة ، هو دستور انساني يضمن الحرية للضعفاء بغض النظر عن قومية الانسان ، أو دينه ، أو غير ذلك ، أما الدستور الفرنسي فهو دستور ديمقراطي لاتريد الفاشية أن يتمتع به الجزائريون ، ولكن بقوة الجبهة الشعبية والمؤتمر الاسلامي الجزائري – في رأي الجريدة – سيصير عكس ما أراد المعمرون[2] .

وقد كتب إبن علي بوقرط[3] ، في جريدة الكفاح الاجتماعي ، خلال شهر كانون الثاني (جانفي) 1937 ، مقالا حول المؤتمر الإسلامي ، أكد فيه غير مامرة اجماع الشعب الجزائري على مطالب المؤتمر الاسلامي ، ومشروع حكومة الجبهة الشعبية المتعلق بالاصلاحات الخاصة بالجزائر صنّف فيه موقف المنظمات الجزائرية من الاصلاحات فقال : (ان الحزب الشيوعي الجزائري ، وجمعية العلماء المسلمين الجزائريين ، يعملان بكل قوة من أجل تحقيق تلك المطالب ، التي تهدف الى الحرية والديمقراطية للشعب الجزائري في حين أن نجم شمال افريقيا وبعض النواب الجزائريين والمعمرين (الفاشست) يعارضون مشروع المؤتمر الاسلامي ، بينما نرى أن الشعب الجزائري قاطبة ملتف حوله[4] .

وهكذا فان الحزب الشيوعي الجزائري كان يريد ليس فقط تطبيق مشروع فيوليت ، ولكنه كان يريد أن تحل المسألة الجزائرية كما حل الاتحاد السوفياتي مسألة القوميات ، التي كانت تحت نير القيصرية الروسية ، ذلك باقامة المساواة بين الجزائريين والفرنسيين في ظل مبادىء الديمقراطية الفرنسية في نظره .

---

(1) La lutte sociale: N° 78, 2 Janvier 1936.

(2) Ibid.

(3) جريدة الكفاح الاجتماعي ، (الشعب الجزائري متفق على مشروع بلوم فيوليت) في 80 / 76 جانفي 1937 .

(4) جان بارتيل (الشعب الفرنسي ومشروع فيوليت) جريدة الكفاح الاجتماعي) في 80 / 75 جانفي 1937 .

ان الشيوعيين عندما يكتبون يقولون عن حزبهم بأنه حزب كل المسل
الجزائريين الذين يحبون وطنهم ، ويريدون له الخير العميم ، كما هو حزب كل الجماهي
الفرنسية الجزائرية العامة التي تريد مساعدة شعبنا على السير في طريق الحري
والتقدم .

ان الحزب الشيوعي الجزائري ... يؤيد مطالب المؤتمر الاسلامي الجزائري ،
ويؤيد مشروع فيوليت الاصلاحي الذي تريد حكومة الجمهورية تطبيقه في هذ
البلاد .

والحزب الشيوعي الجزائري اذ يؤيد مشروع فيوليت الاصلاحي ، فانه يعتبر
أول خطوة في سبيل تحرر الشعب الجزائري المسلم ، والتقارب (الأخوي) بين الشعب
الفرنسي والشعب الجزائري ، وهو أول خطوة أيضا في سبيل المساواة التي دعت اليها
الثورة الفرنسية ، الكبرى . كما أن هذا المشروع (يعطي الأمة الاسلامية بالتدريج
حق التمتع بالحقوق السياسية والمدنية ، التي يتمتع بها الفرنسيون ، ويترك لهذه الأمة
حرية التصرف بأحوالها الشخصية المبنية على الشرع الاسلامي)(1) .

كما أن الحزب الشيوعي الجزائري ، في دفاعه عن مشروع فيوليت ، يؤكد على
بقاء الشعب الجزائري على أحواله الشخصية الاسلامية ، فهو في معرض دفاعه عن
حقوق الشعب الجزائري لم يفته دائما أن يذكر كلمة الاسلام والمسلمين ، كما أن
الشيوعيين الجزائريين عندما يكتبون عن مشروع فيوليت يذكرون بأن موقف جمعية
العلماء مؤيد لهذا المشروع ، في حين أن إبن باديس صرح في مجلة الشهاب(2) ، العدد
الخاص بالمؤتمر بقوله : (وجاء المؤتمر وطلبت مني لجنة قسنطينة أن أضع لها ما أراه
من المطالب ... ومن تلك المطالب التي وضعتها : (المساواة في الحقوق السياسية مع
المحافظة التامة على جميع الذاتية) وهذا هو الذي أقره المؤتمر بالاجماع . . . «وسقطت
به جميع البروجيات ...»(3) ، ويقصد بذلك جميع المشاريع .

وبالرغم من أن الشيوعيين الجزائريين كانوا يعتبرون العلماء رجعيين متعصبين
يعملون لفائدة ملوك العرب(4) ، فانهم لم يهاجموهم ، بل أنهم كانوا يعتبرون الجمعية

(1) جريدة الكفاح الاجتماعي ، الحزب الشيوعي الجزائري (الى شعبنا الجزائري الكريم) عدد 82 / 6 جانفي 1937 .
(2) مجلة الشهاب ، العدد الخاص بالمؤتمر ، قسنطينة ، جويلية 1936 .
(3) مجلة الشهاب ، العدد الخاص بالمؤتمر ، قسنطينة ، جويلية 1936 .
(4) أحمد عبد المولى مقدمات وأبحاث في الوطن العربي الدار العربية للكتاب طرابلس ح 82 ص 79 .

حليفة للحزب الشيوعي الجزائري ، ولكن هذا لا ينفي وجود خلاف بينهما في بعض
المسائل ، فبينما نجد على سبيل المثال الجمعية تكن الاحترام لشعب ميزاب(1) وعلمائه
نجد الشيوعيين الجزائريين يهاجمونهم في صحيفتهم الكفاح الاجتماعي هجوما عنيفا
ويصفونهم بعبارات شنيعة مثل العملاء أصحاب الطرابيش ، أصحاب العمائم(2) .
الخ ... وهذه التعابير كانت تثير العلماء أنفسهم .

ان الشيوعيين في توعيتهم وتوجيههم للشعب الجزائري يحاولون باستمرار ضرب
الأمثلة بالاتحاد السوفياتي الذي قضى على القيصرية والاقطاع ، والبورجوازية في
البلاد ، وذلك بفضل بعض عظمائه أمثال لينين وستالين وغيرهما من الذين قادوا
الجماهير الشعبية قبل الثورة ، وخططوا للبلاد بعد سنة 1917 ، ونادوا بالوحدة بين
الفلاحين والعمال(3) . في حين أن العلماء كانوا يرشدون الشعب للاقتداء بالسلف
الصالح من عظماء المسلمين على امتداد التاريخ الاسلامي .

ولعل أهم السمات البارزة للحزب الشيوعي الجزائري هو الهجوم الشديد في صحفه
على الضباط العسكريين الفرنسيين ، والحكام المدنيين ، وكبار الاقطاعيين من
فرنسيين وجزائريين ، وعملاء الادارة أمثال القياد ، والشيوخ ، في كل أنحاء القطر
الجزائري ، ولا سيما بالمناطق العسكرية في الجنوب كشيخ العرب إبن قانة وخليفته
فرحات اللذين كانا يستغلان ويعذبان الناس بلا أدنى ذرة من الحق(4) .

وكما تؤكد جمعية العلماء باستمرار للشعب على أن الجمعية هي جمعية الأمة
الجزائرية ، يؤكد الشيوعيون كذلك على أن حزبهم هو : (حزب الأمة الجزائرية ،
لأن برنامجه والمطالب التي ضحى لأجلها بالنفس والنفيس تلائم رغائب الأمة
جمعاء)(5) .

إن الحزب الشيوعي الجزائري يريد أن يكون الجزائريون - الأغنياء والفقراء
والموظفون وغير الموظفين والتجار والفلاحون ، وأصحاب الصنائع ، والأقوياء ،
والضعفاء - كلهم على قدم المساواة أمام القانون .

(1) القصد من شعب ميزاب هم سكان غرداية واحوازها الدين قد فجروا في تلك الواحات حركة اصلاحية قوامها الصحف والمدارس والجمعيات لمحاربة الجمود وهم فيئتان تختلفان احداهما عن الآخرى وهما الاباضيون والمالكيون .
(2) جريدة الكفاح الاجتماعي 13 فيفري عدد 84 / 1937 .
(3) ابن يلس مصطفى (تروتسكي تجاه المسألة الفلاحية) جريدة الكفاح الاجتماعي عدد 88 13 مارس 1937 .
(4) جريدة الكفاح الاجتماعي (المنطقة العسكرية) عدد 90 ، 28 مارس 1937 .
(5) جريدة الكفاح الاجتماعي (الحزب الشيوعي حزب الأمة الجزائرية) ع 100 ، 5 جوان 1937 .

إن الحزب الشيوعي الجزائري ينشد لسكان الجزائر جميعا أن يعيشوا متساوين لا فرق بين فقير وغني ، ولا بين مسلم وغير مسلم ، يريد لهم المساواة في الحقوق والعدالة في الحكم ، والأخوة في المعاملة ، يريد أن لا يكون في القطر الجزائري الغالب الفرنسي ، والمغلوب المسلم ، بل يريد أن يكون الناس أحرارا يتمتعون بكل الحقوق ، ويقومون بكل الواجبات على حد سواء[1] .

وبناء على هذا البرنامج فان الشيوعيين يستدلون على عدالة مطالبهم بوجود مسلمين جزائريين ، وأوربيين مؤيدين لهم على رأس حزبهم ، ويعتبرون هذا الحزب هو أول من جاهر بالحق في هذه البلاد ، وقاوم الظلم والجور بأنواعه ، وناضل دفاعا عن الأمة الجزائرية المسلمة ، فهو الذي حرك الشعور الجزائري وكون الحركة الوطنية ، بل بعثها من مرقدها ، وكوّن رجالا عاملين ذوي ثقافة سياسية عارفين بدسائس الإستعمار ، ومطلعين على خباياه ، ومتضلعين بأساليب مقاومته[2] .

واذا كان الشيوعيون يصفون حزبهم بهذه الصفات الرفيعة ، فان هذا الحزب لم ينفصل في الواقع عن الحزب الشيوعي الفرنسي من الناحية الرسمية الا في سنة 1936 ، حيث كان فرعا من الحزب الشيوعي الفرنسي منذ 1921 . أما موقف الشيوعيين الجزائريين من الاسلام فتقول صحيفة (الكفاح الاجتماعي) : (... وليس الحزب الشيوعي عدواً للاسلام ، بل هو أكبر ناصر له ، هو المعاضد لجمعية العلماء المسلمين وقد احتج بكل قواه ضد غلق المساجد في وجوه العلماء الأحرار ، وهو الذي سعى في تكوين المؤتمر الاسلامي العظيم ، وهو الذي يسعى ... لتنال الجزائر المسلمة حقوقها) . (وبرنامج الحزب الشيوعي بهذه البلاد برنامج يتضمن مطالب الأمة الجزائرية السياسية والاقتصادية والاجتاعية ، وهذه المطالب التي يعمل على تحقيقها لاتخالف المطالب التي يتمناها كل وطني جزائري لبلاده)[3] .

وبالنسبة لفكرة المساواة المادية بين الناس فان الحزب الشيوعي الجزائري قد وضحها في برنامجه على النحو التالي :

ان الحزب الشيوعي لم يقصد ، بوجود مساواة الناس في درجة المال ، اعطاء مال

(1) نفس المصدر .
(2) ينظر نفس المصدر .
(3) جريدة الكفاح (الحزب الشيوعي حزب الأمة الجزائرية) عدد 100 ، 5 جوان 1937 .

الأغنياء للفقراء ، بل قصد بذلك ايفاء الأغنياء للفقراء حقهم المادي بالنسبة لخدمتهم ، وللمشاق التي يتحملونها في سبيل جمع تلك الأموال الطائلة التي يجمعونها لمستخدميهم أعني الأغنياء ... اذ ليس من العدالة والانسانية ان يعيش وينال من الثروة مال قارون القسم الصغير من (الأمة) على حساب القسم الكبير ، ويعيش القسم الثاني في أنكد عيش ، وليس من الصواب أن يشتغل العامل اثني عشر ساعة في اليوم مقابل أربعة فرنكات ، في حين أن مستجيره الغني يربح في ذلك اليوم ، بفضل جهد العامل ، أكثر من أربعة آلاف فرنك ، ولو أن الغني (رب العمل) يجازي العامل بقدر ما بذله من جهد ، حسب الأرباح اليومية ، لما وُجد فقير ولا متسول ، ولما عاش قسم من الأمة على حساب القسم الآخر منها ، ولما وُجدت البطالة والشقاء والمجاعة وغير ذلك من الآفات الاجتماعية والاقتصادية[1] . وهذه هي فكرة الحزب الشيوعي ، وهي الفكرة التي تتلخص في المساواة بين المسلمين والأوروبيين في الجزائر أمام القانون ، المساواة المادية بين جميع الناس .

وفي شهر أيلول (سبتمبر) 1937 وجه فرع الحزب الشيوعي الجزائري بقسنطينة نداء الى الشعب الجزائري ، دعاه فيه الى الوحدة والتضامن والانضواء تحت لواء المؤتمر الاسلامي قائلا : (إن الحزب الشيوعي الجزائري تجده في أول صف المجاهدين في سبيل الجزائر حرة سعيدة متآخية مع فرنسا)[2] . وأنك أيها الشعب بسيرك وراء قيادتك ونوابك المخلصين وأبنائك المختارين ستنال بذلك الحقوق التالية :

(1) تطبيق مشروع فيوليت وتوسيعه .
(2) المساواة في المجالس النيابية .
(3) حل القانون الأهلي والغائه ، وقوانين شوطان ورينيه .
(4) تنفيذ قوانين العمل .
(5) محاربة ارتفاع الأسعار والبطالة .
(6) تحويل الأموال المخصصة للانفاق على الحفلات ، التي ستقام بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال قسنطينة الى جمعيات الخير والاحسان ، ومقاطعة كل تظاهرة أو احتفال بتلك المناسبة .

(1) ينظر نفس المصدر .
(2) جريدة الكفاح الاجتماعي (الحزب الشيوعي الجزائري - فرع عمالة قسنطينة (الى الشعب الجزائري الى النواب) عدد 112 ، 4 سبتمبر 1937 .

وإذا كان العلماء يعلقون آمالا عريضة على الشباب المثقفين في تخليص البلاد من الكابوس الاستعماري ، والسير بها نحو الاستقلال الوطني ، فان الشيوعيين الجزائريين كانوا يعتقدون بأن الطبقات الاجتماعية غير المثقفة هي صاحبة الأولوية في التمتع بالحقوق السياسية لا النخبة وحدها ، فقد صرح عمار أوزقان زعيم الحزب الشيوعي الجزائري سنة 1943 قائلا : ان اعطاء الحقوق السياسية يجب أن لا تكون من نصيب النخبة فقط (أصحاب المهن الحرة والمنتخبين) ، ولكن يجب أن تعطى للفئات الاجتماعية الأخرى التي برهنت على نضجها السياسي مثل : الموظفين ، المستخدمين ، العمال ، عمال السكة الحديدية ، عمال البريد - عمال الحافلات ، وكل من ساهم بدور فعال في الاقتصاد الوطني والجهد الحزبي ، فهؤلاء ينبغي أن ينالوا المواطنة الفرنسية[1] .

ويضيف أوزقان قائلا : أنه في كثير من الأحيان نجد الحرفيين التقليديين والفلاحين الصغار يبرهنون على نضجهم السياسي المتطور ، أحسن من حاملي الشهادات الجامعية .

هذا وقد طلب ممثل الحزب الشيوعي الجزائري بمنح المواطنة الفرنسية للضباط وضباط الصف المسلمين ، وللجنود والجنود المتطوعين ، معلقا على ذلك بقوله : (وقد يقال إن هؤلاء الجنود أميون ، ولكنني أجيب عن ذلك بأن احتكاك هؤلاء الجنود بزملائهم الفرنسيين واستماعهم لمحاضرات ضباطهم تجعلهم يشعرون بالديمقراطية وحب فرنسا ، بشرط أن يكون ممثلوها ليسوا من الذين يحاربونهم)[2] . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان أوزقان قد صرح بأنه راض تماما باعطاء الحقوق السياسية لجميع المسلمين الجزائريين الذين يعرفون الطريق الذي يؤدي الى تحرير فرنسا أي اعطاء الحقوق السياسية لكل الناس . وقد ضرب أوزقان مثلا بالاتحاد السوفياتي سنة 1917 عندما أعطى الحقوق السياسية لجميع السكان بما في ذلك كبار (المجيك) المتأخرين ، وسكان الجبال ، وهذا قد أعطى نتيجة ايجابية في الاتحاد بين جميع الناس .

كما أكد بأن الأمي يستطيع أن يكون مواطنا صالحا في البلاد ، وقد برهن على

(1) Claude Collot - Jean Robert Henry: Le Mouvement Nationale Algérien, Texte 1912-1954. O.P.U. Algérie sans date P. 171.

(2) Claude Collot - Jean Robert Henry: Op Cit, P. 172.

ذلك بقوله : (الدليل على ما أقول هو وجود أعضاء في المكتب النقابي لا يحملون حتى الشهادة الابتدائية ، ولكنهم يستطيعون بفضل الوعي الاجتماعي استعمال ورقة الانتخاب)[1] .

ماذا يستخلص المرء من هذا التصريح الصادر عن الأمين العام للحزب الشيوعي الجزائري في سنة 1943 ؟ .

ان النتيجة الممكن استخلاصها من ذلك كله هي أنه في الوقت الذي تجاوزت فيه كل الحركات الوطنية مرحلة الاصلاحات السياسية ، نجد ممثل الحزب الشيوعي الجزائري يرفع عقيرته للمطالبة بالحقوق السياسية والاجتماعية للمسلمين الجزائريين في اطار السيادة الفرنسية ، وهذا مايدل على أن الحزب الشيوعي الجزائري قد تطور تطورا سلبيا يعكس المنظمات الجزائرية الأخرى التي أصبحت ترى بأن مطلب الاصلاحات قد تجاوزه الزمن ، وأن الاستقلال الوطني هو الهدف المنشود للجميع .

من خلال ماسبق يستخلص الباحث النتائج التالية :

أولا : ان الحزب الشيوعي الجزائري لم يكن يطالب بالاستقلال أو الانفصال عن فرنسا ، وانما كان يدعو الى المساواة والاتحاد بين الشعبين الجزائري والفرنسي ، في ظل الحرية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لجميع العناصر السكانية بغض النظر عن العرق أو الدين أو الجنس .

ثانيا : أن الحزب الشيوعي الجزائري لم يكن معاديا للاسلام والمسلمين حسب تصريحات قادته خلال الثلاثينات ، بل أنه كان يعتبر نفسه نصيرا قويا للمسلمين وحليفا أساسيا لجمعية العلماء ، بناء على ماكانت تنشره صحيفة الكفاح الاجتماعي ، رغم اختلافه مع أعضاء الجمعية في الايديولوجية السياسية ، والعقيدة الدينية .

ثالثا : ان الحزب الشيوعي الجزائري رغم أنه كان عنصرا أساسيا في عقد المؤتمر الاسلامي الذي حضرته معظم الفيئات الأهلية ، فانه كان من أشد خصوم جماعة النخبة والنواب الذين كان يصفهم بالفاشية ، وبأعداء الشعب الجزائري ، كما كان يهاجم بشدة الكولون المعمرين ، والقياد ، والشيوخ والأغوات ، والباشا غوات المتعاونين مع الادارة الاستعمارية ، كما كان يوجه هجومه أحيانا ضد حزب نجم شمال افريقيا .

(1) Loc Cit.

رابعا : ان دعاية الحزب الشيوعي الجزائري كانت قوية وذات أسلوب مؤثر على جماهير الفلاحين والعمال ، بهجومه على الاقطاعيين والبورجوازيين والحكام العسكريين والمدنيين في شمال البلاد وجنوبها ، ومع ذلك فان أتباع الحزب الشيوعي كانوا قليلين جدا بالمقارنة مع أتباع جمعية العلماء الذين وصلوا بعد الحرب العالمية الثانية الى أربعين في المائة من مجموع الشعب الجزائري[1] .

خامسا : كان الشيوعيون الجزائريون يعتبرون الاتحاد السوفياتي أحسن نموذج للحرية والديمقراطية ، والمساواة ، فهم لايترددون باستمرار في مدح الاتحاد السوفياتي وذم فرنسا وادانتها بخصوص حقوق الانسان عموما ، والطبقة الشغيلة على وجه الخصوص .

واذا كان الحزب الشيوعي الجزائري يعلن باستمرار تأييده لجمعية العلماء ، فان هذه الأخيرة كانت تعمل معه في بعض المناسبات بتحفظ حذر ، ففي سنة 1937 علقت مجلة الشهاب[2] لسان العلماء على الشيوعية في الجزائر قائلة :

(ان الشيوعية الفرنسية – وان فسحت لها الواجهة الشعبية ، فانها لم تستطع ولن تستطيع أن تتمكن من أوساط شعبنا ، أو تحوز أكثر مما حازته من النزر اليسير جدا من أطرافه ، مادام الشعب يعتقد أن مبادئها الأساسية لايتفق كثير منها مع الاسلام . هذا ماكان يبديه رجالها ، مما يستحقون عليه الشكر من العطف على ضعفنا ومقاومة الظالمين لنا ، لكن الشكر والاعتراف بالجميل شيء ، والتأثير بالمباديء والانقياد للحزب شيء آخر) .

وعندما كتب عمار أوزقان مقالا في جريدة الطليعة التونسية سنة 1937 يدافع فيه عن جمعية العلماء ردت عليه جريدة الشعب[3] الناطقة باسم حزب الشعب الجزائري بالتعليق التالي : أين كان هذا القلم حين صدرت القرارات لمنع العلماء من التدريس بالمساجد ؟ وأين اختفت هذه البراعة عندما كانت جريدة (حزب الكفاح الاجتماعي) تطعن في جمعية العلماء والأستاذ العقبي في الصميم ؟ وأين ذهبت هذه الشجاعة عندما حزب الأمر ونزلت الكارثة بالعقبي ، وذهب وفد من الوطنيين الى

---

(1) L'Algérie du demi-siècle, Op Cit.

(2) ينظر : المجلد 13 ، الجزء 9 ، قسنطينة ، نوفمبر 1937 ، ص 399 .

(3) ينظر : العدد الأول (عمار أوزقان يكتب في الطليعة) الجزائر 27 ، أوت 1937 .

مركز الحزب الشيوعي بالجزائر طالبا من رئيسه (بارتيل) ومن كاتبه (أوزقان) أن يقوما بواجبهما للدفاع عن الشيخ ، فكان جوابهما : نحن لانلقي بحزبنا الى التهلكة ، ولا نضطلع بأية مسؤولية ، وما يدريكم لعل التهمة الموجهة الى العقبي صحيحة .

وقد أضافت الجريدة ، وكيفما كان الأمر فنحن نسأل السيد أوزقان أن ينشر على صفحات الجرائد الوطنية نص البرنامج الداخلي للحزب الشيوعي ، سيما فيما يخص الدين الاسلامي وعلمائه ... ننتظر الجواب بفارغ صبر ...

من خلال هذين التعليقين يتضح أن العلماء ، ومناضلي حزب الشعب لم يكونوا يثقون في تصريحات زعماء الحزب الشيوعي الجزائري المتعلقة بالاسلام والمسلمين ، رغم تظاهر الشيوعيين الجزائريين بالدفاع عن قادة الجمعية ومؤسساتها الدينية والتعليمية .

ومن التناقضات الصارخة التي سجلت على الحزب الشيوعي الجزائري والتي كانت تتعارض مع منهج الجمعية وأهدافها ، ماكتبته جريدة الشعب[1] سنة 1937 ، تحت عنوان (نريد جمهورية سوفياتية) قائلة : وقف أحد الشيوعيين في اجتماع وطني بوهران ، قائلا : (نحن البلاشفة نريد توحيد الأمة الجزائرية ، ولذلك فقد جمعنا حول مؤتمرها كل الطبقات من سياسيين الى علماء الى طرقيين (وعساوة) وحتى ثعابينهم ، وذلك لأجل أن نعمل بيد واحدة في دائرة المؤتمر لتأسيس جمهورية سوفياتية بالجزائر) .

ان هذا النص يتميز بالسخرية والتهكم على الشيوعيين من طرف جريدة الحزب الوطني ، ذلك أن العلماء والطرقيين لايلتقيان على مائدة واحدة في مثل هذه المناسبات ، لأنهما حركتان مختلفتان ومتعارضتان في الوسائل والأهداف ، كما رأينا ذلك في الفصل الخامس من هذا البحث .

وهكذا فان التقارب الذي حدث بين العلماء والشيوعيين الجزائريين في بعض المناسبات ، لم يكن قائما على قاعدة ايديولوجية واحدة ، وانما كان نتيجة للظروف الاستعمارية التي كانت تجمع كل الحركات الوطنية الجزائرية ، بل وكل الشعب الجزائري على أرضية واحدة ، قوامها الظلم والاستبداد والاستغلال ، والقهر السياسي ، والاجتماعي ، والاقتصادي ، والثقافي .

لأن الثابت في تاريخ الحزب الشيوعي ، الجزائري هو أنه لايرتبط بالمسألة

---

(1) ينظر : العدد الأول الجزائر 27 ، أوت 1937

الوطنيـة ، وإنمـا يلح أكثر على تحسين ظروف العيش للسكان ، أجـور ، قـوا
اجتماعية ، مساواة) .

ويعتبر الحزب هـذه المسـائل هي التي تلخص «المطـالب المشروعـة ، لا للشعـ
الجزائري الـذي لا يعترف بـه الحزب بل للعرب ، والقبـائل ، السـاكنين في الجزائر
ولذلك يوافق على منح الجنسية الفرنسـية لبعض المسلمين لأن إعطـاءهـا لكل المسلمين
غير ممكن» .

وفي الوقت الذي كان فيـه المسلمون الجزائريون ، يثيرون - كما أسلفنـا - مسأل
(المواطنة الجزائرية) ، والوطن الجزائري كان الحزب الشيوعي الجزائري مـا يزال متمسكا
بإصلاحات بلوم فيوليت في سنة 1939 . والمسألة المهمـة عنده ، ليست هي الوطنـ
الجزائرية في وطن جزائري ، بل هي «اتحاد الجزائريين مع الشعب الفرنسي» .

أما بدون هذه الوحدة مع الشعب الفرنسي ، فإن الجزائر ، ستقع تحت الامبريالية
الأجنبيـة في نظره ، وبـالرغم من الجهود الايـديولوجي ، الـذي بـذلـه الشيوعيون في
الجزائر ، فإنه لم يجد تجاوبا ، لدى المسلمين الجزائريين ، بل فإن هذا المجهود ، قد أثار
لدى الجزائريين عـداء للشيوعيين ، في كل من الجزائر وفرنسـا حيث انطلقت الجماهير
الجزائريـة ، في طريـق مـؤازرة وتـأييـد فكرة الاستقـلال ، التي تنـادي بهـا الحركة
الوطنية .

وقد ورد في الدروس التي كان يقوم بها الحزب الشيوعي «في المدرسـة الابتدائية
للحزب» أن الكلام عن استقلال الجزائر ، هو ضرب من الديماغوجية الخيـالية ، نظرا
للوضعية الاستعمارية ، التي تعيشها هـذه البلاد ، والتي سيضعهـا بهـا الاستقلال حتما ،
تحت الحكم الأجنبي» .

وبينـا يهاجم الشيوعيون ، الـوطنيين بسبب تشبثهم بفكرة الاستقـلال الوطني ،
يهاجمون أيضا المصلحين المسلمين ، لأن عملهم يؤدي ، الى نفس النتيجة ، وهي ، فصل
الجزائر عن فرنسا .

كما يعتبرون حركة «أحباب البيان والحرية» «وطنيين مزيفيين» .
«لايشعرون بالحاجات الحقيقية للطبقـات الشعبيـة لأنهم برجوازيون ، ويجرؤون على
نقد الحزب الشيـوعي الجزائري لأنه تخلى عن مبدإ حرية الشعوب في تقرير مصيرها» .

وقـد رفع الشيوعيون هـذا الشعـار : «إن الجزائر المنفصلة عن فرنسـا تعني الجزائر
العربية . والجزائر في وحدة عربية تعني وقوعها تحت رحمة الامبريـاليـة الأجنبية» .

وفي هـذا السيـاق ، فـإن الحزب الشيوعي الجزائري يضع في كفتي ميزان ، متعـادلتين
كلا من الأقلية الأوروبية الرجعية في الجزائر ، ودعاة الجزائر العربية التي تطمح الى
توحيد الاقطاعي الجزائري ، والفلاح البائس بدون تمييز بينهما ، ضد كل الأوروبيين
في الجزائر بدون تمييز بينهم أيضا» .

ولكن الملاحـظ : هو أن الحـزب الشيوعي الجزائري ، قـد ظـل منعـزلا عن
الشعب ، نتيجة لمناداته بالوحدة مع فرنسا والخلاصة كما يقول الأستاذ : قداش .

ان الشيوعيين لم يستطعوا الدخول في الفكر الوطني فتأييدهم للوحدة مع فرنسـا ،
كانت النقطـة الرئيسيـة التي اصطـدموا فيها مـع الـوطنيين ، الـذين يعتبرون فكرة
الوطن الجزائري ، والأمة الجزائرية المستقلة عن فرنسـا هي : أسـاس إيديولوجيتهم
كلها . ويقـول أحـد الكتـاب[1] : «كان من المفروض - لـو كان الحـزب الشيوعي
الجزائري سـائرا في الخط الشيوعي السليم أن يقف الى جـانب الطبقـات الشعبيـة
الجزائرية ، بل ويأخذ بقيادتها في كفاحها ضد الاستعمار الفرنسي ليس فقط اعتزازا
بكفاح شعبه ضد الاستعمار الأجنبي ، بل وأيضا وفاء للمبادىء الشيوعية الثورية التي
تقضي «بأن شعبا يضطهد آخر هو شعب غير حر» ، بل وغير جدير بالحرية» .

ويريـد هـذا الكاتب من الحزب الشيـوعي الجزائري أن يكون مثـل الحـزبين
الشيوعيين الفيتنامي والسفياتي ، حيث يضيف قائلا : «وعندما قامت الثورة المسلحة
بالرغم منه وبدلا من أن يكون هو قائدها كما كان الحزب الشيوعي الفيتنامي قائدا
لثورة بلاده وكما كان الحزب الشيوعي السفياتي قبل ذلك ، فإن الحزب الشيوعي
الجزائري اضاع كل هـذه المثل أمـامـه ولم ير منها شيئا إلا أن يكون خادما أمينا
للإمبراطورية الفرنسـية ...» إن هذه الفرضية في اعتقادنا لا تقوم على سـاق وذلك
نتيجة لعدة عوامل أهمها :

إن المجتمعات التي نشأت فيها هذه الأحزاب الشيوعية الثلاثة - الجزائر ، الفيتنام
وروسيا تختلف عن بعضها اختلافا بينا فإذا كان الحزب الشيوعي السفياتي قد تولى
قيادة الجماهير في بلاده وكذلك الحزب الشيوعي الفيتنامي فإن مواطنيهما كان من
السهل عليهم اعتناق المبادىء الشيوعية لأنهم خليط من الأجناس والديانات التي ليس

(1) ينظر : د / عبد الله شريط ، مع الفكر السياسي الحديث والجهود الإيديولوجي في الجزائر المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر - 1986 ، ص 146 ، 147 .

العمق والشمولية مثل الإسلام الذي كان هو الدين الوحيد الذي يدين به
الشعب الجزائري منذ أربعة عشر قرنا .

ومن هنا فلو كان الحزب الشيوعي الجزائري هو الذي قاد ثورة التحرير، لما
كانت قد وجدت من طرف الشعب نفس الدعم ، والحماس ، والاقبال على الموت
ومواجهة العدو بأبسط الوسائل مثل ماوجدته تحت قيادة جبهة التحرير الوطني التي
كان شعارها (الله أكبر ، الجهاد في سبيل الله ، النصر لشعبنا والخلود لشهدائنا الخ ...)
من الشعارات الإسلامية التي رفعتها لإستقطاب الجماهير الشعبية حولها .

وقد أثبت تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية صحة ماذهبنا اليه حيث كانت
المنظمات الإسلامية مثل جمعية العلماء ، وحزب الشعب الجزائري أكثر ارتباطا
بالجماهير ، والإحصاءات الفرنسية الصادرة سنة 1954 تؤكد على أن اتباع جمعية
العلماء وحدها كانوا يقدرون بنسبة 40 ٪ من مجموع الشعب الجزائري وربما كان
يقارب نفس العدد بالنسبة لاتباع حزب الشعب فماذا بقي إذن للحركات الأخرى
مثل الحزب الشيوعي . والاتحاد الدمقراطي للبيان الجزائري ، والطرق الصوفية
الخ ..؟

وهكذا يتضح عدم امكانية جمع متناقضين إثنين في آن واحد ، اذ لايمكن للإنسان
أن يكون مسلما وشيوعيا في نفس الوقت . ولكنه يستطيع أن يكون مسلما وثوريا
في الوقت نفسه . والأنظمة الشيوعية المعاصرة وإن كانت لاتجبر مواطنيها على ترك
دياناتهم ، فإنها تشجعهم على الالحاد بوسائل ، وامتيازات خاصة .

ولعل ماجعل الحركة الوطنية الجزائرية ، تفتقر الى ايديولوجية ناضجة،
ومتكاملة ، هو ما كان يتجاذب الشعب الجزائري من ايديولوجيات أجنبية مختلفة،
وهو في غنى عنها باعتباره شعب مسلم يستطيع أن يجد في الإسلام نظاما سياسيا،
واقتصاديا واجتماعيا متكاملا ، ولذلك نجد البعض منه ركز جهوده في الدفاع عن
مقوماته الشخصية ضد الثقافات ، والإيديولوجيات الأجنبية . في حين نجد البعض
الآخر قد أغرته هذه الإيديولوجيات ، فانضوى تحت لوائها ولكنه لم يعتنقها أعتناقا
كليا باعتبار أن فطرته الإسلامية لم تتقبل كثيرا من مبادىء هذه الإيديولوجيات
كالشيوعية الماركسية مثلا كما أن البعض الآخر قد رفضته هي نفسها رغم تعلقه بها
لكونه تمسك بالشريعة الإسلامية كمصدر لأحواله الشخصية كالليبرالية الفرنسية .

ومن الواضح أن التجربة الشيوعية قد باءت بالفشل الذريع في كل الأقطار
الإسلامية ، سواء كانت عن طريق الفكر أو عن طريق القوة . كما فشلت الإرساليات
التبشيرية وتحطمت جهودها ومحاولاتها التنصيرية على صخرة الإسلام الأزلية في هذه
البلاد الإسلامية أيضا .

﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾

حقا إن الحزب الشيوعي الجزائري لم يكن في مستوي طموح الجماهير الجزائرية
المسلمة . والأحرى لم يكن في مستوى عصره لأنه كان نسخة من الحزب الشيوعي
الفرنسي . ومع الفرض بأنه كان حزبا وطنيا ثوريا مستقلا عن الشيوعية الفرنسية ،
فإنه لم يكن في استطاعته أن يقود الجماهير الشعبية في ثورة تحريرية باسم المبادىء
الشيوعية . وقد رأينا في مقدمة هذا الفصل أن الزعماء الشيوعيين قد أدركوا – بعد
دراسة معمقة للشعب الجزائري عدم نجاح الشيوعية في هذه البلاد نتيجة لرسوخ
الإسلام والوطنية ، والقومية العربية . وأفكار الجامعة الإسلامية في أعماق أبناء هذه
الأمة .

الفصل التاسع

الجمعية والمؤتمر الإسلامي الجزائري ومشروع فيوليت

قبل الشروع في سبر أغوار المؤتمر الاسلامي الجزائري العام سنة 1936 وتتبع خطواته ومدى مساهمة العلماء فيه يحسن بنا أن نطرح الاسئلة التالية :

1 - هل أن التفكير في عقد المؤتمر الاسلامي الجزائري كان وليد سنة 1936 فقط ؟ ثم هل كان انعقاد هذا المؤتمر بفضل المناخ السياسي الجديد الذي رافق مجيء الجبهة الشعبية الى الحكم في فرنسا ؟

2 - وهل يمكن ربط انعقاد هذا المؤتمر بتغيرات واحداث داخلية وخارجية خلال الثلاثينات ؟

3 - هل كان هناك من دعا الى تكوين تجمع اسلامي عام قبل انعقاد الموتمر ؟

4 - هل حقق هذا التجمع السياسي الاسلامي الكبير الذي كان الأول من نوعه نتائج ايجابية في البلاد ؟ أو هل أنه ترك اثارا عميقة في الحياة السياسية الجزائرية عشية الحرب العالمية الثانية ، أم أنه توارى دون أن يخلف أية بصمات على المجتمع الجزائري ؟

5 - والى أي مدى كانت مشاركة الفئات الاجتماعية والاتجاهات السياسية في هذا المؤتمر ؟

6 - وهل كان الزعماء الجزائريون عاجزين عن ترسيخ مبادئه وأهدافه وتحقيق مطالبه والمحافظة على تشكيلاته حتى تلاشى بسرعة دون أن يحقق أهدافه ؟

7 - هل كان حقا بداية لوحدة وطنية التقت فيها كل الآراء والنظريات السياسية ؟ أم أنه كان منعطفا جديدا لتمزيق وحدة الأحزاب والمنظمات

الجزائرية ؟ ثم هل كان سيؤدى الى تدعيم الانفصالية الوطنية ، ويكون منطلقا ل
التحرر والاستقلال عن فرنسا ؟

8 – ثم لماذا وقف ضده كل من المعمرين والحكومة الفرنسية ؟ اذا كان البعض
يعتبره حلقة لربط الجزائر بفرنسا الي الأبد ؟

9 – ماهي أهم المنظمات والشخصيات الجزائرية التي لعبت دورا بارزا في الدعو
الي عقده والدفاع عنه ثم هل يمكن اعتبار المنظمة التي لعبت هذا الدور قوة فعال
كان بامكانها ان تغير مجرى التاريخ الجزائري لو أتيح لها ذلك ؟

10 – وهل كان مشروع فيوليت هو المحور الذي انعقد حوله المؤتمر وكيف ر
العلماء على هذا المشروع ؟

ان المؤرخين للحياة السياسية الجزائرية خلال الثلاثينات من فرنسيين وجزائريين
لم يجيبوا عن هذه الأسئلة الا بأجوبة متقاربة أحيانا ومتناقضة أحيانا أخرى[1] .
فالمؤرخون الفرنسيون أمثال : شارل أندرى جوليان (Charles Andre Julien) ور.
لوتورنو (R. Letourneau) وأندري نوشي (Andre Nouschi) ركزوا دراساتهم على الدور
الذي قامت به اتحادية المنتخبين الجزائريين في المؤتمر ،وعلى مجيء الجبهة الشعبية الى
الحكم فى فرنسا ، وأعتبروا مجيء هذه الأخيرة سببا مباشرا فى تأسيس المؤتمر ، بل أن
جوليان[2] قد أخطأ حين عد مصالي الحاج من بين أعضأ المؤتمر الذين وضعوا مشروع
مطالبه وهو لم يكن موجودا فى الجزائر عندئذ .

وبناء علي رأيهم فان فشل الموتمر يرجع الي تغيير الحكومة الفرنسية[3] وموت
مشروع فيوليت ، رغم أن هذه الحكومة لم تكن قادرة هي نفسها علي فرض أي
مشروع على المعمرين في الجزائر ، وأخيرا فقد كرروا محاولات عباس فرحات ،
والدكتور ابن جلول لخلق تشكيلات سياسية اسلامية جديدة بعد فشل المؤتمر[4] .

أما اثنان من المؤرخين الجزائريين بالفرنسية اللذان كتبا حول هذا المؤتمر بعد
استقلال الجزائر بعدة سنوات ، الأول وهو (علي مراد) الذي أوضح بأن الدور الهام فى
تأسيس المؤتمر يعود الي العلماء المصلحين الذين تركوا اثارا واضحة على الحياة

(1) Claud Collot : Le Congré Musulman Algérien. Revue Algérienne des Sciences Juridiques, Economiques et Politiques N° 4. Faculté de Droit d'Alger. Décembre 1974. P. 13.

(2) المرجع السابق / ص 153 .

(3) سقطت حكومة الجبهة الشعبية في يوم 10 مارس 1938 .

(4) Claude Collot, Op Cit. P. 13.

السياسية الجزائرية عشية الحرب العالمية الثانية ، رغم فشل هذا المؤتمر أما الثاني فهو
الأستاذ محفوظ قداش . فقد اهتم فى دراسته بهذا الموضوع بمكانة الحزب الشيوعي
الجزائري الذي كان بارزا في حركة المؤتمر ، وكذلك حزب الشعب الجزائرى الذىكان
ضد مطالب المؤتمر ومشروع فيوليت[1] وأسند الدور الهام فى مطالب المؤتمر الى
المنتخبين المسلمين الجزائرين ، ولكن كتابه على الأخير[2] قد اشتمل على أبرز المواقف
الدقيقة للعلماء في المؤتمر ومشروع فيوليت .

أما الدكتور أبو القاسم سعد الله[3] الذي يعتبر أهم من كتب عن المؤتمر الاسلامي
من المؤرخين بالعربية فى الحركة الوطنية الجزائرية حتى الأن ، فقد القي بثقل المؤتمر
على كواهل المنتخبين والنواب ، والعلماء المصلحين ، ولكنه أكد فى الأخير على أن أهم
عمل فعال فى تشكيلات المؤتمر وروحه يعود فى الواقع الى العلما ، ولا سيا ابن
باديس الذي يعتبر الرأس المنظر والمفكر فى تأسيس المؤتمر وتنظيماته .

أما الباحث فيضم رأيه الى الرأي الأخير ، ويضيف مجهودات الحزب الشيوعي
الجزائري فى المحافظة على استمرار هذا المؤتمر بعض الوقت ، رغم أن دوره لم يكن
واضحا أثناء وضع مشروع مطالب المؤتمر ، وهناك تقارير فرنسية[4] عديدة تشير الى
مساع مكثفة قام بها الشيوعيون الجزائريون في مختلف المدن الجزائرية من أجل
الدفاع عن بقاء وحدة المؤتمر ، ولا سيا فى المؤتمر الثاني سنة 1937[5] .

والحق أن معرفة مصدر فكرة عقد المؤتمر ، والقوات الرئيسة التى تبنته ونظمته ،
ودافعت عن مبادئه ، وأهدافه تستدعي دراسة الظروف السياسية المحلية ، وتبيان
المؤثرات الخارجية التي أدت الى تأسيس هذا المؤتمر ، وربط العلاقة بين التغيرات أو
الأحداث الخارجية والداخلية بالقوىالمحركة لهذا التجمع الاسلامي الكبير الذي لم
تشهد الجزائر مثله في العصر الحديث حتى ذلك التاريخ .

(1) Claude Collot, Op Cit. P. 13.

(2) Histoire du nationalisme algérien Op Cit. P.P. 417–434.

(3) ينظر : المرجع السابق ، ج 3 ، ص 161 ومابعدها

(4) Rapport mensuel du prefet de Constantine, position du parti communiste d'algérie vis à vis de l'association des oulémas, des jeunesses du congré musulman algérien de l'étoile nord africaine et de l'éducation des élus (Février 1937, archives historiques, Wilaya de constantine.

(5) Ali Merad: Op Cit. P. 188.

التغيرات الداخلية والمؤثرات الخارجية حتى انعقاد المؤتمر :

مما لا شك فيه أن للتغيرات السياسية التي حدثت في الجزائر وفي فرنسا و
الشرق الأوسط عموما منذ سنة 1926 أثر بالغ الأهمية في خلق المناخ السياسي الملا
وفي خلق الامال الواسعة لدى الجماهير الجزائرية المسلمة في التقدم والتحرر من رق
الامبريالية الفرنسية ، وجشع المعمرين المضطهدين للشعب ، حيث أصبح زعم
الأمة يتطلعون بشوق ملتهب الى ما ستفرزه تلك التغيرات السياسية من حري
ومساواة بين الشعوب ، كما أصبحوا تواقين للتعجيل بتعبئة الرأى العام الاسلامي م
أجل المطالبة بالحقوق السياسية والمدنية من قادة الفكر الفرنسي ، ورجال الدولة و
حكومة الجبهة الشعبية قبل ضياع الفرصة وتبعثر الامال ، وتدخل هذه التغي
السريعة ضمن المرحلة التحضيرية لانعقاد المؤتمر[1] ومن بين التطورات البارزة ع
الصعيد الخارجي كثرة المؤتمرات الاسلامية والمسيحية خلال العشرينات والثلاثينات
منها مؤتمر الخلافة الاسلامية الذي انعقد بالقاهرة سنة 1926[2] ، ومؤتمر مك
للخلافة[3] الذي دعا اليه الملك سعود في نفس العام . وكذلك المؤتمر التبشيري المنعق
في القدس على جبل الزيتون في الفترة الواقعة بين آذار (مارس) الى 8 نيسان (أفريل
1928 الذي كان يهدف الى غزو الاسلام والمسلمين[4] ، حيث اثار عقد هذا المؤتم
ردود فعل واحتجاجات كثيرة في كل أنحاء العالم الاسلامي ، تمثلت في ارسال برقيات
الاحتجاج الى المجلس الاسلامي الأعلى بالقدس ورئيس المؤتمر التبشيري نفسه الدكتو
موط (MAUT) .

---

(1) Ali Merad: Op Cit. P. 188.

(2) عقد مؤتمر الخلافة في القاهرة باقتراح الوزير المصرى حسن نشأت باشا ، وكان انعقاده نتيجة لما قام به كم
اتاتورك في تركيا من إلغاء الخلافة 1924 لذلك قرر المسلمون بحث موضوع الخلافة في مؤتمر خاص ، بالاضافة ا
أن الشريف حسين حاكم المناطق المقدسة سنة 1924 ولكن هذا المؤتمر قد فشل بسبب عدم اشتراك الهند وسوري
فيه من جهة ، ومن جهة أخرى طموح بعض المسلمين في شغل منصب الخلافة مثل ملك مصر .
Taysir Jbara : Al-haj Muhammad Amin Al-husayni Mufti of Junsa Jerusalem the postni
years, 1921-1937 un published Dissertation New-york University 1982. P. 89.
– رسالة لم تنشر .

(3) كان الهدف من مؤتمر مكة هو البحث والنظر في كيفية حماية الحرمين الشريفين ، وشؤون المسلمين عموما بعد
هزيمة الشريف حسين الذي اراد توحيد كل مذاهب المسلمين في مذهب واحد ، وفي سكة حديد الحجاز والأوقاف
الاسلامية في العالم .

(4) حضر بالمؤتمر المسيحي بالقدس 240 ممثل عن 51 قطر في العالم .

وهناك المؤتمر الاسلامي العام بالقدس الذى انعقد في الفترة ما بين 7 و 17 كانون
الأول ديسمبر 1931 ، والذي كان يهدف الى حماية حائط البراق الشريف ، الذي
وقعت حوله حوادث دامية بين المسلمين واليهود سنة 1929[1] وقد استنكر المؤتمرون
كل أشكال الاستعمار في كل بلد من البلدان الاسلامية[2] .

وبالاضافة الى المؤتمرات السابقة ، كان هناك مؤتمر قصر هلال بتونس المنعقد في
شهر آذار (مارس) 1934 والذي انبثق عنه الحزب الدستورى الجديد الذي استقطب
حوله الأغلبيه الساحقة من المناضلين في البلاد التونسية[3] ومؤتمر مسلمي أوربا
المنعقد بجنيف في شهر أيلول (سبتمبر) 1935 تحت رئاسة الأمير شكيب ارسلان[4]
والذي حضره بعض قادة النجم ومناضلية[5] . ذلك أن أوضاع فلسطين وأحوال شبه
القارة الهندية كانت تدعو المسلمين إلى مثل هذه اللقاءات التي تعتبر من أهم الفرص
لمناقشة مشاكلهم ومستقبلهم . ومع أن علماء الجزائر لم يشتركوا بصورة مباشرة في المؤتمر
الاسلامي بالقدس ، فان صحافتهم قد اهتمت بوقائعه ، ونشرت أخباره حيث قام
شكيب ارسلان (أحد دعاة هذا المؤتمر) بنشر البنود التي أصدرها المؤتمرون في القدس
بمجلة الشهاب الصادرة في شهر ايار (ماى) سنة 1932 ، وقد دعا شكيب ارسلان
علماء الجزائر والمسلمين جميعا الى الاهتمام بالحركة الاسلامية الناهضة ، والدفاع عنها
بكل الوسائل . ويقول الدكتور أبو القاسم سعد الله[6] أن توينبي (A. TOYNBEE)
«قد ادعى بأن المؤتمر الاسلامي الجزائري قد جاء نتيجة للمؤتمر الاسلامي بالقدس»
ويرجح الدكتور نفسه العلاقة بين المؤتمرين بقوله : «فنحن لا نستبعد أن تكون
الفكرة قد اختمرت في ذهن بعض القادة الجزائريين عندئذ ، والذى يطالع مجلة
الشهاب بين 1930 – 1936 يجد فيها مجموعة من الأراء الداعية الى التجمع ، وتكوين

---

(1) دعا الى عقد مؤتمر القدس عبد العزيز الثعالبي من تونس ، ومولاي شوكت علي من الهند وقد عقد برئاسة
الحاج الامين الحسيني ، ومن بين القرارات التي صدرت عن المؤتمر انشاء جامعة اسلامية في القدس وعقد مؤتمرات
اسلامية كل سنتين وتكوين جمعيات المراسة لحماية المسجد الاقصى والبراق ، مثل الجزائر فيه ابراهيم طفيش ،
ومثل سورية سعيد الجزائري .

(2) Mahfoud Kaddache : Histoire du Nationalisme Algérien, Op Cit. P. 343.

(3) شارل أندري جوليان / افريقيا الشمالية تسير ، مرجع سابق ، ص 101 وكذلك ص 131 (النسخة الفرنسية)

(4) محمد قنانش / المصدر السابق ، ص 67 .

(5) وهم مصالي الحاج الذى كان مقيما بجنيف ، وعمارا مائل الكاتب العام للحزب ، وبانون أكلى ، ومحمد بنديماك ،
والجريرى .

الأحزاب . وعقد النقابات . وتنظيم الشعب على نطاق جديد لمجابهة التطور الجديدة في الجزائر [1] هذا من جهة ومن جهة أخرى فقد لاح للجزائريين بريق الأمل من باريس عاصمة الدولة المستعمرة نفسها . والمتمثل في نجاح الجبهة الشعبية في انتخابات 3 آيار (ماي) 1936 والتي كانت مؤلفة من أحزاب اليسار . بعد انتصار مجابهة الخطر الفاشستي . برئاسة الاشتراكي ليون بلوم (LEON BLUM) الذي أعلن عن ارادته في تحسين الأوضاع المتدهورة في فرنسا وفي مستعمراتها . وقد قام باصلاحات عديدة يهمنا منها ما يتصل بالجزائر على وجه الخصوص . ففي هذه الأخيرة عملت حكومة على اطلاق سراح جميع المعتقلين . والمنفيين الوطنيين في جنوب البلاد . وأوقفت قانون الاهالي البغيض الذي أضطهد الجزائريين أكثر من نصف قرن . وأمرت بتطبيق النظم الاجتماعية الجاري بها العمل في فرنسا على الجزائريين . ومن بين الاجراءات الاجتماعية التي أحدثتها في الجزائر اقرار 40 ساعة عمل في الاسبوع . ودفع أجور العطل الرسمية والدينية ورفع مستوى الحياة الاجتماعية للأهالي المسلمين مثل مساعدة الفلاحين الصغار وحرية الاجتماعات[2] .

ومن هنا فقد كان لقيام حكومة الجبهة الشعبية التي لم تدم طويلا صدى عميقا في الأوساط الجزائرية المثقفة التي كانت تتابع الأحداث السياسية في فرنسا عن كثب . وتعلق على تشكيلتها الجديدة امالا عريضة في تحسين أوضاع الجماهير المحرومة في الجزائر .

ولعل أهم ماتشبثت به هذه الجماهير المكونة هو إلغاء قانون الأهلي . الذي حرمها من كل الحقوق السياسية والمدنية ردحا من الزمن . ومن المشاركة في أي حزب سياسي أو نقابة عمالية . فلما جاءت الجبهة الشعبية اعترفت رسميا للجزائريين بحق الانضمام الى النقابات أو الأحزاب . بل أنها سمحت لهم بأن يتولوا ادارتها .

وقد ساعد العهد الجديد الحركة الوطنية الجزائرية على تكثيف الجهود . والعمل على الالتفاف حول الجبهة الشعبية . لكي تشرع في تطبيق وعودها للجزائريين . ومن ثم فقد ثمرت المنظمات الجزائرية . التي تبنت الدعوة . الى عقد مؤتمر عن ساعد الجد

---

(1) أبو القاسم سعد الله / الرجع السابق . الجزء الثالث . ص 163 .

(2) Andre Nouschi La Naissance du Nationalisme Algérien Ed. de minuit, Paris, France 1962 P. 87.

والعمل . وصنفت لتحضير هذا التجمع الاسلامي الكبير . وهكذا كان المناخ ملائما لعقد المؤتمر الاسلامي الجزائري . هذا على المستوى الخارجي . أما على الصعيد الداخلي فان الجزائر قد مرت بمحنة عسيرة منذ سنة 1930 نتيجة احتفال الفرنسيين بمرور مائة عام على احتلال الجزائر . وهو حدث تاريخي أليم أدمى قلوب الجزائريين وأثار مشاعرهم الوطنية . ودفعهم الى العمل والاتحاد . فأسس علماء الجزائر في السنة التالية 1931 جمعية العلماء الجزائريين - كما مر بنا في الفصل الثاني من هذا البحث - التي أحدثت تغييرات هامة على المجتمع الجزائري في مجالات متعددة . ولا سيما بدعوتها الوحدوية بين جميع المسلمين الجزائريين . هذا من جهة . ومن جهة أخرى فقد ضاعف الشيوعيون الجزائريون نشاطهم السياسي في البلاد . حتى أصبحوا منذ سنة 1933 يتهمون من طرف الادارة بتهديد المصالح الفرنسية في الجزائر[1] وكذلك نجاح المنتخبين الجزائريين سنة 1934 في الانتخابات البلدية الذي بث الرعب والفزع في نفوس المعمرين . فراحوا يحيكون المؤامرات ويدبرون الدسائس . وأوعزوا الى السلطات الحاكمة أن تتدارك الخطر . فاستجابت هذه الأخيرة لمطالب السادة المستوطنين . فعمدت لكبت الحركة وزجر المنتخبين ومعاقبتهم . بالاضافة الى حوادث قسنطينة سنة 1934 بين المسلمين واليهود . والتي أكدت وقوف السلطات الاستعمارية بجانب اليهود .

ومن جهة أخرى فقد ظهرت على الساحة الجزائرية مشاريع وبرامج متعددة ترمي . في مجموعها . الى احداث بعض الاصلاحات الاجتماعية والسياسية الخاصة بالمسلمين الجزائريين كان في مقدمتها مشروع فيوليت . الذي أثار النقاش والجدل الطويل بين الفئات السياسية[2] الجزائرية والفرنسية . ومن جهة أخرى . علل المجاعة التي اجتاحت البلاد خلال سنوات 1934 - 1936 الناتجة عن الأزمة الاقتصادية العالمية التي اكتسحت أوروبا عموما . وفرنسا على وجه الخصوص قد أدت الى مضاعفة تذمر السكان المسلمين وتصاعد غضبهم فقاموا بمظاهرات صاخبة في البلاد . حيث عرفت سنة 1934 تسع مظاهرات . وسنة 1935 أربعا وعشرين مظاهرة . وسنة 1936 مائتين وعشرين مظاهرة[3] . وهذه المظاهرات وان كانت

---

(1) Charles André Julien. l'Afrique du nord en marche Op Cit. P. 105.

(2) مجلة الشهاب / م 11 . قسنطينة فبراير 1935 .

(3) André Nouschi : La Naissance de certains chiffres d'étude maghrébine presses universitaires, de France, Paris, 1964 P. 205

والعمل ، وطفقت لتحضير هذا التجمع الاسلامي الكبير . وهكذا كان المناخ ملائما لعقد المؤتمر الاسلامي الجزائري . هذا على المستوى الخارجي ، أما على الصعيد الداخلي فان الجزائر قد مرت بمنحة عسيرة منذ سنة 1930 نتيجة احتفال الفرنسين بمرور مائة عام على احتلال الجزائر ، وهو حدث تاريخي أليم أدمى قلوب الجزائريين وأثار مشاعرهم الوطنية ، ودفعهم الى العمل والاتحاد . فأسس علماء الجزائر في السنة التالية 1931 جمعية العلماء الجزائريين - كما مر بنا في الفصل الثاني من هذا البحث - التي أحدثت تغييرات هامة على المجتمع الجزائري في مجالات متعددة ، ولا سيما بدعوتها الوحدوية بين جميع المسلمين الجزائريين ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد ضاعف الشيوعيون الجزائريون نشاطهم السياسى في البلاد ، حتى أصبحوا منذ سنة 1933 يتهمون من طرف الادارة بتهديد المصالح الفرنسية في الجزائر[1] وكذلك نجاح المنتخبين الجزائريين سنة 1934 فى الانتحابات البلدية الذي بعث الرعب والفزع في نفوس المعمرين ، فراحوا يحيكون المؤامرات ويدبرون الدسائس ، وأوعزوا الى السلطات الحاكمة أن تتدارك الخطر ، فاستجابت هذه الأخيرة لمطالب السادة المستوطنين ، فنهضت لكبت الحركة وزجر المنتخبين ومعاقبتهم . بالاضافة الى حوادث قسنطينة سنة 1934 بين المسلمين واليهود ، والتى أكدت وقوف السلطات الاستعمارية بجانب اليهود .

ومن جهة أخرى فقد ظهرت على الساحة الجزائرية مشاريع وبرامج متعددة ترمي ، في مجموعها ، الى احداث بعض الاصلاحات الاجتماعية والسياسية الخاصة بالمسلمين الجزائريين كان فى مقدمتها مشروع فيوليت ، الذي اثارالنقاش والجدل الطويل بين الفئات السياسية[2] الجزائرية والفرنسية . ومن جهة أخرى ، فان المجاعة التى اجتاحت البلاد خلال سنوات 1934 - 1936 الناتجة عن الأزمة الاقتصادية العالمية التي اكتسحت أوروبا عموما ، وفرنسا على وجه الخصوص قد أدت الى مضاعفة تذمر السكان المسلمين وتصاعد غضبهم فقاموا بمظاهرات صاخبة في البلاد ، حيث عرفت سنة 1934 تسع مظاهرات ، وسنة 1935 أربعا وعشرين مظاهرة ، وسنة 1936 مائتين وعشرين مظاهرة[3] . وهذه المظاهرات وان كانت

---

(1) Charles Andre Jullien, l'Afrique du nord en marche Op Cit. P. 105.

(2) مجلة الشهاب / م 11 ، قسنطينة أفريل 1935 .

(3) Andre Noushi : La Naissance de certains chiffres d'étude magrébine présses universitaires, de France, Paris, 1964 P. 205.

ناتجة من سوء الأوضاع الاقتصادية فانها تعبر عن وعي الجماهير الشعبية ، وازدياد نضالها ضد المحتلين ، وذلك بفضل نشاط الحركة الوطنية التي ظهرت على الصعيد المحلي خلال هذه الحقبة .

ومن أهم المظاهرات التي انفجرت في الجزائر العاصمة في شهر شباط (فيفري) سنة 1934 ، تلك المظاهرة الضخمة التي شارك فيها سكان العاصمة بنسبة تتراوح مابين 40 و50 ٪ . وقد هتف المتظاهرون خلالها بشعارات أممية . وخلال ربيع نفس العام وزعت مناشير سرية وعقدت تجمعات تندد بقرار الادارة المتعلق بمنع العلماء المصلحين من القاء الوعظ والارشاد في المساجد الرسمية ، كما نظمت مظاهرات سارت في شوارع العاصمة بنجاح كبير[1] في حين اتفق كل من الشيوعيين والاشتراكيين على تجنيد كل الطبقات العاملة لمقاومة قانون الأهالي وكل الاجراءات الاستثنائية الخاصة بالجزائريين[2] .

أما مظاهرات 1935 فقد كانت تهدف الى تحذير الجزائريين من الخطر الفاشستي ، وذلك استجابة لنداء المؤتمر السابع للأممية الثالثة ، حيث قام عشرون الف متظاهر بمسيرة في شوارع العاصمة وخمسة عشر الف في وهران . وكان من بين الشعارات التي رفعها المتظاهرون التنديد بقانون الأهالي ، والمطالبة بازالة جميع القوانين الاستثنائية[3] . هذا عن الاوضاع الخارجية والداخلية التي ساهمت من قريب أو بعيد في تقارب الجزائريين خلال السنوات التي سبقت انعقاد المؤتمر .

أما عن منبع فكرة المؤتمر نفسه فيمكن تتبع خطواتها العملية منذ 1934 ففي غضون هذه السنة اقترح أحد أعضاء النخبة وهو الشريف بويوسف من فج مزالة انشاء حزب سياسي مسلم[4] ، وقد تجسد هذا الاقتراح في الاجتماعات التي عقدت بعد ذلك في سطيف من طرف بعض الشبان الجزائريين أمثال طهرات والدكتور علواش وعباس فرحات ، ومصطفاي ، الذين قاموا بتحضير القوانين الأساسية للحزب المسلم المقترح انشاؤه .

(1) Andre Noushi La Naissance de certains chiffres Op Cit, P. 208.

(2) Taleb Bendiab (A) le Congrés musulman Algérien. (1935-1938) 1ère Expérience anti-impérialiste D.E.S, Octobre 1973 P. 15.

(3) عمار أوزقان / مرجع سابق ، ص 25 .

(4) يرى مؤرخوا الحركة الوطنية الجزائرية ان فكرة انشاء حزب مسلم للمعارضة تعود الى الامير خالد .

وفي سنة 1935 تبنت جريدة الدفاع هذه الفكرة وأخذت تدعوا المسلمين الجزائريين الى الاتحاد والعمل على تكوين حزب اسلامي ، فقد كتب العمودي صاحب الجريدة المذكورة في هذا الصدد يقول : «بعد صدور مرسوم رينيه وفشل فيوليت أمام مجلس الشيوخ أخيرا اتضح للمسلمين أن يتحدوا وينتظموا ، وان انشاء حزب مسلم هو العلاج الوحيد للوضعية الحالية»[1] .

وقد ظلت (الدفاع) تلح على ضرورة انشاء هذا الحزب طوال سنة 1935 . ولكن هذه الاقتراحات باءت كلها بالفشل ، في حين استمرت الحركة الاعلامية للانتخابات نشيطة خلال هذه السنة .

أما جريدة (الأمة) التي تساءلت بدورها منذ 2 تشرين الأول (أكتوبر) 1934 عن امكانية انشاء حزب وطني جزائري ، فقد كانت ترى بأن هذا الحزب لابد له من قاطرة تجره ، ويمكن أن تتمثل في شخصية ابن جلول . وقد عادت جريدة الدفاع مرة أخرى في شهر شباط (فيفري) 1935 الى المناداة بانشاء حزب سياسي يضم المترشحين حول برنامج : «حزب سياسي لابد منه»[2] وتقول بأنها تعمل على انشاء كتلة مسلمة مستقلة تمام الاستقلال عن أي حزب فرنسي . وعلى وضع برنامج موحد للمطالب والاصلاحات[3] .

أما جريدة (العدالة) (LA JUSTICE)[4] فقد رأت بعد خيبة الجزائريين ، على اثر زيارة وزير الداخلية الفرنسية (مارسيل رينيه) (AMARCELLE RENET) الى الجزائر ، ضرورة تنظيم حزب مسلم كبير على غرار الأحزاب الفرنسية الكبرى أهدافه تطوير مفهوم المسؤوليات والواجبات السياسية لدى الجماهير .

ويبدو أن قرار رينيه وفشل مشروع فيوليت في آذار (مارس) 1935 قد أديا الى ازدياد الوعي والشعور بضرورة انشاء حزب مسلم خلال هذه السنة . وقد ضاعفت جريدة الدفاع من نشر المقالات المتعلقة بانشاء هذا الحزب . ولا سيما مقالات لكاتب يدعى (برني) (BERNIER) الذي يبدو أنه كان متعاطفا مع الجزائريين ، حيث كان

(1) Charles Robert Ageron : Histoire de l'Algérie contemporaine Op Cit. P. 434.

(2) Ibid. P. 433.

(3) Loc Cit.

(4) Constantine 18 Mars 1935.

Charles Robert Ageron : Histoire de l'Algérie contemporaine, Op Cit. P. 334.

يرى هو الاخر ضرورة انشاء حزب مسلم يضع برنامجه وقوانينه تحت الدراس
من شهر تموز (جويلية) من نفس العام .

أما الحزب الشيوعي فقد دعا مناضليه في أوائل شهر آب (أوت) من نفس ال
الى توسيع الجبهة الشعبية الى كتلة معادية للامبريالية كما دعا المنظمات الأهـ
الاتحاد . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فقد ندد كل من ابن باديس و
بالمؤامرات السياسية الفرنسية ، حيث دعا ابن باديس الى عدم الارتباط بأي
فرنسي مهما كان نوعه . أما عباس فرحات فقد كان يرى بأنه «يمكننا ايجاد اصد
اليسار واليمين على حد سواء»

أما اتحادية قسنطينة فقد شعرت بأن الضغط موجه اليها ، ولا سيما وأن مطا
الحزب الشيوعي قد توافقت مع مطالب المؤتمر الخامس لطلبة مسلمي شمال افريقيا
ومطالب العلماء[1] .

ولهذا كان عباس يؤكد على أن تحرر الجزائر المسلمة يكون في اطار الوطن
الفرنسية . في حين كان ابن جلول يكرر عبارة الحاق الجزائر بفرنسا . بينما
العلماء بأن أحسن ما يدعم الوحدة بين المسلمين ، وغيرهم هو التعليم المزدوج بالعربية
والفرنسية ، ولكن هذا الزعم من طرف العلماء في رأي الباحث كان على ما يبدو
وعملية تكتيكية قصد بها افساح المجال واسعا أمام انتشار اللغة العربية وتطويرها
وتجنب تطبيق قوانين الحجز المنصبة على مدارسهم ومؤسساتهم التعليمية خصوصا .

وهكذا كان التنافس قائما بين العلماء والمتخبين ، فالأولون كانوا يطمحون م

---

(1) تأسست (جمعية طلبة شمال افريقيا المسلمين بفرنسا) في باريس حوالي 1928 ، عقدت أول مؤتمر لها بتونس عام 1931 ، ومؤتمرها الخامس في الجزائر بتلمسان سنة 1935 ، وكان برنامج العلماء وتأثيرهم واضحا في توجيه مؤتمرات هذه الجمعية . ففي المؤتمر الخامس بتلمسان كان الابراهيمي نائب رئيس جمعية العلماء هو الذي افتتح اشغاله ، وكانت مطالب جمعية الطلبة وتوصياتها منصبة حول احياء الثقافة العربية في الأقطار المغربية الثلاث وهذه بعض توصيات المؤتمر :

1 - جعل اللغة العربية رسمية في المدارس الابتدائية واجباريتها ، وانشاء مدرسة ترشيح المعلمين بالجزائر لاعداد المعلمين بالعربية ، وحث الشعب الجزائري على الاستمرار في انشاء المدارس العربية الحرة ، ومطالبة الحكومة الفرنسية بجعل العربية رسمية أيضا في المدارس الثانوية وتدريس الأدب العربي على قدم المساواة مع اللغة الفرنسية وتعليم العربية وعلومها في جامعة الجزائر . كما أوصى المؤتمر بوضع برنامج تربية وطنية على مستوى المغرب العربي وتحرير المرأة وتعليمها ، ومحو الأمية والعودة الى التقاليد الاسلامية وتدريس تاريخ المغرب العربي في جميع المستويات وتحسين أوضاع اساتذة اللغة العربية ومدارسها ...

وراء ذلك الادعاء الى توسيع قاعدة حقل التعليم العربي الذي يرون فيه ضرورة حتمية لاسترجاع الشخصية الوطنية للمسلمين الجزائريين .

أما المتخبون ، فمن المؤكد أنهم كانوا يهدفون من وراء ذلك الى الحصول على المساواة والاندماج في اطار المجتمع الفرنسي . وقد أعلنت اتحادية قسنطينة يوم 18 تشرين الثاني (نوفمبر) 1935 بأن مبدأ انشاء حزب قد اتفق عليه من قبل ، وأنها أي الاتحادية قد صادقت على القوانين التي وضعها عباس وطهرات كما سلف الذكر[1] .

أما الحزب الشيوعي فقد أعلن موافقته على هذا الحزب قائلا : «نريد أن نعمل سويا حول برنامج أدنى ليس فقط مع رفقائنا الوطنيين الثوريين ، ولكن حتى مع الدكتور ابن جلول وفرحات عباس ، والأمين العمودي وكل التجمعات الأهلية»[2] اذن حتى نهاية 1935 كانت الأراء كلها تدور حول انشاء حزب سياسي كبير . كيف جاءت اذن فكرة انشاء المؤتمر الاسلامي الجزائري العام ، ومن هو صاحبها يا ترى ؟

في يوم 3 كانون الثاني (جانفي) 1936 وبعد أخذ ورد من طرف كل الأحزاب والاتجاهات السياسية الجزائرية خرج رئيس جمعية العلماء ابن باديس بفكرة جديدة لم تتبادر الى الاذهان ، وهي فكرة تأسيس مؤتمر اسلامي ، بعد أن نبذ فكرة حزب عن طريق ابن جلول واصدقائه الادماجيين في جريدة (الدفاع) عندما قال : «ان تجديد القانون السياسي للمسلم الجزائري قضية حياة يجب أن تناقش وتسوى نهائيا لامن طرف رجل واحد ولا من طرف مجموعة واحدة مهما كانت سمعتها وتأثيرها على الجماهير . ولكن يجب أن تكون من طرف كل الممثلين والمسيرين للرأى العام المسلم . رجال سياسيون . علماء . منتخبون . قضاة مسلمون اساتذة معلمون ... الخ . فكل هؤلاء مؤهلون لاعطاء رأيهم حول القضية الحاسمة[3] .

وهكذا نرى أن ابن باديس قد تحدى المتخبين حيث أستطاع أن يستبدل بفكرة الحزب السياسي فكرة المؤتمر الاسلامي العام الذي يكون مفتوحا لكل المناضلين وجميع ممثلي الأمة ، حيث كان يرى أنه من الضرورى أن ينعقد مؤتمر بكل سرعة فى العاصمة أو في أي مكان اخر ينظم فيه حوار ويختم بصيغة تحدد بصورة نهائية من الوجهة

---

(1) Charles Robert Ageront : Histoire de l'Algérie contemporaine Op Cit. P. 334.

السياسية مصير ستة ملايين نسمة الذين يعتبرون مرة فرنسيون دون أن
بالحقوق التي تقتضيها هذه الصفة – ويعتبرون تارة أخرى أجانب في بلادهم .
ساندت (الدفاع) – بالطبع – هذا الاقتراح الخاص بعقد مؤتمر يخرج بميثاق
للمسلمين الجزائريين .

أما الحزب الشيوعي الجزائري فقد أعلن عن استعداده وتقبله لهذه الفكرة
شعار : «فلننظم المؤتمر الاسلامي للجزائر»[1] .

أما المتخبون الذين قبلوا التعاون مع السلطات الفرنسية – لا سيما بعد دخو
في لجنة الاصلاحات الأهلية واللجنة الوزارية للشؤون الأهلية[2] – فقد كانوا ير
أن صيغة المؤتمر خطيرة عليهم . ذلك أن ابن جلول و عباس فرحات اللذين اته
الصحافة الاستعمارية بالانتماء الى التيار الاسلامي (الجامعة الاسلامية)[3] . والوط
كانا يخشيان من أن يعبر العلماء والشيوعيون عن المطالب الجزائرية بصيغة ذات ط
وطني وانفصالي يؤدى بالحكومة الفرنسية الى رفضها .

ومن هنا فقد أراد عباس أن يوضح موقفه من فرنسي الجزائر ، وفرنسي فرن
عند ماكتب مقاله المشهور فى الجريدة (الوفاق) بتاريخ 23 شباط (فيفرى) 1936
بعنوان «فرنسا هي أنا»[4] وبعد صدور هذا المقال ردت عليه بعض الصحف الجزائري
بتعاليق متشابهة ، فصحيفة أبي اليقظان (الأمة) قالت : «لم يعد عباس مخولا للتحد
باسم الأهلي» .

أما جريدة (الدفاع) فقد قالت «فرنسا ليست أنت»[5] «LA FRANCE CE N'EST PAS TOI» .

أما ابن باديس فقد رد عليه في شهر نيسان (أفريل) على صفحات (الشهاب)

(1) Charles Robert Ageron : Histoire de L'Algérie contemporaine Op Cit. P. 436.
(2) أعيد تنظيم اللجنة الوزارية بتاريخ 17 سبتمبر 1935 .
(3) تعني الجامعة الاسلامية وحدة العالم الاسلامي أمام التغلغل الاستعماري في العالم الاسلامي ومهاجمته لمقومات التفكير والعقائد ، وفي مجالات السياسة والاجتماع والاقتصاد ، فكانت هذه الدعوة تختلف في اتجاهاتها ولكنها تهدف في مجموعها الى وحدة العالم الاسلامي والتصدى للتحديات الجديدة واعادة ربط المسلمين مرة أخرى بيثاق يحمل معنى المواجهة والمقاومة .
ينظر أنور الجندى / المرجع السابق ، ص 91 .
(4) ينظر نص هذا المقال في الفصل السابع من هذا البحث الجمعية والحادية المتخبين .
(5) Charles Robert Ageron : Histoire de l'Algérie contemporaine, Op Cit. P. 437.

(النجاح) بمقال تحت عنوان «كلمة صريحة» ومما جاء فيه قوله : حقا اننا نعيش فى وسط سادت فيه الفوضى ، فمن الفوضى في الدين الى فوضى في الاخلاق الى فوضى في الاقتصاد ، وزادتنا الأيام على كل ذلك فوضى جديدة ربما كانت أخطر الفوضات وأشدها تأثيرا على حياة الأمة ، الا وهي فوضى التكلم باسم الأمة ، فما من متكلم اليوم الا ورفع عقيرته مدعيا أنه يمثل الأمة الاسلامية قاطبة فى هذه البلاد ، ولو أنهم اكتفوا بالقول بأنهم يمثلون الفريق الذي انتخبهم أو الهيئة التي ينتمون اليها ، أوالجماعة التى هم منها أو الذين يشاركونهم فى الرأى والتفكير لكان قولهم أصوب ورأيهم أصلح . أما وأن يتكلموا باسم الأمة وهم لا يمثلونها ، ويقولون أنها مجتمعة على اعتبار نفسها أمة فرنسية بحتة «لاوطن لها الا الوطن الفرنسي» «ولا غاية لها الا الاندماج الفعلى التام في فرنسا» فانهم مخطئون ولا يمثلون هذه الأمة أدنى تمثيل وأن «... هذه الأمة الجزائرية الاسلامية ليست هي فرنسا ، ولا يمكن أن تكون فرنسا ولا تريد أن تصير فرنسا ، ولا تستطيع أن تصير فرنسا ، ولو ارادت ...»[1] بعد هذه الردود على مقال عباس الذي أثار حفيظة العلماء وغيرهم من الوطنيين الآخرين ، جدد عباس مرة أخرى ايمانه بالأعمال الفرنسية في الجزائر التى من الواجب أن تكون عمل تحرير سياسى واقتصادى ، وحذر الفرنسيين من أن البناء على الشكل الذي يقام به حتى الان في الجزائر الفرنسية بعناصر مستوردة انما هو بناء على الرمل المتحرك ينهار بسبب أي تحرك للأهالي كأنه قصر من ورق[2] .

وهكذا ورغم الاختلافات الجوهرية بين الزعماء المسلمين الجزائريين فقد وافقوا جميعا على فكرة ابن باديس ، وتضامنوا فى امالهم وأصبحوا ينتظرون من الانتخابات التشريعية الفرنسية أن تأتى بحل مرض للوضع السياسي للمسلمين الجزائريين وفي حين كان بعضهم يعلق تلك الامال على الجبهة الوطنية التى كانت تمثل اليمين الفرنسى ، كانت الاغلبية تميل الى الجبهة الشعبية . وبنجاح هذه الأخيرة في انتخابات 3 أيار (ماي) غمرت الفرحة والامال المعولة الأهالي المسلمين عند الاعلان بانتصار هذه الجبهة . وحتى العلماء احتفلوا بفوز هذه الأحزاب اليسارية ومبادئها الانسانية ، ولا سيما وأنها قد بادرت بالاعلان على أعمدة صحفها بما تحمله للشعب الجزائري من

(1) مجلة الشهاب / م 12 ، ج 1 قسنطينة أفريل 1936 ، ص 43 ، 44 .
(2) Charles Robert Ageron : Histoire de l'Algérie contemporaine, Op Cit. P. 347.

اصلاحات سياسية واجتماعية ، واحتفى الشعب الجزائرى بتلك الوعود ، وأعلن ميله للجبهة الشعبية خصوصا وأن تلك الوعود كانت صادرة عن أحزاب اليسار ، مصاغة في قالب يقتضي العطف على الشعب الجزائري وهو ينتظر ، فان خرجت تلك الوعود الى حيز الوجود جعل الشكر عليها ، وان خابت الظنون في هؤلاء كما خابت في غيرهم ، لجأ الى الصبر والثبات كعادته في النائبات[1] .

مما سبق يتضح أن العلماء وان كانوا قد ابتهجوا بانتصار الجبهة الشعبية وعلقوا عليها الامال العريضة ، لم يكونوا مغرورين ولا مخدوعين بتلك الوعود البراقة لأنهم كانوا يعلمون أن فرنسا لن تعطي الحقوق للجزائريين الا بالتخلي عن شخصيتهم الاسلامية .

وهكذا نخلص الى القول بأن ابن باديس هو أول من فكر في الدعوة الى عقد المؤتمر قبل قيام الجبهة الشعبية بخمسة أشهر[2] ذلك أن ابن باديس وزملاؤه العلماء قد جربوا أهمية المؤتمرات في جمع الكلمة وتوحيد الصفوف ولا سيما ، وأن ابن باديس كان يتتبع كل التطورات الداخلية والخارجية ، وكان على اتصال دائم بأبرز الزعماء المسلمين في العالم أمثال شكيب أرسلان الزعيم السياسي ، والعالم الكبير بشؤون المسلمين ، والشيخ عبد العزيز الثعالبي الجزائري زعيم الحزب الدستورى التونسى ، والحاج أمين الحسيني مفتى القدس الكبير وغيرهم من الزعماء المسلمين الاخرين . ولكنه لم يكن من الممكن ولا من الجائز[3] أن يعقد مثل هذا المؤتمر لولا مجيء الجبهة الشعبية الى الحكم في فرنسا . ذلك أن الحكومات اليمينية المتطرفة كانت بالمرصاد لكل بادرة اصلاحية تظهر على الساحة الجزائرية .

وهكذا كانت فكرة هذا التجمع الاسلامي الكبير قد تطورت من فكرة الأمير خالد الى اقتراحات بعض أعضاء النخبة الى رأي الدفاع الى الدعوة الناضجة التي نادى بها ابن باديس ، ولم يقتنع بها بعضهم الا بعد وقوع تطورات سياسية جديدة في فرنسا في شهر نيسان وآيار (أفريل وماي) 1936 كما سلف الذكر حيث اقتنعت مختلف الجماعات الاسلامية الأكثر تصلبا في مواقفها المتباينة بقبول هذه الفكرة .

(1) الشهاب / م 12 ، ج 5 ، قسنطينة جويلية 1936 ، ص 196 – 197 .
(2) البشير الابراهيمي / فكرة المؤتمر : الشهاب ، م 11 ، ج 4 جويلية 1936 ص 198 .
(3) ينظر نفس المكان .

ولعل أهم ماقرب وجهات النظر بين المنتخبين الادماجيين والعلماء المصلحين في هذه الفترة بالذات هو تنديد جريدة (الدفاع) بمشروع (ديروكس DU ROUX) الراديكالي القاضي بمنح التمثيل النيابي للمسلمين مناصفة بينهم وبين الاوربيين دون اعطاء حقوق المواطنة للمنتخبين الأهالي . وقد قبل الدكتور ابن جلول فكرة المؤتمر شريطة أن يكون رئيسا له ، ورئيس اللجنة التنفيذية ، لأنه كان يخشى أن تطغى سمعة ابن باديس على شخصيته[1] وهكذا انطلقت الدعوة لعقد المؤتمر المذكور من قسنطينة مقر اقامة ابن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين وحصن الحركة الاصلاحية الاسلامية . ورغم أن تحضيرات المؤتمر كانت قصيرة لم تستغرق أكثر من ثلاثة اسابيع فان ذلك كان كافيا لعقده ، لأن مختلف المجموعات السياسية الاسلامية ، خاصة والرأي العام الاسلامى عامة كان مستعدا وراضيا بالفكرة[2] .

واذا كان كلود كولو (CLAUDE COLLOT) قد برر سرعة انعقاد المؤتمر باستعداد الرأي العام وتقبله للدعوة ، فان الابراهيمي الذي كان من بين أعضاء المؤتمر يعزي سبب سرعة انعقاده الى كسب الوقت خوفا من التغيرات التى قد تطرأ في فرنسا من ناحية ومن أن يضعف الحماس ، ويفتر لدى المتحمسين اليه والداعين لعقدة من ناحية أخرى . ومهما تكون سرعة الاستعدادات فقد سبق عقد المؤتمر بعض التحضيرات في العمالات الثلاث : الجزائر ، قسنطينة ، تلمسان ، وذلك تحت اشراف لجان تحضيرية شارك فيها ، بالاضافة الى النواب والعلماء والشبان ، العمال ورجال الصنائع والفلاحون ، وقدماء المحاربين والفئات اليسارية من شيوعيين واشتراكيين ، ولم يشارك في هذه التحضيرات سوى العائلات الكبيرة والطرقيون والأهالي الموظفون في الادارة الفرنسية[3] والذين لم يشاركوا أيضا في المؤتمر .

وكان الهدف من هذه التحضيرات جمع الكلمة والاتفاق على المطالب التي ستصدر عن المؤتمر[4] .

(1) Charles Robert Ageron : Histo re de l'Algérie contemporaine, Op Cit. P. 437.
(2) Claude Collot, Op Cit. 75.
(3) Notes du centre d'iformation et d'étude N° 1016 C.I.E du Prefet de Constantine, Archives Historiques, Wilaya de Constantine.
(4) الابراهيمي / الشهاب : م 11 ، ج 4 ، جويلية 1936 ، ص 201 .

انعقاد المؤتمر :

في اليوم السادس من شهر حزيران (جوان) 1936 اجتمعت بنادي الترقي القوى الجزائرية على اختلاف مشاربها واتجاهاتها ، وتدارس الجميع في جو يسوده الاخاء والشعور بالمصلحة العامة ، مطالب (الامة الجزائرية) وقد حضر هذه المناقشة كل من ابن باديس ، والشيخ البشير الابراهيمي والشيخ خير الدين عن العلماء وذلك لتقديم ارائهم فيما يتعلق بالمطالب الدينية واللغة العربية ، واتفق الجميع في النهاية على أن يضم المؤتمر المزمع عقده النواب والعلماء ، واقترح ابن باديس الدكتور محمد الصالح بن جلول رئيسا للمؤتمر ، ومحمد الأمين العمودى نائبا له ، والأستاد ابن الحاج كاتبا عاما ، وعبد الرحمن بوكردنه امين مال المؤتمر(1) فقبل اقتراحه بالاجماع .

ويبدو أن هدف ابن باديس من أختيار الدكتور ابن جلول لرئاسة المؤتمر يرجع الى ازالة شبح الخوف عن هذا الأخير الذي كان يخشى من أن تطغى هالة ابن باديس على شخصيته .

وفي اليوم السابع انعقد المؤتمر في الجزائر العاصمة بقاعة الماجستيك (الأطلس حاليا) واستجاب للدعوة حوالى خمسة الاف شخص ، وبعد كلمة الافتتاح تبارى زعماء الأمة على منصة الخطابة لشرح أوضاع المجتمع الجزائري الاقتصادية والسياسية والاجتماعية ، وكانت كلمتهم جميعا : «نحن إخوة اجتمعنا أمس على الألم وحده ، ونحن اليوم مجتمعون على الألم والأمل ، وأن هذا الأمل لا يحقق الاباتحادنا فلنتحد»(2) .

ولما جاء دور العلماء قام الشيخ ابن باديس خطيبا باللغة العربية الراقية فشرح المطالب الدينية واللغة العربية ، وأكد على أنها عناصر جوهرية في المطالب الجزائرية العامة ، ثم تلاه الشيخ البشير الابراهيمي الذي نوه بهذا اليوم وذكر بأنه دليل حياة هذه الأمة ومستقبلها ، وقد أعقبه الطيب العقبي الذي أخذ يغوص في أعماق المجتمع الجزائري بعبارات مثيرة منددا بمواقف الادارة الفرنسية من جمعية العلماء ومؤسساتها التعليمية ، وأكد في تنديده على قرار ميشال (ومنشوره) الصادرين عام 1933 واللذين

(1) ينظر :الابراهيمي / الشهاب ، م 11 ، ج 4 ، جويلية 1936 ، ص 230 .
(2) ينظر نفس المصدر ص 201 – 202 .

استهدفا غلق المساجد في وجوه ، العلماء المصلحين ، وحل الجمعية الدينية بالجزائر ، وقد كان الشيخ الطيب العقبي هو أول من ندد بهذا القرار والمنشور اللذين أغفلهما جميع التكلمين قلبه مع أنهما كانا من أخطر الاجراءات التي أصدرتها السلطات الفرنسية بالجزائر ضد العلماء ، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على جراة الشيخ العقبي وشجاعته في المواقف الوطنية . ومن هنا يتضح أن معظم الفئات الاسلامية الجزائرية قد شاركت في هذا المؤتمر بما في ذلك نجم شمال افريقيا الذي كان شائعا بين الكتاب بأنه لم يشارك في هذا التجمع السياسى ، ذلك أن أحد مناضلي حزب الشعب القدماء وهو السيد (محمد قنانش)(1) قد جاء بشيء جديد في هذا الموضوع حيث يقول بأنه قد شارك فى المؤتمر عن النجم ممثل عن فرع تلمسان وفرع مستغانم ، وقام فرع العاصمة بحفظ النظام يوم المؤتمر ، كما شارك في عدة لجان ، وقد بعث ادارة الحزب من باريس ببرقية الى المؤتمر هذا نصها : «تحية أخوية للمؤتمر الاسلامي ، تأييد ومصادقة على المطالب المفيدة لتحسين حالة الشعب . رفض كل اقتراح لمطالب لاتفيد الا الأقلية (التمثل البرلماني) كذلك كل مايمكنه أن يمن بالشخصية الاسلامية»(2) الامضاء : نجم الشمال الافريقي .

ماهي مطالب المؤتمر ودور العلماء فيه ؟

عندما أعلنت الدعوة لعقد المؤتمر كانت الاراء متضاربة حول أي برنامج توضع على أساسه مطالب (الأمة الجزائرية) من البرامج التى اقترحت ادخال اصلاحات على المجتمع الجزائري خلال النصف الأول من عقد الثلاثينات ، حيث كان هناك مشروع (فيوليت) ، وبرنامج (قيرنوت) (KIRNOTTE) النائب البرلماني ، وبرنامج (كيطولي) (CUTTOLI) نائب قسنطينة ، وبرنامج (دروكس) (DU ROUX) نائب عمالة الجزائر وكانت هذه البرامج في مجملها حسب رأي العلماء غامضة يصعب تطبيقها نظرا لمعانيها المتعددة التي قد تؤدى الى هدر الشخصية الاسلامية للجزائر سواء بصورة مباشرة أوغير مباشرة . وقد كان مشروع فيوليت أكثر تأثيرا على الطبقات المثقفة من البرامج الاخرى .

(1) المصدر السابق / ص 70 .
(2) نفس المصدر / ص 71 .

ويرى العلماء أن تعلق هذه الطبقات بمشروع فيوليت »أت من اسم صاحبه لاشتهاره ببعض المواقف في صالح المسلمين أكثر مما ات،[1] من صلاحيته في الحاضر والمستقبل للأهالي المسلمين . وأمام هذا التباين بين الزعماء الجزائريين خرج العلماء برأي أكثر وضوحا ووضع حدا لتلك الخلافات عندما اقترحوا الغاء كل هذه البرامج ، وأن لا يتخذ واحد منها أساسا لمطالب الشعب الجزائري ، لأنها وضعت في ظروف خاصة ، وبنيت على اعتبارات معينة[2] . ومن هنا وجب عدم التقيد بأي برنامج لايلبي رغبات الشعب ، وأن يوضع للمطالب الجزائرية برنامج مستقل منبثق من أوضاع (الأمة الجزائرية) ينطبق على نفسيتها وميولها الخاصة . وباقتراح العلماء هذا رفضت جميع البرامج واقتنع الزعماء بهذا الرأي ، وعملوا جميعا على وضع مطالبهم في مشروع ميثاق مستقل روعيت فيه حالة الأمة وخصائصها المتميزة ، وبذلك حل العلماء أعظم معضلة وأكبر خلاف كان سيحدث بين المؤتمرين - لوترك - بدون بديل .

فما هي اذن مطالب المؤتمر والفرق بينها وبين أهم تلك البرامج التي كانت محط أنظار كل الفئات الاسلامية الجزائرية عشية عقد المؤتمر ؟

ان جميع البرامج الفرنسية المقترحة لاتحتوى الا على بعض الاصلاحات الطفيفة مع هدرها للشخصية الوطنية للمسلمين الجزائريين ، ومما جاء في مطالب المؤتمر :

أولا - الغاء جميع القوانين والقرارات الاستثنائية الخاصة بالجزائريين المسلمين .

ثانيا - الغاء الولاية العامة الجزائرية ، ومجلس النيابات المالية ، ونظام البلديات المختلطة والمحاكم العسكرية .

ثالثا - المحافظة على الحالة الشخصية الاسلامية مع اصلاح هيئة المحاكم الشرعية بصفة حقيقية مطابقة لروح القانون الاسلامي وتحريره[3] .

رابعا - الاعتراف بحق التمثيل النيابي للجزائريين في البرلمان الفرنسي .

خامسا - اصدار العفو عن المحكوم عليهم في حوادث 5 أوت .

هذا عن أهم مطالب المؤتمر العامة والخاصة . أما الأهم في هذا الموضوع فهو معالجة

(1) الابراهيمي : مجلة الشهاب / عدد المؤتمر ، ص 205 .
(2) ينظر : نفس المصدر ، ص 206 .
(3) ينظر : الابراهيمي / مجلة الشهاب ، عدد المؤتمر ، ص 236 .

دور العلماء ، ولاسيا ابن باديس الزعيم المنظر والرجل العامل المفكر في هذا التجمع الذي ساهم مع زملائه العلماء مساهمة فعالة في تحضيراته ، وقراراته ، وسير أعماله ، حيث قدم للمؤتمرين اقتراحات عامة باسمه ، ومطالب خاصة باسم جمعية العلماء ، وذلك بعد أن نوه بالمواقف البطولية التي وقفها الشعب الجزائري بجانب الشعب الفرنسي ، والتضحيات الجسيمة التي بذلها دفاعا عن الوطن الفرنسي في حروب متعددة . ومن ثم فهو جدير بالمساواة في الحقوق مع الفرنسيين ، وبحق بأخذ الثمن على ما أداه من خدمة للعلم الفرنسي . ولهذا طالب حكومة الجبهة الشعبية الممثلة للشعب الفرنسي ومبادىء الجمهورية ، بتحقيق مطالب الشعب الجزائري ، وكانت مطالب ابن باديس التي قدمها باسمه الخاص ضمن اقتراحات المؤتمر مطالب[1] عامة في مجموعها تهم الشعب الجزائري قاطبة .

أما المطالب التي قدمها باسم جمعية العلماء فمعظمها كان منصبا على اللغة العربية واعتبارها لغة رسمية ثانية في البلاد الى جانب اللغة الفرنسية ، بالاضافة الى المحافظة على الدين الاسلامي ونشره بواسطة مؤسساته سواء التعليمية (المدارس) أو المساجد وتقويتها وتعزيزها بعناصر جديدة من خريجي مدارس دينية تنشأ من أجل هذه الغاية وبانشاء جمعية دينية تأخذ على عاتقها مهمة الاشراف على المساجد واصلاح التعليم الديني ، وانشاء كلية دينية[2] يتخرج منها رجال القضاء الاسلامي مع اصلاح المحاكم الشرعية ، وهي في أساسها محاكم اسلامية تعتني بمبادىء الشريعة .

ومن هنا فان مساهمة جمعية العلماء في المؤتمر الاسلامي كانت مساهمة فعالة في جميع مراحله ، ولاسيا الدور الذي قام به ابن باديس والابراهيمي والعقبي ، والعمودي ، وغيرهم من الذين كانوا جميعا وراء المطالب الدينية واللغة العربية ، بالاضافة الى المطالب السياسية والاجتماعية والادارية التي قدمها ابن باديس .

ومن هنا يتضح أن جمعية العلماء التي كانت توصف حتى ذلك التاريخ بأنها جمعية دينية ثقافية أصبحت تنظر وتخطط لأكبر تجمع سياسي اسلامي وتقف مواقف سياسية ثابتة من قضايا الساعة ، وتتضامن مع الاتجاهات والأحزاب السياسية المختلفة

(1) أهمها : الغاء قانون الأهالي ، والمساواة بين العمال الجزائريين والفرنسيين ، المساواة في التجنيد الاجباري بين الجزائريين والفرنسيين ، والغاء المتصرفيات ومحالس المجرمين ، التمثيل الكامل للجزائريين في المجالس المختلفة .
- مجلة الشهاب / العدد الخاص بالمؤتمر ، ص 210 - 211 .
(2) الشهاب / العدد الخاص بالمؤتمر ، ص 211 - 212 .

لوضع برنامج سياسي واجتماعي يعبر عن مطامح الشعب الجزائري الاسلامي بكل فئاته واتجاهاته ، وهذا يعني أن جمعية العلماء لم تكن بمعزل عما يجرى حولها من الصراعات الفكرية والسياسية ، وقضايا التحرر العالمي ، علاوة على كونها المؤتمنة على الدين الاسلامي والمدافعة عن تراث الثقافة العربية الاسلامية .

ان مشاركة العلماء في هذا التجمع السياسي الكبير كان له أثر ان مختلفان في الأوساط الجزائرية ، فبعض هذه الأوساط من الوطنيين المخلصين للشعب ابتهجوا – حسب رأي الابراهيمي – بدور العلماء في هذه الوحدة الشعبية وخاصة الطبقات العامة الاسلامية ، لما كانت ترى وجود العلماء في هذا المؤتمر من ضمان وكفالة لأغلى شيء لديها ، وهو الدين واللغة العربية[1] .

أما أوساط أخرى مثل الطرقيين والمعمرين فقد استقبلت مشاركة العلماء في المؤتمر باستياء وامتعاض بدعوى أن العلماء يمثلون جمعية دينية لاحظ لها في السياسة ، وكأن الدين عند هؤلاء لا يخرج عن نطاق العبادة ونواقض الوضوء ، رغم أن الاسلام يجمع بين الدين والسياسة في مبادئه وأهدافه ، وقد أعلن العلماء صراحة عن عدم اكتراثهم بتلك الأصوات التي كانت تخوفهم «بغول السياسة» ، لأنها كانت تخشى من مواقفهم الثابتة التي لاتتزعزع في الظروف الصعبة حين تنحني الرؤوس أمام سادة هذه البلاد .

وقد رد العلماء على خصومهم بقولهم : ان العلماء هم الممثلون الحقيقيون للأمة لأنهم يمثلون الأسس والمبادىء التي بدونها ماكان لهذا الشعب اعتبار ، ولا وجود في زحام الفلسفات والايديولوجيات التي ترمي في مجموعها الى اذابة العنصر العربي الاسلامي في كيان أمة غريبة عنه .

واذا كانت مطالب الأمة التي صاغها المؤتمر تتمثل في أربع نقاط أساسية هي : «الدين ، والاجتماع ، والسياسة ، والاقتصاد» ، واذا كان للنقطتين الأخيرتين من يمثلها ويدافع عنها فمن ذا الذى يدافع عن النقطتين الأوليين غير العلماء[2] . ومع ذلك فان العلماء لم يسلموا من الانتقادات حتى من بعض المفكرين المسلمين الجزائريين . فالأستاذ مالك بن نبي[3] قد انتقدهم بشدة حين قال :

(1) ينظر / مجلة الشهاب : العدد الخاص بالمؤتمر ، ص 213 .
(2) ينظر / مجلة الشهاب / العدد الخاص بالمؤتمر ، ص 213 .
(3) مذكرات شاهد القرن الطالب ، ط 1 ، دار الفكر ، بيدون 1970 ص 233 ، 234 .

«ان الظروف جعلت العلماء في المؤتمر الجزائري سنة 1936 أمناء على مصالح الشعب ، فسلموا الأمانة لغيرهم لأنهم لم يكونوا في مستواها العقلي ، وسلموها لمن يضعونها تحت أقدامهم كسلم يصعد عليه للمناصب السياسية ... لأن العلماء متكونون من بوتقة ما نسميه «بالثقافة التقليدية» (لذلك) فهم لا يستطيعون القيام بالمهام الكبرى» .

وهنا يحق للباحث أن يتساءل عما كان يقصده هذا المفكر الكبير ، بهذا القول ، وهو يعلم بأن المؤتمر الاسلامي الجزائري كان من تفكير العلماء ، وتنظيمه وأن مطالبه هي المطالب التى قدمها ابن باديس والابراهيمي للمؤتمرين ، كما أنهم شاركوا في كل مداولاته ، وفي لجانه التنفيذية ووفده ، الذي نقل مطالبه الى الحكومة الفرنسية في باريس . أما اذا كان يقصد بهذا النقد اختيار الشيخ ابن باديس الدكتور ابن جلول كرئيس للمؤتمر ، فان ذلك كان يهدف الى توحيد الصفوف ، وجمع الكلمة بين كل الزعماء الجزائريين ، لأن ابن جلول – كما سلف الذكر – كان متخوفا منذ البداية من أن تغمر هالة ابن باديس الشخصية سمعته بين المؤتمرين ، كما أن ابن باديس أو غيره من العلماء كانوا يتهربون من شغل المناصب السياسية ، لأنهم كانوا يمثلون جمعية دينية وثقافية يخشون عليها من الحل والتعطيل ، وهي المنظمة التي عملت على جمع شتات الأمة بما حملته على عاتقها من الدفاع عن مقوماتها الشخصية العربية الاسلامية .

أما البرقية التي وجهت الى الحكومة الفرنسية يوم 17 تموز (جويلية) من قبل مفتي الجزائر كحول وزملائه فقد حمل فيها أصحابها على أعضاء وفد المؤتمر عموما والعلماء على وجه الخصوص ، حيث ورد في تلك البرقية أن أولئك الذين زعموا أنهم علماء جزائريون فهم في الحقيقة غير ذلك ، لأنهم لا يملكون لا الكفاءة ولا الشهادة[1] حتى يصح تسميتهم بهذا الاسم ، بل هم مجموعة من الفوضويين هدفهم اثارةالاضطرابات في البلاد[2] . ويبدو أن هذه البرقية قد ارسلت بوحي من الحاكم العام أومدير الشؤون الأهلية في الجزائر بهدف ضرب المؤتمر بصفة عامة ، والعلماء

(1) Ali Merad. Op Cit. P. 102 et Andre Noushi la Naissance du Nationalisme Algérien. Op Cit P. 86.
(2) Charles Andre Julien : l'Afrique du nord en marche. Op Cit. P. 105.

بصفة خاصة ، ويدل على ذلك اتهام الشيخ الطيب العقبي باغتيال المفتي كحول ، وهذا الاعتقاد نجده ليس فقط عند الجزائريين ، بل عند بعض المؤرخين الفرنسيين أيضا أمثال : جوليان (JULIEN) ونوشي (NOUCHI) .

الا أن وصف العلماء بالفونوبيين والمشاغبين هو في حدذاته شرف لهم وتأكيد على وطنيتهم ومعارضتهم للاستعمار .

أما جريدة الشعب[1] الناطقة باسم حزب الشعب الجزائري ، فقد انتقدت المؤتمر وأعضائه ووصفتهم بالتامر على الشخصية الوطنية وبأنهم أجانب غير مسلمين يريدون اقحام الشعب الجزائري المسلم في كيان المجتمع الفرنسي ، حيث قالت بعد انعقاد المؤتمر الثاني : «أما نحن فقد صدعنا في شجاعة وإقدام بكلمة الحق ، ونطقنا بحكمنا العادل ... حول هذا المؤتمر ... ولقد قلنا ولانزال نقول : أن هذا المؤتمر غير اسلامي وغير جزائري لأن المهيمنين عليه هم قوم أجانب عن الاسلام بعداء عن الجزائر ... ولا يوجد جزائري يؤمن بالله واليوم الاخر يرضي أن يطالب فرنسا بعد مائة سنة استعبادا أن تلحقه بها كلقيط ... فالجزائري الشريف ... لايرضى اليوم أبدا أن يلطخ هذا الشرف بالعار ... ولا أن يتامر بضعة أنفار متعطشين للسمعة والعظمة على تسييره حسب أهوائهم والرمي به في هاوية التفرنس والانتحار القومي والأدبي والديني» .

والواقع أن هذا التعليق رغم حرارته ولهجته الوطنية الصادقة ، فانه قد بالغ في وصف أعضاء المؤتمر بهذا الوصف ، بل أنه كان مثاليا بعيدا عن الواقع الذي يعيش فيه الشعب الجزائري انذاك ، لأن المؤتمر الاسلامي في حدذاته كان طفرة شجاعة في مسيرة الحركة الوطنية الجزائرية لم يسبق لها مثيل في تاريخ هذا الشعب تحت السيطرة الاستعمارية الفرنسية.

أما الصحافة الفرنسية فقد احتفظت بجو الولاء والتفرنس للمؤتمر الذي وقف لصالح الادماج مع فرنسا والاحتفاظ بقانون الأحوال الشخصية على حد تعبير البرقية الجزائرية (LA DEPECHE ALGERIENNE) وأن كراريس المطالب أكدت على ضرورة الالحاق المطلق والمباشر للجزائر بفرنسا[2] وهذا الالحاق الاداري الذي نص عليه

(1) ينظر ، العدد الأول / ماذا يتقال في مرجل المؤتمر ، الجزائر 27 أوت 1937 ، محمد قنانش / المصدر السابق / الملحق 1 ، ص 121 - 124 .

(2) Charles Robert Ageron : Histoire de l'Algérie contemporaine, Op Cit. P. 438.

المؤتمر كان يهدف الى تخليص الجزائر من دكتاتورية المعمرين واستغلالهم للشعب الجزائري الذي أصبح مستعبدا من طرف الأقلية الأوربية المستوطنة في هذه البلاد .

هذا عن ردود الفعل والانتقادات المضادة للمؤتمر الاسلامي عموما ، وجمعية العلماء على وجه الخصوص التي كانت رمزا للتمسك بالعروبة والاسلام في المؤتمر ، والتي أختلفت النظرة اليها من طرف الأحزاب الوطنية ، والصحافة الاستعمارية ، والشخصيات البارزة في الجزائر انذاك . أما عن التعاليق التي نوهت بالمؤتمر واعتبرته حدثا بارزا في تاريخ الجزائر الحديث ، فيمكن الوقوف عندها في النقاط التالية:

ان جريدة (الأمة)[1] لسان حال نجم افريقيا الشمالية الذي انتقد بشدة بعض مطالب المؤتمر فقد قالت عقب انعقاد المؤتمر الأول : «أخيرا يسمع الشعب الجزائري صوته ، صوت القوة ، صوت التصالح والاتحاد ، صوت تختلط فيه عبارات المناضل والعامل والفلاح ، والموظف ، وسيصبح هذا التكاتف الأخوي قوة لا تقهر ، وهي مدعوة الى تحقيق تطلعات الشعب الجزائري» .

ان هذا التعليق من طرف الحزب الوطني الثوري يدل على مدى الامال التي علقت على هذا التجمع السياسي الكبير من قبل كل القوى الوطنية ، كما يدل على أن النجم كان ضمن المؤتمر في أول عهده ، وهو موقف يتناقض مع موقف حزب الشعب بعد انعقاد المؤتمر الثاني ، كما يتضح ذلك في تعليق جريدة الشعب السالفت الذكر .

أما جريدة (العدالة) (LA JUSTICE) فقد أبدت تأييد ستة ملايين من الجزائريين لهذا المؤتمر . أما جريدة (البصائر) لسان حال جمعية العلماء فقد اعتبرته الحجر الأساسي في بناء الأمة ، في حين أن جريدة (الدفاع) لسان الحركة الاصلاحية الناطقة بالفرنسية - كانت ترى فيه بداية كفاح طويل ، لأن المسلم الجزائري الذي ليس له ما يخسر ، ولا يحافظ عليه ، فانه مصمم على الكفاح الى النهاية وبكل الوسائل[2] .

أما الصحافة الفرنسية في العمالات الجزائرية الثلاث فقد اجتمعت على إكبار المؤتمر والاشادة به ، والاعتراف بصدق تمثيله للشعب الجزائري ، وبما امتاز به من قوة ونظام باستثناء بعض الصحف المأجورة مثل جريدتي النجاح القسنطينية ، والبرقية الجزائرية فقدها جماه وحاولتا التنقيص من قيمته[3] كما كتبت عنه الصحف العربية

(1) N° 40, Paris, Mai – Juin 1936.

(2) Charles Robert Ageron : Histoire de l'Algérie contemporaine, Op Cit. P. 438.

(3) الشهاب : عدد المؤتمر ص 215 .

الجزائرية والمشرقية مثل الزهراء التونسية ، والاهرام المصرية ، والجزيرة الدمشقية واعتبرته حدثا بارزا في تاريخ الحركة الوطنية الجزائرية . أما مجلة (الشهاب) لسان حال العلماء الجزائريين فقد أفردت لوقائعه وبرنامجه عددا كاملا أصبح مصدرا أساسيا للدارسين فيما بعد .

وهكذا فقد كتبت الصحف على اختلاف لغاتها واتجاهاتها مقالات وتعاليق ضافية عن هذا المؤتمر كل من زاويتها الخاصة ، وحسب ظروفها واتجاهاتها والجهة التي تنتمي اليها .

أما شاعر الشباب محمد العيد آل خليفة – وهو من العلماء المصلحين – فقد نظم عن هذا المؤتمر قصيدة من سبعة عشر بيتا مطلعها :

يـا فرنـسـا بـك الجـزائر لاذت ☆☆☆ وأكنت لـك الـولاء الشـديـدا
فـازفيـك اليـسار فـاليوم لاعـسر ☆☆☆ اليس اليـسار فـالا حميـدا ؟
فـازفيـك اليـسار فـالأمـة اليـوم ☆☆☆ ستـفـدى بمـا عسى أن يفيـدا
فـازفيـك اليـسار فـاقتربت منـك ☆☆☆ ونـاطت بـك الرجـاء الـوطيـدا
أجمعت أمرهـا لـ «مـؤتمر الشعب» ☆☆☆ فـوقتـه مهرجـانـا وعيـدا
صرخ الشعب فيـه صرختـه الكبرى ☆☆☆ ونـاداك يـترد الفقيـد[1]

وهكذا فان العلماء هم الذين جاءوا بفكرة المؤتمر الاسلامي الجزائري العام ، وهو أول مؤتمر من نوعه في تاريخ الجزائر المعاصر . كما أن اقتراحاتهم كانت هي أساس مطالب هذا المؤتمر ، وقد شارك في لجانه ، وفي الوفد الذي حمل مطالبه الى حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا بنسبة واحد عن كل عمالة من العمالات الجزائرية الثلاث وهم : ابن باديس والابراهيمي ، والعقبي ، بالاضافة الى الأمين العمودى مترجم العلماء . كما أنهم قد تنبؤوا بفشل وفد المؤتمر وبرفض الحكومة الفرنسية لمطالبه قبل أن يعود من باريس ، وقد صدق الواقع تنبؤهم ، حيث لم يتحقق من رغائب المؤتمر أدنى مطلب . ومع ذلك كله فان العلماء قد اعتبروا ذلك التجمع السياسي الكبير علامة بارزة في تاريخ الحركة الوطنية ، ودليلا قاطعا على وعي الشعب الجزائري ويقظته وتطلعه للحرية والحياة الكريمة[2] .

---

(1) الشهاب / عدد المؤتمر ص 217 .
(2) نفس المصدر ، ص 238 .

ومن هنا فانه لم تحدث في الجزائر العربية المسلمة قبل سنة 1936 أن عبرت عن ارادتها بمثل هذا الوضوح رغم أن ممثليها كانوا متناقضين الى حد ما عندما مزجوا بين مطالب وطنية ، ومطالب المساواة مع الفرنسيين أثناء المؤتمر ، ولكن ذلك لا ينقص شيئا من هذا الموقف التاريخي العظيم الذي قد أكد على التمسك بمقومات الشخصية العربية الاسلامية لهذا الشعب وأعطى دفعا جديدا للحركة الوطنية التي أعادت النظر في مناهجها ورسائلها ، وقيمت حصيلة جهود عقدين من النضال السياسي المنظم مما جعلها تتبع (استراتيجية) جديدة في الكفاح ضد المحتلين . كما أن هذا المؤتمر قد أكد للزعماء المسلمين الجزائريين تصلب المستعمر وتمسكه بالسياسة الاستبدادية ضد الشعب الجزائري ، بل أن فشله (أي المؤتمر) قد قرب وجهات النظر بين الاتجاهات الوطنية عامة ، وحزب الشعب الجزائري خاصة .

أما أسباب فشله فتعود الى عدة عوامل أهمها :

– معارضة المعمرين العنيفة له ، وعدم وجود حكومة قوية تستطيع فرض مطالبه على المستوطنين ، بالاضافة الى معارضة التيارات الوطنية الثورية المتطرفة مثل نجم افريقيا الشمالية الذي شارك ببعض ممثليه في مداولات المؤتمر ، ولكن لم يكن موافقا على بعض مطالبه . ورغم انهياره بسرعة ، فقد كان بادرة طيبة للوحدة الوطنية التقت فيه كل الآراء والنظريات السياسية ، بل أنه كان منعطفا حاسما في تطور الحركة الوطنية ، وظهور العلماء كزعماء سياسيين على مسرح الأحداث الوطنية . مما جعل جمعيتهم تخرج من النطاق المحلي الى المجال العالمي . وقد يتساءل المرء عن سبب معارضة المعمرين والحكومة الفرنسية لهذا المؤتمر مادام أحد مقرراته ينص على الحاق الجزائر بفرنسا ؟

والجواب عن هذا السؤال في غاية البساطة . فالهدف من الحاق الجزائر اداريا بالوزارت الفرنسية في باريس يعني ازالة سلطة المعمرين التي تمثل العنصرية في أبشع صورها ، واعطاء الحقوق السياسية للجزائريين ومساواتهم بالفرنسيين يعني تجريد المعمرين من امتيازاتهم السياسية والاقتصادية ، ومشاركة الجزائريين في جميع المؤسسات المحلية والوظائف السامية تعني فتح المجال أمامهم للوعي السياسي ، وبالتالي انطلاقهم في ميدان التحرر الوطني ، سواء على المدى القريب أو في المستقبل البعيد ،وهذا المبدأ يتعارض أساسا مع مصالح المعمرين الذين كانوا يعتبرون أنفسهم سادة هذه البلاد في حين كانوا ينظرون الى الأهالي المسلمين على أنهم عبيد لم يرتقوا الى مستوى المدنية المعاصرة .

فان مساندتهم للمشروع لم تكن الا من حيث المبدأ مادام يعترف للجزائريين ببقائهم على أحوالهم الشخصية كمسلمين مع اعطائهم حق الانتخاب فى مجلس الأمة الفرنسي[1] الذي يستطيعون بواسطته الدفاع عن حقوق مواطنيهم المحرومين .

وعلى أية حال فان المرء لا يستطيع أن يحدد موقف العلماء من مشروع فيوليت الا بعد دراسة وتحليل الاطار السياسي الذي ولد فيه هذا المشروع على الساحة الجزائرية .

بعد الاحتفالات الفرنسية بمرور مائة عام على احتلال الجزائر عينت لجنة من مجلس الشيوخ سنة 1931 برئاسة موريس فيوليت نفسه لدراسة أوضاع المسلمين الجزائريين وتقديم اقترحات خاصة بادخال اصلاحات جديدة لفائدتهم ، وبالفعل فقد جاءت هذه اللجنة الى الجزائر واتصلت ببعض الشخصيات الاهلية[2] البارزة وقدمت مشروعا أصبح يعرف باسم مشروع فيوليت . ولكن مناقشته في مجلس الشيوخ طالت الى سنة 1935 حين رفض بعد التصويت في يوم 21 آذار (مارس) من نفس العام[3] رغم ماقدمه صاحبه من حجج لاقناع زملائه وتحذيرهم من مغبة بقاء الوضعية الراهنة في الجزائر[4] .

ولما جاءت الجبهة الشعبية فى سنة 1936 بعثت المشروع من جديد وادخلت صاحبه ضمن أعضاء الحكومة مختصا بالشؤون الجزائرية ، ومنذئذ أصبح المشروع يحمل اسم (مشروع بلوم – فيوليت) وفي السنة التالية (1937) أصبح يسمى باسم «برنامج الحكومة»[5] .

ماهو اذن محتوى هذا المشروع ؟

ان هذا المشروع في الواقع لا يتصل الا بمسألة تمثيل المسلمين الجزائريين بمجلس الأمة الفرنسى ودمج الناخبين المسلمين ضمن مجموعة واحدة مع الفرنسيين بل أن لا يعطي للمسلمين نوابا منهم ينتخبونهم على حدة لتمثيلهم في مجلس الأمة ولكن تشترك نخبة من الأهالي يترواح عددها مابين عشرين وخمسة وعشرين الف في انتخابات

---

(1) الشهاب : م 13 ، ج 3 ، قسنطينة ، ماي 1937 ، ص 160 .

(2) Cherif Sisbane, Op Cit Notes sur les reformes... Op Cit.

(3) جريدة النجاح / عدد 1684 ، قسنطينة 24 مارس 1935 .

(4) ينظر / أبو القاسم سعد الله المرجع السابق/ الجزء الثالث ، ص17 .

(5) الشهاب / م 13 ، ج 3 قسنطينة ، ماي 1937 ، ص 160 .

المرشحين ، ويكون النائب الفرنسي الذي ينتخب في البرلمان ممثلا للفرنسين ، وللمسلمين معا[1] .

ذلك أن الناخبين المسلمين لا يكونون الا أقلية بناء على هذا المشروع ، ومن ثم لا يمكنهم أن يبعثوا بنائب منهم الى مجلس الأمة الفرنسي ، وبذلك يصبحون مضطرين الى انتخاب أحد المرشحين الفرنسيين الذي يتوسمون فيه الخير لمساعدتهم والدفاع عن مصالحهم[2] .

هذا من جهة ومن جهة أخرى فان هذا المشروع لا يعطي حق الانتخاب الالفئات اجتماعية معينة لا يمكن أن تعبر عن ارادة الأمة ، وقد نصت المادة الأولى من الفصل الأول من هذا المشروع على اعطاء حق الانتخاب لفئات خاصة من الجزائريين «دون أن ينتج عن ذلك أي تغيير في حالتهم الشخصية ، أو في حقوقهم المدنية بصورة نهائية»[3] . وتتمثل هذه الفئات في الضباط العسكريين الذين خرجوا من الجيش الفرنسي وهم يحملون شهادات حسن السلوك من سلطتهم العسكرية ، وكذلك الجزائريين الذين يحملون الشهادات العلمية والموظفين الذين انتخبوا لشغل بعض المناصب في الادارة الفرنسية ، أو الذين انتخبوا بالغرف التجارية أو الفلاحية ، وكذلك النواب الماليين والمستشارين البلديين ، والباشاغوات والأغوات ، والقياد الذين باشروا وظيفتهم في مدة لا تقل عن أربع سنوات وغيرهم من الذين أحرزوا على أوسمة الشرف من موظفين وعمال[4] .

هذه هي الفئات التى نص عليها مشروع فيوليت بعد أن أدخلت عليه تعديلات سنة 1936 .

هل يكون من المعقول اذن أن يطالب العلماء بتطبيق هذا المشروع وهو لا يعطي حق الإنتخاب الالفئة ضئيلة من المسلمين الجزائريين الذين قد تكون لهم عواطف اتجاه الفرنسيين بناء على الاعتبارات السابقة ؟

ان العلماء قد قبلوا هذا المشروع من حيث المبدأ فقط واعتبروه نقطة البدء في

(1) نفس المكان .
(2) جريدة النجاح / عدد 2109 ، قسنطينة 5 مارس 1938 ، ذكر نفس المصدر أن عدد المنتخبين ارتفع سنة 1938 الى ثلاثين الف ، وذلك نتيجة للتزايد الديموغرافي .
(3) الشهاب / م 13 ، ج 3 قسنطينة ماي 1937 ، ص 160 .
(4) نفس المصدر ، ص 162 .

تحقيق الاصلاحات الواسعة ، كمانص عليها ميثاق المؤتمر الاسلامي السالف الذكر .

قبل انعقاد هذا المؤتمر بسنة واحدة علقت الشهاب على هذا المشروع واصفة اياه بالعجز عن تحقيق مطالب المسلمين ، وبينت موقفهم منه حيث شرحت أن الآراء قد انقسمت حوله مابين محبذ ، ومنكر له ، فمن المسلمين من كان يرى فيه اندماجا مقنعا ، ومنهم من يرى فيه عدم الكفاية بالمرة ، لأن ادماج أقلية ضئيلة من المسلمين ، ضمن كتلة الناخبين الفرنسين لا تغير نتيجة الانتخابات ولا تجر أي مغنم . ومنهم من رأى أنه غير ديمقراطي بالمرة ، فهو يمنح حق الانتخاب لطائفة معينة أكثرها من رجال الادارة والحكومة ، ويترك بقية الشعب محروما من الانتخاب ، ومنهم من يرى أن هذا البرنامج يزيد في الطبقات الجزائرية قسما جديدا ، وبذلك يزداد الانقسام ويكثر الشقاق فتصبح البلاد مؤلفة من فرنسيين ومن متجنسين مرتدين ، ومن متجنسين محافظين على الشخصية الاسلامية ومن أهالي غير متجنسين وليس لهم اي حق في الانتخاب[1] .

ومن هذا التحليل يتضح أن العلماء قد انتقدوا المشروع انتقادا شديدا ، ولكن فشل المؤتمر الاسلامي في مطالبه ، وتهديدات الحكومة الفرنسية وضغط المعمرين عليهم ، جعل العلماء يقفون موقف التأييد لمبدأ مشروع فيوليت رغم أنهم اسقطوا محتواه في المؤتمر . واذا كان بعض المعاصرين قد لاموا العلماء على تأييدهم لمبدأذلك المشروع فان هؤلاء الاخرين كانوا متيقنين من أن حصانة الجزائريين المسلمين تحفظهم من الذوبان في أي كيان غريب عنهم[2] .

أما ابن باديس[3] فقد أعلن رأيا أكثر وضوحا حين قال بعد انعقاد المؤتمر سنة (1936) «على فرنسا أن تعطي للجزائريين جميع حقوقهم كاملة غير منقوصة وليس لها أن تطالبهم بالانخلاع عن أقل شيء من مميزاتهم ودينهم ولغتهم ، فقد قاموا بما فرضته عليهم من الواجبات . وهم على قوميتهم ودينهم ولغتهم فلتعطهم جميع الحقوق وهم على قوميتهم ، ودينهم ، ولغتهم ، وعلى هذا المبدأ كنا نقاوم بروجي فيوليت (كذا في الأصل) ويعني بذلك مشروع فيوليت لما فيه من عدم التسوية فى الحقوق ، لا بين

(1) الشهاب / م 11 ، ج 1 قسنطينة أفريل 1935 ، ص 44 .
(2) الشهاب / م 13 ، ج3 قسنطينة ماي 1937 ، ص 156 ، 66 .
(3) تنظر : الشهاب / العدد الخاص بالمؤتمر ، ص 214 – 215 .

الجزائريين والفرنسيين ، ولا بين طبقات الجزائريين أنفسهم ، ومافيه من تهيئة الطبقة المثقفة للاندماج مع السكوت التام عن الدين واللغة قاومناه أيام كان الناس متمسكين به ... نعم ثبتنا على تلك المقاومة لأننا نعرف أننا بمبدئنا نعبر عن عقيدة جمهور الأمة ونعرب عن احساسها ... «ثم اضاف ابن باديس موضحا رفضه لهذا المشروع قائلا : «وجاء المؤتمر وطلبت مني لجنة قسنطينة أن أضع لها مارآه من المطالب ، ووضعت مطالب أقرها المؤتمر بالاجماع ، وبذلك» ... سقطت جميع البروجيات»[1] .

وبعد فشل المؤتمر اصبحت لهجة العلماء شديدة ومهددة للحكومة ، حيث كتبت جريدة (البصائر) بهذا الصدد تقول : «ان الأهالي لم يثوروا لأنهم عقدوا آمالهم على حكومة الجبهة الشعبية ، ولكن في حالة ما اذا لم يحصلوا على شيء بعد صبر طويل، وانتظار غير مجد ، سيخرجون الى الشارع ، ولن تكون عليهم أية ملامة ولاعتاب لقيامهم بأعمال يائسة ، واللوم يرجع الى الذين قطعوا عليهم طريق السعادة»[2] .

ان ابن باديس قد تأكد - بعد فشل الوفود الاسلامية ، والوعود الفرنسية - من أن الجبهة الشعبية لم تكن في مستوى القوة التي كانوا يظنونها ، وبأن الرأسالية كانت تتحكم فيها وبأن فيوليت كان يعمل أساسا لصالح فرنسا . كما فهم أن الادارة تريد ضرب جمعية العلماء بتشجيع معارضة الطرقيين لها . وقد أزدادت خيبة العلماء بعد تصريحات راوول أوبو[3] (RAOUL AUBAND) حين قال : «علينا أن نعرف اذا كنا نريد أولا الحفاظ على نفوذنا (في الجزائر) يجب تطبيق سياسة حاكمة في المستعمرة ... اجزاءات استثنائية وصارمة تكون ضرورية لوقف نشاط المشوشين من كل نوع ...»[4] وقد وقعت هذه التصريحات موقع اليأس والقلق في نفوس العلماء حتى أن اكثرهم اعتدالا عندئذ وهو الشيخ الطيب العقبي ندد بذلك وهو مايزال تحت طائلة المتابعة القضائية اذ قال : ان تصريحات (أبود AUBAUD) الخاطئة ولجوئه الى الإجراءات التعسفية وتشديد الحكم أمر غير مألوف ولا مبرر اذ «ليس هناك في الجزائر ثورة أو تمرد ضد الحكم الفرنسي ، بل هناك فقط ثورة في الأفكار وادراك للواجب .

(1) نفس المكان 215 .

(2) Mahfoud Kaddache : Histoire du Nationalisme Algérienne. Op Cit. 457.

(3) راوول أوبو : هو نائب سكرتير الدولة للداخلية قام بزيارة للجزائر سنة 1937 .

(4) Mahfoud Kaddache : Histoire du Nationalisme Algérienne, Op Cit. P. 457.

هناك أيضا شعب يعرف بأنه مرتبط بفرنسا ، فهو يؤدي كل الواجبات ويتحمل كل الالتزامات ، لكنه يرى بأنه محروم من حقوقه»[1] .

وفي الاحتفال الذي أقيم بقسنطينة بمناسبة الذكرى الأولى للمؤتمر الاسلامي سنة 1937 دعا عبد الحميد بن باديس المسلمين الى الاتحاد أكثر من أي وقت مضى من أجل الحصول على مطالبهم ، وأعلن بأن مشروع فيوليت ماهو الا خطوة أولى نحو تحقيق الاصلاحات ولكنه خطوة ضرورية[2] .

وهكذا فان العلماء قد أكدوا أولا وقبل كل شيء على عروبة الجزائر واسلامها ووطنيتها ووجودها كأمة حية تستطيع أن تحافظ على مميزاتها ومقوماتها الشخصية مع تمتعها بالحقوق السياسية التي يتمتع بها الفرنسيون في الجزائر ، وقد أكد هذا الاتجاه غير واحد من العلماء كان في طليعتهم ابن باديس كما أعلن في شهرين نيسان ، وتشرين الثاني (أفريل ونوفمبر) سنة 1936 أي قبل المؤتمر وبعده .

أما الشيخ مبارك الميلي فقد أوضح هذه المسألة بدوره حين لخص اتجاهات العلماء في نقطتين أساسيتين الأولى تسير في اتجاه وطني «أي المحافظة على كل مابقي من الدين الاسلامي ومعارضة كل قانون قد يمس به والمحافظة على كل مايميز الجزائر من حيث اللغة والتكوين الروحي والتقاليد وبعض المميزات الخاصة» .

أما النقطة الأخيرة فكانت تدل على الليونة والمرونة مثل «التعليم باللغة الفرنسية وبالتنافس مع الأجناس الأخرى فيما يخص التطور المعنوي والعلمي ، وتحسين ظروف الحياة الاجتماعي بالتعاون مع الحكومة والعناصر الاخرى»[3] .

وفي الرد على آراء بعض النواب حول وجود الحركة الاسلامية في الجزائر أو عدم وجودها في محاورة مع بعض الممثلين الفرنسيين ، قال العلماء : «ان الشهاب معتز بخطته ثابت على مبادئه ، وهو فخور بأن يكون ممثلا للقومية الاسلامية الجزائرية وهذه القومية الاسلامية الجزائرية التي لن تفنى ولن تزول ليست بالحركة الهدامة ، ولا هي بالحركة المثيرة المهيجة ، كلا بل انما هي حركة أمة تريد أن تحفظ نفسها ، وتصون ذكرى اسلافها وتحتفظ بمميزاتها وتراثها العريق[4] وهذا دليل اخر على تمسك

(1) Mahfoud Kaddache. La vie politique à Alger. Op Cit. P. 348.

(2) La lutte sociale N° 101, du 12 Juin 1937.

(3) Mahfoud Kaddache, Histoire du Nationalisme Algérienne. Op Cit. P. 459.

- نقلا عن جريدة البصائر 30 أفريل 1937 .

(4) الشهاب / م 13 ، ج 3 قسنطينة ، ماي 1937 ، ص 125 - 126 .

العلماء بميزاتهم الوطنية وشخصيتهم الدينية رغم مطالبتهم بالاصلاحات السياسية المتمثلة في ميثاق المؤتمر ومشروع فيوليت .

وقد أكد ابن باديس على الوطنية الجزائرية في اطار وطنية الشمال الافريقي ، وعلى وحدة البلدان المغربية الأربعة ، عند ماصرح في تونس بمناسبة ذكرى وفاة الشيخ بشير صفر 1937 ، حيث قال : «أرجوا أن تعتبروني جنديا من جنود الاسلام والعروبة في القطر الجزائري ... وأن الروابط بين تونس والجزائر ، بل بين المغرب العربي بصفة عامة - طرابلس ، وتونس ، والجزائر ، والمغرب الأقصى - كالروابط العلمية والروابط السياسية التي ذاقت بها هذه الأقطار حلاوة الاستقلال تحت ظل الاسلام والتاريخ يشهد بذلك»(1) .

ومن هنا فان نشاط العلماء في الدفاع عن الاسلام والعروبة والوطن الجزائري كان واضحا . ومعروفا لدى جميع الأوساط الاسلامية والفرنسية على السواء ، حيث كان ابن باديس وزملاؤه العلماء ينادون بوحدة الشعوب العربية في الشمال الافريقي(2) .

وعندما طرحت القضية الوطنية في اطار التجنس مع إلغاء قانون الأحوال الشخصية وحاولت الادارة عن طريق أعوانها التخفيف من كراهية المسلمين لعملية التجنيس حين أوعزت لبعض عملائها باصدار فتوى تبيح للمسلمين التجنس بالجنسية الفرنسية قاومها العلماء بشدة ، حيث رد العقبي على تلك الفتوى بأن التجنيس كما يطرح في شمال افريقيا حرام(3) . اذ كان يشترط على المسلم التخلي عن أحواله الشخصية رغم أن العقبي كان يرى بأن الجزائري يمكن أن يكون مسلما ، ومواطنا فرنسيا في آن واحد لأن الاسلام في نظره لا يتعارض مع المواطنة الفرنسية ، بل أنه يعتبر وجود الشعب الجزائري تحت السلطة الفرنسية هو من مشيئة الله ، وعلى الشعب الذي يقع تحت حكم غيره أن يمتثل له بالطاعة والولاء ، خاصة اذا كان يعامله معاملة انسانية(4) .

ولكن اضطهاد الادارة وتهديداتها ورفضها لكل مطالب الجزائريين قد جعل العلماء أحيانا يخففون من لهجتهم ويتظاهرون بالولاء للحكومة . فابن باديس كان

(1) الشهاب / م 13 ، ج 5 قسنطينة ، جويلية 1937 ، ص 226 - 227 .

(2) Mahfoud Kaddache Histoire du Nationalisme Algerienne. Op Cit. P. 525.

(3) Loc Cit.

(4) Ibid. P. 335.

من ناحية يذكر فرنسا بأن الجزائر حريصة على شخصيتها ووحدتها الوطنية ، ومن ناحية أخرى يذكر بأن بلاده «تكن لفرنسا عواطف مودة صادقة» ويتمنى أن تعرف هذه الأخيرة كيف تحافظ عليها(1) .

وهكذا فان العلماء بعد فشل المؤتمر الاسلامي حاولوا أن يقفوا بجانب الفئات الجزائرية الأخرى للمطالبة بمشروع فيوليت من أجل تحقيق بعض الاصلاحات للمسلمين الجزائريين كخطوة أولى في طريق الحرية الدينية والسياسية ، والاقتصادية ، والوصول بالجماهير الشعبية الى مرحلة أكثر وعيا ونضوجا لتطالب باستقلالها الوطني ، ولكن مماطلة الحكومة الفرنسية وعدم قدرتها على تطبيق الاصلاحات الجزائرية جعل العلماء يغيرون مسارهم وينبذون مشروع فيوليت ، ويرفضون تحمل مسؤولية المؤتمر الاسلامي ، حيث كتبت جريدة الشعب(2) بهذا الصدد في سنة 1937 تقول : ان الشيخ البشير الابراهيمي «الذي نلقبه بدائرة معارف تمشي على قدمين ينبذ هذا المؤتمر بالعراء في مجتمع رهيب ، وأن مشروع فيوليت أداة هدم للقومية وتخريب للذاتية لأن المؤتمر لا يسير على طريق مستقيم ، وأن رجالا يريدون استعبادنا طالما خدعونا وغرروا بنا ، ونحن نريد مطالب وطنية تنبني على حفظ القومية الوطنية(3) .

وكذلك العلامة الأستاذ عبد الحميد بن باديس الذي كتب لجميع الصحف ووزع نداء عاما يباغت به الأمة ويفاجيء المؤتمر وادارته التنفيذية بهذه الثورة العلنية - وان كانت متأخرة - يهيب برجال لعقد مؤتمر فوق العادة ليقرروا فيه قرارا جماعيا . وقد مهد لهذا النداء بخطاب القاه في نادى الترقي يقول فيه : «ايها الناس استعدوا ليوم عظيم» وقد جعل هذا النداء العلني الخطير «حواري المؤتمر» يتشأمون من هذا النداء البليغ ويململون من عمل الشيخ هذا»(4) .

وصفوة القول أن دور العلماء وموقفهم من المؤتمر الاسلامي كان من تدبيرهم وتخطيطهم ، ومطالبه كانت من اقتراحاتهم وتوجيهاتهم ، ورئيسه كان من تعيينهم

(1) الأمة الميزابية : 20 أفريل 1937 .

(2) ينظر : العدد الأول ، الجزائر 27 أوت 1937 نقلا عن قنانش : الملحق 1 المرجع السابق ، ص ص 125-126 .

(3) ينظر نفس المصدر ، ص 126 .

(4) جريدة الشعب / عدد 1 ، الجزائر27 أوت 1937 نقلا عن قنانش الملحق 1 المرجع السابق ، ص 126 .

وتأييدهم . أما مشروع فيوليت وان كانت مضامينه قد رفضت من قبل العلماء الا أنه خلق لهم أرضية يتحركون من خلالها للمطالبة بحقوق الشعب المهدورة لأن مبدأه كان يمثل فاتحة عهد جديد في اطار المطالبة بالاصلاحات السياسية والاقتصادية مع إبقاء الجزائريين محافظين على حالتهم الشخصية كمسلمين ، ذلك أنه لأول مرة في تاريخ الجزائر الفرنسية تناقش أطروحة فرنسية تتضمن تحديد وضعية الجزائريين القانونية ضمن اطارهم الخاص بعد أن عاشوا زهاء قرن من الزمن في وضعية قانونية خاصة لا وجود لها البتة في القانون العام ، ومن هنا فلا غرابة في أن يطالب العلماء بحقوق الانسان واخراج الشعب من الحالة الأهلية والقوانين الاستثنائية كخطوة أولى في طريق التحرير الوطني .

ان الحركة الاصلاحية ، والفكرية التى وصل اليها العلماء خلال الثلاثينات تعتبر في حد ذاتها مرحلة البدء في تطور المجتمع الجزائري الحديث وازدياد وعيه بحريته واستقلاله كشعب صاحب حضارة عريقة متميزة ، وأن تركيز العلماء في حركتهم على أمجاد الماضي ، والتذكير بحرية ووحدة شعوب المغرب العربي قبل ربطه بالاستعمار الأوروبي والمناداة بوحدة شعوب المنطقة العربية والوقوف في وجه الهيمنة الأجنبية - لدليل قطع - على يقظة النخبة ذات الثقافة العربية وتطلعها الى الحرية والانعتاق من ربقة الاستعمار .

والحق أن السياسة التي سلكها العلماء في الجزائر خلال الربع الثاني من القرن العشرين ليست فريدة من نوعها في التاريخ العربي ، فالحركة الوطنية التونسية قد اتبعت نفس السياسة عندما كان زعيمها بورقيبة ينادى بسياسة المراحل المعروفة بعبارة «خذ وطالب» ، وكذلك كانت سياسة الملك فيصل الأول في العراق تحت الانتداب الانكليزى بعد الحرب العالمية الأولى ، اذ كان شعار سياسته «خذ وطالب» بل فان الحزب الوطني الثوري (نجم افريقيا الشمالية وحزب الشعب الجزائري) كان يبدأ في برنامجه بالمطالب الاصلاحية ، ثم تأتي المطالب الاستقلالية في النهاية ، وهذا أمر طبيعي في نهضات الأمم وحركات القوميات الحديثة التى كانت تتدرج في سلم الرقي الاجتماعي الى أن تصل الى مرحلة تقرير المصير بنفسها .

والواقع أن العلماء الجزائريين قد سلكوا نفس السبيل بدليل انضمامهم الى الثورة التحريرية الكبرى ووصولهم الى أعلى المراكز القيادية فيها ، وليس العبرة بمن أشعل فتيلة الثورة فحسب بل بأولئك الذين احتضنوها وساروا بها في مسالك شائكة أيضا .

فمصالي الحاج الذي كان أول زعيم لأول حركة وطنية رفعت شعار الاستقلال منذ سنة 1927 ، وكرس حياته من أجل الدفاع عن هذا الوطن مايزيد عن ثلاثين عاما لم تجد فيه ثورة التحرير الوطنية لا مدافعا ولا مؤيدا لها ، بل كان من الذين قاوموها وحاولوا اطفاء شعلتها .

وهكذا فان الذين يتهمون جمعية العلماء بفكرة الادماج وعدم الثورية وبالنعومة اتجاه الفرنسيين فماكانوا يتكلمون بروح التعصب الى جهة معينة ، أو انهم غير قادرين على ادراك التحليل التاريخي للحركة الوطنية الجزائرية في وقت بلغ فيه الاستعمار ذروته في البلاد ، وأصبح لا يذكر الجزائر الا كما يذكر قطعة من فرنسا بل من باريس .

ولعل تخلي فرنسا السريع عن مصالحها في كل من تونس والمغرب عقب اندلاع الثورة الجزائرية ، وتركيزها على الجزائر وحدها لدليل قاطع على مدى تمسك فرنسا بالقطر الجزائري الذي كانت تسميه (بالمستعمرة الفريدة) ، وتضحي من أجله بكل القيم الانسانية ، والمبادىء الديمقراطية التي رفعت شعارها ، منذ سنة 1789م .

الفصل العاشر

جمعية العلماء وحركة أحباب البيان والحرية

ظهرت حركة أحباب البيان والحرية كتجمع سياسي كبير ضم كل الاتجاهات الوطنية في البلاد ، بعد مرحلة طويلة من التجارب ، واختبار القوى المعادية ، والبحث عن مواطن الضعف في مسار القوى الوطنية ، وقد أعلن عن انشاء هذه الحركة في ربيع سنة 1944 ، وهي آخر منظمة وطنية في الفترة المدروسة ، من حيث بدايتها ونهايتها كحركة سياسية .

وبالرغم من قصر عهدها ، فانها قد خلقت مناخا ملائما لتقارب وجهات النظر بين الاتجاهات الوطنية ، والتيارات السياسية المختلفة ، وزادت في تباعد الشقة بين الجزائريين والمستعمرين بفضل دعايتها الواسعة ، وعبارات قادتها المؤثرة على الجماهير الشعبية . وكان حل هذه الحركة بسرعة نقطة تحول واضح في تطور الحركة الوطنية الجزائرية ، واتجاهها نحو الكفاح المسلح .

كيف بدأت فكرة أصدقاء البيان والحرية ؟

رأينا في الفصل السابع من هذا البحث أن النخبة الجزائرية قد وجهت رسالة في يوم 20 كانون الأول (ديسمبر) 1942 الى الحكومة الفرنسية ، وقادة الحلفاء بعد نزول قواتهم في شمال افريقيا يوم 8 تشرين الثاني (نوفمبر) 1942 تطالب فيها باصلاحات سياسية ، واجتماعية ، واقتصادية للمسلمين الجزائريين وذلك ردا على نداء الاميرال الفرنسي (درلان)[1] DARLAN الذي طلب فيه من مسلمى شمال افريقيا أن يساهموا

(1) Claude Collot - Jean Robert HENRY. Op Cit. P. 152.

في المجهود الحربي بجانب الحلفاء فكانت مطالب النخبة الجزائرية بزعامة عباس فرحات بمثابة شرط للمشاركة في الدفاع عن فرنسا وحلفائها ، ولكن صيغة تلك المطالب قد رفضت من قبل الحاكم العام ، فأعادت النخبة الكرة مرة أخرى ، وبعثت برسالة معدلة الى السلطات الفرنسية وحدها فلقيت نفس المصير ، ولكن تحديد المطالب وتعدادها بشكل نهائي لم ينجز الا بعد فترة طويلة نسبيا لأن مسألة وضع واصدار البيان[1] كانت ماتزال غامضة ، ومن ثم فقد تتالت رسائل المطالب الاصلاحية من طرف النخبة الجزائرية الى الجنرال كاترو (CATROUX) في يوم 31 آذار (مارس) و 11 حزيران (جوان) 1943[2] ، وذلك بعد البيان الذي وجهه عباس فرحات في يوم 10 شباط (فيفري) 1943 الى الجنرال ديغول والرئيسين الاميريكي روزفلت ، والانجليزي تشرشل ، وقد جرت تسميته عندما بدأ خبره ينتشر في الأوساط الشعبية بـ «بيان المنتخبين المسلمين» ، وهي تسمية كانت من ابتداع الدكتور ابن جلول ، الذي كان «يمثل البورجوازية الاسلامية في الجزائر – على حد تعبير كلود كولو ، وجان روبير هنري – يطالب بتطبيق الشرعية الفرنسية ، ومبادىء فرنسا الديمقراطية والانسانية في الجزائر .

ولكن مكانة الدكتور ابن جلول قد توارت بسرعة أمام كتلة المسلمين الجزائريين بزعامة عباس ، حيث اتهم ابن جلول بأنه كان يخدم مصالحه الشخصية ، وبأنه لم

---

(1) المقصود بالبيان هو جملة المطالب التي حررها عباس فرحات في يوم 10 فيفري 1943 وصادق عليها النخبة الجزائرية ، وتتضمن مقدمة وأربعة فصول ، وهذا ملخصه :

أ – ادانة الاستعمار وتحطيه ، أي القضاء على استغلال شعب من طرف شعب آخر .

ب – المطالبة بتطبيق مبدأ تقرير المصير لكل الشعوب الصغيرة والكبيرة .

ج – اعطاء الجزائر دستور خاصا بها يضمن لها : الحرية والمساواة المطلقة بين جميع سكانها بدون التفريق في العنصر أو الدين .

د – الغاء الملكية الاقطاعية والقيام باصلاح زراعي كبير .

ز – الاعتراف باللغة العربية كلغة رسمية بجانب اللغة الفرنسية .

ع – حرية الصحافة ، وحق انشاء الجمعيات .

ك – التعليم المجاني والاجباري للاولاد ذكورا واناثا .

ن – حرية العبادة ، وفصل الدين عن الدولة .

هـ – المشاركة الفعلية الفورية للمسلمين الجزائريين في حكومة بلدهم .

و – تحرير كل المعتقلين السياسيين .

– Paul Emil Sarasin - la crise algérienne. les éditions du cerf (Paris 1949) PP. 86. 87.

Claude Colot - Jean Robert henry. Op Cit . p. 152. (2)

يكن يتمتع بحرية كاملة ازاء الادارة الفرنسية ، بالاضافة الى أنه قد أظهر وجها فاترا في المعارضة خلال تلك الفترة[1] . ولكن فرحات عباس الذي عزم على الدخول في الكفاح السياسي الوطني ، سمى تلك المذكرة باسم «بيان الشعب الجزائري» فكانت التسمية ايذانا بدخول حركة النخبة الجزائرية في مرحلة جديدة ذلك أن الشباب المسلمين قد تخلوا عن الدكتور ابن جلول ، واتبعوا عباس فرحات ومن ثم فقد تركوا برنامج المطالب المعتدلة ، وتعلقوا ببرنامج متطرف . وهكذا أصبح الشعب الجزائري كله يطالب بالحقوق السياسية التي لم تعد مقصورة على النخبة وحدها وأصبح الشباب الجزائري أكثرها هوما ، واخلاصا للمبادىء الوطنية ليس فقط من أجل المشاركة في الحياة السياسية مع المجموعة الفرنسية ولكن من أجل الاستقلال الوطني ، وهذا الاتجاه قد ظهر في البيان[2] وسيعبر عن نفسه بوضوح أكثر في تصريحات حزب أحباب البيان والحرية كما سيأتي في حينه ، وكذلك في حوادث 8 مارس 1945 ،

وهذا وقد حاول عباس فرحات في شهر آيار (ماي) 1943 انشاء «جبهة دستورية جزائرية» لجمع كل الرجال الذين يريدون مكافحة النظام الاستعماري ، ومساندة مطالب البيان وملحقه . وكان تحرير مشروع هذه الجبهة في يوم 5 حزيران (جوان) 1943 وقد عرضه عباس فرحات على مصالي الحاج في يوم 9 من نفس الشهر .

ولكن هذا المشروع ، لم يأت ثماره فاتصل عباس فرحات بالشيخ البشير الابراهيمي والدكتور الأمين الدباغين ، والدكتور فرانسيس ، حيث فكر مرة أخرى في انشاء حركة أكثر شعبية ، وكانت الفكرة الاولى تدور حول الاسم الذي يعطيه لهذه الحركة ، فسماها (الجزائر الحرة) . ولكن بعد اعتقاله ، وخروجه من السجن غير فكرة الاسم الأول ، وأختار اسما جديدًا ، أقل جاذبية ، وبروزا ، «لأن استعمال اسم ملفت للانتباه (في رأيه) يشتمل في معناه على التعبئة السياسية ، يكون سببا في عرقلة انشاء الحركة» . وهكذا أطلق على الجمعية ، المنتظر انشاؤها اسم «جمعية أحباب البيان» ، ثم عدلها فصارت تحمل اسم «أحباب البيان والحرية»[3] .

ولما صدر أمر 7 آذار (مارس) سنة 1944 من قبل اللجنة الفرنسية للتحرير

Paul Emil Sarasin. Op Cit. PP. 81. 82. (1)

LOC cit (2)

Charles Robert Ageron. Histoire de l'Algérie contemporaine. Op Cit P. 567. (3)

الوطني (C.F.L.N.) باعطاء الجنسية الفرنسية لبعض الفئات الجزائرية ، ولم يجب عن مطالب البيان ، أعتبر من طرف الوطنيين الجزائريين غطاء للحقيقة ، ودعوة للادماج من جديد ، فكان الرد على هذا التشريع الفرنسى الأول من نوعه في الجزائر الاعلان عن انشاء حركة أصدقاء البيان والحرية في مدينة سطيف ، وذلك يوم 14 آذار (مارس) سنة 1944 أي بعد صدور أمر اللجنة الفرنسية بأسبوع فقط . ذلك أن هذه اللجنة قد رفضت بعنف مطالب الشعب الجزائري ومطامحه في تقرير مصيره بنفسه ، ومن ثم فانها لم تترك للممثلين المعتدلين في الحركة الوطنية مجالا اخر سوى خوض الكفاح بجانب الجماهير الشعبية ، وكانت الظروف مناسبة على الصعيدين المحلى ، والخارجي وتسمح فعليا بانشاء تجمع وطني كبير ، بعد تنازلات واتفاقات بين التيارات الوطنية الأساسية الثلاثة ، حزب الشعب الجزائري ، (السرى) ، والعلماء ، والمنتخبون من أنصار عباس فرحات(1) .

وقد عرف حركة أصدقاء البيان والحرية أحد الكتاب الفرنسيين وهو (بول اميل سارازان)(2) PAUL EMILE SARASIN ، الذي يبدو أنه كان مسؤولا في الجزائر خلال الأربعينات ، في رده على اسئلة بعض مواطنيه حول الوضع السياسى في الجزائر ، بقوله : «ان أحباب البيان والحرية» (وهو الاسم الحقيقي الذي كانوا يطلقونه على جمعيتهم حتى سنة 1946) ، مجموعة سياسية تكونت ، في غضون 1943 ، من شباب مسلمين . وهذا التكوين ليس له أي أصل ، لا من حيث طبيعته ، ولا من حيث تسميته ، فهي جمعية من المتطرفين الذين يقلدون الديمقراطية ، ويبالغون في تطبيقها الى درجة تستحيل معها الحياة . انها حركة مقتبسة عن الغرب ، وقد عبر قادتها ،أكثر من مرة عن تمسكهم بالاسلام ، ولكن ذلك لم يكن سوى تقليد فقط ، حتى لا تقول أنها دسيسة سياسية ، لأن قادتها معروفون بأنهم رجال مثقفون بعلومنا الغربية يجهلون الاسلام ، ولا يهتمون بمستقبله ،وأن اقترابهم من العلماء – حزب نشأ من وحي ديني بحت – يعتبر في نفس الوقت دسيسة حربية واعتراف بالضعف أمام كل السكان الذين مازلوا متمسكين بالدين .

(1) Ahmed Mahsas. Le mouvement révolutionnaire en Algérie de la 1 ère guerre mondiale à 1954. Edition L'Harmattan. Paris 1979. P. 175.

(2) Op Cit. P. 59.

ان هذا التعريف من كاتب فرنسي ، معاصر لنشأة هذه الحركة لم تكن تعريفا موضوعيا يعتمد عليه خاصة فيما يتعلق بتأسيس الحركة واسمها ، بل وحتى بالنسبة لرجالها ، ذلك أن الكاتب يتحدث عن النخبة المتفرنسة وحدها دون اعتبار العلماء ومناضلي حزب الشعب الذين كانوا أعضاء في هذه الحركة . رغم أنه يعترف في مكان آخر من كتابه(1) بأن هذه الحركة قد نشأت عن البيان الصادر في يوم 10 شباط (فيفري) سنة 1943 والذي صادق عليه(2) ، بالاضافة الى النخبة ، العلماء ومناضلو حزب الشعب(3) . كما أنه يدعى بأن أصحابها يبالغون في الديمقراطية ، وأية ديمقراطية ياترى في ظل القوانين التعسفية ، والأحكام الجائرة ؟ كما أنه يتناقض مع نفسه حين يذكر : أن هذه الحركة تكونت من شباب مسلمين ثم يقول أنهم يجهلون الاسلام ، ولا يهتمون بمستقبله ، ويستنكر هذا الاسم «جمعية أصدقاء البيان والحرية» على هذه الحركة معقبا على ذلك بقوله : ان هذا الاسم يطلق في فرنسا على الجمعيات الأدبية ، والموسيقية ، والرياضية مثل : «جمعية اصدقاء لا مارتين» «Amis De Lamartine» وجمعية «اصدقاء اناطول فرانس» «Amis D'Anatole France» الخ ... ولكن هناك جمعيات من النوع السياسي أو الاجتماعي تريد أن تؤثر في المحيط الاجتماعي تطلب التأييد من جمعية «اصدقاء» .

«ويبدو لي بأن هدف جمعية الأصدقاء هذه هو ايجاد المال وتمويل التجمع»(4) فهو باختصار يعتبرها لعبة سياسية قام بها الوطنيون الجزائريون لتغطية أهدافهم الوطنية .

وعلى أية حال فان حركة أصدقاء البيان والحرية كانت (عبارة عن جبهة مؤلفة من متحالفين أكثر منها حزبا سياسيا متماسك الأيديولوجية) ، وكان السيد عباس

(1) La crise algérienne. P. 61.

(2) من بين الذين صادقوا على هذا البيان : السايح عبد القادر ، الدكتور مزالي ، الدكتور ابن جلول ، أحمد غريبي ، ابن تونس ، اورابح ، ابن علي شريف ، خيار الطالب عبد السلام ، روني فوضيل ، احمد عباسة ، الدكتور الاخضرى ، تمزالي خليل ، تمزالي علاوة ، الدكتور سعدان ، عبد الكريم بوالصوف ، خالف عبد الرحمن ، لالوت محمد ، شريف ابن يوسف ، الاستاذ مصطفاي ، الدكتور فرانسيس ، الاستاذ بومنجل ، الدكتور بن خليل ، الاستاذ غريب ، عباس محمد الصالح ، مفدى زكريا ، الامين العمودى ، شريكي ، الدكتور ساطي ، الدكتور آيت سي احمد ، الشيخ توفيق المدني ، الشريف ابن حبيلس ، حفاظ الخ .

(3) فرحات عباس / المرجع السابق ، ص 167 – 170 .

(4) paul Emil Sarasin. Op Cit. P. 60.

فرحات هو كاتبها العام ، وفي نفس الوقت المسؤول السياسي عن جريدة «المساواة» «Egalité» التي كانت تصدر بالفرنسية ، وتعبر عن مبادىء الحزب الجديد ، وقد تشجع أعضاؤها بالوجود الأميريكي - الانجليزي في الجزائر ، مستغلين الضعف الذي كانت فرنسا تعاني منه ، كما تشجعوا باستعداد الشعب الجزائري للتضحيات ، وفي غضون فترة قصيرة انضم عدد كبير من الأتباع الى حركة الأصدقاء ، حيث بلغ عددهم خمسمائة الف شخص وحوالي 165 فرعا في جميع انحاء البلاد[1] .

واذا كان حزب الشعب قد وافق على انشاء هذه الحركة والانضمام اليها ، فانه لم يكن يأمل في الاندماج ، أو الذوبان بين التيارات الأخرى على قاعدة البيان ، بل أنه يرى في هذا المشروع فرصة لتكوين حركة شرعية تجعل تجميع القوى سهلا ، والتعبير عن الواقع الوطني الجزائري ممكنا[2] ويكون هو طرفا فيها نظرا لتجريده من الشرعية الحزبية منذ سنة 1939 ، وفي ذلك يقول عباس - عندما زار مصالي الحاج في مكان اعتقاله ببوغار بالقرب من قصر الشلالة في الجنوب الجزائري - «لقد زرته (أي مصالي) وكان موافقا على عملي مع بعض التحفظات . لقد وضع في ثقته دون أن يقحم مسؤوليته في الأمر ، وكان يعي جيدا أنه علينا أن نعمل شيئا ، ومع هذا كان يقول لي «اذا كنت اثق فيك في تحقيق جمهورية جزائرية متحددة مع فرنسا ، فانني لا أثق في فرنسا اطلاقا ، لأن فرنسا لن تعطيك شيئا ، ولن تتنازل الا بالقوة ، ولن تعطي الا ماينتزع منها»[3] . ومن هذا النص يتضح أن مصالي الحاج ، زعيم حزب الشعب الجزائري ، قد وافق على انشاء جمهورية جزائرية ، كما يعتقد عباس ، ولكن من أجل ايجاد الشرعية لحزبه المنحل ، وتوحيد القوى الوطنية في بوتقة واحدة للكفاح المشترك ضد الاستعمار الذي لن يتخلى عن الجزائر الا بقوة السلاح .

أما جمعية العلماء فان عباس فرحات يؤكد بأنها قد وافقت على مشروعه بسرعة ، ولكنها أيضا قد حافظت على برنامجها ومطالبها الخاصة في المجالات الثلاثة ، المساجد ، التعليم ، القضاء ، وهذا مايتجلي في مذكرة لها وجهت الى الحكومة العامة

---

(1) أبو القاسم سعد الله / المرجع السابق ، ج 3 ، ص 247 .

(2) Ahmed Mahsas. Op Cit. P. 175.

(3) Ahmed Mahsas. Op Cit. P. 175.

في يوم 5 آب (أوت)[1] سنة 1944 تطالب فيها بفصل الدين ، والقضاء والتعليم العربي عن الحكومة الفرنسية .

وهكذا فان العلماء أيضا قد وافقوا على مشروع عباس المتعلق بانشاء حركة أحباب البيان والحرية ، ولكن دون أن يتخلوا عن جمعيتهم ، وبرنامجهم ، لأن الجميع قد ابتهجوا بهذه المبادرة الوطنية من طرف عباس ، ولكن لا أحد من مناضلي حزب الشعب ، وجمعية العلماء كان يثق في الحكومة الفرنسية وبأمل في الاستقلال منها بهذه السهولة . وهكذا يتضح أن عباس فرحات لم يقدم على المناداة بانشاء حركة أحباب البيان والحرية والمطالبة بجمهورية جزائرية ، وبرلمان وطني الا بعد أن تشاور مع الابراهيمي ، وحصل على موافقة مصالي الحاج ، أثناء لقائه معه في مكان اعتقاله في بوغار كما سلف الذكر ، واذا كان مصالي والابراهيمي قد وافقا على هذا الطرح المقدم من طرف عباس فرحات ، فانهما قد أعجبا باسم «حركة أحباب البيان والحرية» ، لأنها لم تكن حزبا سياسيا بالمعنى الدقيق ، ولكنها تضم كل الاتجاهات الوطنية الجزائرية ، باستثناء الشيوعيين .

ومن هنا يتضح أن حزب الشعب الجزائري لم يكن من أنصار «كل شيء أو لا شيء» حيث ترك الفرصة لمبادرة المعتدلين (مع الأحتفاظ بمواقفه) . وقد حاول أن يدفع بأحباب البيان والحرية نحو موقف ثوري كأداة فعالة للكفاح .

ان وجود مناضلين من حزب الشعب داخل أحباب البيان - كما يقول محساس[2] - «لم يكن من باب سياسة مبيتة كما أدعى البعض ، ولكنها ناتجة ، أولا وقبل كل شيء ، عن الاتفاق حول أفكار البيان ، وعن اتفاقات تمت بين التيارات الثلاثة لبعث هذه الحركة» .

لقد كان كل من العلماء ، وفرحات عباس ، والمنتخبين يعلمون علم اليقين النوايا السياسية ، وأهداف وتحفظات حزب الشعب ، وكذلك نشاط مناضليه الثوريين . كما أن الجميع أيضا كانوا يدركون أهداف العلماء في انضمامهم الى حركة أحباب البيان والحرية ، وهي الحفاظ على مبادئهم وبرنامجهم الذي ناضلوا من أجله منذ أربعة عشر

---

(1) ينظر ، محمد البشير الابراهيمي : تقرير الجمعية حول المساجد والتعليم والقضاء المطبعة الاسلامية الجزائرية ، أوت 1944 ، مديرية الوثائق ، ولاية قسنطينة .

(2) Op Cit. P. 177.

عاما ، ولكن كان أمل الجميع هو أن تتجمع هذه التيارات السياسية الجزائرية حول الفكرة الوطنية (ضد سياسة الادماج) ، كهدف أدنى لكل تجمع . وكان ذلك في الواقع هو أمل الجماهير الشعبية ورغبتها في أن ترى الحركة الوطنية موحدة حول قاعدة طموحها في الحرية والاستقلال[1] .

هذا باختصار عن موقفي العلماء ، وحزب الشعب من انشاء حركة أحباب البيان والحرية .

ترى كيف كان موقف الحزب الشوعي الجزائري من هذه الحركة ؟

إن الشيوعين كما تؤكد المصادر المعاصرة لم يقتربوا البتة من هذه الجمعية ، بل انهم قد وقفوا بعيدا عنها ، وراحوا يعملون على انشاء حركة مضادة باسم (أحباب الديمقراطية) ، وذلك في شهر أيلول (سبتمبر) سنة 1944[2] ، وهاجموا حركة أصدقاء البيان والحرية «ووصفوها بالوطنية الكاذبة» ، واعتبروها من وحي الامبريالية الخارجية ، وأعلنوا الحرب بسرعة ضد الذين يدعون الوطنية ، ويضعون في مقدمة مطالبهم عبارة الاستقلال المستحيلة على حد تعبيرهم[3] ، وقد طالبت جمعية أحباب الديمقراطية من المسلمين الجزائريين أن يتحدوا ويساعدوا الشعب الفرنسي لكي يحقق ، بجانب فرنسا الحرة السعيدة ، جزائر حرة سعيدة ، ولكن هذه المحاولة للحزب الشيوعي الجزائري قد باءت بالفشل ، كما أعترف عمار أوزقان ، في الندوة العامة للحزب الشيوعي في يوم 23 أيلول (سبتمبر) سنة 1944[4] .

وهكذا يلاحظ المرء أن الحزب الشيوعي الجزائري قد تطور تطورا سلبيا ، بعكس الحركات السياسية الأخرى كالنخبة مثلا ، ففي المؤتمر الاسلامي الجزائري سنة 1936 كنت ترى الشيوعيين يتسابقون على الانضمام اليه ، ويعملون على انجاحه بكل ماأوتوا من قوة ، وتعلقوا به حتى نهاية المطاف رغم أنه كان مؤتمرا اصلاحيا بصورة عامة لم يرتق الى مستوى المطالبة بحكومة وطنية جزائرية ، في حين تراه يمتنع عن الانضمام الى حركة أصدقاء البيان والحرية ، التي نادت بجمهورية جزائرية وبرلمان وطني ، بل فانه قد هاجم اعضاءها ووصفهم «بالوطنية الكاذبة» .

(1) Ahmed Mahsas. Op Cit. P. 177.
(2) Claude Collot - Jean Robert Henry. Op Cit. PP. 185-186.
(3) Charles Robert Ageron. Histoire de l'Algérie Contemporaine. Op Cit. P. 568.
(4) Loc cit.

القانون الأساسي لحركة أحباب البيان وطابعه الاستقلالي .

كان المحرر الرئيسي لهذا القانون هو السيد عباس فرحات[1] في مدينة سطيف ، ويحتوي على خمس مواد ترسم سياسة الحركة ومنهجها ووسائلها ، وأهدافها :

المادة الأولى – وهي مادة تقليدية ترد في بداية كل قانون أساسي للجمعيات والاحزاب السياسية والدينية تشتمل على اسم الحركة ، ومكانها ، وطبيعتها ، وأهدافها ، وهذا نصها :

انشئت في الجزائر جمعية للتعريف والدفاع عن بيان الشعب الجزائري أمام الرأي العام الجزائري الفرنسي ، والمطالبة بحرية الكلام ، والتعبير لكل الجزائريين ، وهذه الجمعية تسمى أحباب البيان والحرية .

المادة الثانية – ان هذه الجمعية تحارب بالقول وبالقلم المبدأ الاستعماري ، والعنف ، وظلم القوات الامبريالية في افريقيا وآسيا ، وهي ضد استعمال العنف مع الشعوب الضعيفة[2] .

وأن هدفها هو المساهمة في خلق عالم جديد بفضل احترام الانسان في أي مكان ، والتسهيل ، والاسراع بمجيء «انسانية جديدة ، حيث تكون جميع الشعوب ، ومن كل الأجناس حرة ومتحدة متآخية في عالم السلام»[3] .

المادة الثالثة – فبالنسبة للجزائر ، فان مهمة هذه الجماعة العاجلة هي الدفاع عن البيان الذي هو تعبير عن الفكر الحر الشريف ، وبث الأفكار الجديدة ، والادانة الكلية لتعسف النظام الاستعماري ، ومذهبه العنصري وعدم المساواة .

المادة الرابعة – ان وسائلها تتمثل في انقاذ كل ضحايا القوانين الاستثنائية والضغط الاستعماري ، واستغلال كل الفرص لحمل اقناع وخلق مجرى للدعاية لصالح البيان ، وتقريب فكرة الأمة الجزائرية من الاذهان ، وخلق جمهورية مستقلة في الجزائر متحدة مع جمهورية فرنسية جديدة ضد الاستعمار والامبريالية .

القيام بمقابلات ومحاضرات في كل الأوساط ، وخاصة الأوساط الفرنسية ، وكشف القناع عن كل التصرفات ، وأعمال القوات الرجعية ، والاقطاعية الاسلامية

(1) قدم عباس فرحات نصوص هذا القانون الى مكتب عامل عمالة قسنطينة في يوم 4 أفريل 1944 .
(2) Claude Collot - Jean Robert henry. Op Cit. P. 186.
(3) مقتبسة من مؤتمر رابطة الانسان سنة 1931 .

والفرنسية ، وكل من لهم مصالح في ابقاء النظام الاستعماري ، وازالة كل وصمة فرضها الاستعمار باسم السياسة العنصرية ، والانتهازية ، وأصحاب الامتيازات (الأهالي والفرنسيين المحليين) .

محاربة كل الامتيازات الموجودة بين الطبقات الحاكمة ، السعي من أجل تحقيق العدالة ، وحق الوجود ، والحياة الوطنية للشعب الجزائري ، التذكير بماضيه الحضاري ومشاركته في اثراء الفكر الانساني ، ابراز كل التضحيات التي بذلت من أجل الحريات الفرنسية ، والشعوب الأوروبية ، ومسألة الديمقراطيات ، استعمال كل الوسائل لمحاربة مركب النقص الذي بثه الاحتلال العسكرى ، منذ سنة 1830 ، في صفوف الشعب الجزائري ، والذي زادته الادارة الاستعمارية سوءا[1] ، خلق التضامن الجزائري بين كل سكان الجزائر من مسلمين ، ومسيحيين ، ويهود ، والشعور بالمساواة ، والرغبة في حب التعايش ، وهده الرغبة على حد تعبير (رنان) RENAN هي العنصر المكون للأمة[2] .

المادة الخامسة - التكوين الداخلي : هذه المجموعة مسيرة من قبل لجان محلية تابعة للجان اقلمية ، والى لجنة مركزية مقرها الجزائر العاصمة[2] . من نص هذا القانون يلاحظ المرء أربع نقاط رئيسة : تتمثل الأولى في أن عباس فرحات قد أعلن ولأول مرة فكرة انشاء جمهورية جزائرية مستقلة ومتحدة مع فرنسا ، بعد ربع قرن من البحث عن وطن له في فرنسا باعتباره هو المحرر لهذا القانون الأساسي .

أما النقطة الثانية ، فهي أن عبارة الحرية تقرأ فى كل مادة من هذا القانون ، بالاضافة الى عبارة الوطن الجزائري ، وهي انطلاقة جديدة في مسار الحركة الوطنية الجزائرية ، ولا سيما في حركة عباس وزملائه الذين كانوا لا يرون النور خارج الاطار الفرنسي قبل الحرب العالمية الثانية .

ثالثا ، يلاحظ القارىء من هذا النص أن حركة أصدقاء البيان والحرية لم تكن حركة محلية فحسب ، بل أنها تهدف الى محاربة الاستعمار والاضطهاد في كل من افريقيا وآسيا .

(1) Claude Collot - Jean Henry. Op. Cit. P. 186.

(2) Loc cit.

(3) حرر هذه الوثيقة ووقع عليها السيد فرحات عباس في سطيف بتاريخ 14 مارس 1944 .

رابعا ، ان هذه الحركة قد استعملت أسلوبا سياسيا خاصا لكسب تأييد العناصر السكانية الأخرى في الجزائر مثل المسيحيين واليهود . وهي حيلة سياسية على مايبدو لتدعيم الحركة والسير بها بعيدا عن اجراءات الحل والتعطيل من قبل الادارة الفرنسية . وكان أول مؤتمر اقليمي لحركة أحباب البيان والحرية ، قد انعقد بقسنطينة في يوم 22 أيار (ماي) 1944 وقد حي في بداية لائحته الاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي اعلنتها (اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني .C.F.L.N) كما شكر الجنرال ديغول على موقفه الخاص المتعلق بالأخوة والتضامن بين الشعبين الفرنسي والجزائري ، حيث أعتبر تلك الاصلاحات كمرحلة أولى نحو تطبيق القوانين الاجتماعية في الجزائر ، والرغبة في تحسين مصير الشعب الجزائري . وطلب من الجنرال ديغول تطبيق الاصلاحات في أقرب وقت .

هذا وقد رأى المؤتمر بأن الحريات (التعبير والفكر) قد اضطهدت خلال حكم نظام فيشي VICHY الذي أثر كثيرا على الحريات التي كان يتمتع بها الشعب الجزائري ابان حكم الجمهورية الثالثة ، ومن ثم فقد طالب المؤتمرون باطلاق سراح المعتقلين السياسيين الذين لم تثبت ضدهم تهمة التخريب ، وعرقلة مساعي الحرب أو التجسس لصالح العدو ، ولا سيما تحرير مصالي الحاج ، الذي اعتقل أثناء حكم نظام فيشي VICHY المسير من قبل الأعوان الفاشيست الألمان والايطاليين .

2 - ارجاع حق التنقل ، وحرية الدعوة الى الشيخ البشير الابراهيمي رئيس جمعية العلماء ، حيث أعتبرالمؤتمرون تعسف الشرطة ضد الابراهيمي ، مساسا بحرية الفكر ، والممارسات الدينية الاسلامية .

وقد شكر المؤتمرون كل الفرنسيين المحافظين على مبادىء الثورة الفرنسية سنة 1789 ، سيما الجمهوريين الذين ساندوا المسلمين في أوقاتهم الحرجة . كما شكر خصوصا الشيوعيين ، وبعض الاشتراكيين الذين استطاعوا ، عن طريق نشاطهم الواسع ، أن يحققوا بعض الاصلاحات الاقتصادية ، والاجتماعية ، وهي التي كانوا يعتقدون بأنها ستغير مصير الفئات الكادحة[1] .

أما في الميدان السياسي ، فان المؤتمر قد عبر ، بصدق وموضوعية عن أن الاندماج المعلن عنه في الأمر الصادر يوم 7 آذار (مارس) ، السالف الذكر يتعارض مع طموح الجماهير المسلمة .

(1) Claude Collot - Jean Robert Henry. Op Cit. PP. 187-188.

وبالرغم من ان المؤتمرين قد اشادوا بفكرة ديغول (الكريمة) ، فانهم اعتبروها ضئيلة لا تحل المشكل الجزائري .

هذا وقد قرر المؤتمر بأنه لا يندفع في طريق المستقبل الا بعد استشارة السكان المعنيين ، حتى يكون قراره قائما على قواعد صلبة تتلاءم مع الجهد البناء الذي تقوم به الحكومة المؤقتة للجمهورية . وفي انتظار ذلك قرر المؤتمرون خلق مناخ ملائم لحلول مشاكل المستقبل بالعمل «على وفاق القلوب» ومن هنا فان المؤتمر قد طالب بالنقاط التالية :

أولا - حرية التفكير وحرية الرأي .

ثانيا - حرية الصحافة باللغتين (العربية والفرنسية) .

ثالثا - الحرية الدينية ، وحرية التعليم باللغة العربية .

وفي نهاية اللائحة ، التي أصدرها المؤتمر تأكيد للجنرال ديغول والحكومة المؤقتة على تضامنهم لتحرير فرنسا وانتصار الحلفاء[1] .

يتضح من محتوى مقررات هذا المؤتمر أن حركة أحباب البيان والحرية ، قد مزجت بين مطالب كل الاتجاهات الوطنية المؤسسة لها مثل حرية الصحافة باللغتين وحرية الدين ، وتعليم اللغة العربية ، وتحرير المعتقلين ، وغيرها من المطالب التي طالما نادى بها كل من العلماء ، وحزب الشعب ، وجماعة النخبة . ولكن هذه المطالب في رأي المؤتمرين ، ماهي الا تمهيد للحل النهائي للمشكل الجزائري الذي يتمثل في الحرية والاستقلال للشعب الجزائري عن فرنسا . لا سيما وأنهم قد رفضوا أمر 7 مارس المتعلق بدمج حوالى اثنين وستين الف جزائري في الحياة الفرنسية ، وهو مطلب نادت به بعض الحركات السياسية الجزائرية ، خلال الثلاثينات من هذا القرن بزعامة عباس فرحات نفسه .

وفي شهر كانون الثاني (جانفي) 1945 عقد الأصدقاء مؤتمرهم الثاني في مدينة الجزائر ، وقد اسفر عن المطالبة بالغاء نظام البلديات المختلطة والحكم العسكري في الجنوب ، وبجعل اللغة العربية لغة رسمية[2] .

وخلال شهر شباط (فيفري) 1945 الصق منشور على الجدران في مدن الجزائر جاء

(1) Claude Collot - Jean Robert Henry . Op Cit. P. 188.

(2) أبو القاسم سعد الله : مرجع سابق / ج 3 ، ص 248 - 249 .

فيه : «أيها الاخوة المسلمون إن حياة بلادكم في خطر فالاستعمار قد خربها ماديا ومعنويا . إن الشعب الجزائري لم يتمتع بالحضارة لوجود المستعمر الفرنسي ، فاللغة العربية مضطهدة منذ الاحتلال ، والاسلام أصبح محل سخرية ، وأن كرامتنا لايضمن لها الاحترام الا في اطار (كيان جزائري) وحكومة جزائرية تقوم على سيادة الشعب الجزائري ، وترفض أية سيادة أجنبية ، ومن أجل هذا الهدف مات اخوتكم في الزنازن وهم يعانون في السجون والمحتشدات ، ومنهم من يناضل بحماسة في اطار الشرعية أو في الخفاء»[1] .

ان نص هذا المنشور كان صرخة ثورية قوية لتحميس الجماهير واتحادها وراء قادتها ، للوقوف في وجه المستعمر خاصة ، وأنها قد جاءت في وقت كانت فيه الجماهير الشعبية تتطلع ، بشوق ملتهب ، الى ماستسفر عنه نتائج الحرب .

واذا كانت نصوص المؤتمرين الأول والثاني لحركة أحباب البيان لم تعلن بوضوح عن مطلب الاستقلال ، فان المؤتمر الثالث المنعقد في شهر آذار (مارس) سنة 1945 قد طالب بانشاء جمهورية جزائرية مستقلة ضد الاستعمار والامبريالية ، وانشاء حكومة ، وبرلمان جزائريين ، وقد كان السؤال المطروح خلال المؤتمر الثاني «هل يكون ذلك تحت الحماية الفرنسية وفي اطار الاتحاد الفرنسي» ؟ فكان جواب الأغلبية ليس بالضرورة أن يكون الأرتباط مع فرنسا ، بل يمكن فتح الباب للاتحاد العربي[2] واذا كان هذا هو رأي الأغلبية في المؤتمر الثالث لحركة أحباب البيان والحرية ، فان أكثرية الشعب الجزائري كان يطمح الى الاتحاد العربي بدلا من الاتحاد الفرنسي[3] .

هذا وقد أعقبت انعقاد هذا المؤتمر حملة دعائية واسعة النطاق الى درجة أن عباس فرحات قد وصفها بأنها حركة مبالغ فيها ، وفي رأيه أنها تجاوزت الحد المطلوب .

ويبدو أن موقف عباس هذا كان ناتجا عن تخوفه من ردود فعل المعمرين المتعصبين ، فدعا أعضاء الحركة ، في شهر نيسان (أفريل) سنة 1945 ، الى الهدوء[4] .

(1) نفس المرجع ، ص 250 . وكذلك Paul Emile Sarasin. Op Cit PP. 61. 62.

(2) Henri Benazet. Op Cit. P. 50.

(3) Ahmed Mahsas. Op Cit .P. 77.

(4) Henri Benazet. Op Cit. P. 50.

وهكذا يلاحظ المرء أن الحركة الوطنية الجزائرية قد دخلت في مرحلة جديدة ، باتحادها في جمعية وطنية ، لها برنامج موحد ، وأهداف مشتركة ، بعد أن كانت قبل الحرب العالمية الثانية شيعا وأحزابا متفرقة ، وأكبر دليل على هذا الوفاق الوطني الجديد هو التحول الجذري في سياسة عباس الذي طالب ، ولأول مرة ، بانشاء حكومة جزائرية وبرلمان وطني ، وان كان هذا المطلب الجديد لم يرد في ملحق بيان الشعب الجزائري ، الذي تحدث ، بصورة غامضة ، عن حق فرنسا في الحل والعقد ، فان روبير آجيرون (ROBERT AGERON) يرى أن اقتراح عباس المتعلق بانشاء حكومة جزائرية ، متحدة مع الرابطة الفرنسية ، كان من نظريات رجال السياسة الفرنسيين الذين اقترحوا مثل هذا الحل في (المتروبول) . ويبدو أن ذلك كان يهدف تكتيكي واضح ، لأن عباس فرحات لم يتلفظ ، في سنة 1944 ، أمام مواطنيه المسلمين بعبارة الحل الفيدرالي لمشكلة الجزائر ، كما يلاحظ المرء أن عبارة الاستقلال تقرأ في كل مواد القانون الأساسي لحركة أحباب البيان والحرية ، حيث صرحوا بأن هذه الحركة «ستكشف كل مناورات القوى الرجعية ، والاقطاعيين المسلمين والفرنسيين وكل من لديه مصلحة في استرار النظام الاستعماري»[1] «واعلان الحرب ضد امتيازات الفئات المسيرة ، والمناداة بالمساواة ، والحق في حياة أفضل ، وفي الحياة الوطنية للشعب الجزائري» . وهكذا يلاحظ المرء أنه لأول مرة تدخل البورجوازية الوطنية الجزائرية في برنامجها مطامح البروليتارية التي يدافع عنها حزب الشعب الجزائري على حد تعبير (روبير آجيرون ROBERT AGERON)[2] .

وصفوة القول أن حركة أصدقاء البيان والحرية قد جاءت كنتيجة للظروف الجديدة التي طرأت على العالم بصفة عامة ، والجزائر بصفة خاصة . ذلك أن عباس فرحات ، المؤسس لهذه الحركة ، قد ظهر على مسرح الأحداث بوجه جديد ، وفكر متحرر «ليملأ الفراغ السياسي الذي تركه غياب ابن باديس ، ومصالي الحاج ، والابراهيمي ، وابن جلول»[3] وذلك بموت الأول ، ونفي الثاني ، الثالث ، وفتور نشاط الرابع ، فحرر بيان الشعب الجزائري وعمل على تكوين هيئة تدافع عنه ،

(1) ينظر المادة الرابعة من القانون الأساسي لحركة أحباب البيان

(2) Histoire de l'Algérie Contemporaine. Op Cit. P. 568.

(3) ينظر ، أبو القاسم سعد الله / المرجع السابق ، ج 3 ، ص 240 .

وهي حركة أحباب البيان والحرية التي أعلن عن تأسيسها في يوم 14 آذار (مارس) سنة 1944 كما سلف الذكر ، وهي الهيئة التي استقطبت آمال الجزائريين وطموحاتهم الوطنية في الحرية والاستقلال على اختلاف اتجاهاتهم السياسية ، وتكوينهم الثقافي ، وتعبر عن رفضهم القاطع لقرار لجنة الاصلاحات الفرنسية «وتعليق لافتات بالعربية في أهم المدن الجزائرية تعلن لا للجنسية الفرنسية ، نعم للجنسية الجزائرية . وتسقط الجنسية الفرنسية وتعيش الجنسية الجزائرية للجميع»[1] .

وهكذا تكونت جبهة متحدة بين عباس ، ومصالي الحاج ، والابراهيمي وأنصارهم ، وأصبح عباس هو الناطق باسمها . وفي الحال وزعت منشورات سرية تدعو الجزائريين الى مقاطعة الانتخابات البلدية التي كانت منتظرة . وأعلن عباس نفسه في شهر حزيران (جوان) سنة 1944 «أن الوضع خطير وأنه لا يمكن الانتظار حتى تتحرر فرنسا ، بينما الجزائر لاتزال أرضا فرنسية»[2] .

هذا وقد عرفت حركة الأصدقاء نجاحا مدهشا ، خاصة بعد أن سمح لها باصدار جريدة المساواة (Egalité) الأسبوعية ، والتي وزعت على نطاق واسع ، حيث بلغ عدد نسخها (130،000 نسخة)[3] ، وأصبحت تدافع عن أهداف الحركة ، وارتفعت أصوات العلماء تصف كل من يوافق على الجنسية الفرنسية بالكفر والخيانة .

واذا كان بعض القياد قد دافعوا عن قرار مارس ، فان الحملة التي شنها العلماء ضدهم جعلتهم يتراجعون عن موقفهم . وقد وعد عباس باسم حركة أصدقاء البيان بأنهم سيعملون على توزيع الثروات على الفلاحين والبروليتارية الوطنية ، وأنهم يقفون ضد الاقطاعيين والطبقات الممتازة ، وأنهم يسعون الى اقامة جمهورية جزائرية مرتبطة بفرنسا ، بعد أن تتحرر من فكرتي الاستعمار والامبريالية .

وهكذا جاءت حركة أحباب البيان والحرية كتجسيد لمطالب الشعب الجزائري الذي لم يعد يرضى بأية اصلاحات في ظل السيادة الفرنسية ، بل أنه أصبح طموحا الى الحرية والاستقلال . وقد بعثت حركة أحباب البيان والحرية الأمل في أوساط الجزائريين باعتبارها حركة وطنية تجمع في صفوفها كل الاتجاهات التي أخذت

(1) ينظر ، نفس المرجع ، ص 241 .

(2) ينظر أبو القاسم الله : المرجع السابق ، ج 3 ، ص 241 .

(3) Charles Robert Ageron. Histoire de l'Algérie Contemporaine. Op Cit P. 568.

منعطفا جديدا في الوطنية «وبذلك أصبحت كلمة الجزائريين لأول مرة موحدة وراء هدف واحد هو الحرية والاستقلال ضمن اطار الشخصية الوطنية»[1] .

ولكن هذه الحركة لم تعمر طويلا بسبب أهدافها الواضحة القوية الداعية الى الاستقلال الوطني ، حيث سارعت سلطات الاحتلال الى حلها بعد حوادث 8 ماي 1945 ، والقت بكل أعضائها في السجن أمثال : الشيخ البشير الابراهيمي ، وعباس فرحات ، وعشرات الآلاف من أنصار البيان والعلماء ، ومناضلي حزب الشعب ، والصقت بهم تهمة المؤامرة الكبرى .

وهكذا فان اعضاء جماعة النخبة – وعلى راسهم عباس – الذين كانوا من دعاة الادماج في حركتهم ، وبرنامجهم ، والعلماء الذين كانوا يوصفون برجال الدين التقليديين أحيانا ، وبالمصلحين المحافظين أحيانا أخرى أصبحوا سياسيين وطنيين متحدين مع أعضاء حزب الشعب الوطني الذي رفع شعار الحرية والاستقلال منذ انشائه ، رغم أن هذا الموقف الجديد كان يعتبر في ذلك التاريخ – كما يرى البعض – مغامرة وطنية ، لأن فرنسا الاستعمارية ظلت متمسكة بسياستها العنصرية رغم ماقدمه الجزائريون من تضحيات جسيمة للعلم الفرنسي حتى في أوروبا نفسها ، خلال الحربين العالميتين ، وقد تأكدت هذه السياسة الاستعمارية في مجازر 8 ماي 1945 التي ذهب ضحيتها مايزيد عن خمسة وأربعين الف وطنيا مكافأة لهم عن وقوفهم بكل قوة في وجه النازية والفاشية ! حيث كان الجزائريون – كما يقول الابراهيمي[2] – يقاتلون «بخيال من أمل ودماء من حياة ، وصبابة من رجاء ، وخلب من وعد ، من ديمقراطية زائفة كذب نبيها مرتين في جيل واحد» .

(1) جبهة التحرير الوطني : ميثاق الجزائر / 1964 ، ص 17 .

(2) عيون البصائر : ذكرى 8 ماي / مرجع سابق ، ص 370 .

الخاتمة

من خلال ما سبق عرضه ، وتحليله ، ومناقشته في هذا البحث يمكن استخلاص النتائج التالية :

أولا – أن جمعية العلماء قد مرت خلال فترة الدراسة بمرحلتين اساسيتين ، الأولى ، وتبدأ منذ انشائها حتى سنة 1936 ، وقد تميزت هذه المرحلة بالطابع الاصلاحي المحض ، وذلك بهدف ترسيخ دعائمها في المجتمع بعيدا عن القوانين الاظطهادية ، والاجراءات التعسفية من قبل الادارة الاستعمارية .

أما المرحلة الثانية ، فتبدأ من سنة 1936 الى سنة 1945 . وفي هذا الطور عرفت طفرة جديدة في مواقفها وأعمالها ، حيث أصبحت تلتقي مع الأحزاب السياسية الأخرى في مناسبات متعددة مثل التجمعات ، والمؤتمرات ، والاحتجاجات وغيرها . واتضح اتجاهها ، وأهدافها الوطنية ، رغم أن ذلك كان يلوح من برنامجها وأعمالها منذ نشأتها ، وأن ادارة الاحتلال كانت تدرك ذلك ابتداء من سنة 1932 ، الا أن عبارة الاستقلال لم تظهر في وثائق العلماء الا منذ سنة 1937 ، عندما نطق بها زعيمها الأول في تونس والجزائر .

وهكذا فان جمعية العلماء ، وان كانت قد بدأت كجمعية دينية فقط ، فانها قد انتهت كجمعية سياسية من الناحية العملية ، رغم أنها قد حافظت على شكلها الأول كجمعية دينية .

واذا كان بعض المثقفين يميلون الى التفريق بين الدين والسياسة فان ذلك لا ينطبق في الواقع على المؤسسات الدينية في الاسلام ذلك أن الاسلام هو دين ودولة ، لأن الدين والسياسة يختلطان في جميع مجالات الحياة بالنسبة للمسلمين . والحق أن هذا الأمر هو الذي جعل الفرنسيين يتخوفون من الجزائريين طوال وجودهم في الجزائر ، كما أن هذا الأمر نفسه هو الذي جعل سلطات الاحتلال تشرف على الشؤون

الاسلامية بنفسها خوفا من أن يستقل الجزائريون بمؤسساتهم الدينية ، وبالتالي لا تستطيع الحكومة أن تمارس سلطتها عليهم .

ومن هنا فان تسمية رجال جمعية العلماء بعلماء الدين فقط هي تسمية غير صحيحة الى حد كبير ، حيث لايستطيع أي انسان أن يدعي بأنهم ليسوا سياسيين ؟ بل بالعكس فان سياستهم كانت أعمق واشمل من سياسة غيرهم ، كما أن الدين الذي أنطلقوا منه هو دين واسع نظيف ، يتناول الحياة من جدورها ، ويرقى معها حتى يصل الى أعلى مراتبها[1] لأنه يقوم على احياء ذلك الرصيد الحضارى العريق ، الذي تكون عبر الأجيال في الجزائر ، وأن جهودهم العلمية والاخلاقية ، كانت ترمي الى بناء مجتمع قوي مسلح بالثقافة العربية الاسلامية ، والمبادىء الوطنية ، وعلوم العصر ، لأن الانسان الواعى المثقف لا يرضى بالعبودية الاستعمارية مهما كلفه ذلك من ثمن ، وبالفعل فان العلماء قد نجحوا في تكوين جيل مثقف واع بوجوده الحضاري الذي يميزه عن حضارة المحتل ، كما اعترف بذلك كل من الكتاب الفرنسيين والادارة الاستعمارية على السواء .

ثانيا – واذا كان العلماء من دعاة الوحدة بين الاحزاب الوطنية فان تلك الوحدة لم تثمر الا في حركة أحباب البيان والحرية سنة 1944 ، وان كانوا قد نجحوا ، الى حد كبير ، في اعادة ربط العلاقة بين أربعين في المائة من مجموع الشعب الجزائري تحت راية العروبة والاسلام ، بفضل المدرسة ، والمسجد ، والصحيفة ، والنادي ، كما نجحوا في اعادة ربط الوشائج الثقافية بين الجزائر والأمة العربية بعد فصمها منذ سنة 1830 . وقد حققت ذلك كله بانقاذ اللغة العربية من الاندثار بعد أن سلبها المستعمر جمالها وحيويتها ، بما أدخله عليها من تحريف ، وألفاظ غريبة ، بل وحاربها في كل مكان وحتى في البيوت . كما استطاعت أن تطهر المجتمع من كثير من الأمراض الاجتماعية والبدع ، وخرافات الدروشة ، وذلك بتنظيم المحاضرات العامة وحلقات الوعظ والارشاد ، والكتابة في الصحف ، والقيام بالرحلات الى كل أنحاء القطر لنشر الدعوة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والعمل على غرس مكارم الأخلاق في النفوس ، والمبادىء الوطنية في العقول .

كما أنها استطاعت أن تحبط حركة الادماجيين الرامية الى ربط المجتمع الجزائري

---

(1) ينظر / [illegible] 1963 [illegible] 237

بلغة المستعمر وجنسيته ، وذلك بنشر الفتاوى في جرائدها ومجلاتها تصف فيها المتجنسين بالكفر والالحاد ، والارتداد عن الاسلام ، حتى جعلت تلك الفئة المولوعة بالجنسية الفرنسية تعيش في عزلة عن الجماهير الشعبية المتسكة بالاسلام ، ولذلك اعتبرت سلطات الاحتلال جمعية العلماء العقبة الكؤود أمام دمج المجتمع الجزائري في الكيان الفرنسي ، وسلخه عن مقوماته الشخصية .

هذا وقد تمكنت من اخراج المجتمع الجزائري من العزلة التي ضربت عليه أكثر من قرن الى المجال العالمي ، حيث لم يكن معروفا قبل ميلاد جمعية العلماء الا كما تعرف الولايات الفرنسية في الوطن الأم ، والدليل على ذلك أن الكتاب العرب لم يكونوا يذكرون الجزائر الا كما يذكرون قطعة من مجاهل افريقيا – كما أكد ذلك ابن باديس خلال الثلاثينيات – بل فان القارىء لا يكاد يعثر على اسم الجزائر العربية المسلمة في كتبهم الشهيرة مثل (ضحى الاسلام) وغيره .

ثالثا – واذا كانت جمعية العلما لم تتمكن من تنسيق عملها مع الحركات السياسية الجزائرية خلال الثلاثينيات ، رغم محاولاتها العديدة ، فان ذلك يرجع الى عوامل ايديولوجية ، وظروف سياسية مختلفة ، فنجم افريقيا الشمالية الذي يعتبر أول حزب وطني رفع شعار الاستقلال منذ نشأته لم ينقل عمله الرسمي الى الجزائر الا في النصف الثاني من عقد الثلاثينيات ومع ذلك فقد حدث بينهما تقارب ملموس قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية وخلالها (طبعا مع حزب الشعب) .

أما جماعة النخبة والنواب ، فرغم التقارب الذي حدث بينهم وبين الجمعية في بعض المناسبات ، فانهما لم ينسقا عملها أيضا نظرا للاختلاف الايديولوجي والثقافي الذي كان بينهما . فبينما كان العلماء يعملون على اخراج المجتمع الجزائري الاسلامي من دائرة الحضارة الفرنسية ، التي كانت تغري الأهالي وتمنيهم بحياة سعيدة اذ هم تخلوا عن شخصيتهم الوطنية ، كانت جماعة النخبة والنواب تحاول دفع الشعب الجزائري الى الانصهار في بوتقة الحضارة الفرنسية ، لا إخراجه من دائرة القوانين الاضطهادية ، والاجراءات التعسفية التي حرمته من كل حق شرعي على أرضه .

أما الحزب الشيوعي الجزائري ، فبالرغم من أن مناضليه قد اقتربوا من العلماء أيضًا في بعض المناسبات ، ولا سيا في المؤتمر الاسلامي الجزائري ، فانهم لم يتمكنوا من تنسيق العمل مع العلماء نتيجة للاختلاف الايديولوجي والسياسي كذلك فبينما كان العلماء يدعون الى تكوين دولة عربية اسلامية ، يكون الفقهاء على رأسها ، كان

الشيوعيون يناضلون من أجل تحسين الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للجزائريين في ظل السيادة الفرنسية ، واقامة العدل والمساواة بين جميع سكان القطر ، بغض النظر عن العنصر أو الدين أو الجنس ، كما كانت وسائلها في العمل متباينة ، فبينما كان العلماء يعتمدون على المسجد و المدرسة والوعظ ، والارشاد ، ودعوة الناس الى التمسك بالكتاب والسنة بالصحف والمحاضرات واللقاءات ، كان الشيوعيون يركزون في صحفهم ونشاطهم على عمليات الاضطهاد التي تقوم بها الادارة الاستعمارية ضد الجزائريين ، ويحاولون كشف القياد ، والاغاوات ، والباشاغوات المتعاونين مع فرنسا ، واستغلال المعمرين ويقارنون بين الحريات الاجتماعية ، والاقتصادية ، والسياسية في الاتحاد السوفياتي ، وبين تلك الحريات في فرنسا التي لا تريد حكومة الجمهورية منحها الا للفرنسيين .

أما عن علاقة الجمعية بالطرق الصوفية ، وزوايا المرابطين ، فانها قد ظلت علاقة عدائية طوال . مرحلة هذه الدراسة نتيجة للاختلاف الواضح بينهما في الوسائل والاهداف فبينما كان المرابطون المنحرفون يخدمون مصالحهم الخاصة ، ومصالح فرنسا معا على حساب الملايين من الجماهير الشعبية ، ويجمعون الأموال من الأوقات وغيرها ، ويوزعونها على اتباعهم أو يعيشون منها في حياة الترف والابهة ، كان العلماء يجاهدون في سبيل الدين والوطن ، ويحاربون فرنسا بوسائلهم الخاصة ، ويجمعون الأموال من الشعب ، ويبنون بها المساجد ، والمدارس وينشرون بها الصحف ، والكتب ، ويدفعون منها أجور المعلمين ، والاساتذة والوعاظ وغيرهم ممن يشرفون على حركة التعليم .

رابعا – واذا أردنا أن نقيم كل الحركات السياسية والدينية التي عاصرت جمعية العلماء من البداية كلا على حدة ، فاننا نستطيع أن نصنفها على النحو التالي :

أ – الطرق الصوفية وزوايا المرابطين :

لقد بدأ نفوذ هذه الفئة الاجتماعية – المتعاونة مع الاستعمار – في الضعف والانهيار منذ ظهور العلماء على المسرح الوطني الى أن غدا شبحا هزيلا لاتعول عليه المصالح الاستعمارية ، بل فان بعض قادتهم قد تخلوا أمام دعوة العلماء عن سياستهم وأفعالهم ، وانجذبوا الى الحركة الاصلاحية الجديدة ، وأصبحوا من الأعداء البارزين للوجود الفرنسي ، وبقي بعضهم يعاني من اهتزازات اجتماعية حزينة أمام ضربات العلماء ، واهمال السلطات الفرنسية لهم .

ب – أما بالنسبة لنجم افريقيا الشمالية ، وحزب الشعب الجزائري ، فيمكن القول ان هذا الحزب قد بدأ ثوريا في الخارج ، واستمر كذلك في الداخل حتى نهاية مرحلة هذه الدراسة ، رغم أن عبارة الاستقلال العلانية قد اختفت من برنامجه ابتداء من سنة 1937 ، ومع ذلك فان قادته ومناضليه ظلوا وطنيين ثوريين ينتظرون الفرصة المناسبة لاعلان الثورة ضد فرنسا .

ج – أما فيما يتصل بجماعة النخبة والنواب ، فانها قد نشأت كحركة اصلاحية اندماجية تبحث عن مكان لها بين افراد العائلة الفرنسية ، ولكنها قد انتهت كحركة وطنية معادية للاستعمار والامبريالية ، وسلطتها على الجزائر ، وبالرغم من أنها لم تحافظ على تماسكها كجمعية سياسية قوية خلال فترة هذه الدراسة ، فانها قد ساهمت في تنوير الرأي العام الجزائري ، وجعلته يتطلع الى الحرية والحياة السعيدة ، رغم أن هذه النخبة لم تكن ترى تلك الحياة قبل الحرب العالمية الثانية الا في ظل الديمقراطية الفرنسية ومبادىء ثورة 1789 .

د – أما بخصوص الحزب الشيوعي الجزائري ، فيمكن القول تجاوزا أنه قد بدأ كحركة سياسية تساند شعوب المستعمرات في حركتها الاستقلالية ، ولكنه قد تحول خلال مرحلة الدراسة الى حركة اصلاحية تطالب بازالة النظام الاستعماري ، واقامة علاقات انسانية بين الشعبين الفرنسي والجزائري ، بما في ذلك الأوروبيون ، وبعبارة أخرى ان هذا الحزب قد تطور تطورا سلبيا بعكس الحركات الأخرى رغم أن أعضاءه قد تعرضوا الى عقوبات صارمة من قبل سلطات الاحتلال ، غير أن دوره لم يكن سلبيا بالمرة ، لأنه ساهم بدوره في فضح أساليب الاستعمار وأعوانه ، وأضاف الى جهود الحركات الأخرى لبنة في نشر الوعي ، واطلاع الجماهير على حقوقها المسلوبة رغم أنه ظل خاضعا للحزب الشيوعي الفرنسي ولم يستطع أن يكون حزبا وطنيا كغيره من الأحزاب الجزائرية الأخرى .

هـ – وبخصوص المؤتمر الاسلامي الجزائري العام ، فيمكن القول انه كان أول تجمع سياسي جزائري في تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ولعله كان أول لقاء تم ، حتى ذلك التاريخ ، بين قادة الحركة الوطنية عموما ، كما كان نقطة انطلاق جديدة في تطور الحركة الوطنية ، ذلك أن هذا المؤتمر قد كشف بوضوح نوايا فرنسا الاستعمارية ، حتى في ظل الحكومات اليسارية ، فرغم أن هذا التجمع الاسلامي كان في عهد الجبهة الشعبية المؤلفة من أحزاب اليسار ، التي علق عليها الجزائريون امالا

عريضة في الحرية والمساواة ، فانها لم تستطع أن تتخلص من العقدة الاستعمارية .
ومنذئذ حدث تطور جديد في التجمعات السياسية الجزائرية ، وبدأ زعماؤها يبحثون عن طرق وأساليب جديدة للخروج من الليل الاستعماري الحالك ، حتى بالنسبة لأولئك الذين كانوا لا يرون الحياة الا في الدائرة الفرنسية .

و - أما فيما يتعلق بحركة أحباب البيان والحرية ، فقد كانت آخر حزب وطني ضم كل الاتجاهات الحرة التي رفضت الاستعمار من الأساس ، أو نبذته بعد تجارب طويلة ، فكانت بذلك بمثابةالحد الفاصل بين المناداة بالاستقلال على أساس المبادىء الديمقراطية الفرنسية ، وبين حركة الكفاح المسلح التي بدأت شرارتها الأولى في شهر آيار (ماي) سنة 1945 ، والتي تجسدت في فاتح تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1954 .

وهكذا كونت الحركة الوطنية الجزائرية رصيدا ثقافيا وسياسيا أصبح يمثل التراث الثوري ، والايديولوجية الثابتة للثورة التحريرية لأن هذه الحركة قد طرحت منذ العشرنيات أهم القضايا التي أصبحت تمثل سمات العصر الحديث مثل الوطن والوطنية والقومية والاستقلال والحرية ودور الإسلام في الحفاظ عن المقومات الشخصية الجزائرية ، وموقفه من الإستعمار والظلم والإستبداد والعنصرية ، والجهوية ، والنعرات القبلية التي خلقها الإستعمار في هذه البلاد .

ودور العلماء المسلمين في إحياء اللغة العربية وبعث التاريخ الوطني ، والإسلامي وتنقية وتطهير الإسلام مما علق به من شوائب ، وخرافات ، ونشر الوعي السياسي والوطني بين أفراد الشعب الجزائري الذي كاد يفقد حضارته العربية الإسلامية .

إلى جانب التراث النضالي الذي أفرزته حركة حزب الشعب الجزائري وهذه المسائل كلها هي التي أوجدت المناخ الملائم والأرضية المناسبة لإشعال فتيل الثورة التحريرية بقيادة جبهة التحرير الوطني التي ابتلعت كل الحركات والتيارات السياسية والدينية وادمجتها في كيانها حتى صارت حزبا واحدا وهو حزب جبهة التحرير الوطني الذي يعتبر أعلى سلطة في البلاد حتى الآن .

فهرس الموضوعات

الفصل الأول :

الفصل الثاني :

الفصل الثالث :

الفصل الرابع :

الفصل الخامس :

الفصل السادس :

الفصل السابع :

الفصل الثامن :

الفصل التاسع :

الفصل العاشر :

ملاحق الكتاب

مصادر الكتاب ومراجعه بالغة العربية :

مصادر الكتاب ومراجعه باللغة الفرنسية :